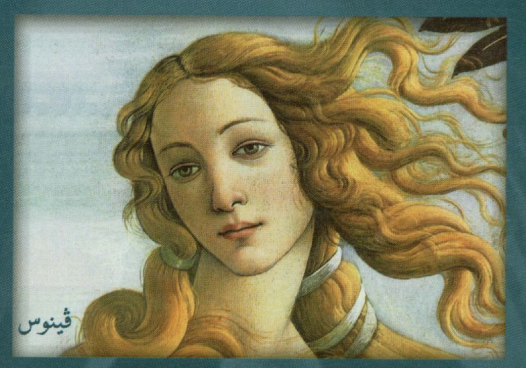
جيمس بالدوين

أقاصيص من الأساطير اليونانية



ترجمها عن الإنكليزية
وقدم لها وشرحها وضبطها بالشكل

جميل منصور





أقاصيص

من الأساطير اليونانية

OLD GREEK STORIES

BY JAMES BALDWIN

أقاصيص
من الأساطير اليونانية

تأليف

جيمس بالدوين

ترجمها عن الإنكليزية
وقدم لها وشرحها وضبطها بالشكل

جميل منصور

مجاز في الأدب العربي

مجاز في التاريخ





دار العراب للدراسات والنشر والترجمة دار نور

أقاصيص

من الأساطير اليونانية

تأليف: جيمس بالدوين

ترجمة: جميل منصور

الطبعة الأولى 2011



دار العراب

للدراسات والنشر والترجمة

دمشق – سوريا - حلبوني الجادة الرئيسية

هاتف: 00963112247432

009631123485245

فاكس: 009631123485246

جوال: 00963933406321

E-MAIL:daralaraab@yahoo.com



دار نور

للدراسات والنشر والترجمة

دمشق - سوريا – ص . ب 5658

هاتف - 0096315715430

00963157198420

فاكس: 00963157198425

جوال: 00963933329555

E-MAIL: NOURPUBLISHING@GMAIL.COM

الإهـــداء

إلى أخي العزيز

الدكتور المهندس زهير منصور

عاشق الأدب الوجداني الحي.



مقدّمة

أثرُ الأساطيرِ اليونانيّةِ في الأدبِ والفنّ*

بقلم المترجم

تعريفُ الأسطورة: الأسطورةُ اصطلاحٌ أدبيٌّ أطلق أصلاً، على حكايةٍ خياليّة، وقد قُصِرَ حديثاً عل القصص القصيرة — سواء أكانت شعراً أم نثراً– الّتي تقصد تلقينَ فضيلةٍ أو صفةٍ حميدة، بطريقةٍ جميلةٍ مشوّقة.

إنّ عمادَ الأساطيرِ أناسٌ خياليّون، وحيواناتٌ وأشياءُ غيرُ حيّةٍ من الطّبيعة. كلٌّ يقصُّ قصّته، ويكونُ مدارَ الحديث ومحْوَرَهُ.

وتتألّفُ الأساطيرُ عادةً من قسمين رئيسَيْن:

يشملُ الأوّلُ: عرضاً رمزيّاً للأحداث...

والثّاني: نُصحاً وإرشاداً، وهذا ما يسمّى المدار الخُلُقيّ في الأسطورة، ويُعتَبَرُ من أسبابها الّتي لا غنىً عنها. (١)

تعريف الأسطورة (حسب معجم وبستر *Webster*):

«هي روايةُ أعمالِ إله، أو كائنٍ خارقٍ ما، تَقُصُّ حادثاً تاريخيّاً خياليّاً، أو تشرحُ عادةً أو معتقداً، أو نظاماً، أو ظاهرةً طبيعيّةً».

ويّروي الشّاعرُ اللّبنانيُّ شفيق معلوف، في كتابه (عَبْقَر)، الّذي نظمه شعراً حولَ الأساطير العربيّة، قائلاً: «إنّ الأساطيرَ تَصوُّراتُ أناسٍ كان لهم خيالُ الشّعراءِ، ولكنّهم لم يؤْتَوا لِسانَهم ليَنْظُموا ما تخيّلوهُ، فردّدُوهُ حكاياتٍ فطريّةً».(٢)

«والأسطورةُ»: هي الاصطلاحُ المفضّلُ في النّقد الحديث، وهي تشيرُ إلى، وتُحَوِّمُ على حقلٍ هامٍّ من المعاني، تشتركُ فيه الدّيانةُ، والفولكلورُ، وعلمُ الإنسان، وعلمُ الاجتماع، والتّحليلُ النّفسيُّ، والفنونُ الجميلةُ. وفي بعضِ المتناقضاتِ المعتادة، فإنّ الأسطورةَ نقيضةٌ للتّاريخ، أو للعلمِ، أو للفلسفة، وللحقيقة، والحكاية التّمثيليّة (Allegory)» (٣)

«... وإنّ مفهومَ «الأسطورة» مثلُ مفهوم الشّعر، هو نوعٌ من الحقيقة، أو معادلٌ للحقيقة، وليس منافساً للحقيقةِ العلميّة، أو التّاريخيّة؛ بل هو رافدٌ لها.». (٣)

لذلك يقول ريتشاردز[1] عن الأساطير: «إنَّ الأساطيرَ العظيمةَ ليست أوهاماً، بل هي منطوقُ النّفسِ الإنسانيّة كلِّها، وهي من ثَمَّ لا يحيط بها التّأمُّلُ، ولا نأتي على كلِّ ما فيها. وهي ليست متعةً، أو ملاذاً للهرب، حتّى يتطلّبها من يتطلّبها للرّاحةِ، والفرارِ من حقائقِ الحياة القاسية، ولكنّها هي تلك الحقائقُ نَفْسُها معروضةً ممثّلةً. هي الإدراكُ الرّمزيُّ لتلكَ الحقائقِ، ومحاولةٌ لخَلْقِ الانسجامِ فيما بينها، وتقبُّلُها بالرِّضا.

ومن خلالِ تلك الأساطيرِ تُسْتَجمَعُ إرادتنا، وتَتوحّدُ قوانا، وينضبطُ نُمُوُّنا، ومن خلالها أيضاً، يتّزن كيانُنا المضطّربُ، ويلتئمُ وجودُنا المُشَعَّثُ، وبهذه الأساطيرِ يطمئنُّ التّناقُضُ، وينسجمُ النّشازُ في الأشياءِ، ومن خلالها حَصلنا على التّكاملِ الّذي يجعل منّا أناساً مُتمدِّنين».(٤)

هذه الأساطيرُ -الّتي اتّخذها الأدبُ أساساً يقومُ عليه- متنوِّعةٌ متعدِّدةٌ كما تتنوّعُ ظواهرُ الحياة وتتعدَّدُ، فإنّها أساطيرُ عن أصلِ العالمِ، وأصلِ الإنسانِ، وهي أساطيرُ تَروي كيف تعلَّمَ الإنسانُ رمايةَ الرّمحِ، وجَرَّ المحراثِ، وصناعَةَ الخزَفِ، وهكذا.. وهي أساطيرُ تدورُ حولَ الشّمسِ، والقمرِ، والنّجومِ، وأخرى تتعلّقُ بالموتِ، وما بعدَ الموت. وهناك مجموعةٌ من الأساطير -ولعلّها أروعُها وأمتعُها- تتّصلُ بالحُبِّ، وعلاقةِ الرّجالِ بالنّساء. والصِّفةُ المشتركةُ بين هذه الأساطيرِ كلِّها الشّخصيةُ الّتي تخلعُها على الحيوانِ والجمادِ. (٥)

تساؤلات الإنسان القديم:

سأل الإنسانُ القديمُ نَفْسَهُ: «من أينَ تأتي الشّمسُ؟ وما هي هذه الشّمسُ؟».

فأجابَ على هذا السّؤال بقوله:

«الشّمسُ: قاربٌ أو (عربةٌ) يجلس عليها الإلهُ المتألّقُ الباهرُ، ويقودُنا عبر السّماء».

ولمّا حَيَّرَهُ القمرُ، فسَّرَ الإنسانُ الأوّلُ ذلك المضيءَ الأبيضَ، بالتّفكير فيه كقاربٍ آخَرَ، أو عربة تجلس فيها، شقيقةُ إلهِ الشّمس».

وتساءَلَ الإنسانُ أيضاً: «ماذا يكمنُ وراءَ رُعبِ الرَّعدِ والبرق؟».

ولكي يَحُلَّ غوامضَ هذا اللُّغزِ، وصل إلى صورة إلهٍ عظيمٍ، يجلس على عرش السّماء، وصوتُه هو الرّعدُ، ورسولُهُ هو البرقُ.

[1] آي إي ريتشاردز: ناقد إنكليزيّ. له النّقد الأدبيّ ١٩٢٤، والنّقد العمليّ ١٩٢٩، وفلسفة البلاغة ١٩٣٦.

فإذا ما هاج البحرُ في عواصفَ مُدمِّرة، فذلك سببُه غضبُ إله الأمواجِ، ذي الشَّعر الأزرق.

وإذا ما أنتجت الحبوبُ والأشجارُ بذوراً، كانت الأمُّ الأرضُ كريمةً، وإذا جاء القَحْطُ والمجاعاتُ؛ فذلك بسببِ غضبِها، وعندئذ يجبُ استرضاؤُها بالذّبائحِ والصّلاة. (٦)

ارتباطُ الأسطورة بالشِّعر:

يستطيع القصّاصُ، أو الشّاعرُ ذو الخيالِ الخصبِ، أن يضيفَ إلى الأسطورةِ، بعضَ اللّمساتِ الشّعريّةِ هنا، أو هناك؛ فَيَتَقَبَّلُها النّاسُ بصَدْرٍ رحبٍ. (٧)

ولكنَّ هذه الأسطورةَ –بعدَ مَرْحلةٍ ما– لا بدَّ أن تصبحَ كلاماً موزوناً، وأناشيدَ ذاتَ إيقاعٍ خاصٍّ، ويَظَلُّ لها هذا الطّالعُ، بعدَ أن تتحوّلَ إلى حكايةٍ عن الآلهة والكونِ. والتّاريخُ يُقَرِّرُ أنَّ أقدمَ الأساطيرِ كان غناءً دينيّاً، ثمَّ ملاحمَ شعريّةً. (٨)

وفي العرض الموجز لشعريّة الأسطورة، رأينا أن بيتاً من شعر الإلياذة[2] هو الّذي صنعَ تمثالَ زوس[3] (جوبيتر)، وهذا يُعتَبَرُ أروع آيات النّحتِ الإغريقيِّ على الإطلاق. (٩)

وقد كان هذا هو السّبب في أنَّ الإغريقَ القدماءَ، كادوا يعبدون هوميروسَ[4]، وأنّهم حفظوا أقواله على ظهرِ قلبٍ، وإن لم يعرفوا شيئاً عن العالَمِ الّذي كتبَ عنه. وواقعُ الأمرِ بالطّبعِ، هو أنّهم كانوا يعرفون من عالَمه، أي العالمِ الإنسانيِّ، ولكونِه لم يكن يختلفُ عن عالَمِهِمْ كذلك. ثمَّ إنّهم وجدوا فيه مُحكّماً للُغة، غيرَ أنّهم لم يحفلُوا بذلك بِقَدَرِ ما حفلوا بفهْمه لعواطفِ البشرِ، وأفكارِهم، وسخافاتهم. (١٠)

والّذي لا شكَّ فيه أنَّ أساطيرَ الإغريقِ كغيرها من الأساطيرِ، تدورُ حولَ العناصر الأبديّة الثلاثة: أولاً: الإنسانُ، ثانياً: الطّبيعةُ، ثالثاً: الآلهةُ. فهذه العناصرُ الثّلاثةُ هي أبطالُ تلك القصص، والّذي شغل الإنسانيّةَ منذ أقدمِ العصور –ولا يزال يشغَلُها حتّى اليوم– هو فهمُ العلاقة بين هذه العناصرِ، وحلُّ المشكلة القائمة بينها، ولقد استطاعَ اليونانُ أن يفهموا تلك العلاقةَ، وأنْ يحلّوا ذلك الإشكالَ حلاًّ شعريّاً، فيه تتركّز خصائصُها الرّوحيّة. (١١)

[2] إلياذة هوميروس: ملحمة يونانيّة، عن حرب طروادة، تعدّ من روائع الشعر العالميّ.

[3] زوس (جوبيتر): أبو الآلهة وسيّدهم، وهو زوسُ عند اليونان، وجوبيترُ عند الرّومان، إله السّماء والمطر والصّواعق.

[4] هوميروس: عاش في القرن التّاسع ق.م، شاعر ملحميّ يونانيّ، قيل إنّه كان أعمى، نسب إليه المؤلّفون اليونان أشعارَ الإلياذة والأوديسّة.

ولكنَّ علمَ الأساطير ليس مجرَّدَ ترجمة، ولكنّه إنتاجُ أدبيٌّ خلاّقٌ، مستمدٌّ من ينابيع عظماء الشّعراء اليونان والرّومان ومن شأنه أنْ ينظِّمَ أساطيرَ الأقدمين، ويُعيدَ روايتَها كوحدة مجمّعة متّصلة، أمّا الطّالبُ الّذي يختلطُ عليه الأمرُ، ويظلُّ في مناهات الفكرِ، عندما يطالعُ إشاراتِ هوميروس الخفيّة، الّتي تُدْخِلُ أثينا (منيرڤا)[5] في حرب طروادة[6]، فيمدّه بلفنش[7] الأمريكيّ بظلالٍ تحدِّد له صورَ الأساطير وتجلوها. (١٢)

انفصالُ الأسطورةِ عن الدّين، وارتباطُها بالفنّ، والأدبِ وخاصّةً بالقصّة:

ولكنْ من المعلوم أن أديانَ اليونان وروما القديمتين، لم يعُدْ فيهما لآلهة أوليمبوس[8] المزعومة مُتَعَبَّدٌ واحدٌ بين الأحياء البَشريّة، وهمُ الآن لا يمتّون لعالَمِ اللاّهوتِ بصلة، بل ينضوون تحت جناحِ الأدبِ والذّوق، ومركزُهُم في هذا المجال ما زال مكيناً، وسيظلُّ كذلك، ولن يطويَهم النّسيانُ؛ ذلك لأنّهم وثيقو الصّلة بأرْوَعِ إنتاجِ القديمِ والحديث. (١٣)

لكنَّ الأسطورةَ لا غايةٌ لها إلاّ في ذاتها. نصدِّقُها بإيمان لدينا، إذا وجدناها جميلةً وواقعيّةً، وإذا أحببنا تصديقَها. بهذا تجذب الأسطورةُ حولها، كلُّ حصّةِ اللاّ معقولِ في الفكر البشريّ. من هنا قرابتُها من حيثُ طبيعتُها من الفنِّ، في جميع إبداعاته.

وربّما هنا الطابعُ الأخّاذُ في الأسطورة اليونانيّة، حيث إنّها دَخلتْ في جميع نشاطات الفكر. ومن هنا يعاد إليها جميعُ قطاعاتِ الحضارةِ اليونانيّة، من فنٍّ وأدب. فالأسطورةُ عند اليونانيِّ لا تعرفُ حدوداً، بل تدخل أينما كان، وهي ضروريّةٌ لفكرِه، كما الهواءُ والشّمسُ لحياته. (١٤)

أمّا الموضوعات الكبرى، فإنّها تعالَجُ في القصّةِ والمسرحيّة لأنَّ عمل الشّعرِ الأوّلِ، هو عملُ القصّةِ، أي: رؤيةُ الإنسان متحرّكاً. (١٥)

[5] أثينا (منيرڤا): إلهة الحكمة والفنون عند اليونان.

[6] طروادة: مدينة قديمة غرب تركيّا، ازدهرت في الألف الثالث ق. م. خرّبتها حربٌ أسطوريّةٌ قام بها اليونان في ١١٩٣ – ١١٨٤ ق.م.

[7] بلفنش: كاتب أمريكيّ، مؤلف كتاب (عصر الأساطير) عام ١٨٥٥.

[8] أوليمبوس: جبل في بلاد اليونان بين مقدونيا وتساليا، ويعتبر أعلى قمّةٍ في البلاد ٢٩١١م. وهو مقرّ الآلهة في بلاد اليونان.

لماذا ندرسُ الأساطيرَ اليونانيّة؟

وهنا سؤالٌ هامٌّ يُطْرَحُ علينا: لماذا ندرس بإمعانٍ هذه الأساطير اليونانيّة، ونجعلها قصصاً ممتعةً، نقصُّها على الصِّغار والكبار؟. والجواب:

لأنَّ لها تأثيراً عظيماً وخاصّةً في الآدابِ الإنكليزيّة، والفرنسيّة، والألمانيّة، والإسبانيّة، وغيرِها، ولقد أُعجبَ الأدباءُ العالميّون بالقَصص الّتي حكاها قدماءُ الإغريقِ، ونظموها شعراً. وقلّما تستطيعُ أنْ تفهمَ شكسبير[9] وملتون[10] وكيتس[11] وجيمس جويس[12] وييتس[13] وغوته[14] وشلر[15] وراسين[16] وهيغو[17] ورينان[18] وغيرهم، دون أن تلمّ بالأساطيرِ اليونانيّة.

ولكن أين تقعُ بلادُ اليونان الهامّة؟

إنَّ عرضَ هؤلاءِ الشّعراءِ وغيرِهم من المفكّرين العالميّين، يشوّقنا أن نتعرّفَ إلى بلاد اليونان الشّهيرة:

فإذا ما استعرضنا خريطةَ أوربا، نجد أنّ بلادَ اليونانِ الآن، دولةٌ تقع في جنوبيّ شبه جزيرة

[9] شكسبير (وليم) (١٥٦٤ – ١٦١٦م): شاعر مسرحيّ إنكليزيّ في مصافّ رجال الأدبِ العالميّ. من مسرحيّاته: هملت، وعطيل، والملك لير.

[10] ملتون (جون) (١٦٠٨ – ١٦٧٤): من مشاهيرِ الشّعراء الإنكليز، فَقَدَ نظرَهُ في أواخر حياته، ومن مؤلّفاته ملحمتُهُ الشّهيرةُ (الفردوس المفقود).

[11] كيتس (جون) (١٧٩٥ – ١٨٢١): شاعرٌ إنكليزيّ، يعتبر أحد زعماء المدرسة الرّومانسيّة.

[12] جيمس جويس (١٨٨٢ – ١٩٤١): روائيّ إيرلنديّ يعتبر أحد أبرز ممثّليّ الرّواية النفسيّة. أشهر رواياته (يوليسيز).

[13] ييتس (وليم بتلر) (١٨٦٥ – ١٩٣٩): شاعر إيرلنديّ، نزع إلى التّصوُّفِ والرّومانسيّة، حصلَ على جائزة نوبل عام ١٩٢٣.

[14] غوته (يوهان فون) (١٧٤٩ – ١٨٣٢): شاعر ألمانيّ، يعتبر أعظم شعراءِ الألمانِ في جميع العصور، ومأساةُ فاوست الشّعريّةُ رائعةُ أعماله.

[15] شلر (فريديريك فون) (١٧٥٩ – ١٨٠٥): شاعر ومسرحيّ ألمانيّ، يعتبر مسرحه وسطاً بين المأساة الكلاسيكيّة، والدّراما الشكسبيريّة.

[16] راسين (جان) (١٦٣٩ – ١٦٩٩): شاعر فرنسيّ. في العصر الكلاسيكيّ. استوحى فنّه من الأدب اليونانيّ. من مسرحياته فيدر، وأندروماك.

[17] هيغو (فيكتور ماري) (١٨٠٢ – ١٨٨٥): شاعر وروائيّ ومسرحيّ فرنسيّ. أشهر آثاره رواية البائسين.

[18] رينان (أرنست) (١٨٢٣ – ١٨٩٢): أديب فرنسيّ، تخلّى عن دعوته الإكليريكيّة لينصرفَ إلى دراسة اللّغات السّاميّة. وعبّر في كتُبِه عن آرائه العقلانيّة.

البَلقان، على بحار: المتوسّط، وإيجَه، والأيونيّ، بين مقدونيا، وبَلغاريا، وألبانيا، وتركيّا. عاصمتُها أثينا، ومن مدنها: تسالونيكي، ومن جزرها: كريت، ومن مناطقِها: مقدونيا، وهي مَهْدٌ لأغنى الحضاراتِ في العالم. (١٦)

وكان اليونانيّون القدماء يظنّون أنّ الأرضَ مسطّحةٌ وأنّ بلادهم تتوسّطُها، وأنّ مركزَ هذا الجزءِ الوسيطِ هو: جبلُ أوليمبوس مثوى الآلهة، أو دلفي[١٩] الشّهيرةُ، باعتبارها مَهبِطَ الوحيِ فيها.

وذهب هم الظّنُّ إلى أنّ الفجرَ، والشّمسَ، والقمرَ، تطلُعُ من المحيطِ على الجانب الشّرقيِّ، ثمّ تتساقُ خلالَ الهواء مانحةً الضّوءَ للآلهةِ والبشرِ، كذلك كانتِ النّجومُ، ما عدا تلك الّتي تكوِّنُ مجموعةَ: الدُّبِّ، وجاراتِها القريبات حيث تطلُعُ الأخرى من مجرى المحيط، وتغوصُ فيه. وهناك: إلهُ الشّمسِ (هلْيوس) يستقِلُّ زورقاً مجنَّحاً يدورُ به من الجانبِ الشّماليِّ للأرضِ، ثمّ يعودُ إلى مكانِ طلوعِه في الشّرقِ. وقد أشار ملتُون إلى هذا، في قصيدةِ (حفلٍ بهيج):

«والآنَ هـا هـي ذي عربـةُ النّهـارِ المذهّبـةُ،
تخفّـفُ مـن سـرعةِ محورِهـا الـذّهبيِّ،
في مجـرى المـ ط الأطلسـيِّ الـوعِرْ.
والشّـمسُ المنحـدرةُ بشُـعاعِها الصّـاعدِ،
تمـرُقّ نحـ و الق اتمِ المُغْـ مِ
المُـواجِ ه المَ رمَى الآخَ رِ،
مـن ه واهُ فـي الشّ رقْ».

وَسَتُريكَ الأبياتُ التّاليةُ: المقتطعةُ من الأُوديسّا، كيف كانت صورةُ الأوليمبوسِ، مقرُّ الآلهةِ في خيال هوميروس:

[١٩] دلفي: أقدمُ وأهمُّ مقرٍّ لعبادة الإله أبولّو في اليونان، توجد فيه عرّافتُهُ الشّهيرةُ بيثيا، كانوا يعتبرونه مركز الكون.

«وعنــــدَ هــــذا القــــولِ مُضــــتْ منيرڤـــا ذاتُ العُيــــونِ اللاَّزورديّـــةُ[٢٠]
وصـــعدتْ إلى الأُلمُــبُسِ، ذلـــك العــــرشِ الخالـــدِ الــذّائعِ الصِّــيت،
الّــذي تســتوي عليـــه الآلهـــةُ، والّـــذي لا تَعصــفُ بـــه الزّوابـــعُ،
ولا تغمـــرُهُ هواطــــلُ الأمطـــارِ، أو تقـــتحمُ مباءَتَـــهُ[٢١] الثّلـــوجْ.
بل يشمُلُهُ على فرْط سَعَته السّكونُ، ويســطَعُ نَهـارُهُ، فــلا تشـوبُهُ غيـومْ.
هنـــاك يبتـــهجُ سُـــكّانُ السّـــماءِ، ويتـــهلّلونَ إلى الأبـــدْ». (١٧)

إلاّ أنّ هناك أسئلةً مهمّةً تدورُ بأذهاننا ألا وهي:

متى تكوّنتِ الأسطورةُ اليونانيّة؟ وما قصّةُ نشأتها؟ ومَنْ آلهتُها؟ وما مميّزاتُهم؟ وأين يحلّونَ؟ وكيف يعيشونَ؟

إنّنا حقّاً نجهل متى تكوّنت الأسطورةُ اليونانيّةُ، ولكنَّ الّذي لا شكّ فيه أنّ الحضارة اليونانيّة - الّتي تَعتّبرُ الأسطورةَ جزءاً منها - لم تنشأ شأنَ غيرها من الحضارات، من تربةٍ يونانيّةٍ مستقلّة، لا صلة لها ببلدان أخرى، وحضاراتٍ سابقة. فقبل الحضارة اليونانيّة بآلاف السّنين، نشأت حضاراتٌ، ومدنيّاتٌ أنيقةٌ، مزدهرةٌ، كالحضارةِ: المصريّةِ، والسّومريّةِ في بلاد الرّافدين، والفينيقيّة، والهنديّة، والصّينيّة، وغيرها.

ولكنّنا نجهل تماماً قصّةَ نشأة هذه الأسطورة، وتطوُّراتِ ذلك النّشوء، وتفاصيلَ تلك الأساطيرِ المتعلّقة بالآلهة اليونانيّة، الّتي نراها مكتملةً، ومركّزةً دُفْعةً واحدةً في الإلياذة: المعتبرةِ من أولى الملاحمِ، الّتي عرفها الأدبُ الإنسانيُّ، وفي الملحمة الثّانية، الّتي تفوقُ الأولى روعةً ألا وهي الأوديسّة[٢٢]. والملحمتان معزوّتان كلتاهما إلى شاعرٍ كبيرٍ أعمى يُعَدُّ أشهرَ، أو من أشهرِ شعراءِ البشريّة المدعوّ: هوميروس.

[٢٠] اللاّزورديّة: ما كان بلون حجر اللاّزورد، وهو معدنٌ يتّخذ للحليّ. وأجودُه: الصّافي الشّفّافُ، الأزرقُ الضاربُ إلى حمرةٍ وخضرةٍ (فارسيّة).

[٢١] المباءة: المنـــزل

[٢٢] الأوديسّة: الملحمة الثّانية لهوميروس، بطلُها أوليس من أبطال اليونان الأسطوريّين، في حرب طروادة.

وقد قال هيرودوت[٢٣]، أبو التّاريخ: «إنّهما (أي هوميروس) وهيزيودوس[٢٤] واضعا علمِ اللاّهوتِ عند الأقدمين». (١٨)

والدّليل على وجود اللاّهوت عندهم، أنّه كان على الإنسان الإغريقيّ، الّذي يودّ تطهير نفسه من العنصر الجسديّ، ويصبح روحانيّاً، أن يراعي السّلوك الدّينيّ، ويعتقدَ بالآلهة، وأنْ يستمعَ إلى الكلمات الآتية: «**طوبى لكَ، ومباركٌ أنتَ يا من أصبحتَ إلهيّاً، بدلاً من أن تكون فانياً**». (١٩)

ولكن من هم هؤلاء الآلهة الكبار، الّذين أوحَوا ما أوحَوا من لاهوتٍ وثنيٍّ، وآدابٍ عالميّة؟

والجواب: «إنّ للآلهة اليونانيّين مراتبُ ودرجاتٌ، فمنهم: زفسُ (جوبيتر) (أي المشتري) والأحدَ عشرَ الكبارَ معه:

بسيذون (نبتون)[٢٥]، ودميتر (سيريز)[٢٦]، وهيرا (جونو)[٢٧]، وأفروديت (فينوس)[٢٨]، وهستيا (فستيا)[٢٩]، وهيفستوس (فولكان)[٣٠]، وهرميس (مركوري)[٣١]، وأريس (مارس)[٣٢]، وأبولّو[٣٣]،

[٢٣] هيرودوت (٤٨٤-٤٢٥ ق.م): مؤرّخ ورحّالة يونانيّ زار العالم المعروف آنذاك، ولاسيّما العراق، وفينيقيا، ومصر، وتاريخه من أهمّ المراجع لِمَعْرفة أخبار الأمم القديمة، وأساطيرها.

[٢٤] هيزيودوس: من المحتمل أنّ هذا الشّاعرَ الإغريقيّ عاش في نهاية القرن الثّامن ق.م، له قصيدة الأعمال والأيّام، في الحقول الزّراعيّة.

[٢٥] بسيذون: إله البحار عند الإغريق و(نبتون) عند الرّومان.

[٢٦] دميتر: إلهة الزّراعة والخصب عند الإغريق، تقابلها (سيريز) عند الرّومان.

[٢٧] هيرا (ومعناها السّيّدة): ملكةُ الآلهة، وإلهةُ النّساء والزّواج، وأختُ زوس (جوبيتر) وزوجته عند الإغريق، تقابلها (جونو) عند الرّومان.

[٢٨] أفروديت (المولودة من زبد البحر): ابنة زوس وإلهة الحب والجمال عند الإغريق، تقابلها (فينوس) عند الرّومان.

[٢٩] هستيا: الابنة الأولى لكرونوس وريا، ربّة الموقد، وتعتبر هستيا الأكثر تقديساً من جميع الأولمبيّين، وهي نفسها (فستيا) عند الرّومان.

[٣٠] هيفستوس: إله النّار والمعادن عند الإغريق، يقابله (فولكان) عند الرّومان.

[٣١] هرميس: ابن زوس، حامل رسائل الآلهة، وبَشيرُ وإلهُ العلمِ والمكْرِ عند الإغريق، ويقابله (مركوري) عند الرّومان.

[٣٢] أريس: إله الحرب عند الإغريق، يقابله (مارس) عند الرّومان.

[٣٣] أبولّو: إله الموسيقا والشّعر والتّنبّؤ والطّبّ، في الأساطير الإغريقيّة والرّومانيّة، يمثل شبابَ الرّجولة وجمالَها.

وأثينا (منيرڤا)[34]، وآرتميس (ديانا)[35] .(٢٠)

ومن مميّزاتِ آلهة اليونانِ أن يتّخذوا من الأشكالِ ما يشاؤون، وأن يَبْدُوا بهيئة البشرِ، أو الحيواناتِ، وحتّى الجماد. ويتخلّقون بأخلاقِ البشرِ، وينحرفون انحرافاتهم. وهم عرضةٌ لأهوائهم، وميولهم، وغرائزهم: من حبٍّ، وبغضٍ، وغضبٍ، وكبرياءَ، وخوفٍ، وحسدٍ، وما إلى ذلك. وإذا نقموا على أحدٍ صبّوا عليه جمَّ سُخطِهم، وإنْ حَظِيَ أحدٌ في عيونهم، غمروه بالعطفِ والخيرِ.

وكانوا في سمائهِم الأُولمبيّة يجلسونَ على عروشٍ عسجديّة[36]، صاغها لهم هيفستوس الحاذق، ويقضونَ أيّامَهم في الولائمِ، يتذوّقون العَنْبَرَ[37] والنّكتارَ[38]، ويشمّونَ روائحَ الذّبائحِ والأضاحي، الّتي يقدّمُها لهمُ البشرُ.

ويستمتعون بألحانِ أپولّو، يعزفُها لهم على القيثار، ويطربون بأنغام الشّادياتِ، إلهاتِ الشّعرِ والفنِّ، وتدورُ بهِم هيفي إلهةُ الشّباب، وتسقيهم رحيقَ الحياة، فيرشفونَهُ بكؤوسٍ من الإبريز[39]. وعندما ينحدرُ الكوكبُ (أي الشّمس) على الأفقِ، ويميلُ نحو الأصيل، يغادرون رَدْهةَ الاحتفال، ويأوي كلٌّ إلى منـــزلِه، وقد شادَه لهم الإله الحدّاد، بمهارةٍ منقطعة النّظير. (٢١)

أقوالٌ أدبيّةٌ هامّةٌ في الأساطير:

يقول نيكولاس فريده: «**الخُرافةُ ميراثُ الفنونِ، وهي مَعينٌ لا ينضبُ للأفكارِ المبدعة، والصُّورِ المبهجة، والموضوعاتِ الممتعة، والاستعارات، والكنايات**». وبناءً عليه فهي تَهبُ كلَّ امرئٍ شيئاً. فهي لا تُهيِّئُ هدايا لامعةً جاهزةً للمتشاعرينَ، ليخطّوا أسماءَهم عليها فحسبُ، بل إنّها تشجّع الشّعراء اللاّمعين، ممّن لَهم مواهبُ فذّة مثلَ: سبنسر[40]، أو جونسون[41]، ليشيدوا

[34] أثينا: إلهةُ الحكمة، والحرب، وراعية المهارات والفنون عند الإغريق، تقابلها (منيرڤا) عند الرّومان.

[35] آرتميس: ابنة زوس، إلهة الصّيد، ونور القمر، عند الإغريق، تقابلها (ديانا) عند الرّومان.

[36] عسجديّة: ذهبيّة.

[37] العنبر: مادة صلبة لا طعمَ لها ولا ريحَ، إلاّ إذا سُحِقت وأُحرقت.

[38] النكتار: الرّحيق الإلهيّ، شرابُ آلهة اليونان والرّومان.

[39] الإبريز: الذّهب الخالص.

[40] سبنسر (أدموند) (١٥٥٢ – ١٥٩٩): شاعر إنكليزيّ، لُقّبَ بشاعرِ الشّعراء، له «رزنامةُ الرّاعي».

[41] جونسون (بن) (١٥٧٣ – ١٦٧٣): شاعر إنكليزيّ غنائيّ من الطّراز الأوّل. أهم مسرحياته: (فولبوني).

عماراتٍ من النُّتف والبقايا، الّتي تتخلّفُ عن أساطيرَ شتّى في تنوُّعها. (٢٢)

ويقول توماس مان[٤٢]: «**في الوقت الّذي تُعتَبرُ فيه الأسطورةُ، في حياة الجنسِ البشريِّ، مرحلةً قديمةً وبدائيّةً، فإنّها في حياة الفردِ، مرحلةٌ متقدّمةٌ، وناضجةٌ**». ويقول أيضاً: «**إنّ الأسطورةَ أكثرُ نتاجِ البشريّة نضجاً**». (٢٣)

أمّا شليغل[٤٣] فيقول: «**الأسطورةُ والشّعرُ شيءٌ واحدٌ، لا انفصالَ بينهما**». (٢٤)

ويقول المعنيّون بالفنونِ الشّعبيّة: «**إنّ ما نجده عند يوربيدس[٤٤] وأوفيد[٤٥] ليس في الحقيقة أسطورةً، وإنّما هو أدبٌ صُنعَ من الأسطورة، أدبٌ صاغَهُ صانعان ماهران، يتعاملان مع الأسطورة تعامُلاً فنّيّاً، لخَلْقِ شيء، يبدو بشكلِه الثّابتِ المقنّنِ، بعيداً جدّاً عمّا يواجهه العالِمُ الأنتروبولجيُّ في ميدان عمله. فقولك للأنتروبولوجيّ: إنّ الأسطورةَ ذاتُ أهمّيّة كبرى، باعتبارِها مادّةً خاماً، لا يختلف عن قولِكَ للنّاقدِ الأدبيّ: إنّ للرّواية أهمّيّةً كبرى، لأنّها المادّةُ الخامُ لصناعةِ الأفلام**». (٢٥)

ويقولُ الكاتبُ المتضلّعُ بالقصّة والاس ستيفنسون[٤٦]: «**الأسطورةُ الإغريقيّةُ أعظمُ عملٍ تخيُّليٍّ**». (٢٦)

أمّا نورثروب فراي[٤٧] الّذي يأخذ على أرسطو، تعريفَه الأسطورةَ باعتبارِها عقدةً، فيمضي إلى افتراض أنّ: «**الأسطورةَ عنصرٌ بنائيٌّ في الأدب، لأنّ الأدبَ ككلٍّ، أُسطورةٌ منحولةٌ**». (٢٧)

[٤٢] توماس مان (١٨٧٥ — ١٩٥٥): روائيّ ألمانيّ، أشهر مسرحيّاته (الدكتور فاوستوس)، نال جائزة نوبل ١٩٢٩.

[٤٣] شليغل (أوغست ولهلم فون) (١٧٦٧ — ١٨٤٥): شاعر وناقد ألمانيّ، يعتبر أحد طلائع الحركة الرّومانتيكيّة.

[٤٤] يوربيدس (٤٨٤؟ - ٤٠٦ ق.م): كاتب مسرحيّ يونانيّ يعتبر أحد أعظم شعراء التّراجيديا اليونان، من مسرحياته (ميديا).

[٤٥] أوفيد (٤٣ ق.م — ١٧ م): شاعر رومانيّ، يعتبر أحد أعظم الشعراء في العصور القديمة.

[٤٦] ولاس ستيفنسون (١٨٧٩ - ١٩٥٥): شاعر أمريكيّ من قصائده: رغيفٌ يابسٌ، وقرارُ موسيقا الحرب، وعطلةٌ في الحقيقة

[٤٧] نورثروب فراي (١٩١٢ — ١٩٩١): ناقد كنديّ، ولد في شيربروك بولاية كويبك. ألّف كتباً عديدةً حول عصورٍ، وشخصيّات، ونصوص الأدب المكتوب باللّغة الإنكليزيّة، أهمّ كتبه: (تشريح النّقد)، ترجمه إلى العربيّة الدّكتور محيي الدّين صبحي.

ويقول هربرت ريد[48] مُفَرِّقاً بين الشّعرِ والأسطورة: «**تختلف الأسطورةُ عن الشّعر بما يلي: الأسطورةُ تحيا بالمجاز، وهذا المجاز يمكن إيصاله بالرّموزِ اللّفظيّة، لأيّة لغة.. إلاّ أنّ الشّعرَ يحيا بفضلِ لُغته، فجوهرُهُ مرتبطٌ بتلك اللّغة، ولا يمكن ترجمته**». (٢٨)

ويقول مالينوفسكي[49]: «**إنّ في الأسطورةِ جَنينَ الملحمة، والقصّة، والتراجيديا المستقبليّة**»، فهو يرى رأيَ فيكيري: «**أنّ الأسطورةَ هي الرّحِمُ الّذي يخرج منه الأدبُ تاريخيّاً، وسايكولوجيّاً**». (٢٩)

ويقول مالينوفسكي أيضاً: «**إنّ الأسطورةَ لا تعني سَرْدَ حكايةٍ، ولكنّها حقيقةٌ معيشةٌ**». (٣٠)

ويقول عالم النّفس يونغ[50]: «**إنّ الأساطيرَ تجسّدُ أحلامَ الشّعبِ وحاجاتِه، وكما يَنْبُعُ الحُلْمُ من لاوعيِ الفردِ، كذلك تنبُعُ الأساطيرُ من لاوَعْيِ الجماعات**». (٣١)

ونضيف إلى ما سبق أقوالاً مختصرةً، وملهمةً، وذهبيّةً، في الأسطورةِ لكبار أدباء الغرب:

«**الأسطورةُ في نظر الشّخصِ الوضيعِ قليلةُ المعنى، لكنّها عظيمةٌ في نظر الشّخصِ النّبيلِ**».

روسكين[51]

«**يوجد جوبيتر أينما نظرتَ وتحرّكْتَ**».

لوكانوس[52]

«**أيّتها الخالقةُ ڤينوسُ (أفروديتُ)، يا قوّةَ الحبِّ المتأصّلِ، وبهجةَ البشرِ على الأرضِ،**

[48] هربرت ريد (١٨٩٣ – ١٩٦٨): مؤلّف وناقد وشاعر إنكليزيّ، له كتاب (الأسطورة والحلم والشّعر).

[49] مالينوفسكي (١٨٨٤ – ١٩٤٢): عالم إنكليزيّ، بولونيّ الأصل من علماء الأجناس البشريّة، حاول أن يربط بين الأساطير والأحداث الاجتماعيّة الثّقافيّة.

[50] يونغ (كارل غوستاف) (١٨٧٥–١٩٦١): عالم نفسانيّ سويسريّ، أحد مؤسّسي علم النّفس التّحليليّ.

[51] روسكين (جون) (١٨١٩ – ١٩٠٠): أديب إنكليزيّ، وناقد فنّيّ.

[52] لوكانوس (ماركوس إينوس) (٣٩ – ٩٦ م): له ملحمةٌ لاتينيّةٌ اسمها (فرساليا)، وصف فيها انتصارَ يوليوس قيصر على بومبي عام ٤٨ ق.م، وقد لقيتْ ملحمته تقديراً جيّداً في العصور الوسطى، وفترة عصر النّهضة.

والإلهةَ في السّماء».

دريدان[٥٣]

«يا إلهَ القوسِ الذّهبيّةِ، والقيثارةِ الذّهبيّةِ، والنّارِ الذّهبيّة».

كيتس

«ما هي درعُ الجورجونةِ (ميدوزا[٥٤]) ذات الرّأسِ الثّعبانيّ، الّتي كَسبَتْها منيرڤا (أثينا) الحكيمةُ، والعذراءُ الّتي لا تقهر».

ملتون

«أتبحثُ عن نظيرِ هرقل؟ لا أحدَ سواه هو نفسُهُ».

سنيكا[٥٥]

«تدلّتْ خصلاتُ شعرِها المُشمِسة فوق صدغيها، كأنّها جرّةٌ ذهبيّةٌ».

شكسبير

«تَترُكُ أورورا[٥٦] المحيطَ الآخرَ، وتُخضّبُ بالحُمْرةِ سماءَ الشّرق». (٣٢)

كاتيولوس[٥٧]

استيحاء أدباء الغرب أدبَهم من الأساطير الإغريقيّة:

إذا انتقلنا إلى الرّومان —وهم ورثةُ الإغريقِ– نحسُّ فوراً بأنّ أعمالهم الأدبيّة، لا تخرج عن كونها فُتاتاً على مائدة هوميروس. (٣٣)

ومن المعلوم أنّ أشهرَ الملاحمِ الّتي ظهرتْ في القرون الوسطى، الكوميديا الإلهيّة لدانتي شاعرِ

[٥٣] دريدان (جون) (١٦٣١ – ١٧٠٠): شاعر وناقد وكاتب إنكليزيّ.

[٥٤] ميدوزا: امرأة جميلة، كانت تفتخر بضفائر شعرها الرّائع. وكان قلبها قاسياً. وعقاباً لها على جرمِ ارتكبته، حوّلت الآلهةُ شعرَها إلى حيّاتٍ، وجعلتْ وجهها مخيفاً، لا يراها أحدٌ حتّى ينقلبَ حجراً أصمَّ. وقد حزَّ برسيوس رأسَها بمساعدة الآلهة.

[٥٥] سنيكا (٤ ق.م – ٦٥ م): مسرحيٌّ رومانيٌّ وكاتبُ مقالات، مسرحيّاتُهُ مأساويّةٌ، تدورُ حول الأساطير الإغريقيّة.

[٥٦] أورورا: إلهةُ الفجر عند الرّومان تقابل (أيوس) الرّبّة اليونانيّة.

[٥٧] كاتيولوس (جايوس فاليروس) (٨٤ – ٥٤ ق.م): أعظم الشّعراء الغنائيّين باللاّتينيّة. وهو من أعظم الشّعراء الغنائيّين في العالم أيضاً، بالإضافة إلى سافو وشلّلي. أحبَّ كلوديا من جانبٍ واحد.

إيطاليا الأكبر المتوفّى سنة ١٣٣١م وفيها احتذاء لكلٍّ من هوميروس وفيرجيل. (٣٤)

وكذلك يعيدُ شكسبيرُ صياغةَ أجزاءٍ معيّنةٍ من حربِ طروادةَ في مسرحيّته، ترويلس وكروسيدا. (٣٥)

ونضيف إلى ما سبق، تأثّرَ الأديبِ الإيرلنديِّ الكبير جيمس جُويْس في قصّته الشّهيرة (يُوليسيز)، المستوحاة من ملحمة الأوديسّة لهوميروس، والّتي لا تزال تؤثّرُ في القصص، الّتي تعتمد تيّارَ اللاّوعي أسلوباً في الأدب العالميّ الحديث.

أشعارٌ، وابتهالاتٌ، وصلواتٌ، مترجمةٌ من أدباء الغَرْب

(وسنوردها، بالرّغم من أنّكَ تعلم – أيُّها القارئُ العزيزُ – أنّ ترجمةَ الشّعرِ من لُغاته الأصليّة تزيلُ جمالياته).

نستهلُّ ذلك بصلاة رينان على الأكروبوليس مبتهلاً إلى أثينا. (والأكروبوليس –كما ذكرْنا سابقاً– هي قلعةٌ في أثينا القديمة، مكتظّةٌ بالآثارِ والمعابد، وفي قمّتها أجملُ هذه المعابد، ألا وهو معبد أثينا):

أيّها النّبلُ، أيّها الجمالُ الحقيقيُّ البسيطُ، أيّتها الإلهةُ الّتي ليس معنى عبادتها سوى العقلِ والحكمةِ نفسَيْهما. أنتِ معبدُك ذاتُهُ دَرْسٌ أبديٌّ في الضّميرِ والإخلاص. إنّي وصَلْتُ متأخِّراً إلى عَتَبَةِ أسرارِك... أنتِ وحدَكِ الشّبابُ يا كورا[58]، أنت وحدَكِ يا عذراءُ[59]، وأنتِ وحدَكِ البريئةُ يا هجيا[60]، أنتِ وحدَكِ القوّةُ يا انتصارُ!. إنّ لديكِ كلَّ ما نعتقدُه عندَ أريسَ. يا أريا[61]. السّلامُ غايتُكِ يا أديا[62]، أيّتها الدّيموقراطيةُ، أنتِ الّتي عقيدتُها الأساسيّةُ: هي أنّ كلَّ خيرٍ يأتي عن طريقِ الشّعب، وأنّ كلّ مكانٍ لا يوجَدُ فيه شعبٌ يُلهِمُ العبقريّةَ، ويغذّيها، لا يوجد فيه شيءٌ. علّمينا كيف نَسْتَخرِجُ الماسَ منَ الجماهيرِ الملوّثةِ؟.. يا قوّةَ زوسَ! أيّها القَبَسُ الّذي يُشْعِلُ النّارَ، ويحفظُها لدى الأبطالِ والعباقرة! اصْنعي منّا روحانيّين يصلونَ إلى حدِّ الكمال(٣٦)

[58] كورا: أي حامية الفتيات.

[59] العذراء: أي الفتاة الّتي لم يمسّها أحدٌ.

[60] هجيا: أي إلهة الصّحة.

[61] أريا: أي الشّجاعة الحربيّة.

[62] أديا: أي السّلام.

أمّا الشّاعر لوكريسيوس[٦٣] فقد تبنّى نظريّة أبيقور[٦٤] وغَدَتْ في وهمه عقيدةً راسخةً وإيماناً أعمى، وأضْفى على تلك التّعاليمِ النّظريّةِ المجرّدةِ الرّزينة، وشاحاً أخّاذاً ناصعاً، من شاعريّته الجيّاشة، ومن عاطفته العميقة المتألّمة. ويبدأ ملحمَتَهُ بالابتهالِ إلى ڤينوسَ (أفروديت) كوكبِ الزُّهرةِ، وإلهةِ الحبِّ الّتي يعتبرها –حرصاً على التّقاليد– أصلَ الأمّةِ الرّومانيّة، ومصدرَ الخصبِ الرّمزيّ في الكون (٣٧)، فيقول:

«يـا أمَّ سُـلالةِ إينيـاسَ[٦٥]، يـا نشـوةَ الرّجـالِ والآلهـة، يـا ڤينـوسُ المُرْضِـعَةُ، أنْـتِ الّـتي تخْصِـبينَ البحـرَ فيحمـلُ بالمراكـب، تحـت الأفـلاكِ المتسـلّقةِ في السّـماء، وتُخْصِـبينَ الأرضَ فتحمـلُ المواسـمَ، لأنَّ كـلَّ حَمْـلٍ أصْـلُهُ منـكِ، وبفضـلكِ يخـرجُ كـلُّ نـوعٍ حـيٍّ، إلى نـورِ الشّـمسِ. أيّتـها الرّبّـةُ! إنَّ الرّيـاحَ هـربُ لـدى اقترابـك، وتتبـدّدُ الغيـومُ، وتنبـتُ الأزهـارُ، وتنـتفخُ الموجـةُ، وتتـألّقُ السّـماءُ، وتطـيرُ العصـافيرُ، وتتقـافزُ القطعـانُ. إنّـكِ تحـرّكين الرّغبـةَ في البحـارِ، والجبـالِ، والأنهـارِ المندفعـةِ، والحقـولِ المخضوصـرةِ، وتـؤمّنين انتشـارَ الأنـواعِ، وبـدونكِ لا يبلـغُ شـيءٌ ضـفافَ الضّـوءِ الإلهيّـة. فأنـتِ وحـدَكِ الّـتي تقـودينَ الطّبيعـةَ» (٣٨)

وقيل عن ڤينوسَ (أفروديت) أيضاً:

«إنّكِ الرّبّـةُ الّـتي اعتُـبرَتْ كـلَّ مـا هـو سـعيدٌ، كـلَّ مـا هـو حـرٌّ، وسـيّدةَ الثّالـثِ والعشـرينَ مـن أبريـلَ (نيسـانَ)، وسـيدةَ كُـلِّ ربيـعٍ،

[٦٣] لوكريسيوس: ينحدر هذا الشّاعر من أسرة عريقة نبيلة ولد في روما سنة ٩٨ ق.م وانصرف عن السّياسة إلى حياة الأدب والشّعر والفلسفة، وقد توفّيَ سنة ٥٥ ق.م.

[٦٤] أبيقور(٣٤١-٢٧٠ ق.م): فيلسوف يونانيّ دعا إلى الاستمتاع باللّذّات المعنوية.

[٦٥] إينياس: بطلٌ طرواديٌّ ولدته أفروديت (ڤينوس) من أنشيز، وهو زوج كريوزا بنت بريام، هرب من طروادة المحترقة إلى إيطاليا، حاملاً والده المقعد الأعمى، وابنه أسكاني.

وكلّ ازهرارٍ، وكُلّ وفرةٍ، وكُلّ حيويّةٍ مفرطةٍ، وكُلّ مـا يمجّـد الحيـاةَ». (٣٩)

ويُرَنِّمُ أزْرا باوند[٦٦] ترنيمةَ إجلالٍ للإلهةِ فينوس (أفروديت):

«يـا أفروديـتُ – في قـولِ ذلـك الكـريتي[٦٧] – يـا ذاتَ التّـاجِ الـذّهبيِّ،
يـا مَـنْ وُكِّـلَ إليهـا سـيادةُ قـبرصَ، أفروديـتُ المعبـودةُ الطَّـروبُ،
يـا ذاتَ القُـرطِ النّحاسـيِّ، يـا ذاتَ النّطـاقِ، والخمائـلِ الذّهبيّـةْ.
بجفنيـكِ الكحيلَـيْنِ، تـرعَيْنَ غُصـنَ أركسـيدا[٦٨] الـذّهبيَّا». (٤٠)

وفي الإلياذة يصلّي أغاممنون[٦٩] هكذا:

«يـا زيـوسُ أيُّهـا الإلـهُ الأمجـدُ والأعظـمُ يـا ربَّ
الغيـومِ والعواصـفْ، يـا مـن تسـكنُ السّـماواتِ العُـلا».

وقد ترنّمَ باسمِ زيوسَ أعمقُ المتديّنينَ من الرّواقيّة المتأخّرة، وهو الشّاعرُ كليانْتيسُ (٣٣١ – ٢٣٢ ق.م) بقوله:

«تحيّـةً لـكَ يـا أعظـمَ الخالـدينَ، أيـا زيـوسُ المعبـودْ.
إنّ اسـمَ هـذا العـالَمِ الكـبيرِ يتحـرّكُ بإرادتـكْ،
ويُطيـعُ أوامـرَكَ أيُّهـا الإلـهُ الـرَّحيمْ!». (٤١)

وصوّر بيرون[٧٠] موضوعَ بروميثيوس[٧١] الّذي أصبح رمزاً لاحتمالِ عظماءِ النّفوسِ، العذابَ

[٦٦] باوند (أزرا) (١٨٥٥ – ١٩٧٢): شاعر وناقد أمريكيّ، نال شهرةً واسعةً. أشهر آثاره (الأناشيد).

[٦٧] الكريتي أو الكريتان: هو المترجم إلى اللاّتينيّة جورجيوس دارتونا، عاش في بداية القرن السّادس عشر.

[٦٨] أركس: اسم نجمٍ في السّماء.

[٦٩] أغاممنون: (في الميثولوجيا اليونانيّة): القائد الأعلى للحملة الإغريقيّة ضدّ طروادة.

[٧٠] بيرون (جورج غوردون، أو اللورد بيرون) (ولد في إنكلترا ١٧٨٨– وتوفي ١٨٢٤ في اليونان): شاعر إنكليزيّ، من كبار شعراء الرومانسية، نال شهرة عالميّة، عكست قصائدُهُ معتقداته وخبرته، أصرّ على حرية الشعوب، وكان من أبرز رواد الفلهيلينية (محبّة الإغريق)، من أهم آثاره: (رحلة تشيلد هارولد)، و(مانفرد)، و(دون جوان).

الجائرَ، ومَثَلاً عالياً لقوّةِ الإرادةِ، الّتي تصمدُ لظلْم الطّغاة الظّالمين، بالأبيات الآتية:

«أيّها التّيتانُ[٧٢] يا مَنْ بعينيهِ الخالدتينْ،
تجلّ ... ى عذابُ البشـ ... ريّةِ الواهنهْ
على حقيقتـ ... ه الصّارخة بأهوالِها،
فالع ... ذابُ لا تحتمـ ... ـرُهُ الآلـ ... ـهْ،
ولكنْ ماذا كانَ جزاءُ حنانِكْ؟
إنّهُ عناءٌ صـ ... امتٌ شـ ... ـديدْ،
بالصّخرةِ، والنّسْرِ، وأصفادِ الحديدْ.
وهي كلُّ ما يجعلُ الجبابرةَ يتعذّبونْ،
ولكـ ... ـنّهُمْ عن آلامِهِمْ لا يُفْصِـ ... حونْ،
بلْ إحساسَ الكروبِ يكْتُـ ... ـونْ،

* * *

إنْ حنانَكَ هو جريمـ ... ـتُكَ الرّبّانيّهْ،
فَلَقَدْ شِئتَ أنْ تخفّفَ بشرائعِكَ السّماويّهْ،
شدّةَ تعاسةِ، وأحزانِ، ومعاناةِ البشريّهْ،
وأن تدعمَ كفاحَ الإنسانِ بتقويّتِكَ العقليّهْ،
وبالرُّغمِ منْ إحباطِ كبيرِ الآلهةِ مَسعاكْ.
ففي نشاطِكَ الْدؤوبِ الصّابرْ،
وفي صمودِكَ المستمرِّ، وقمعِكَ القاهرْ،

[٧١] بروميثيوس: كانَ والدُهُ أحدَ التّيتان، الّذين حاربوا ضدّ جوبيتر، وهو سارق النّار من الآلهة، ومعلّم البشريّة استعمالها. عاقبه جوبيتر بأن قيّده بالسّلاسل، وأرسل إليه نسراً ينهش كبده، الّتي كانت تتجدّد باستمرار، أنقذه هرقل.

[٧٢] التّيتان: (في الميثولوجيا اليونانية) سلالة عاشتْ وحكمت العالَم، كانوا اثني عشرَ تيتاناً، واسمُ أحدثهم سنّاً ساتورن والد جوبيتر. وجوبيتر هو الّذي شنّ مع أخوته وأخواته حرباً على التّيتان فانتصروا عليهم وأرسلوهم مقيّدين إلى العالم السفليّ.

الّــــــــذي تتســــــمُ بـــــــه روحُـــــكَ الرّاســـــــخةُ،
الّ[illegible]ـتي لم تَـ[illegible]ـطِعِ الـ[illegible]ـماءُ والأرضُ
زحزَحتَهـــــــــــا، درسٌ بليــــــغٌ رائـــــــعٌ ورنّــــــاهٌ» (٤٢)

ولقد حجَّ الشّاعرُ بيرون إلى جبل البَرَناسِ في بلادِ اليونانِ، المشغوفِ به، وخاطَبَهُ بهذه الأبياتِ الّتي يعجز أيُّ شاعرٍ أن يبدعَ مثلَها، فقال:

«وأنـــــتَ يـــــا جبـــــلَ البَرَنـــــاسِ. يـــــا مَـــــنْ أراهُ مـــــاثلاً أمـــــاميَ الآنْ،
لا في أطيـــــافِ الخيـــــالِ، ورؤى الأحـــــلامِ. ولا في المنـــــاظرِ الخلاّبـــــة
الّـــتي تزوِّرُهـــا قصـــيدةُ شـــاعرٍ. ولكـــنّني بكـــلِّ جلالـــكَ ومجـــدكَ محلّقـــاً،
تُجَلّلُكَ الثّلوجُ في سماءِ وطنِـــك. وعليـــك فخامـــةٌ وحشـــيَه. وروعـــةٌ جبليّـــه.
فهل مـــن عجـــبٍ إذاً، أنْ أحـــاولَ الغنـــاءَ الآن. إنَّ أشـــدَّ حُجّاجـــكَ تواضُـــعاً،
لا يســـتطيعُ أن يمـــرَّ بـــكَ، دونَ أن يهـــزَّ أوتـــارَهُ، كيْمـــا ينـــاغي أصـــداءَكْ،
على الرُّغْمِ من أنّه لم تَعُدْ ثمّة موسا[73] واحدةٌ، تُرَفْرِفُ بأجنحتِها فـــوقَ أعاليـــكْ.(٤٣)

ويتأسّى الشّاعر العملاقُ بيرون على زوال مجدِ اليونانِ المجيدِ فيقول:

أيّتـــــها المدينـــــةُ العتيقـــــةُ! أيْ أثينـــــا! أيـــــنَ ذهـــــب مواطنـــــوكِ الماجـــــدونَ
وأشـــــرافُكِ ذَوو النّفـــــوسِ العاليـــــه؟. لقـــــد ذهبُـــــوا ومضَـــــوا –
ولم نعـــدْ نـــراهم إلاّ في أحـــلامِ الماضـــي السّـــحيق. لقـــد كـــانوا السّـــبّاقينَ
في مضـــمارِ المجـــدِ، فبلغـــوا الغايـــةَ، وظفـــروا ثمّ مضَـــوا – فهـــل
هـــذا كـــلُّ شـــيء؟. إنَّ أعمـــالَهم قـــد صـــارت تُـــروى لطـــلاّب المـــدارسْ،
وصـــرنا نَعجـــبُ بهـــا كـــلَّ العجـــب، قـــدْرَ ســـاعةٍ نُمضـــيها في سماعِهـــا!
ولكــــــن عَبَثــــــاً نَنْشُــــــدُ ســــــلاحَ محاربيــــــكِ، وكراســــــيَ

[73] موسا: لم أعثر عليها في المعاجم، ويبدو أنّها نوع من الطّيور الجارحة.

السّوفسطائيين[٧٤]، الّذين يُنشّئون أبناءك:
فعلى أطلالِ أبراجِك الّتي سوّدها ضبابُ الأيّامِ، يحلّقُ
ظلٌّ شاحبٌ لعظمتِك الخاليةِ!. (٤٤)

والمأثور أنّ قدموسَ أدخل إلى بلادِ اليونان الحروفَ الهجائيّةَ، الّتي اخترعها الفينيقيّون. وقد أشار (بيرون) إلى هذا حين خاطبَ اليونانيّين المحْدَثين:

لديكُمُ الحروفُ، الّتي أتى بها قدموسُ[٧٥]،
أتظنّون أنّه قد قصدَ استخدامَها عبْدٌ؟. (٤٥)

ونعود إلى معاناة البطل بروميثيوس، حينما قيّده الإلهُ زوس (جوبيتر) في أعالي جبال القوقاس، والنّسورُ تنهشُ كبدَهُ، فتصوَّرَهُ الشّاعرُ الأمريكيّ جيمس رسل لوول[٧٦]، وهو يتأمّلُ نجومَ السّماءِ، بعد أن سرقَ النّارَ، وأعطاها للبشرِ، الّذين حرَمَهُم الإلهُ الظّالمُ منها، فيقول:

«ظهرَتِ النّجومُ، ثمّ اختفتْ واحدةٌ، إثْرَ أخرى في السّماءْ،
وكانت تتلألأ فوقَ النّدى المُتجمّد، على أصفادي،
فالدُّبُ[٧٧] الّذي طوّفَ في اللّيل، قربَ منعطفِ النّجمِ الشّماليِّ،
انكمشَ أخيراً داخلَ وكْرِهِ فزِعاً، من وقعِ
أقدامِ الفجرِ الطّروب». (٤٦)

[٧٤] السّوفسطائيّون: جماعةٌ من العُلماء الجوّالين، وبعضُهُمْ كانوا يطلقون على أنفسهم معلمي الحكمة، وقد أثارت نزعةُ بعضِهم التّجاريّةُ أفلاطونَ إلى تسويء سمعتهم، بأن عزا إليهم تهمةَ (السّفسطة) بغيةَ المكسب، وكانوا يشكّون في كل شيء، ما عدا البلاغة.

[٧٥] قدموس: بطلٌ أسطوريٌّ فينيقيٌّ، اختطفَ زفسُ شقيقتَه أوربا، فسار يتعقّبه، وأنشأ في اليونان مدينةَ طيبةَ، ونقل إليها الأبجديّة.

[٧٦] جيمس رسل لوول (١٨١٩ – ١٨٩١): ولد في كمبردج، ومات فيها. ودرّس في هارفارد، وقضى في المكتبات زهرةَ صباه. لقد درّس بنوعٍ خاصٍّ آثارَ دانتي، وآثارَ الرّومنطيقيّين الإنكليز.

[٧٧] الدّبّ: يقصد به الدّبّ الأصغر، وهي سبعةُ نجومٍ تكوّنُ أربعةٌ منها مربّعاً، وثلاثةٌ تكوّنُ ذَنَباً له، في نهايته النّجم القطبيّ. (والدّبّ الأكبر): سبعة نجومٍ أخرى ولكنّها أكبر منها (المعجم الوسيط).

وإذْ يصفُ الشّاعرُ ملتون الحيَّةَ الّتي أغوت حواءَ، يذْكُرُ حيّاتِ القصصِ اليونانيّةِ، فيقول:

كـــــانَ شـــــكلُها يَسُـــــرُّ النّـــــاظرينَ، وكانـــــت جميلـــــةً،
ولم توجـــــدْ حيّـــــةٌ أجمـــــلَ منـــــها، منـــــذ أنْ كانـــــت الحيّـــــاتُ،
ولا هارْمونيـــــا[78] ولا قـــــدموسُ اللّـــــذَيْنِ تغيّـــــرا
في إيلّيريـــــا[79]، ولا الإلـــــهُ في أبيـــــدورس[80]. (٤٧)

ويَروي سبنسر قصّةَ أرخني[81] مع الإشارة إلى وصف خَلْقِ الإلهةِ أثينا شجرةَ الزّيتون:

وبـــــين أوراقِ الأشـــــجارِ ... فراشـــــةٌ
ذاتُ تركيـــــبٍ رائـــــعٍ، وَرِقّـــــةٍ عجيبـــــةٍ.
ترفـــــرفُ بـــــين غـــــارِ الزّيتـــــون، في هـــــوٍ،
حتّـــــى بَـــــدتْ للنّـــــاظرينَ نابضـــــةً بالحيـــــاةْ
بـــــالوَبَرِ المُخملـــــيِّ، الّـــــذي فـــــوق أجنحتهـــــا،
والزّغـــــبِ الحريـــــريِّ، الّـــــذي زرْكَـــــشَ ظهرَهـــــا،
وفَرْوَتَهـــــا ...ـةَ، وعجيزتَهـــــا المُشْـــــعرَةَ،

[78] هارمونيا: ابنة أريس (مارس)، وأمّها أفروديت (فينوس)؛ تزوّجها قدموسُ مؤسّس طيبة، ويطلق عليها: إلهةُ الأولمب.

[79] إيلّيريا: منطقة لم تتّضح معالمها أبداً بتميُّزٍ، وهي تمتدّ على ساحل البلقان.

[80] أبيدورس: مدينة قديمة بأرغوليد على بحر إيجه، اشتهرت بهيكل أسكليبيوس إله الطّبّ. وتروي الأسطورة أنّه بعد بناء طيبة، زُفّت هارمونيا إلى قدموس، فأنجبا أربعة أولاد، فماتوا غيرَ سُعداء، نتيجة قتله التّنين، الّذي يقدّسه مارسُ إله الحرب. رَحَلَ قدموسُ وهارمونيا عن طيبةَ، وهاجرا إلى إقليم الأنخليّين فنصّبوا قدموسَ ملكاً عليهم، وفي أحد الأيّام صاح قدموسُ: «مادامت حياةُ ثعبانٍ عزيزةً عند الآلهة إلى هذا الحدّ، فَلَشدَّما أتمنّى أن أكون ثعباناً». وما كاد ينطق بالكلمات حتّى ابتدأ يغيّر شكله. وعندما شاهدته هارمونيا تضرّعت إلى الآلهة كي تشاركَهُ مصيرَهُ. وهكذا أصبح الاثنان ثعبانَيْنِ يعيشان في الغابات، ولا يتجنّبانِ الإنسانَ، ولا يؤذيانِ أحداً. ويروى في مصدرٍ آخر أنّ قدموسَ بعد موته مع زوجته استحالا إلى تنّينين يعيشان في جزيرة السّعداء (الشّانزيليزيه)، قربَ الآلهة والأبطال.

[81] أرخني: فتاة ليديّة نسّاجة، تحدّتْ بنسيجها العجيب الإلهةَ أثينا في مباراة في منزلها، فلمّا تفوّقت عليها الإلهةُ حوّلتْها إلى عنكبوت.

وألوانَهـــــا الرّائعـــــةَ، وعيونَهـــــا اللاّزَوَرْدِيَّـــــةْ.

* * *

تلـــــك الّـــــتي عنـــــدما رأتهـــــا أرخـــــني، هكـــــذا موشّـــــاةً،
ومصـــــنوعةً، بمثـــــلِ هـــــذه الدّقّـــــة النّـــــادرةْ،
وقفـــــتْ زمنـــــاً طـــــويلاً، وهـــــي مبـــــهورةٌ لا تَـــــبِينْ،
وتطلّعـــــتْ إلى عملِهـــــا الـــــدّؤوب، بنظـــــرةٍ مُسْـــــتَخْزِيَةْ.
وبصـــــمْتِها المُطْبَـــــقِ، كنايـــــةً عـــــن إحساســـــها المُـــــرِّ،
بـــــأنَّ النّصـــــرَ، كـــــانَ مـــــن نصـــــيبِ الإلهـــــةِ القـــــديرةْ،
كـــــادت تتميَّـــــزُ مـــــن الغَـــــيْظ، وَهْـــــي مسْـــــوَدَّةُ الوجـــــه كظـــــيمْ،
واســـــتحالَ دمُهـــــا مـــــن المهانـــــةِ، والغـــــلِّ سُـــــمّاً زُعافـــــاً. (٤٨)

وأشار تنيسون[٨٢] في قصيدته الموجّهة إلى الأميرة داناي[٨٣] كما يلي:

«والآنَ تتوجَّـــــهُ الأرضُ كلُّهـــــا، يـــــا دانـــــايُ للنُّجـــــومْ،
أمّـــــا قلبُـــــكِ فمفتـــــوحٌ، لأجلـــــي علـــــى مِصْـــــراعَيْهْ». (٤٩)

أمّا ميلتون فيشير في قصيدته (الحفلُ البهيجُ)، إلى دِرعِ أثينا (منيرفا)، كما يلي:

«ماهـــــذه الـــــدِّرعُ الجورجونيّـــــةُ، بـــــالرّأسِ ذي الأفـــــاعي،
الّـــــذي حَمَلَتْـــــهُ الإلهـــــةُ (أثينـــــا)، الفتـــــاةُ الّـــــتي لا تُقْهَـــــرْ،
والّـــــتي حوّلـــــتْ بـــــه أعـــــداءَها إلى صَـــــخْرٍ مُتَحَجِّـــــرْ؟.
إنّـــــهُ لـــــيس ســـــوى نظـــــراتٍ ثابتـــــةٍ، مـــــن صـــــرامةٍ عفيفـــــةٍ،
وسماحـــــةٍ نبيلَـــــةٍ، قضـــــتْ علـــــى العُنْـــــفِ الوحْشِـــــيِّ،

[٨٢] تينسون (ألفرد) (١٨٠٩ – ١٨٩٢): شاعر إنكليزيّ، يُعتبر أعظم شعراء العصر الفكتوريّ.
[٨٣] داناي: صبيّةٌ جميلةٌ، ابنة ملك أرغوس، أحبّها الإله زوس، فأولَدها البطلَ برسيوس.

بإعجـــابٍ مبـــهورٍ مفـــاجئٍ، ومهابـــةٍ مُرْسَـــلَةٍ علـــى ســـجيَّتِها. (٥٠)

ويخاطب برسيوسُ[٨٤] أندروميدا[٨٥] المُصَفَّدَةَ بالأغلال من أجوازِ الفضاءِ، قبلَ أنْ يُنْقِذَها من الوحشِ، فيقول:

«أيَّتُهـــا العـــذراءُ يـــا مَـــنْ لا تســـتحقِّينَ هـــذه الأغـــلالَ الثَّقيلـــةْ،
بـــل أغـــلالاً أخـــرى رقيقـــةً، تـــربطُ قلـــوبَ العاشـــقينْ،
أتوسَّـــلُ إليـــكِ أنْ تُفْضـــي إليَّ باسْـــمِكِ، وَاسْـــمِ بـــلادِكِ،
وأســـبابَ هـــذه الأصـــفادِ، الَّـــتي تُقَيِّـــدُكِ، وتحـــدُّ مـــن حُرِّيَتـــكِ!». (٥١)

ويشيرُ الشّاعر ملمان[٨٦] إلى برسيوس من قصيدته (سامور):

كمـــا وقـــفَ – وَسَـــطَ غـــرْسِ الأســـاطيرِ اللّـــيْيّ –
برســـيوسُ، بهـــدوءٍ صـــارمٍ، بـــرغمِ السُّـــخْطْ،
نصـــفَ مرتكـــزٍ، ونصـــفَ ســـابحٍ بـــريشٍ كاحلـــةْ،
فَعَظُـــمَ شَـــأْوُهُ[٨٧]، بينمـــا الوجْـــهُ اللّمّـــاعُ علـــى درعـــةْ
يُحـــوِّلُ المعركـــةَ المهتاجـــةَ أشـــعاراً مُوْحِيَـــةْ؛
لـــذلك ارتفـــعَ، ولكـــنْ دونَ أذْرُعِ ســـحْرِيَّةْ
بـــل احـــتفظَ فقـــط، بمـــا في نظرتـــهِ الثّابتـــةِ مـــن رَهبـــةٍ واتّـــزانْ. (٥٢)

---

[٨٤] برسيوس: ابن زوس من داناي، وحينما ولدته أمّه اغتاظ جدّه الملك؛ لأنه سمع نبوءة بأنّــه سيُقْتَلُ على يد حفيده، فرماهما في البحر في صندوق خشبيٍّ، ولما شبّ استطاع ببطولته، أن يحزّ رأس ميدوزا، الّتي تُحَوِّلُ الناظرين إليها، إلى حجارة.

[٨٥] أندروميدا: هي ابنة سيفيوس ملك أثيوبيا، وأمّها كاسيوبا المعجبة بجمالها، أنقذها برسيوس من وحش البحر، ثمّ تزوّجها.

[٨٦] ملمان باري: مؤلّف: (المجاز التّقليديّ لدى هوميروس) بحلّة علم اللّغة الكلاسيكيّ عام ١٩٣٣.

[٨٧] الشّأو: (مصدر): الغاية، يقال: «بلغ شأواً رفيعاً».

وفي قصيدة مور[88] «أشعار في الطّريق»، فحين يتكلّم الشّاعرُ في أبياته عن مناظرِ جبالِ الألبِ الطّبيعيّةِ يشيرُ إلى قصّة أتلانتا[89] وميلانيون كما يلي:

«حتّـــــى هنـــــا، في أرضِ العجائـــــب الطّبيعيّـــــة هـــــذه،
يســـــبقُ إلـــــهُ الخيـــــالِ السّـــــريعُ، إلهـــــةَ الواقـــــعْ،
مثـــــلَ ميلانيونَ، [illegible] **[illegible] علـــــى الأقـــــلّ،**
بالأوهـــــامِ الذّهبيّـــــةِ، الّـــــتي يُلْقيهـــــا في طريقهـــــا». (٥٣)

وفي قصيدة ميلتون (الحفلُ البهيجُ)، يجعل الفتياتِ الثّلاثَ، الحارساتِ الشّجرةَ الذّهبيّةَ، بناتاً لهسبيروسَ[90] حيث يقول:

«وو[illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
الّـــــتي هـــــي لِهســـــبيروسَ، وبناتِـــــه الـــــثّلاثْ
اللاّتـــــي يغـــــنّينَ حـــــول الشّـــــجرةِ الذّهبيّـــــةْ. (٥٤)

وحينما أشرف باخوس[91] على موطنه بمدينة طيبةَ، حرّم الملكُ بنثيوسُ تأديةَ شعائرِ العبادة الجديدة لإله الخمرِ؛ لأنّها تؤدّي إلى الخَلَلِ والخَبَلِ، ولكنْ بالرّغم من هذا التّحريم، تزاحمَ الرّجالُ والنّساءُ – وخاصّةً النّساءُ – عجائزَ وصبايا لمقابلته، والاشتراكِ في زحفه الظّافر.

وبصف (مستر) لونجفيللو[92]، في قصيدته «أغنية السُّقْيا» زحفَ باخوس فيقول:

ســـــارتْ آلهـــــةُ الأحـــــراشِ بصـــــحبة بـــــاخوسْ،

[88] مور (السّير توماس) (١٤٧٧–١٥٣٥): صاحب كتاب (المدينة الفاضلة). كان مطّلعاً على الثّقافة اليونانيّة، ومتحمّساً لها.

[89] أتلانتا: عندما كانت طفلةً تُركَتْ في الجبال لأنّها لم تكن ذَكَراً فترعرعتْ لتكون صيّادة، كانت تتحدّى خاطبيها أن يباروها في الرّكض، تغلّب عليها ميلانيون بوساطة التّفاحات الذّهبيات وتزوّجها.

[90] هيسبيروس: نجم المساء، ابن إيوس، وإسترابوس، سمّاه الرّومان فسْبر.

[91] باخوس: ربُّ الخمرة، متوحّدٌ مع ديونيسيوس اليونانيّ، أطلق عليه الرومان فير.

[92] لونجفيللو (هنري وادسورث) (١٨٠٧–١١٨٢): شاعر أمريكيّ، اشتهر بقصائده ذوات الموضوعات التّاريخيّة.

ونَباتُ اللّبلابِ يتوّجُ جبهتَهُ المُنيفَةَ،
الّتي تحاكي جبهةَ الإلهِ أبولّو
في شبابِه، الّذي لا يَبْلَى جَديدُهْ.

* * *

ومن حولِهِ مُريداتُ باخُوسَ الفاتناتْ
يحمِلْنَ الصّنوجَ والنّايَ، وعناقيدَ العنَبِ
المقطوفةَ، من كُرومِ جزيرةِ زنتا[93]
بأحراشِ نكسوس[94]، وهنّ يغنّينَ كالمحموماتْ. (٥٥)

ويشير ملتون إلى قصّة ألكسيست[95] في قصيدته عن زوجته الرّاحلة:

يُخَيَّلُ إليَّ أنّي رأيتُ زوجتي، القدّيسةَ الرّاحلةْ
مُقْبِلةً على القَبْرِ، مثلَ ألكْ...
الّتي سلّمها ابنُ جوبيترَ، لزوجِها النّشوانْ،
إذْ أنقَذَها من الموتِ بالقُوّةِ؛ رغمَ شحوبِها وضَعْفِها» (٥٦)

واختار لُوْوِل: الإلهَ أبولّو (راعيَ الملك أدميتوس[96]) موضوعاً لِشعْرٍ قصيرٍ. وجَعَلَ من تلك الحادثةِ أوّلَ مقدّمةٍ في الشّعر موجّهةٍ إلى النّاس:

دعاهُ الق... ومُ ... أبَاً خائباً،
ولم يتو... مُوا في... ه أيَّ خ... ير؛

[93] زنتا: جزيرة يونانيّة تقع جنوبيّ البحر الأيونيّ.

[94] نكسوس: جزيرة في البحر الإيجيّ.

[95] ألكسيست: زوجة الملك أدميتوس، قدّمت نفسها فداءً عنه حين أشرف على الموت، وقد أعادتها برسفونة ملكة العالم السّفليّ إلى الحياة بعد موتها.

[96] أدميتوس: هو ملك فيريس في تساليا. وعندما طُرِدَ أبولّو من الأولمب، حلَّ راعياً عليه وحرسَ قطعانه مدّة سنة. ولّما دنت منيّته تطوّعت ألكسيست زوجته لتنوب عنه في النّزول إلى عالم الأموات.

ولك ... ْهمْ بالحقيقة ... ةِ، دونَ أن يَفْهَا ... وا
جعلوا من كلماتِه العابرةِ، شريعتَهُمْ.

* * *

ويوه ... أ بع ... ل ي ... رمٍ، ازدادتْ
كلٌ بقعةِ، وطِئَتْها قدماهْ إشعاعاً؛
حتّى عَلِمَ الشّعراءُ جميعاً فيما بعدُ:
أنّ أخاهُم البكرَ كانَ شاعراً. (٥٧)

ويتكلّم دارون[٩٧] في السّطورِ التّاليةِ عن موتِ إيكاروس[٩٨]:

... ش ... ْعٍ مُذابٍ، وخيوطٍ مُفكّكةْ
هَاوَى إيكاروس، المنكودُ الحظّ بجناحينِ خائرينْ،
ساقطاً كالشّهابِ الخاطفِ، خلالَ الهواءِ المذعورْ،
بأعضاءٍ متقلّصةٍ مشوّهةٍ، وشَعرٍ أشعثْ.
وكانَ ريشُهُ المبعثرُ، يتراقصُ فوق الأمواجْ،
فَزَيَّنتِ الحوريّاتُ الحزانى قَبْرَهُ المائيّ،
بأزهارِهنّ اللّؤلؤيّةِ، فوق جثمانِه الشّاحبْ،
ونَثَرْنَ الأعشابَ القرمزيّةَ، على فراشِهِ الرُّخاميّ،
وَدَقّتِ الأجراسُ تَنعيه، من أبراجهنّ المَرجانيّةْ
فردّدَ المحيطُ الواسعُ، صدى الدّقّاتِ الحزينةْ (٥٨)

[٩٧] دارون (تشارلز روبرت) (١٨٠٩ – ١٨٨٢): عالم طبيعة بريطانيّ، صاحب النّظريّة الدّاروينيّة، في تطوّر الإنسان. أشهر آثاره (أصل الأنواع).

[٩٨] إيكاروس: ابن ديدالوس الّذي يُعتَبَرُ والدُه أوّلَ طيّارٍ في تاريخ اليونان القديم. طارَ مع والده ولكنْ قريباً من الشّمس، بالرّغم من تحذير والده له. وعندما ذاب جناحاه الشّمعيّان بتأثير الحرارة سقط في البحر، قرب ديلوس، والّذي سُمّيَ البحرُ الإيكاريّ.

وبينما كانت أريان ابنة الملك مينوس، في جزيرة ناكسوس، حزينةً، مهجورةً، مُنْتَحِبَةً، تنعي مصيرَها. فوجدها إلهُ الخمرِ باخوس نائمةً، فأيقظها وواساها ولاطفَها، ثمّ جعلها زوجةً له، وخلع عليها هديّةَ الزّواجِ، وهي تاجٌ ذهبيٌّ مرصّعٌ بالجواهرِ، وعندما ماتت، أخذَ الإله هذا التّاجَ وألقى به في الجوِّ، وحين صعدَ إلى الأعالي تلألأتْ جواهرُهُ، وتحوّلَتْ إلى نجومٍ مع احتفاظه بشكله، وهكذا استقرَّ تاجُ أريانَ ثابتاً في السّماءِ، لمجموعةِ النّجوم بينَ هرَقْلَ الجاثي، والرّجلِ الممسكِ بالثّعبان. ويشير الشّاعر الإنكليزيّ سبنسر إلى تاجِ أريان بشعْره قائلاً:

«تطلّـــــــعْ إلى التّـــــاجِ، الّـــــــذي حَمَلَتْــــــهُ أريــــــانُ
علـــــى جبينـــــها العــــاجيِّ، في اليـــــومِ نفســــهْ،
الّـــــذي حمَلَهـــــا فيــــــه ثيســـيوسُ، عروســــاً لَــــهُ
وإنّـــكَ لَتَراهـــا الآنَ، قـــد أُجلســـتْ، في القبّـــةِ الزّرقـــاءْ،
حيـــــث يَشُـــــعُّ بهاؤُهـــــا، في السّـــــماءِ الصّــــافيةْ
وهــــي نفسُــــها حلْيَــــةٌ تَقَــــعُ بــــين النّجــــومِ، وتزيّنُهــــا،
وتتحــــرّكُ حــــولَ مــــدارِها، في نظــــامٍ رائــــعِ المشــــهدْ. (٥٩)

وحين يتحدّث المؤرّخُ بلوتارك[99] عن ثيسيوسَ[100] وهو يصادفُ الوحشَ الخرافيَّ، فلا يبدي بصددِه إلاّ ارتباكاً قليلاً. وهكذا تظلُّ الميثولوجيا متّصلةً بالتّاريخِ، بسلاسلِ الشِّعْرِ الذّهبيّة. فكانت قصائد هوميروسَ إنجيلَ تلكَ الحضارة. (٦٠)

وفي مسرحيّة «هِمْلتْ» يشبّه شكسبيرُ والدَه المتوفّى، الّذي اغتاله عمّهُ، بآلهة اليونانِ القدماء حيث يقول:

«خصـــــلاتُ شَـــــعْرِه، كخصـــــلاتِ شَـــــعْرِ هيبريـــــونْ[101]،

[99] بلوتارك (نحو ٥٠-١٢٥م): مؤرّخ يونانيّ، عاش في روما، له: (السِّيَرُ المقارَنَةُ) لمشاهيرِ اليونانِ والرّومان.

[100] ثيسيوس: ابن إيجيوس ملك أثينا من زوجته إيثرا ابنة ملك تروزن، وقد قَتَلَ البطل ثيسيوس المينوتور، وأصبح ملكاً على أثينا بعد والده.

[101] هيبريون: إله الشّمس في الأساطير الرّومانيّة، وهليوس في الأساطير اليونانيّة.

وجهُهُ كجبهـــــــــةِ جـــــــــوبيترَ أفْـ... ـهُ،

وعـ... ـاهُ كعَيْـ... ـي... ارسٌ......،

ووقفتُـــــــهُ كَوِقْفَـــــــةِ مركـــــــوري رســـــــولِ الآلهـــــــةْ!». (٦١)

تأثير الأساطير اليونانيّة، في فنون الموسيقا والغناء والرّقص:

تلعب آلهةُ الأساطيرِ، وأنصافُ آلهتِها، وأبطالها أدوارَهم في الموسيقا، وتروي كثيرٌ من الأساطيرِ كيف اختُرِعَتْ أوّليّاتُ الآلاتِ الموسيقيّة. وكانت قصّة أورفيوس[١٠٢] وأوريديس[١٠٣] أوّلَ أوبْراكُتِبَتْ. وربّما كان فاغنَر[١٠٤] من أعظم عباقرةِ الموسيقيّينَ الّذين استمدّوا موضوعاتِهم الموسيقيّةَ من الأساطير. (٦٢)

وفي قصّةِ أوفيد[١٠٥] عن هرمس (أي مركوري)، وأرغوس:

« نـــرى أو نســـمعُ حكايـــةَ إلـــهِ الموســـيقا هـــرمس، وهـــو يُسْـــكِرُ بألحانـــه أرْغـــوسَ[١٠٦]، الّـــذي كـــان يحـــرس (إيـــو[١٠٧]) بقـــرةَ القمـــرْ، بعيونِـــهِ المئـــةِ حتّـــى ينـــامَ، ثمّ يُطلـــقُ ســـراحَ إيـــو ».(٦٣)

وليس بعجيبٍ أن يكون أبولّو إلهُ الموسيقا والشّعر، ولكن العجيبَ أن يدخلَ الطّبُّ ضمنَ

[١٠٢] أورفيوس: أشهر مغنّي اليونانِ وشعرائها الأسطوريّين، يقال: إنّه ابن أبولّو من كاليوبه، إحدى ربّات الموسيقا. وكان يعزف على قيثارته أعذبَ الألحان، فيسحر البشر.

[١٠٣] أوريديس: زوجة أورفيوس الحوريّة. لدغها ثعبانٌ، ففُجعَ زوجها بموتها وانتقالها إلى عالم الأموات، وقد ألان أورفيوس قلبَ برسفونة ملكة العالم السّفليّ بعزفه، فأعادتْها إلى الحياة، ولكنّها بسبب تصرّفٍ مخالفٍ لها منهُ، سرْعانَ ما أخذتْها إلى العالم السّفليّ من جديد.

[١٠٤] فاغنر (ريتشارد) (١٨١٣-١٨٨٣): موسيقيّ ألمانيّ، ولد في لايبسك. أجادَ بين اللّحن والألفاظ، وحركات الرّقص في الأوبرا. لهُ: تروستان وإيزولْت.

[١٠٥] أوفيد (بوليوس) (٤٣ ق.م – ١٨م): شاعر لاتينيّ كبير، تَغنّى بالحبِّ في شعر أنيق، ومجونيّ.

[١٠٦] أرغوس: حارس البقرة (إيو) الّتي كانت عشيقة زوس (جوبيتر)، وكان له مئة عين ينام باثنتين منها، وتظلّ العيون الأخرى ساهرةً، وبعد أن أشجاهُ مركوري بموسيقاه السّاحرة جعله ينام كلّيًّا، فقتله.

[١٠٧] إيو: إحدى حوريّات الماء، عشقها جوبيتر (زوس)، فغارت زوجته هيرا منها، وطلبتها منه هديّةً، بعدَ أن حوّلّها إلى بقرةٍ بيضاءَ كي لا تكتشف زوجته الأمر.

منطقةِ نفوذِهن. ويسوقُ جوني أرمسترونغ[108] الشاعرُ، (وكان نفسه طبيباً) شِعْرَهُ على هذا النّحو:

«ترْفَـــعُ الموســـيقا شـــأنَ الابتـــهاجِ، وتـــثلُمُ حِـــدَّةَ الأحـــزانْ،
وتطـــــــــردُ الأمـــــــــراضَ، وتخفّـــــــــفُ شـــــــــدَّةَ الآلامْ؛
ولهـــــذا كـــــان حكمـــــاء الأجيـــــال القديمـــــة، يكْرمـــــونَ
ســـــلطاناً واحـــــداً للبَـــــدَن، والـــــنَّغَم وهَـــــزَجِ المغـــــنّين».(٦٤)

غيرَ أنّ النغمةَ خلاف الكلمة، وخلاف الصّورة.. لأنّها توقظُ الحسَّ وتولّد الانفعال، وإذا كنّا لا نستطيعُ أن نتعرَّف جوهرَها، فمنَ المؤكّدِ أنّها ذُكِرَتْ دائماً مع الرّقص، فكان يقال مثلاً في الاحتفال الدّينيّ بديونيسيوس (باخوس):

«إنَّ هـــذا الإلـــهَ المـــاكرَ بـــثَّ في نســـاءِ طيبـــةَ، مـــا يشـــبهُ الجنـــونْ.
فَتَـــركْنَ رجـــالَهُنَّ وأولادَهُـــنَّ إلى الجبـــال، وقـــد ارتـــدينَ جُلـــودَ الغـــزلانْ،
وقضـــينَ أيّامـــاً في الـــرّقصِ، والغنـــاءِ، لإلـــهِ الخمـــرِ». (٦٥)

وأطرفُ من هذا، ذلك النّصُّ الّذي اكْتُشفَ مؤخّراً، وأوْردَتْه جين ألِنْ هاريسون[109]، ثمّ ترجمه الدّكتور شكري عيّاد[110]، وفيه ترى أنّ الطّقوسَ الّتي تمارَسُ أمام زيوسَ (جوبيتر)، الإله الإغريقيّ كانت رقصةً مشفوعةً بغناء، ومنه:

«مَرْحَـــى حُيّيـــتَ يـــا أعظَـــمَ الشّـــباب، يـــا بْـــنَ كرونـــوسْ
يـــــــــا ... يّدَ الةِ ... وَى وا ... ورْ،
جِ ... ـ عا ... ى رأسِ أرواحِ ... اءْ،

[108] أرمسترونغ (جوني): طبيب وشاعر.

[109] هاريسون (جين ألن): مؤلّفة كتاب (الفنّ القديم والطّقوس) نيويورك ١٩١٣.

[110] الدّكتور شكري عيّاد: أديب وناقد مصريّ معاصر، له ثلاثة كتب حول الأسلوب هي: (مدخل إلى علم الأسلوب ١٩٨٣)، و(اتّجاهات البحث الأسلوبيّ ١٩٨٥)، و(اللّغة والإبداع ١٩٨٨).

وَ اهْ   رخْ :   الرّقصِ والغ   اء،

إِنَّ   ي، ونخ   نُ واقة   رنْ،

ع   ه .   أبحكَ الحص   ينْ. (٦٦)

إذاً لا بدّ أن تصبحَ الأسطورةُ - بعد مرحلةٍ ما، كلاماً موزوناً، أو أناشيدَ ذاتَ إيقاعٍ خاصٍّ. ويظلُّ لها هذا الطّابع بعد أن تتحوّلَ إلى حكايةٍ عن الآلهةِ والكونِ. والتّاريخُ يقرِّرُ أنّ أقْدَمَ الأساطيرِ كان غناءً دينيّاً، ثمّ ملاحمَ شعريّةً.

ويرى أرسطو[111]: أنّ أساسَ الفنِّ هو الملاحمُ الشّعريّةُ.

ولئلاّ يظنَّ القارئُ الكريمُ في نهاية هذه (الأشعار، والابتهالات، والصّلوات) أنّ الدّيانةَ المسيحيّةَ تتبنّى هذه الأساطيرَ وتَدينُ بها، نورد تنديداً شعريّاً شديداً للقدّيس غريغوريوس اللاّهوتيّ التّزينـــزيّ[112] بالإمبراطور البيزنطيّ يوليانوس[113] الجاحد، المرتدّ عن الدّيانة المسيحيّة إلى الدّيانة الوثنيّة، حيث يقول له:

«فكيــــف تتصــــوّرُ إلَهَتَــــكَ هــــيرا ذاتَهــــا، أيُّهــــا الإمبراطــــورُ الــــوثنيُّ،
الّتــــي هــــي أختُ زفــــسَ العظــــيمِ، وزوجتُــــهُ في الوقــــتِ نفســــهْ؟!
والّــــتي تَظْهَــــرُ أحيانــــاً معلّقــــةً بالفضــــاءِ والغيــــومْ،
وتُنْــــزَلُ بسلاســــلَ حديديّــــةٍ، وتكــــرَمُ بأرجــــلٍ
وأيــــدٍ ذهبــــيّةٍ، أوْ كتّانيّــــةٍ   اءْ،

[111] أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ ق.م): فيلسوفٌ يونانيٌّ، يُعَدُّ واحداً من أعظم الفلاسفة في جميع العصور. له (المقولات)، و(الجدل)، و(الخطابة)، و(السّياسة).

[112] غريغوريوس التّزينـــزيّ (٣٢٩-٣٩٠): معلّم الكنيسة، القدّيس اللاّهوتيّ، أحدُ الأقمار الثّلاثة، وبطريرك القسطنطينيّة، وصديق القدّيس باسيليوس الكبير، ورفيقه في الحياة النّسكيّة، كان شاعراً وخطيباً ولاهوتيّاً كبيراً.

[113] يوليانوس المرتدّ الجاحد (٣٣٣-٣٦٣م): ابن أخت قسطنطين الكبير. نوديَ به إمبراطوراً، حجد الإيمان المسيحيّ، وأساء إليه، وشجّع الوثنيّة، وقد قتل في معركة ضدّ الفرس عام ٣٦٣م. وقال قبل موته عن المسيح: «أيّها الجليليُّ لقد غلبتَني!».

وتَسْبي كلَّ جمهورِ العاشقينَ، بحسناتِ زفسْ،
حتّى تُوهِمَ جميعَ النّاسِ (زيفاً وبُهتاناً)،
أنَّ حبَّهُ لكلِّ النّساءِ الكثيراتِ، ينقُصُ عن حبّهِ لها؟!. (٦٧)

تأثير الأساطير في الرّسوم، واللّوحات، والصّور:

عرفتْ جزيرةَ كريت[١١٤] حضاراتٍ عاليةً، حيث نشأتْ وترعرعتْ فيها حضارةٌ عريقةٌ في الفنّ، وقد حُفظَتْ إلى يومنا هذا بَعْضُ معالمِها الفنّيّة نظيرَ «باريسيّةِ كنُوسوس[١١٥]» الّتي تكادُ تكونُ معاصِرةً، بقَصّةِ شعرِها وملبسِها وحُلاها. (٦٨)

وحكاية الفتاة أوربا والثّورُ: سلسلةٌ من اللّوحات، ربّما وُضِعَ بعضُها ليكونَ مادّةً للمصوّرين. وكثيراً ما اقتبسَ فنّانو النّهضةِ عن أوفيد، موضوع الألعاب البريئة، بين الفتيات والثّورِ الأبيض، على رمالِ الشّاطئ. وبذلك يكونُ الشّاعرُ اللاّتينيّ قد أعاد إلى التّصوير الحديث، ما أَخَذَهُ من التّصوير القديم.

ويذكّرنا المشهدُ الأخير، برسوم بومبي، أيْ بموضوعاتٍ كانتْ شائعةً في الفنِّ الإغريقيّ. وهذا هو النّص:

«لقد امتطتِ الفتاةُ أوربا الدّابّةْ،
وحينئذ ابتعدَ بها الإلهُ عن السّاحلْ،
متقدّماً ببطءٍ، يشقُّ صفحةَ الماءِ الرقيقهْ
بظلفَ[illegible]ه الكاذبَيْنِ، ومضَى في طريقهْ
متوغّلاً في عُرضِ البحرِ، يحمِلُ فريستَهْ؛
فارتعبتِ الفتاةُ، ولكي تُلقي نظرةً إلى الشّاطئِ
الّذي غادرتْهُ، التفـ[illegible]ـتْ إلى الوراءْ،
وأمـ[illegible]ـكتْ يمناها بقَرْنِ الثّورْ،

[١١٤] كريت: جزيرة يونانيّة في المتوسّط، من مدنها هيراكليون وكنوسوس. وهي من مراكز الحضارة في العالم القديم. بلغت أوجَ ازدهارها في الألف الثّاني ق.م.

[١١٥] كنوسوس: من مدن كريت.

ووضـــــــعَتْ يُســـــــــراها علـــــــــى ظهـــــــرِ الحيـــــــوانْ،
وطـــــــارَ وشـــــــاحُها الخفيـــــــفُ، في مهـــــــبِّ الـــــــرّيحْ».

ويستحيل عَرْضُ اللّوحة على نحوٍ أخفَّ وأرشقَ من هذا. وهنا مجرى القصّة أيضاً، وتسكُنُ حركتُها، لتَثْبُتَ في نظرنا في مشهد.

وكانت مخيّلةُ جميع هؤلاء الشُّعراءِ الأقدمينَ من إغريقَ ولاتينَ، الّذين جاؤوا بعد النّحت والتّصوير، زاخرةً بالصّور. و لم تكن صوراً عابرةً زيّنوا بها قصصَهُمْ، بل كانَ لها أحياناً من اللّون والحياة، ممّا جعلَ القصّةَ نفسَها أشبهَ بالسِّمْط[116] الّذي يصل لآلئَ العقْد. (٦٩)

أمّا نبتون (بَسيذون) شقيقُ جوبيترَ (زيوسَ)؛ فإنّه كان يسيطرُ على الأمواج الّتي لا يقَرُّ لها قرارٌ. وقد أخذ عن العاصفة بعضَ عُنْفِها. ويظهرُ في الإلياذة كما في صورةِ بومبي، خارجاً من اليمّ، يتحدّر الماءُ من رأسه كما في هذا البيت:

«وأخرجَ هامَتَهُ المَهيبةَ فوق سطحِ المـــوجِ، ومـــدَّ نظَـــرَهُ إلى الأفـــقِ البعيـــدْ» (٧٠)

وكانت أفروديتُ (فينوسُ) تملكُ منطقةً موشّاةً تسمّى سسْتوس (Cestus)، كان لها القدرةُ على ابتعاث الحُبِّ، وكان البَجَعُ والحمامُ طيورَها الأثيرةَ، والوَرْدُ والآسُ زهورَها المقدّسة. (٧١)

ومن أهمِّ وأثمنِ الصُّور الفنيّة، الّتي عُثِرَ عليها في إيطاليا صورةٌ لميديا، وقدْ حُفظتْ هذه الصُّورةُ في مُتْحف نابولي، وهي امرأةٌ مرتديةٌ فاخرَ الثّياب؛ ولكنّها كانت مُطْرِقةً، تفكّر في مصرع ولديْها اللّذَيْنِ اغتالتْهما بيديها، (انتقاماً من زوجها الّذي أحبَّ امرأةً أخرى، وخطَبَها). ويغلبُ على الظّنِّ أنّها للمصوّر البيزنطيِّ تيموماخوس الّذي نال جائزةً قيّمةً، وثمناً باهظاً من يوليوس قيصر[117]. (٧٢)

[116] السِّمْط: خيطُ النّظم ما دام فيه الخَرزُ واللّؤلؤ، فإذا لم يكن فيه أحدُهما سمّيَ سِلْكاً.

[117] يوليوس قيصر (١٠١-٤٤ ق.م): من كبار القوّاد في روما والعالم. عشق كليوباترا ملكةَ مصر. تآمرت عليه الطّبقة الأرستقراطيّة في مجلس الشّيوخ، فاغتالته.

لوحات فلوبير:

هذه اللّوحاتُ موجودةٌ في قصّة تجربة القدّيس أنطوان (أنطونيوس[118]) لفلوبير[119] وهي:

أفروديت (ڤينوس)، وهي تنظرُ إلى المرآة، ولها شعر أشقر طويلٌ، يتدلّى على كتفيْها. وهي ضامرةُ النّهدين. نحيلةُ القَوام. عريضةُ الأرداف. حولَ رُكبَتَيْها نُقرتان. إنّها صغيرةُ القدمين. بالقرب من فمها ترفرفُ فراشةٌ. وَيَرْسُمُ، ضياءُ جسمِها حولَها، هالةً من الصَّدَفِ النّاصع. (واللّوحةُ من أحد تلاميذ بوشيه[120])

نبتون (بوزايدون): يمتطي دَلْفيناً[121] يشقُّ بزعانفه مساحةً زرقاءَ كُبْرى، تمثّلُ السّماءَ الزّرقاءَ أو البحرَ؛ لأنّ منظرَ المحيطِ يُتمّم منظرَ الأثيرِ[122] الأزرق، فيمتزجُ الماءُ بالهواء.

مارس (عند الرّومان) و(أريس) عند اليونان: يرتدي دِرعاً. وليس لهذه اللّوحةِ أصلٌ قديمٌ، وتبدو مستوحاةً من أعمالِ روبنـــز[123].

أبولّو: يظهر مشرقَ الوجه. يقودُ بذراعه اليُمنى الممتدّة أربعةَ جيادٍ بيضاءَ، وهي تجري. ويلوحُ أنّ هذه اللّوحة مقتبسةٌ من صورةٍ شهيرةٍ للفنّانِ غويدو[124].

هرميس (مركوري): لوحةٌ وضعتْ بصورةٍ مائلةٍ على قوسِ قُزَح. مع شعارِهِ الّذي يرمز إلى السّلام. والأجنحةُ الصّغيرةُ في قَدَمَيْهِ. والقبّعة المستديرةُ على رأسِهِ. وهي بِلا رَيْبٍ رَسْمٌ سريعٌ لروبنـــزَ في تصوير الأولمب. (٧٣)

[118] القدّيس أنطونيوس الكبير (٢٥٠؟-٣٥٦م): قدّيس مصريّ يعتبرُ أبا الرّهبان، تنسّك في صعيد مصر

[119] فلوبير (غوستاف) (١٨٢١-١٨٨٠): أديبٌ فرنسيّ، وروائيٌّ كبير. امتاز بالواقعيّة، والصّياغة الفنّيّة، في إطارٍ رومنطيقيٍّ. من رواياته: (مدام بوفاري)، (سالامبو)، (تجربة القدّيس أنطونيوس).

[120] بوشيه (فرانسوا) (١٧٠٣-١٧٧٠): رسّام فرنسيّ، اشتهر برسوم التّزيين والزّخرفة، من لوحاته: (زينةُ ڤينوس)، و(ديانا في الحمّام).

[121] الدّلفين: ج دلافين، دابّة بحريّة كبيرة يضرب بها المثل في السّمن والضّخامة، والكلمة يونانيّة.

[122] الأثير: هو عند علماء الطّبيعة: مادّةٌ لا تقع تحت الوزن، تتخلّلُ الأجسامَ، ويكون امتدادُ الصّوتِ والحرارة، بوساطة تموّجاتها.

[123] روبنـــز (١٥٧٧-١٦٤٠): من مشاهير المصوّرين الفَلَمَنْك، عمل في البلاطَيْن الفرنسيّ والإسبانيّ، امتازت أعماله بغنى الابتكارِ، ووضوحِ الضّوء.

[124] غويدو (ريني) (١٥٧٥-١٦٤٢): مصوّر إيطاليّ، امتازت لوحاته بدقّةِ الرّسمِ، وطراوةِ الألوانِ والتّعبير.

تأثير الأسطورة اليونانيّة في التّحوّل، والنّحت، وصنع التّماثيل:

التّحوّل: لقد تذكّرَ الجبّارُ أطلسُ[125] أنّ ثمّةَ نبوءةً، حذّرتْهُ من أنّ ابناً لزوسَ (جوبيتر)، سيسرقُ من تفّاحاته الذّهبيّات بعضَها، فحاولَ أطلسُ أن يقذفَه إلى الخارجِ، ليتخلّصَ منه. ولّما وجدَ برسيوسُ أنّ العملاقَ يفوقُهُ بقوّته كثيراً، فأدار وجهه بعيداً، ورفعَ رأسَ السّعلاةِ (ميدوزا) فتحوّل أطلسُ بجِرْمِه[126] الكبيرِ إلى حجرٍ، واستحالتْ لحيتُهُ وشَعْرُهُ إلى غاباتٍ، أمّا ذِراعاهُ وكتفاهُ، فاستحالتْ إلى شواطئَ صخريّةٍ، ورأسُهُ إلى قمّةٍ جبليّةٍ، وعظامُه إلى صخورٍ. وتضخّمَ كلُّ جزءٍ في حجمه، حتّى أصبح جبلاً. وكان هدفُ الآلهة أنْ تستقرَّ السّماءُ، بكلِّ نجومِها فوق منكبَيْه». (٧٤)

وقبل أنْ نستعرضَ فنَّ النّحتِ، لا بدَّ أن نذكر أنّ الأساطير اليونانيّة تنوّهُ أنّ الإله هيفيستوس (ڤولكان) كان مهندساً معماريّاً وحدّاداً، وصانعَ أسلحة، وعجلاتٍ حربيّةٍ، وقد بنى منازلَ الآلهةِ من النّحاسِ الأصفرِ، وصنعَ لهم الأسلحةَ الذّهبيَّةَ، الّتي كانوا يَطؤُون بها الهواءَ والماءَ، وينتقلون من مكانٍ إلى آخرَ بسرعةِ الرّيحِ، وبسرعة الفكرِ، وهو قد صَنَعَ من النّحاسِ الأصفرِ أحذيةً لخيولِ السّماءِ المطهّمةِ[127]، الّتي تمرقُ بعجلاتِ الآلهةِ الحربيَّةِ خلالَ الهواءِ، أو فوقَ سطحِ البحرِ. (٧٥)

ونحن إذا ما رأينا التّماثيل الإغريقيّة.. فحصناها، وتقمّصناها، وقرأنا ما وراءَها، وما نُقِشَ عليها.

وتحت تمثالِ أثينا كتابةٌ تقول:

«أنا كلُّ ما كانَ، ويكونُ، وسيكونُ. وما من بشرٍ رفعَ عنّـي ردائـيَ بعـدُ». (٧٦)

[125] أطلس: جبّار عظيم من التّيتان، كان أنواهم وأقربهم إلى الهدوء والسّلام. كلّفه أبو الآلهة، أن يحمل الأرضَ والسّماء، على رأسه ويديه. وتقول أساطيرُ القدماء: «إنّه يحمل العالم».

[126] الجِرْمُ: الجسم من الحيوان وغيره، والجمعُ أجْرامٌ وجُرومٌ وجُرُمٌ.

[127] المطهّمة: التّامّة الحسن.

وفي مكان الصّدارة الّذي انتصب فيه صنمُ المثّالِ فيدياسَ[128] المهيبِ المصنوعُ من الرّخامِ والذّهبِ للإله زوسَ (جوبيترَ)، يقولُ الشّاعرُ فرجيلُ:

«وقتئـــذٍ يفـــتحُ الأولمـــبُ الجبّـــارُ أبوابَـــهُ،
ويـــدعو ســـيّدَ الآلهـــةِ، وملـــكَ النّـــاسْ
وجماعتَـــهُ الخالـــدين، إلى مقامِـــهِ المرصّـــعِ بـــالنّجوم..».

ويقول أيضاً:

«ارتعـــدُوا أيُّهـــا البَشَـــرُ، وتقـــدّموا بالنّـــذورْ،
هـــا هـــوذا قـــدْ أقبـــلَ ســـيّدُ الأرضِ.». (٧٧)

ولقد بلغ من سيطرة الفنّ على الدّين، أنِ انحدرتْ شخصيّاتُ سكّان الأولمب، من المعمل الّذي وطّد نموذجَها، ومن الفترة الّتي نشأت فيها في تاريخ المدرسة الفنّية. فهناك أربابٌ – تحمل طابعَ المثّالِ (فيدياسَ) – مثلُ زوسَ (جوبيترَ) وأثينا. وهناك آلهةٌ تحمل طابعَ براكستيليس[129]، مثلَ أفروديتَ (ڤينوسَ)، ومثل باخوسَ (ديونيزوسَ) وأبولّو. وأخيراً ثمّةَ أربابٌ أخرى مَدِيْنةٌ بصفاتِ البطولةِ الرّشيقة، أو القويّة إلى أسلوبِ (ليزيبَ[130]) مثل: هرمسَ (مركوري)، وهرقلَ.

وبعد أن يرسِّخَ نحّاتٌ عبقريٌّ، وجهَ زوسَ (جوبيترَ) في أولمبيا، أوْ وَجْهَ أثينا في البارثنون[131]، ويوطِّدَ زِيَّهُما وهيئَتَهُما، لم تستطعْ أنْ تعدِّلَ فيها من بعدِه، عشْرةُ قرونٍ من الوثنيّة.

على أنَّ فيدياسَ لم يثْبِتْ فقطْ نموذجاً طبيعيّاً، لقد وهبَ هؤلاءِ الخالدينَ عظمةً ساميةً، وأناقةً وقوراً، بقيتا أبدَ الدّهرِ سجيّةَ هذه الآلهةِ. فلم يتوصّلْ تودُّدُ النّاسِ لها تودُّداً مُتَطَيِّراً، ولا خيالُهُمُ

[128] فيدياس: أشهر نحّاتي اليونان، عهد إليه بركليس بتزيين البارثنون في القرن الخامس قبل الميلاد، تعتبر أعماله ذروة الإبداع في الفنّ.

[129] براكستيليس (ت حوالي ٣٣٠ ق.م): نحّاتٌ يونانيٌّ، امتاز فنّه بالرّشاقة، وكان تأثيره كبيراً على حقيقة الحقبة الهلنستيّة. له تماثيلُ عديدةٌ لأفروديتَ (ڤينوس).

[130] ليزيب: (القرن الرّابع قبل الميلاد) نحّاتٌ يونانيٌّ، امتازت أعماله بالرّشاقة، والحيويّة الزّاخرة.

[131] البارثنون: معبد الإلهة أثينا، على الأكربول، في مدينة أثينا، بناه فيدياس في عَهدِ بركليس في القرن الخامس، وزيّنه بالتّماثيل والزّخارفِ والنّقوش.

المبتذلُ إلى أنْ يحطّا من هيبةِ تلكَ الأصنامِ الجبّارة.

ومثلُ هذهِ الملاحظة، تجعلُنا نُخَمِّنُ ما أوحتْ به هذه التّماثيلُ الشّهيرةُ، إلى تقوى المتّقينَ، وتفكيرِ الفلاسفة، وخيالِ الشّعراء. (٧٨)

وكان فيدياسُ وأعوانُهُ بين عامي ٤٧٤ و ٤٣٨ ق.م منهمكين في نحتِ تماثيلِ البارثنون، وحفْرِ نقوشِه، ويعتبر فيدياسُ أعظمَ مثّالٍ في بلادِ اليونانِ بأجمعِها، وأشهرُ التّماثيلِ الّتي صنعها تمثال أثينا بارثنوس. فاستخدمَ هذا الفنّانُ العاجَ والذّهبَ، للأجزاءِ الظّاهرةِ من الجسم، كما استخدمَ أربعينَ وزنةً من الذّهبِ لصنعِ الثّياب، ثمّ زيّنَه بالمعادنِ الثّمينة، والنّقوشِ المتقنة البديعةِ على الخوذة، والحذاء والدّروع. وقد وضع هذا التّمثال بحيث تقع أشعّة الشّمسِ مباشرةً، في يوم عيد أثينا على الثّيابِ الجميلة، وعلى وجه العذراءِ الشّاحب، من أبوابِ المعبد المقدّسة. (٧٩)

وقد كان فيدياسُ مولعاً بالضّخامة، فقد جعل ارتفاعَ تمثال زوس (جوبيتر) الجالسِ ٦٠ قدماً[١٣٢].. ووضعَ على (جبينِي) الإلهِ الرّاعدِ (القاتمَيْن)، (وغدائرِه المعطّرة) تاجاً من الذّهب، في صورةِ أغصانِ شجرِ الزّيتونِ وأوراقه، ووضع في يد الإله اليُمنى تمثالاً للنّصر، صغيراً مصنوعاً من الذّهب والعاج، وفي يده اليُسرى صولجاناً[١٣٣] مطعّماً بالأحجارِ الكريمة، وألبسَهُ ثوباً ذهبيّاً، نُقشَتْ عليه الأزهارُ، ووُضِعَ في قدميه خُفَّيْنِ من الذّهب المصْمت[١٣٤]. أما عرشُه فكانَ من الذّهب والأبنوس والعاج... وعُدَّ التّمثالُ من عجائبِ الدّنيا السّبع. وكان يحجّ إليه كلُّ من استطاع الحجَّ ليشاهدَ الإله المتجسّدَ فيه... ووَصَفَه ديوكريسوتوم[١٣٥] «أنّه أجملُ تمثالٍ على وجه الأرض». ونضيفُ إلى قوله هذا، ما قاله بيتهوفن[١٣٦] في الموسيقا: «إذا وقفَ أمامَ هذا التّمثال إنسانٌ، قدْ تراكمتْ عليه الهمومُ، وتجرَّعَ في حياته كأسَ المصائبِ والأحزانِ حتّى الثُّمالة[١٣٧]،

[١٣٢] القدم: تعادل ٣٠،٤٨ سم، أو ثلث يارد (اليارد تعادل ٩١،٤٤ سم).

[١٣٣] الصّولجان: عصا الملك، ترمز لسلطانه.

[١٣٤] المُصْمَت: يقال: «إناءٌ مُصْمَتٌ» خلاف مفضَّض.

[١٣٥] ديوكريسوتوم: ولد حوالي ٤٠م في مدينة بروسيا. لمع نجمه باعتباره خطيباً، وسوفسطائيّاً. لقّب بذيو (فم الذّهب)، كان من دعاة الوطنيّة اليونانيّة، ضمْنَ الإمبراطوريّة الرّومانيّة.

[١٣٦] بيتهوفن (لودفيغ فان) (١٧٧٠-١٨٢٧): من كبار الموسيقيّين الألمان. ولد في بون. من أهمّ سمفونيّاته سمفونيّتهُ التّاسعةُ.

[١٣٧] الثُّمالة: البقيّة في أسفل الإناء، من شرابٍ ونحوه.

وطار النّومُ الحُلْوُ عن أجفانه، نسيَ كلَّ ما يصيبُ الإنسانَ في حياته، من متاعب وأحزان».

وقال فيه كونتليان[١٣٨]: «قد أضاف بعضَ الشّيءِ إلى دينِ البلادِ، وكان جلالُهُ خليقاً بالإلهِ الّذي يمثّله». (٨٠)

وفي البارثنونَ، يشاهدُ الزّائرُ تمثالاً متّكئاً لثيسيوسَ، قويَّ الجسمِ، جبّاراً قادراً على تفكيرِ الفلاسفةِ، وسكون المتحضّرين.

وأمّا تمثال هيرا (جونو): أعظم إلهاتِ اليونان والرّومان، فيظهر على هيئة امرأة جميلة، تضع على رأسها غطاءَ العروسِ، وتاجَ الجبين، وتحملُ بيدها الصّولجانَ، وثمرةَ الرُّمان. ومن أشهرِ الطّيورِ المخصّصة لها، الطّاووسُ؛ لأنَّ ريشَهُ يحملُ العيونَ المئةَ للماردِ أرغوسَ، الّذي قُتلَ في سبيلها، وقد وُجِدَ لها تمثالٌ رأسيٌّ يُدعى: (جونو لود[١٣٩] فيري) اعتبره غوتهْ «مثالاً لجمالِ المرأة». (٨١)

وفي تجربةِ القدّيس أنطوانَ (أنطونيوسَ)، تلك القضيّةُ الّتي شغلت فلوبيرَ طيلة حياته الأدبيّة، يظهرُ لنا على نحوٍ أوضح، سيطرة التّشكيل على مخيّلته، وأسلوبه.

وإذا ما تطرّق الكاتب إلى آلهة الأولمب، وهي من خَلْقِ الفنّ الإغريقيّ، كانت أوصافُهُ دقيقةً كالملاحظات، الّتي تُدَوَّنُ في قائمةِ الأعمالِ الفنيّة. ويبدو أنّها تُظْهِرُنا في مُتحفٍ للنّحت والتّصوير القديم.

وإليكَ قائمةَ الأربابِ اليونانيّة:

– التّماثيلُ –

١– زوسُ (جوبيترُ): متربّعٌ على عرشِه. جسيمٌ. عاري الجذْع. يحمل شعارَ النّصرِ بيده، وبالأخرى الصّاعقةَ. نسرُهُ تحتَ قدميه. إنّه مرفوعُ الرّأس.

تمثال من رخام باروس[١٤٠]

٢– أثينا (منيرڤا): واقفة على قاعدة، وتعتمد على رمحها، يستُرُ صَدرها جلدُ الغورغون

[١٣٨] كونتليان (٣٥–٩٥م): رجل بلاغة، وناقد أدبيّ، ولد في شمالي إسبانيا، وأصبح أشهر المدرّسين الرّومان، ألّف كتابَ (تدريب الخطيب) قارنَ فيه بين الأدب الإغريقيّ، والأدب الرّومانيّ، وهذه المقارنة سببُ شهرةِ الكتاب.

[١٣٩] لود: مدينة إيطالية في لومبارديا.

[١٤٠] باروسُ: إحدى جزر سيكلادَ اليونانيّة، وفيها مُتحَفٌ ومقالعُ رخام.

(ميدوزا). ويهبط ثوبٌ من الكتّان، ذو ثنيّاتٍ منتظمة حتّى أظافر قدميها.

٣- باخوس (ديونيزوس): نراه في عربةٍ منخفضة، يجرّها إوَزٌّ جرّاً بطيئاً. متهدِّلُ الجسم، أمردُ. تزيّن جبهتَهُ أغصانُ الكرْمة. يمضي وفي يده كأسٌ تفيضُ خمراً، وغالباً ما أفاد الفنّانونَ من هذا الموضوع، في النّهضة والعصرِ الكلاسيكيّ.

٤- ديانا (آرتميس): وهي تخرجُ من الغابة، وقد شمّرَ ثوبَها مرمرٌ، من مدرسة ليزيب.

وهذا الجدولُ الوهميّ — لقصّة فلوبيرَ، تجربةِ القدّيسِ أنطوانَ (أنطونيوسَ) — هو لمتحف وهميٍّ يضمّ آلهةَ الإغريقِ في الرّسمِ والنّحت. (٨٢).

وأخيراً لا بدَّ لنا أنْ نذكرَ أنّ اليونان عَرَفَ في العصر الحديث، بعدَ استقلاله، موجةً جارفةً من الشّعر. واليونانيُّ بطبيعته شاعرٌ، فمخيّلتُهُ خلقت الأساطيرَ، ومخيّلتُهُ أوجدتِ الآلهةَ أيضاً، وروحُهُ حرّكتِ المَرْمرَ في الفنّ، وفكرُهُ جاب العوالم القصيّةَ.

ومن بين هؤلاء الشعراء العظماء الّذين أنجبتهمْ الشّاعرُ قسطنطين بالماس، الّذي ولد سنة ١٨٥٩ في باترا، من أسرةٍ اشتهرت بالعلم، كما اشتهرت بالكفاحِ الوطنيّ، في سبيل استقلال اليونان. له عشرةُ دواوين منها: (الوصايا العشر ليفتاح)، و(شبّابة الملك)، و(الحياة غير المتزعزعة)، و(القبر). وفي سنة ١٩٣٠ انتُخبَ رئيساً للأكاديميّة اليونانيّة، ومات سنة ١٩٤٣. وقد قال عنه الأديب الفرنسيّ رومان رولان[١٤١]: «إنّ الشّاعر اليونانيّ بالماس، يعتبر أعظم شاعر أنجبته أوربا». وقال عنه الأديب الفرنسيّ أندره جيد[١٤٢]: «بالماسُ أعظمُ من أنجبت اليونان، من يوم سقوطِها تحتَ السّيطرةِ الرّومانيّةِ حتّى الآن». وقد رُشّح بالماس سنة ١٩٣٤ لجائزة نوبل ففازَ بها.

[١٤١] رومان رولان (١٨٦٦-١٩٦٤): أديب فرنسيٌّ دعا إلى نبذ العنف، ونشر الحبّ بين النّاس، من رواياته: النّفس المسحورة، جان كريستوف. حاز على جائزة نوبل ١٩١٥.

[١٤٢] أندره جيد (١٨٦٩-١٩٥١): أديب فرنسيّ، من أشهر كتّاب القصّة، ومن أنصار التّحرّر الفكريّ والأخلاقيّ. من مؤلّفاته: (الباب الضّيق)، و(مزيّفو العملة). حاز على جائزة نوبل عام ١٩٤٧.

وها نحن نذكر نشيدين يتعلّقان بتأثير الأساطير اليونانيّة على شعره:

نشـــيد الأولمـب

أيّتهـــا الـــــرّوحُ القديمـــةُ الخالـــدةُ، أيّتـــــها الأمُّ الطّـــاهرةُ
للجمـــالِ العظـــيمِ الحقيقـــيّ، هَلُمّـــي النّزِلـــي، هَلُمّـــي أشـــرِقي،
هَلُمّي أبْرقي في مجـدِ أرضِـكِ، وسمائِـكِ في الطّريـقِ، في الكفـاحِ، في الصّـخْرْ،
هَلُمّــــي شِـــعِّي في الـــدفاعاتِ السّـــباقِ الشّـــريفْ،
واتحتــــي مـــن الحديــــد، وكلّلـــي بأغصـــانٍ لا تـــذبلْ
جسداً يليـقُ بـه الإكليـل. وإنّ الحقـولَ، والجبـالَ، والبحـارَ، تَشـعّ معـكِ،
كمـا يَشِـعُّ هيكـلٌ عظـيمٌ بشُـعاعٍ أبـيضَ، يُوشّـيه الأُرجـوانْ.
إنّ النّـــاسَ جميعـــاً يركضـــونَ، إلى هـــذا الهيكـــلِ
ليســجدوا لـــكِ، أيّتـــها الـــرّوحُ القديمـــةُ الخالـــدةْ!.

أثينـــا

أثينـــا، أيّتهـــا الـــبلادُ المكرَّمَـــةُ، المكلّلـــةُ بأكاليـــلِ الـــذّهبْ!
إنّ الآلهـــــةَ تحـــــومُ في أجوائِـــــكِ ســـــاهرةً،
لقـــد تَركَـــتْ أولِمْبَهـــا لكـــي تـــأتيَ، وترتـــاحَ في ترْبَتِـــكِ
المغروســـةِ بـــبعضِ الصّـــخور، لأنّ إنســـائكِ أكثـــرُ تفهُّمـــاً،
ولأنّ الصـــلاةَ في جـــوِّكِ تتصـــاعدُ مـــن أعمـــاقِ القلْـــبْ،
وقيثـــارةَ الشُّـــعراءِ تصـــدحُ في عذوبـــةٍ، والشّـــرابَ النّـــادرَ
الّـــذي يطـــرُدُ الهمـــومَ، يُقَـــدَّمُ إلى الخالـــدين في كـــؤوسٍ صـــافيَةْ.
والصّـــوَرَ الّـــتي يحفرهـــا الفنّـــانون، كـــذلك تُحْفَـــرُ في صـــدْقٍ وإخـــلاصْ
فـــوقَ المرْمَـــرِ المحـــافظ علـــى رونقـــه، وبياضـــه النّاصـــعْ.
هنـــا يـــبرُقُ ويرعُـــدُ زوْسُ (جـــوبيتر) ليـــؤدِّب الأشـــرارْ،
وفـــوقَ الـــزَّوجينِ السّـــعيدين، تُمْطِـــرُ هـــيرا ينـــابيع الحـــظِّ،

والكـــائنُ الأكـــبرُ لا يمـــوتُ، وإلهـــةُ الحقـــولِ ديميتـــرُ، تغـــرسُ السّـــنابلَ،
وأفروديتُ (فينوسُ) تزرع الـــوُرودَ، وهـــرميسُ يقـــفُ بجســـده الفـــارغ متـــأمّلاً.
أمّـــا بنـــاتُ جـــوبيترَ، آلهـــةُ الرّيـــاحِ، فتصـــلُ علـــى مهْـــلٍ
وتتبعُهـــــا إلهـــــةُ الأخـــــلاقِ، بشـــــباكها الرّنّـــــانْ،
وتعقـــدُ ربّـــاتُ الشّـــعْرِ في الهـــواءِ الطّلْـــقِ النّقـــيِّ، حلقـــاتِ الـــرّقصْ.
ويـــركُضُ كـــاوُوسُ[143] فتتفجّـــرُ الينـــابيعُ، كأنّهـــا بناتُـــه يظلّلـــهُنّ النّـــدى،
وتنسكِبُ في البطـــاحِ، فتتمـــزّقُ أحشـــاءُ الأرضِ، علـــى أُلـــوفِ الأزاهـــرْ. (٨٣)

وبعدَ أن انتهيتُ من بيانِ تأثيرِ الأساطيرِ اليونانيّة في الأدب والفنّ، أتساءل ماذا كان عملي في ترجمة هذه الأساطير؟.

وقبل أن أشرع في توضيح هذا العمل، لا بدّ من ذكر نصوصٍ، تتعلّقُ بعبقريّة اللّغة العربيّة، الّتي تُتَرْجَمُ إليها هذه الأساطيرُ، وضَرورةِ أن يصلَ المترجمُ إلى صفِّ المترجَم عنه، بل يتفوّق عليه، وأن تسريَ في لغةِ التّرجمة النّثريّة روحٌ شعريّةٌ بقدر الإمكان. وأستهلّ النّصوصَ بقولِ جرجي زيدان: «إنّ اللّغة العربيّةَ الفصحى أرقى لغةٍ في العالم»[144]. وشرْح العلاّمة الدّكتور عبد الكريم اليافي في مقالة له بعنوان «الموازنةُ في علوم البلاغة والأساليب، أساسُ فنّ التّرجمة»[145] حيث يوضّح منـــزلةَ اللّغة العربيّة، وضرورة ارتفاع المترجم إلى مستوى التّرجمة العالية، قائلاً: «نَشَرَتْ مجلّة (دُيوجين) الّتي تصدرُ برعاية المجلسِ الدّوليّ، والعلوم الإنسانيّة، وبمعونة اليونسكو، في عددها السّابعِ والخمسين مقالاً تناول مشكلةَ التّرجمة الأدبيّة من شعرٍ ونثر، وناقشَ النّظرياتِ الّتي تَمْنَعُ إمكانَها ويُسْرَها، واقترحَ الأساسَ الّذي يصحُّ أن تقوم عليه التّرجمةُ، وهي الموازنةُ في علوم البلاغة بوجهٍ عام..

وكاتبُ هذا المقالِ (إفيم إتْكنْد) أستاذٌ في معهدٍ تربويّ، في لينِنغراد (سان بيترسْبورغ). ولعلّ

[143] كاووس: يُقصَدُ به الهيولى الأصليّة غير المتشكّلة، الّتي ولدتْ جيا (الأرض)، والجحيمَ، والحبَّ.

[144] من مقالٍ له: «اللّغة العربيّة الفصحى والعاميّة» من مختارات كتاب جرجي زيدان، الصّادر عام ١٩٦٩ – ص ١٨٨.

[145] مجلّة الآداب العالميّة الّتي تصدر عن اتّحاد الكتّاب العرب بدمشق – العدد ١٣٠ ربيع ٢٠٠٧ – ص٩ – ١٠.

الأديبَ العربيَّ حين يطَّلعُ على مشكلاتِ التّرجمة بين تلك اللّغات، يجد مشكلاتِ التّرجمة إلى العربيّة طبيعيّةً، ولا حاجةَ إلى المبالغة فيها.

وسياقُ المقال يشيرُ إلى ضرورةِ الإطّلاعِ الواسعِ، على مفرداتِ اللّغة، ونَحْوِها، وخزائنِ آدابها، ونهجِ البيانِ فيها، وأساليبه، ومهارةِ المترجمِ العبقريِّ، الّذي يباري المؤلّفَ الأصليَّ. هذا وقد نوّه المؤلّف (إتكند) بثراء اللّغة الرّوسيّة، وإيجازها وجمالها. ولا ريب في ذلك عندنا. ولكنَّ اللّغةَ العربيّةَ أكثرُ ثراءً، وأوسعُ صدراً، وأعمقُ غوراً، وأوجز بياناً، وأطوعُ مراعاةً لمقتضى الحال».

وقولِ كمال يوسف الحاجّ أيضاً في كتابه «فلسفة اللّغة»[١٤٦]، أي فلسفة اللّغة العربيّة، ما يلي:

«وقد أكثرَ اللّغويّونَ من التوغُّل في مجاهلِها، حتّى بانَ لَهُمْ ما يزيد الإنسانَ هُياماً بها. لقد كان انصبابُهم عليها قويّاً. فاستقرؤوا كلَّ ألفاظِها، واستنطقوا كلَّ حروفها، حتّى أَلَّفُوا الكتبَ الضّخمةَ عن كُنْهِها. ولا نبالغُ إنْ نحن قلنا:

«إنّها من أرحب لغاتِ الأرض. ومن أسلسِها.. وأمتعِها». ويقول في الصّفحة ٢٨٨: «لقد عُرِفَ شعبُها (أي شعبُ العربيّة) بلطافة حسِّه، ونصاعةِ فكرِه، وصفاءِ ارتقائه، ولا شكَّ أنّه عُرِفَ بحسنِ بيانه، وفصاحة لسانه، وقد عُرِفَ أيضاً، أكثر ما عُرِفَ بشغفه العريضِ بتعظيم شأنِ لغته، ممّا حداه إلى الإيمان بأنّها أشرفُ اللّغاتِ قاطبةً، وأوسعُها. والحقّ إنّها جميلةٌ كلَّ الجمالِ، غنيّةٌ كلَّ الغنى، مطواعةٌ إلى حدٍّ بعيد، تتجلّى فيها الصَّنْعَةُ الدّقيقةُ، الشّفّافةُ والرّقيقةُ. لقد كان للعربيِّ حسٌّ رهيفٌ، جعله يضع ألفاظاً لكلِّ ما شاهدَهُ من المعاني، حتّى كثُرتِ المفرداتُ، فجاءتْ غزيرةً جدّاً. ولو رجعنا إلى خزائنِ تلك اللّغة مفتّشينَ عن الكنوزِ المدفونةِ فيها، لَعَثَرْنا على مفرداتٍ لا يُعَبَّرُ عنها إلاّ بعباراتٍ.».

وقال في الصفحة ٢٠٨: «لقد قلنا، فيما سبق: إنَّ التّرجمة من اللّغة الأجنبيّة إلى اللّغة القوميّة تضع المترجمَ حيالَ أفكارٍ ممتازة، ومعانٍ كاملة، يجب أن يرتفع إلى ذروتِها العالية، كي ينقلها — مبنىً ومعنىً — إلى لغته الأمّ. وقلنا أيضاً: إنَّ غايةَ التّرجمة، والحالةُ هذه، هي أنْ تُرفَعَ اللّغةُ القوميّة

[١٤٦] فلسفة اللّغة — الطبعة الأولى — دار النّشر للجامعيّين ص ٢٠١.

إلى مصافِّ اللّغة المنقول عنها، وأنْ نقيسَها بها في أسمى هُنَيْهاتها. ولذا كانت (أي التّرجمة الحقّة) خَلْقاً ثانياً. فإذا تمّ ذلك (ونادراً ما يتمُّ) لا تعود التّرجمةُ ترجمةً، بل تصبح من صميم الأدب الأمّ – أو الأدب القوميّ – إذْ تخلُدُ كما لو كان قد بُدِئَ منها توّاً. أما الشّاهدُ فلا ينقصُنا، فنذكر أوّلاً «كليلةَ ودمنةَ[147]» تحفةَ ابنِ المقفّع[148]، وهي ترجمةٌ. إلاّ أنَّ ابنَ المقفّعِ أبدعَ، وحلّقَ في النّقل حتّى ساوى الأصلَ. لذلك لم يبقَ عملُهُ بمثابة ترجمة. لقد كان خلْقاً ثانياً. ومن هنا ولوجُ (كليلةَ ودمنةَ) هيكلَ الخلودِ في الأدبِ العربيِّ، كساعةٍ من ساعاته المُكوكَبة.

ولنا شاهدٌ آخرُ حديثُ العهد، يرسِّخُ ما نذهبُ إليه... ويقوّيه.. ويدعمُهُ أكثرَ فأكثرَ، ونعني به قصيدةَ «البحيرة[149]» للدّكتور نقولا فيّاض[150]، الّتي هي ترجمةٌ لقصيدة الشّاعر الفرنسيّ لامرتين[151]. هنا يَبِينُ لنا واضحاً عملُ التّرجمةِ الخلاّقة. فأمامَنا أدبيانِ صحيحان. الأوّلُ (أي المنقول عنه) يتحدّى الثّاني (أي النّاقل). وقد أتتْ ردّةُ الفعلِ عظيمةً كفعل التّحدّي ذاته. النّاقلُ من طرازِ المنقول عنه.لهذا لم يعمَدْ إلى نثرِ ما نَظَمَه لامرتينُ شعراً. لقد ضربَ الشّعرَ بشعرِه، وضربَ الوزنَ بوزنٍ، والقافيةَ بقافيةٍ. وضربَ الجوَّ الكبيرَ بجوٍّ كبيرٍ، فجاء النَّفَسُ خالداً في النّاقلِ خلودَهُ في المنقولِ عنه. لذا صارت هذه القصيدةُ من عنديّاتنا... ومن روائعِ الأدبِ العربيِّ

[147] كليلة ودمنة: كتاب في تهذيب النّفس، وإصلاح الأخلاق. والإرشاد إلى حسن السّياسة. جعلوه على ألسنة الحيوانات. نقله ابن المقفّع عن الفهلويّة القديمة، الّتي كانت بدورها قد نقلته عن الهنديّة، في عهد كسرى أنوشروان.

[148] ابن المقفّع (عبد الله) (ت عام ٧٥٩م): مؤلّف عربيٌّ فارسيّ الأصل. قتله والي البصرة بأمر من أبي جعفر المنصور، وأماته شرَّ ميتة لأنّه كان يكرهه. نقل من الفهلويّة إلى العربية (كليلة ودمنة) وله: (الأدب الصّغير)، و(الأدب الكبير).

[149] البحيرة: نظم لامرتين هذه القطعة الخالدة في بحيرة بورجيه من سفوا، وقد وفد على إكس عام ١٨١٧ ينتظر قدوم جوليا (بطلة قصّة رفائيل) إليها. وجوليا يومئذٍ كانت تكابد غُصصَ الموت على سرير المرض، فلم تُلَبِّ نداءَهُ، ولم تستطع لقاءه، فزفر لامرتينُ هذه الزّفرة، وأرسل هذه العَبْرة، من صدرٍ مكروبٍ، وعينٍ قريحةٍ، ثمّ عاد إلى (ميلي)، شاردَ اللّبّ، مضطرم الجوانح.

[150] فيّاض (نقولا) (١٨٧٣-١٩٥٨): طبيبٌ لبنانيٌّ، شاعرٌ، أديبٌ، خطيبٌ، له: (رفيفُ الأقحوان)، ونذكر من ترجمته لأبيات البحيرة هذين البيتين:

هل تذكرينَ مســاءً فوقَ مائكِ إذْ ... نجْري، ونحن سكوتٌ في تصابينا؟
والمــوجُ والبحــرُ والأفلاكُ مُصْغيةٌ ... معنًـــا، فلا شيء يُلْهيها ويُلْهينـــا

[151] لامرتين (ألفونس دو) (١٧٩٠-١٨٦٩): من مشاهير الشّعراء الفرنسيّين، وزعيم الحركة الرومنطيقيّة. زار الشّرقَ وشُغِفَ به. من مؤلّفاته الشّعريّة: (التّأمّلات)، و(جوسلين)، والنّثريّة (رحلة إلى الشّرق).

الحديث.. ولقد أصبحت من أدبنا السّائر.».

ماذا نستنتج من هذا؟ نستنتجُ أنّ الأدبَ: مبنىً، قَدْرَ ما هو: معنىً. المَبْنى هنا صاحبُ الكلمة الفصْلِ. فالمعاني وحدَها لا تُبْقَى، ولو كان ذلك يصحُّ لَنثرَ الشِّعْرُ، وهانَ الأمرُ، وكُتِبَ الخلودُ لصعاليك القلم. ولكنَّ القضيّةَ لا تقفُ عند هذا الحدِّ، إذْ لا وجودَ للمعنى دون المبنى.

فالمعنى الجميلُ جميلٌ بمبناهُ، والمبنى الجميلُ جميلٌ بمعناهُ، ولهذا كان الأدبُ الرّفيعُ يجمع بينهما.

وإنّه لواضحٌ مِمّا سبقَ أنّ المعنى الّذي يقصدُهُ عريقُ النّسَب. إذْ إنّ المعاني على ضربين: ضرب يرفُّ مع الأرضِ، فلا يسمو، وهذا الضّربُ يتناولِ كلُّ واحد، لا يستلزم كَدّاً ولا عَرَقاً في البحث عنهُ، إنّنا نقولُه في سبيل الوصول إلى تحقيق حاجة قريبة. أمّا الضّربُ الثّاني من المعاني فهو الّذي يندرُ وجودُه، فلا يحدث إلاّ على أيدي الّذين يطاردونَهُ بكدٍّ وعرق، مَثَلُهُ مَثَلُ اصطياد اللّؤلؤِ، في قاعِ البحارِ. ولهذا يجب على صيّاديه، وهم من فئة العباقرة، أن يستدعوا له الصّناعةَ النّادرةَ. وذلك الضَّرْبُ من المعاني لا يُتَنَبَّهُ له، إلاّ عند الأمورِ الجليلة، لذا كان أمرُهُ جليلاً للغاية، لا يُتَّكَلُ في تأديته على العبارة المفهومة فقط، بل يُتَوخّى له البيانُ الجميلُ، وإلاّ ذهب حسنُهُ، وطُمِسَ نورُهُ».

ونزيد على ما ورد في نَصَّي كمالِ يوسفِ الحاجّ، من ذكر نجاح تَرْجَمَتَي ابن المقفّع، كتابَ (كليلةَ ودمنةَ) من الفهْلويّة قديماً، وترجمةَ قصيدةَ نقولا فيّاض (البحيرةَ) للامرتين من اللّغة الفرنسيّة حديثاً، ترجمَةَ فيتزجيرالدَ[152] الإنكليزيِّ رباعياتِ عُمَرَ الخيّام[153] من الفارسيّة إلى

[152] فيتزجيرالد (إدوارد) (١٨٠٩-١٨٨٣): شاعرٌ إنكليزيٌّ، نقل رباعيّات عمر الخيّام من الفارسيّة إلى الإنكليزيّة عام ١٨٥٩.

[153] عمر الخيّام (ت ١١٣٢؟): عالمٌ وشاعرٌ فارسيٌّ رقيقٌ، ساهم في إصلاح الحسابِ السّنويِّ الفارسيِّ ١٠٧٤. له (مشكلاتُ الحساب) و(الجَبْرُ والمقابلة). وقد نُقِلت الرّباعيّات إلى أكثر اللّغات الحيّة، وعرّبها شعراً فيتزجيرالد إلى الإنكليزيّة، ووديع البستانيّ، وأحمد الصّافي النّجفيّ، وأحمد رامي، ومحمّد السّباعيّ إلى اللّغة العربيّة، والّذي اخترنا من ترجمة الأخير هذين البيتين:

قبرُ بَهْرامَ* الّذي صادَ الأسودْ   فوقَهُ الذؤبانُ تغدو والفهودْ

من حِمى جمْشيدَ ** مَتاجُ السِّباعْ

* بهرام: ملكٌ فارسيّ

** جمشيد: بطل إيران الأسطوريّ

الإنكليزيّة، الّتي تفوّقَ بها على الأصل، كما يُجمعُ النّقّادُ العالميّون على ذلك.

ويقول جبرا إبراهيم جبرا في مقالة له عن الشّعرِ والفنِّ الرّوائيّ[154] ما يلي: «فالرّواية حتّى في عصر النّثر هي: (أفضلُ الفنون) وعاءً جديداً، لطاقة شعريّة قديمة. ومن معالم الحداثة في الأدبِ في هذا القرن، اهتمامُه الشّديدُ بالفنِّ الرّوائيّ. فقد بتْنا نرى عدداً كبيراً من الدّراساتِ النّقديّة، والبِنْيويَّة، تنصبُّ بشكلٍ خاصٍّ على الرّواية وصناعتها الإبداعيّة (الّتي يُطْلَقُ عليها مُصْطَلَحُ Poetics of the novel» ص ١١. ويقول أيضاً في ص ١٣: «فالشّعر سمَةُ الأصالة في كلِّ فنٍّ يعتمدُ الكلمةَ. وإذا كانت الفنونُ كلُّها تطمحُ إلى الحالة الموسيقيّة، كما قال: (وُلْتَر باتر[155]) فهي إنّما تفعلُ ذلك عن طريق الشُّحنَة الشّعريّة الكامنة فيها. والّتي تحمل في تضاعيفها الكثيرَ من سرِّ الموسيقا. اعْزِلِ الشّعرَ عنها تُسْقِطْها جميعاً، وتصبحْ شيئاً غيرَ الإبداع. ولعلَّ واجبَ الرّوائيِّ المبدع في النّهاية، هو أن يكونَ قد حوَّلَ الحياةَ بزخْمِها، وبؤْسِها، وروعتِها، إلى ما يشبهُ القصيدةَ، فيكون بذلك قد استخلص الذّهبَ من المعادنِ الأخرى، وبهذا يحقّقُ الرّوائيُّ المبدعُ امتيازَهُ على غير المبدع، رغم أنَّ الاثنينِ يعرفانِ الأفراحَ والمآسيَ نفسَها، ويتحدّثان عن الأفراحِ والمآسي نفسِها، الّتي هي إطارُ الحياةِ اليوميِّ لكلِّ إنسانٍ».

وأخيراً لا بدَّ من ذكر أنواع التّرجمة[156]:

١- التّرجمة الحرفيّة وهي أصدق وجوه التّرجمة، فيتقيّد المترجم ناقلاً المعنى بالتّفصيل مع تَقَيُّدِهِ بحرفيّه الكلمات.

٢- التّرجمة غير الحرفيّة: إنَّ بعضَ قِطَعِ التّرجمةِ تتضمّنُ: الاستعاراتِ، والجناساتِ اللّفظيّة، والمجازات. وهذه تختلف كثيراً، وتتباينُ في اللّغات، فإذا ما ترجَمتَها ترجمةً حرفيّةً بدت سَمِجةً، ركيكةً، بحيث إنّها لا تتّفقُ وروح اللّغة المُتَرْجَم إليها. وفي هذه الحالات

[154] في كتابه: «تأمّلاتٌ في بنيانٍ مَرمَريٍّ – دراساتٌ وحواراتٌ –» الصّادر عن دارِ رياضِ الرّيّسِ للكتب والنّشر ١٩٨٨.

[155] باتر (وُلْتَر هوراتيو) (١٨٣٩–١٨٩٤): أديب وناقد إنكليزيّ، من كبارِ دُعاة حركة (الفنّ للفنّ). امتاز بأسلوبٍ دقيقٍ واضحٍ. له دراساتٌ في تاريخ النّهضة الإيطاليّة، وعن الرّومنطيقيّين الإنكليز.

[156] المرجع: التّرجمة الحديثة – الجزء الثّاني – المؤلّفون: أ. مطر: بكالوريس علوم – ف صايغ: بكاليورس علوم – ف. عوده: مجاز بالحقوق، النّاشر: مكتبة لبنان – بيروت – الطّبعة الثّانية ١٩٦٣.

يُستَحسنُ التصرّفُ المعقول في التّرجمة، ليتمكّنَ المترجمُ من تأديةِ المعنى، وخصوصاً إذا تعذّرتْ تأديتُهُ بدقّةٍ عن طريق التّرجمة الحرفيّة.

٣- التّرجمةُ بتصرّفٍ: وهي تقومُ على التّقديم، والتّبديلِ، والتّأخير، والحذف، والاقتباس، والزّيادة، وتبديلِ الكلمات، والعبارات. ولا يلجأ إلى هذا النّوع من التّرجمة في (درسِ فنِّ التّرجمة)، بل يعتمده أصحابُ المجلاّت، ومترجمُو الكتب.

وَإنّها لرحلةٌ ممتعةٌ تلك الرّحلةُ السّابقةُ، الّتي استعرضْتُ فيها ما مرَّ من نصوصٍ لأولئك الأدباءِ الجهابذة[157] العرب، الّذين أجادوا أيّما إجادةٍ في تمجيد لغتهم العربيّة الفصحى، وقالوا عنها ما خلاصتُه: «تُبرز، دقّة اشتقاقاتها: بسبب غناها، واحتوائها كلَّ خلجةٍ من خَلَجات الحياة. وبسبب سعَتِها وشمولِها: تستوعبُ جميعَ الآداب الأخرى، إنْ وُجدَ بين أبنائها المترجمُ المتمكّنُ، الواسعُ الاطّلاعِ على تراثها العظيم. وبيّنوا للملأ أنّ هذه اللّغةَ الّتي تحوي الدُّرَّ في أحشائها، يتجلّى في ألفاظها وعباراتِها الجمالُ والإبداعُ». فهي لغةٌ شاعرةٌ رائعةٌ حتّى في نثرها، وباستطاعتِها جلاءَ أساطيرِ العالَمِ، و جلاء أقاصيصِهم وملاحِمِهم، وتمثيليّاتهم، تعريباً وترجمةً، وخاصّةً كلّ ما يتعلّق بثقافة اليونان، وأقاصيصهم الأسطوريّة.

فأيّةُ قرابةٍ مثلاً تربطُ بين الشُّعوبِ فكريّاً وأدبيّاً، أوْشَجُ وأقوى من رابطةِ اليونانِ والعرب؟ فتاريخُ اليونان شعريّاً زمنَ هوميروسَ العظيمِ يشبه العصرَ الجاهليَّ، وما تلاه من زمنِ المخضرمينَ من الشّعراء، والأمويّين منهم، حتّى العصر العبّاسيّ، أيّامَ الخليفة العبّاسيِّ هارونَ الرّشيد. كما عبَّرَ مترجمُ الإلياذة شعراً إلى لغتنا العربيّة، الشّاعرُ والأديبُ الكبيرُ سليمانُ البستانيُّ[158]، وخاصّةً بمقدّمته الشّهيرةِ الّتي بلغتْ مئتي صفحة، في دراسة اللّغاتِ والآدابِ ومقارنتِها. وهو عن جدارةٍ — الخائضُ الغَمْرَ، والمَيْمونُ طائرُهُ[159] — في إتقانِ اللّغتينِ العربيّةِ واليونانيّة، والتّبحُّرِ في غمارِ آدابِهما، واعتبارِهما مُضيئَتَي الكَوْنِ أدباً، وشاعريّةً فذّةً، وخيالاً مبدعاً، ورنّاتٍ موسيقيّة.

[157] الجهابذة: ج الجَهْبَذ، وهو النّاقدُ العارفُ بتمييز الجيِّد من الرّديء.

[158] سليمان البستاني (١٨٥٦-١٩٢٥): أديب وشاعر لبنانيّ، ولد في بكشتين. كان وزيراً في الأستانة. نال شهرةً واسعةً لتعريبه إلياذة هوميروس شعراً، وبالمقدّمة الّتي وضعها عليها فكانت نموذجاً للدّراسة الأدبيّة، ومقارنة الآداب.

[159] الخائضُ الغمرَ، والميمونُ طائرُه: شطرُ بيتٍ يمدح فيه الشّاعرُ الأخطلُ الكبيرُ عبد الملك بنَ مروانَ الأمويَّ. وقوله الغمر: معظم البحر- والميمون: ذو اليُمْنِ ج ميامين: أي المبارك الطّلعة.

وحين كنت أتصدّى لترجمة هذه الأساطير، وبخاصّة عندما تشتدّ فيها الأزَمات، وتَستَعرُ المعارِكُ، وتَتَوالَى الخطوبُ، كنت أستعملُ سلاحِيَ البلاغيَّ الّذي أفدتهُ من السِّيَرِ الشّعبيّة العربيّة، الّتي لا تختلفُ في تعابيرها عن هذه الأساطير الخلاّقة. فمنْ وَحْيِها كنتُ ألجأُ إلى الأساليبِ الحيّةِ في الكلام: من أمرٍ، واستفهامٍ تارةً، وتَمَنٍّ، وتَرَجٍّ، وعَرْضٍ، وتحضيضٍ، تارةً أخرى.

وبصورةٍ تلقائيّةٍ كنتُ أصوِّر الطّبيعة، وأبرزُها في أثوابِها القُشُب، وأتجاوز النّصَّ ببعضِ التّوسّعِ، وأبالغُ في التّشجيعِ على فعلِ الخير، أينما وجد، وتَجنُّبِ الشّرِّ، في جميع مناحيه، وأُندِّدُ به تنديداً شديداً، ولاسيّما حينما كانت عُقَدُ هذه الأساطيرِ تزدحمُ بمفاجآتها غير المتوقّعة وغيومِها الملبّدة، وتتعاظم الأمورُ، وتتّجه في تأزُّمِها إلى أوضاعٍ مأساويّةٍ، يُنتظَرُ فيها الفَرَجُ من آلهة لا تنامُ لها جفونٌ، بل تراقبُ من جبلِ الأولمب بعيونها اليَقِظَة بني البشر، فتصبُّ اللّعنات على المسيءِ، وتقذفه بالصّواعقِ المحرقة، وتعاقبه عقاباً صارماً دون رحمةٍ أو شفقة، ولكنّها تجازي في الوقت نفسه المحسنَ بكلِّ أنواعِ المساعداتِ والدّعمِ المستمرّ بشتّى الوسائل حتّى يستريحَ قلبُه، ويرتاحَ خاطِرُهُ. وهذه المواقف تذكّرني ببَيْتَي أبي فراسٍ الحَمْداني[160]

إنّـــــا إذا اشْــــتَدَّ الـــــزّما   نُ، وَنَـــابَ خَطْـــبٌ وَادْلَهَـــمْ[161]
أَلفَــــيْتَ حَــــوْلَ بُيــوتِنــــا   عُــدَدَ الشّجاعَــــةِ والكَــرَمْ

وهكذا فإنّي كنتُ أثناءَ التّرجمةِ لا أمْنَعُ نفسي من أن أمْتَحَ[162] من مَعِينِ ثقافةٍ عربيّةٍ أصيلة، طالما تدرّجتُ بالتّعمّقِ في تراثها الغنيّ، وخبايا تاريخها العريق، وأسرارِها المعنوية الجوهريّة، وبطولاتها الباهرة، خلال تاريخ حياتي.

وكنتُ دائماً وأبداً، أخُصُّ التُّراثَ اليونانيَّ الفلسفيَّ، والتّاريخيَّ، والفكريَّ، والأدبيَّ، وخاصّةً المسرحيّات بأولى اهتماماتي. وقد دَعَّمْتُ مطالعاتي الكثيرةَ، بقراءة القصصِ والملاحمِ العالميّة،

[160] أبو فراس الحمداني (٩٣٢-٩٦٨): ولد في الموصل. شاعرٌ فارسٌ. ابنُ عمّ سيفِ الدّولة صاحب حلب، الّذي قلّده إمارة منبج. أسره البيزنطيّون أربعَ سنوات، استولى على حمص بعد وفاة سيف الدّولة فَقُتِلَ. شعره عاطفيٌّ وجدانيٌّ يدل على حبّه لأمّه، وثقته بالله. له ديوان جمعه ابن خالويه. أشهر قصائده الرّوميّات.

[161] الخطب: المصيبة

[162] أمتح: أستقي

وآثرتُ ملحمتَي هوميروس – الإلياذة والأوديسّة – بالقراءة لأنّ أحدَ الشّعراء الأوربيّين يقول في مؤلّفهما: «ليكنْ هوميروسُ شُغْلَكَ الشّاغلَ، اقرأْهُ وتمتّعْ بدُرَرِهِ في النّهارِ، وأعِدْهُ في اللّيل». وتدعيماً لهذا التّراث العظيم، لم أُغْفِلْ عن مطالعة الإنيادة الرّومانيّة للشّاعر فرجيل، أستاذ دانتي في كوميديته الإلهيّة، لأنّها امتدادٌ لعبقريّة هوميروس، وملحمة كلكامش أيضاً من تراثنا القديم، وغيرها من الملاحم بترجمات أدباءَ ذوي باعٍ طويلٍ بالتّرجمة، ومطّلعينَ اطّلاعاً وافياً على أسرار لغة عربيّة فُصحى، قيل فيها:

لغـــةٌ إذا وقعـــتْ علـــى أسماعِنـــا كانت لنـــا بَـــرْداً علـــى الأكبـــادِ.

وقد استَهْلَلْتُ عملي بترجمة حرفيّة للأقاصيص الإغريقية، ومراعاة معناها الأصليّ كما ورد في لغتها الإنكليزيّة. وبعدَ أن استوعبتُ التّرجمةَ الحرفيّةَ الجافّةَ ومضامينَها تماماً، سعيتُ سعياً حثيثاً إلى تجميلِ النّصّ، وإغْنائه بالصّوَر، والمجازات والكنايات، والأوصاف الموحية، المستمدّة من روحِ النّصّ، بحيث تتجلّى الصّياغةُ العربيّةُ بارزةً عميقةَ الغَوْر. لأنّ هذه الأساطيرَ العجيبةَ ذاتُ معانٍ عميقة، طالما سَلَبَتْ ألبابَ الشّعراءِ الأوربيّين بمفاجآتها، وخيالاتِها، وتوثّباتها الغريبة، ورموزها المتعدّدة المغزى، لذلك فهي تحتاج بالتّالي في تعريبها إلى ثقافة عربيّة واسعة، تسمو إلى مستوى معانيها.

وقد كان هاجسي أن أمنح هذه التّرجمةَ نكهةً عربيّةً خالصةً، تفوقُ نكهةَ القهوة العربيّة المدقوقةِ (بالمهباج)، والمهيّأة على يَد صنّاعٍ ماهرٍ، يمنحُ شاربيها لذّةً لا تفوقُها لذّةٌ أخرى. وبمعنىً آخرَ قصدتُ بأنْ لا يشعر القارئ بأنّه يقرأ قصصاً مترجمةً ترجمةً حرفيّةً، يسودُها الجفافُ والالتواءُ والعُجمةُ، بل يقرأُ قصصاً عربيّةً خالصةً. وفي الحقيقة فإنّني طَمحْتُ أن أجعلَ هذه الأقاصيصَ المترجمةَ كما قال عبد الله العلايلي[163]: «(أغانيَ الأغاني)، تسميةٌ تُشْعِرُ بإيحائها الّذي هو (وَحْدَةُ الأسْرِ) على حدّ تعبيرِ أرسطو في لُغَة مترجميه العرب».

[163] عبد الله العلايليّ (١٩١٠-١٩٩٦): أديبٌ وباحثٌ ولغويٌّ وناقدٌ لبنانيٌّ. درس في الأزهر. من كتبه (مقدّمة لدرس لغة العرب)، و(المعجم) المجلّد الأوّل، و(المرجع) الجزء الأوّل، و(المعرّي ذلك المجهول)، و(الإمام الحسين) وغيرها. وقد وردت مقولته هذه، في كلمة تقدير وجّهها للخوري يوسف عون، الّذي راجعَ حواشي كتابه (أغاني الأغاني) وهو مختصر كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني.

ولقد شفع لي – بالطّموح إلى صياغة ترجمتي بأسلوب أغانٍ تَسرُّ القارئَ – اعتقادٌ راسخٌ بأنّي لستُ أنقل نصوصاً فلسفيّةً، أو فكريّةً محضةً، أو تاريخيّةً، أو علميّةً تستدعي الدّقّةَ المتناهيةَ، فتصرَّفْتُ بعضَ التَّصرُّفِ فيها؛ حيث إنّه من المعلوم أنّ قارئَ الأدبِ القصصيِّ، يصبو في أيِّ زمانٍ ومكانٍ إلى الجمالِ والخيالِ، وروعةِ الوصفِ والإدهاشِ، ويقلقُ لتأزّمِ المواقفِ، ويرمي إلى التّغلُّبِ على الشّرِّ، وخاصّةً إذا كان مأخوذاً مثلاً بسيرتَي بَطَلَيْن صِنديدَيْنِ أسطوريَّينِ ومغامراتِهما، كيرسيوس وثيسيوس الإغريقيّين.

أليستْ نَفْسُ المترجمِ العربيِّ الجادِّ في تصويرِ المواقفِ، تُحدِّثُهُ أنّ بطولتَيْهما الخارقتين، تشبه ولا شكَّ بطولةَ عنترةَ بنِ شدّادِ العبسيِّ، الفارسِ الكرّارِ، والبطلِ المغوارِ، الّذي لا يُصْلَى له بنار؟ وأَلَيْسَ هو القائلُ في غمرةٍ من غمراتِ بطولته في إحدى المعارك؟:

لمّـا رأيتُ القـومَ أقـبلَ جمعُهُـمْ	يتذامرونَ كـرَرْتُ غـيرَ مُـذَمَّمِ[١٦٤]
يـدْعونَ: عَنْتَـرَ والرِّمـاحُ كأنّهـا	أشـطانُ بئـرٍ في لَبـانِ الأدهـمِ[١٦٥]

والقائلُ أيضاً في حبيبته عَبْلَةَ:

ولقد ذكرتُـكِ، والرِّمـاحُ نـواهلٌ	مـنِّي، وبيضُ الهندِ، تقطُرُ مـن دمـي
فـوَدِدْتُ تقبيـلَ السُّـيوفِ؛ لأنّـها	لمعـتْ كبـارقِ ثغْـرِكِ المتبسِّـمِ

وسيرةُ هذا البطلِ قريبةٌ جدّاً، من سيرتَي البطلين اليونانيَّين الأسطوريّين المذكورَين.

وأخيراً لا بدّ لي أن أبوحَ لقارئي الكريمِ – بنظرةٍ خَجْلى، وتواضعٍ جمٍّ – أنّي سموتُ بهذه التّرجمةِ عن أصلها الإنكليزيِّ، (وصنعتُ كما صنع فيتزجيرالد المارُّ ذكره سابقاً في تَرْجَمَتِه الرّباعيّات)، فرفعتُها بإعْمالِ الفكرِ، وتوثُّبِ الخيالِ، واختيار الألفاظِ، والعباراتِ الّتي كانت تتدفّقُ أحياناً حسب المواقف، ولكنْ بحدود متأنّية، وبالاعتمادِ على أدقِّ المعاجمِ لفهم المعنى. مع العلم أنّ عينيَّ المتيقّظتَيْنِ كانتا تحافظانِ دائماً وأبداً على الأصلِ الإنكليزيِّ، الّذي كانت له عندي صفاتُ القداسة.

[١٦٤] القوم: يريد بهم الأعداء. يتذامرونَ: يحضُّ بعضُهم بعضاً على القتال. مذمّم: مذموم.

[١٦٥] الأشطان: جمع شَطَن: الحَبْل. اللّبان: الصّدر. الأدهم: صفةُ فرسِهِ.

وأمانةً للتَّرجمةِ فقد أبقيتُ أسماءَ الأعلامِ كما هي، إذْ كان يحلو للمؤلّف أن يرويها عن الأصل الرّومانيّ، فيسمّي زوسَ مثلاً: جوبيتر، وأريس: مركوري، وأفروديت: فينوس، وهلم جرّاً.. معَ أنّه كان يروي قصصاً إغريقيّةً صرفةً. وقد سَدَدْتُ الثّغراتِ الطّفيفةَ الّتي رواها المؤلّفُ روايةً خاطئةً، ورتقتُ الفتوقَ، ورمَّمتُ الكلامَ المتناقضَ، بالاعتماد على خمسين مرجعاً من مراجع الأساطير اليونانيّة، ذُكِرَ بعضُها في مراجع المقدّمة.

كلُّ ذلك تمَّ بشكلٍ مختصرٍ كي لا أسيء إلى النّصّ الأصليّ بالتّوسّع والاستطراد. ولقد ضبطتُ التّرجمةَ بالشّكلِ، حرصاً على فهم المعنى، وجمال الإيقاع.

وأخيراً وفاءً للواقعيّةِ والفنِّ، وجماليّةِ القصّ، فإنّني أُثني ثناءً عاطراً على المؤلّف (جيمس بالدوين) مؤلّف هذه الأقاصيص، الأمريكيّ الأصل الّذي أصدرها عام ١٩٢٣.

فقد استطاع بحسن خياله، وجمالِ صنعته أنْ يُحَوِّلَ الأساطيرَ المختصرةَ بالأصلِ، والمرويّةَ رواياتٍ كثيرةً حَسَبَ المؤرّخين الكثيرين، إلى أقاصيصَ مستساغةٍ، ومُتَّصفةٍ بروعة الأداء، وجمالِ العرْضِ، وجاذبيّة السّرد، واضعاً لها العناوينَ المناسبةَ. فكان حقّاً المتفرّدَ بهذا النّوعِ من الأقاصيص الّتي أبدعَ فيها أيّما إبداعٍ، فكانت ألوانُها متعدّدةَ الطّيوفِ تشمل البطولات والمغامرات، والجمالَ، والظُّلمَ، والخيانةَ والمآسيَ المحضة.. وهي منتزعةٌ من الواقع الأسطوريّ الحيّ، فجزاهُ اللهُ خيراً، وأحسنَ ثوابَه.

أمّا عملي في المقدّمة:

فقد اخترْتُ – لإلقاءِ الأضواءِ على النّصِّ المترجمِ، ولإيضاحِ أهمّيّةِ الأسطورةِ اليونانيّة في الأدبِ والفنِّ – نصوصاً أدبيّةً لكبار الشّعراء الأوربيّينَ، تتضمّن في أغلب الأحيانِ شعراً مترجماً. ولكي تكون هذه النّصوصُ بمستوى أسلوبِ الأقاصيص فقد نقّحْتُها، وضبطتُها بالشّكل، وعرّفْتُ بالشّعراء الأوربيّين وأدبائهم، وبأسماءِ الآلهة، والأبطالِ، والشّعراءِ اليونان والرّومان، بالاستناد إلى معاجمَ مختصّةٍ بالأعلامِ موثوقٍ بها ثقة تامّة، ثمّ شرحتُ الكلماتِ الصّعبةَ، وأشَرْتُ إلى مصادر المقدّمة، وأرقامِ الصّفحاتِ لتوثيقها؛ لكي يعودَ إليها القارئ أو الباحث إنْ شاء.

ولا بدّ لي من أنْ أذكرَ – وقد أشْرَفَتْ هذه المقدّمةُ على الانتهاء – الجهودَ والمعاناةَ الّتي عاناها ابني الأديب المهندس المدنيّ بشّار منصور مشكوراً، في إبراز شأن هذه الأقاصيص، ومقدّمتها، بتنضيدها مضبوطةً بالشّكلِ، وكتابة القصائد والأناشيد بالحرف العريض، واختيار

صورةِ الغلاف وتصميمِه، وتزيينِ صور الكتاب، ووضعها في أماكنها الجديدةِ بعد التّرجمة، وفي إعدادِ الكتابِ، وتجهيزِه للطّباعة. فله منّي المحبّةُ الأبويّةُ الخالصةُ، والرّضا التّامّ، والإعجاب بإبداعه المتميّز، وبملاحظاته القيّمة.

وأخيراً أرجو من القرّاءِ الكرامِ، والباحثين المجدّين، أن ينبّهوني إلى مواضع الخطأِ والزّللِ إن وجدت، لأتلافاها في الطّبَعَاتِ القادمة، شاكراً إيّاهم جزيل الشّكر.

حمص في ١٥ تمّوز ٢٠٠٩

جميل منصور

مراجع المقدّمة

١- المصطلح في الأدب الغربيّ – الدّكتور ناصر الحاني – منشورات المكتبة العصريّة – صيدا – بيروت ١٩٦٨ – ص٥٦

٢- المعجم الأدبيّ جبّور عبد النّور – دار العلم للملايين – ط ١ – مارس ١٩٦٩ – ص ١٩

٣- نظريّة الأدب – أوستن وارين – رينيه ويليك – ترجمة محيي الدّين صبحي – مراجعة الدّكتور حسام الخطيب – مطبعة خالد الطّرابيشيّ ١٩٧٢ – ص ٢٤٥-٢٤٦

٤- هايمن ستانلي – النّقد الأدبيّ ومدارسه الحديثة – ترجمة الدّكتورين: إحسان عباس، ومحمد يوسف نجم – دار الثّقافة – بيروت جـ٢ – ١٩٦٠ – ص ٢٠٩

٥- قصّة الأدب في العالم – الجزء الأوّل – في الأدب القديم وأدب العصور الوسطى – تأليف أحمد أمين – زكي نجيب محمود – القاهرة – مطبعة التّأليف والتّرجمة والنّشر ١٩٤٣ – ص ١١٤

٦- الأساطير اليونانيّة والرّومانيّة – أمين سلامة – في ١ / ٦ / ١٩٨٨ – ملفّ (كتاب إلكتروني) عن الإنترنت – ص ٣و٤

٧- المصدر السّابق نفسه ص ٤

٨- الأساطير – الدّكتور أحمد كمال زكي – دار العودة – بيروت – الطّبعة الثّانية ١٩٧٩ – ص ١٩٨و١٩٩

٩- المصدر نفسه – ص ٢٠٥-٢٠٦

١٠- الأديب وصناعته: بإشراف روي كادون – ترجمة جبرا إبراهيم جبرا – منشورات مكتبة مُنيمنة – بيروت – نيويورك ١٩٦٢ – ص ٢٢٩

١١- قصّة الأدب في العالم (مصدر سابق ذكره) – ص ١٢٤

١٢- عصر الأساطير – تأليف بلفنش – ترجمة رشدي السّيسي – راجعه الدّكتور صقر خفاجة – سلسلة الألف كتاب – النّاشر النّهضة العربيّة ١٩٦٦ – ص ١٣

١٣- المصدر السّابق نفسه – ص ١٧

١٤- الميثولوجيا اليونانيّة – تأليف بيار غريمال – ترجمة هنري زغيب – منشورات عويدات – بيروت، باريس – ط ١٩٨٢/١ – ص ٧

١٥- الأديب وصناعته (مصدر سابق ذكره) – ص ٢٣٠

١٦- المنجد في الأعلام – ط٢١ مجدّدة – دار المشرق – بيروت ١٩٩٦

١٧- عصر الأساطير (مصدر سابق ذكره) – ص ١٩و٢٠
١٨- الأسطورة اليونانيّة – أدب أسطورة – الأب فؤاد جرجي بربارة – مطابع وزارة الثّقافة والإرشاد القوميّ – دمشق ١٩٦٦ – ص ٨
١٩- المعتقدات الدّينيّة لدى الشّعوب – جفري بارندر – ترجمة الدّكتور عبد الفتّاح إمام – مراجعة الدّكتور عبد الغفّار مكّاوي – ط ثانية – مكتبة مدبولي للنّشر والتّوزيع ١٩٩٦ – ص ٩٦
٢٠- الأسطورة اليونانيّة (مصدر سابق ذكره) – ص ٧
٢١- المصدر السّابق نفسه – ص ٩٨
٢٢- الأسطورة – تأليف ك ك راثفين – ترجمة جعفر صادق الخليليّ – منشورات عويدات – بيروت، باريس – ط١ – ١٩٨١ – ص ٧٥
٢٣- المصدر السّابق نفسه – ص ٩٢
٢٤- المصدر السّابق نفسه – ص ٩٣
٢٥- المصدر السّابق نفسه – ص ٩٣-٩٤
٢٦- المصدر السّابق نفسه – ص ٩٤
٢٧- المصدر السّابق نفسه – ص ٩٥
٢٨- المصدر السّابق نفسه – ص ٩٦
٢٩- المصدر السّابق نفسه – ص ٩٧-٩٨
٣٠- من مقالة للدّكتورة نعيمة غصن بعنوان: الأسطورة وتحوّلات الرّمز – مجلّة الفكر العربيّ المعاصر – العدد: حزيران وتّموز ١٩٨١ – ص٩٤
٣١- من مقالة لروز الغرّيب بعنوان: الشّعر الحديث حركة ثوريّة محتومة – العدد ٣٧ شتاء ١٩٨٦ – ص ١٤و١٥
٣٢- الأساطير اليونانيّة والرّومانيّة لأمين سلامة (مصدر سابق ذكره) – ص ١
٣٣- الأساطير (مصدر سابق ذكره) – ص ٢٠٦
٣٤- المصدر السّابق نفسه – ص ٢٠٧
٣٥- الأساطير اليونانيّة والرّومانيّة لأمين سلامة (مصدر سابق ذكره) – ص ٨و٩
٣٦- الأدب الهيليني – الدّكتور محمد غلاّب – الجزء الأوّل – دار إحياء الكتب العربيّة – ط١ – ١٩٥٢ – ص ٧
٣٧- الأسطورة اليونانيّة (مصدر سابق ذكره) – ص ٤٩

٣٨- الجنس والفزع – تأليف باسكال كينيار – ترجمة روز مخلوف – الطّبعة الأولى ٢٠٠٧ – سوريّة دمشق – ص ٦٩

٣٩- المصدر السّابق نفسه – ص ٧٠

٤٠- مجلة المعرفة – أيلول ١٩٨٦ – وزارة الثّقافة – سوريّة – ص٩٩

٤١- المعتقدات الدّينيّة لدى الشّعوب (مصدر سابق ذكره) – ص ١٠٧

٤٢- عصر الأساطير (مصدر سابق ذكره) – ص ٤١.

٤٣- عصر أتشيلد هارولد – لورد بيرون – ترجمة عبد الرّحمن بدوي – مكتبة النّهضة المصريّة – ٩ عدلي باشا بالقاهرة ١٩٤٤ – ص ٤٦

٤٤- المصدر السّابق نفسه – ص ٦٧

٤٥- عصر الأساطير (مصدر سابق ذكره) – ص ١٤٠

٤٦- المصدر السّابق نفسه – ص ٦١

٤٧- المصدر السّابق نفسه – ص ١٤٠

٤٨- عصر الأساطير (مصدر سابق ذكره) – ص ١٦٢-١٦٣

٤٩- المصدر السّابق نفسه – ص ١٦٤

٥٠- المصدر السّابق نفسه – ص ١٧٢-١٧٣

٥١- المصدر السّابق نفسه – ص ١٧٥

٥٢- المصدر السّابق نفسه – ص ١٧٩

٥٣- المصدر السّابق نفسه – ص ٢٠٩

٥٤- المصدر السّابق نفسه – ص ٢١٣و٢١٤

٥٥- المصدر السّابق نفسه – ص ٢٣٤-٢٣٥

٥٦- المصدر السّابق نفسه – ص ٢٦٢

٥٧- المصدر السّابق نفسه – ص ٢٦٢-٢٦٣

٥٨- المصدر السّابق نفسه – ص ٢٢٩

٥٩- المصدر السّابق نفسه – ص ٢٤٠

٦٠- الفنّ والأدب – لويس هورتيك (مصدر سابق ذكره) – ص ١٩٣

٦١- روائع التّراجيديا في أدب الغرب – جمعها وقدّم لها كلينث بروكس – ترجمة الدّكتور محمود السّمرة – دار الكاتب العربيّ – بيروت – نيويورك ١٩٦٤ – ص ٨٧

٦٢- الأساطير اليونانيّة والرّومانيّة (مصدر سابق ذكره) – ص ٦
٦٣- الأساطير (مصدر سابق ذكره) – ص ١٤٧
٦٤- عصر الأساطير (مصدر سابق ذكره) – ص ٤٧
٦٥- الأساطير (مصدر سابق ذكره) – ص ١٤٣
٦٦- المصدر السّابق نفسه – ص ١٩٩
٦٧- مختارات من القدّيس غريغوريوس اللاّهوتيّ – تعريب الأسقف إستفانوس حدّاد – منشورات النّور – بيروت ١٩٤٤ – ص ٧٣
٦٨- الأسطورة اليونانيّة (مصدر سابق ذكره) – ص ١٥٢
٦٩- الفنّ والأدب (مصدر سابق ذكره) – ص ١٥٢
٧٠- المصدر السّابق نفسه – ص ١٢٤
٧١- عصر الأساطير (مصدر سابق ذكره) – ص ٢٤
٧٢- موجز تاريخ الحضارة – الجزء الأوّل – حضارات العصور القديمة – تأليف الدّكاترة: نور الدّين حاطوم – نبيه عاقل – أحمد طربين – صلاح مدني – ص ٦٧١-٦٩٢
٧٣- الفنّ والأدب (مصدر سابق ذكره) – ص ٢٢١-٢٢٢
٧٤- عصر الأساطير (مصدر سابق ذكره) – ص ١٧٤
٧٥- المصدر السّابق نفسه – ص ٢١
٧٦- الأساطير (مصدر سابق ذكره) – ص ١٣٧
٧٧- الفنّ والأدب (مصدر سابق ذكره) – ص ١٢٤
٧٨- المصدر السّابق نفسه – ص ١٣٥-١٣٦
٧٩- قصّة الحضارة – حياة اليونان (مصدر سابق ذكره) – ص ١٥٣-١٥٥
٨٠- المصدر السّابق نفسه – ص ١٥٤-١٥٥
٨١- معجم الأساطير اليونانيّة (مصدر سابق ذكره) – ص ٤٥٨-٤٥٩
٨٢- الفنّ والأدب (مصدر سابق ذكره) – ص ٢١٩-٢٢٠
٨٣- من الشّعر اليونانيّ الحديث – ترجمة المطران الياس معوّض – دار اليقظة العربيّة للتّأليف والتّرجمة والنّشر – دمشق – سوريّة ١٩٦٠ – ص ٥٥-٥٦



أقاصيص من الأساطير اليونانيّة

جُوبيتر وقومُهُ الجبابرةُ

منذ زمنٍ طويلٍ مضى، عندما كان العالَمُ في طفولته، روى النّاس قصصاً كثيرةً عظيمةً، تتعلّق بحوادثَ غريبةٍ، لم تُبْصِرْها أنتَ ولا أنا قطّ.

وفي الغالب روَوا قصصاً عن قومٍ جبابرة، أحدهم يسمى جوبيتر، أو (زوس)، الّذي كان سيّد السّماء والأرض.. وقالوا عنه: « إنّه كان يقضي معظم وقته في قلب الغيوم، على قمّة جبلٍ شامخٍ؛ حيث كان يراقب من علياء سمائه، كلَّ شيءٍ يَدِبُّ تحته على الأرض، ويُحِبُّ أن يمتطيَ صهوةَ الغيوم العاصفة، ويرمي الصّواعقَ المحرقةَ، ذاتَ اليمين وذات اليسار، بين الصّخور والأشجار.

وكانت قدرته خارقةً وعجيبةً إلى حدٍّ بعيد؛ حيث إنّه حين كان يُومِئُ برأسه، فالأرض تُزَلْزِلُ زلزالَها، والجبال تهتزُّ، وتُدخِّنُ، والسّماء تَسْوَدُّ، والشّمس تحجب وجهها!».

وكان لجوبيتر هذا أَخَوَانِ، كلاهما رفيقٌ مخيفٌ، ولكنّهما لا يَرْقيانِ إلى عظمته على وجه التّقريب، يسمّى أحدهما: نبتون، أوْ (بوزيدون)، وهو سيّد البحر. وكان له قصرٌ ذهبيٌّ متألّقٌ في أسفلِ أعماقِ الكهوفِ البحريّة؛ حيث تعيش الأسماك، وينمو المرجان الأحمر.

وكان كلّما غضب، علت أمواج البحر علوَّ الجبال، وقَصَفَتِ العواصفُ الهائجةُ قصفاً عنيفاً، وسعى البحر بأمواجه العارمة، لتحطيم اليابسة وتكسيرها، لذلك سمّاهُ بنو البشر: مُزعزِعَ الأرضِ ومُقْلِقَها؟

وكان أخو جوبيتر الآخر كائناً كئيباً، شاحبَ الوجه، استقرّت مملكته في أسفل الأرض؛ حيث الظّلمة والبكاء الدّائمان. ويدعى: بلوتو أوْ (إيدونيوس)، وتسمّى مملكتُهُ مملكةَ العالَمِ السُّفليِّ، أو

أرضَ الظّلال، أو هادس[١٦٦]. وقد زعمَ البشر إنّه كلّما تُوفي إنسانٌ، أرسل بلوتو رسولاً، أو مرشدَ شبحٍ، ليقودَ ذلك الميّتَ إلى مملكة الحزن؛ لذلك لم تَحْسُنْ سمعةُ بلوتو لديهم، بل عَدُّوهُ عدوَّ الحياة.

وعاش مع جوبيتر، على قمّة الجبل، وسط الغيوم، عددٌ كبيرٌ من الكائنات الكثيرة المقتدرة، وليس باستطاعتي أن أسمّيَ لك منهم إلاّ عدداً قليلاً، فهناك كانت: ڤينوس (أفروديت) ملكة الحبّ والجمال، الّتي تفوّقت فيما مضى على أيّة امرأة، رأيتَها أنت أو رأيتُها أنا.

وكانت: أثينا أو (منيرڤا)، ملكةَ الهواء الّتي منحت النّاسَ الحكمةَ، وعلّمتهم كيف يستعملون أشياءَ متعدّدةً، ذات فائدة كبيرة لهم.

وكانت أيضاً: جونو (هيرا)، ملكةَ الأرض والسّماء، الّتي جلست على يمين جوبيتر، وقدّمت له كلّ أنواع النّصائح القيّمة. وهناك أيضاً: مارس (آريس) المحارب العظيم، الّذي لا يكتملُ حُبورُه وابتهاجُه إلاّ في جَلَبَةِ المعركة، وقعقعةِ السّلاح.

أمّا: مركوري (هرمس) (عطارد)، فكان الرّسولَ السّريعَ، ذا الأجنحة المتعدّدة، الّذي يعتمر قبّعةً، وينتعل حذاءَين، ويطير من مكانٍ إلى آخرَ بسرعة غيوم الصّيف، الّتي تقودُها الرّيح.

وهناك كان: ڤولكان (هيفستوس)، الحدّادُ الماهرُ الّذي يصطحب معه كيراً في الجبل المحترق، ومن المعلوم أنّه قد صنع عدّةَ أشياءَ عجيبةٍ من الحديد، والنّحاس الأحمر، والذّهب.

هذا بالإضافة إلى آلهةٍ آخرين كثيرين، روى النّاس عنهم قصصاً بديعةً، وسنتعرّف عليهم عمّا قريب.

[١٦٦] هادس: مثوى الأموات، أو الجحيم.



العصر الذّهبيّ

لم يسكن جوبيتر، وقومه الجبابرة دائماً، على قمّة الجبل، وسط الغيوم فحسْبُ. فهنالك في الأزمنة الماضية المديدة، عاشتْ وحكمتِ العالَم كلّه، سلالةٌ عجيبةٌ سمّيت التّيتان.

كانوا: اثني عشرَ تيتاناً، ستّةَ أخوة، وستَّ أخوات، وقد زعموا أنّ السّماءَ كانت أباهم، وأنّ الأرضَ كانت أمّهم.

وكانت لهم أشكالُ الرّجالِ، وملامحُهُمْ، إلاّ أنّهم كانوا أضخمَ منهم أجساماً، وأروعَ جمالاً.

واسمُ أحدث التّيتان: ساتورن، بالرّغم من أنّه كان عجوزاً طاعناً في السّنّ، حتّى إنّ النّاس دعوه في الغالب: أبا الزّمن. لقد كان ساتورن هذا ملك التّيتان، وعلاوةً على ذلك، كان ملكَ الأرض كلّها بلا ريب. ولم يكن النّاس في وقتٍ من الأوقات سعداءَ، كما كانوا أثناء حكم ساتورن. وكان عصرُه العصرَ الذّهبيَّ حقّاً. فقد استمرّ الرّبيع طوال السّنة، وكانت الغاباتُ والمروجُ، حافلةً دائماً بالأزهار، وكانت تُسْمَع موسيقا العصافير كلَّ يومٍ، بل كلَّ ساعةٍ. وكان أيضاً ربيعٌ وخريفٌ في الوقت نفسه، إذْ طالما تدلّى من الأشجار المتنوّعة: التُّفاح، والتّين، والبرتقال، ناضجاً، دانيَ القطوف. أمّا في الكروم فيدهشك بريق لونِ العنَبِ الأرجوانيّ. ومن أنواع الفواكه والأثمار: كان البِطّيخُ، والتّوتُ متنوّعَيْنِ، لا يحتاج النّاس إلاّ أن يقطفوهما ليأكلوها.

ومن الطّبيعيّ أن لا يُكلّفَ الإنسانُ، بأيِّ عمل من الأعمال، في ذلك الزّمن السّعيد، الّذي لم يكن فيه، مرضٌ، أو حزنٌ، أو شيخوخةٌ.

ولا أحد كان آنذاك فقيراً؛ لأنّ النّاسَ جميعَهم كانوا يملكون الأشياءَ الثّمينةَ نفسَها: ضوءَ

الشّمسِ الذّهبيَّ، والهواءَ النقيَّ، وماءَ الينابيعِ الصّحيَّ، والعشبَ الأخضرَ بساطاً، والسّماءَ الزّرقاءَ سقفاً، وأزهارَ المروجِ زاهيةً، وثمارَ البساتينِ والغاباتِ ناضجةً. وهكذا فمن الطّبيعيِّ أن لا يفوق أحدٌ أحداً غنىً، فلا دراهمَ يَتَعاملُ بها البشر، ولا مغاليقَ، ولا مزاليجَ للأبواب. وكان الإنسانُ صديقَ الإنسانِ، فلا يمتلكُ أيُّ جارٍ أكثرَ من جاره.

وباعتبارهم عاشوا أعماراً مديدةً غلب عليهم النّوم، ولم تُرَ أجسادُهم على الأغلب؛ لأنّها تلاشت رويداً رويداً، فطاروا في الهواء، وفوق الجبال، وعَبْرَ البحر إلى أراضٍ مزهرةٍ، في الغرب البعيد.

ويزعم بعض النّاس، حتّى اليوم، هذا الزّعمَ، وخلاصتهُ أنّهم كانوا يهيمون في الأرض هنا وهناك، وهَمُّهُمُ الوحيدُ جعلُ الأطفال مبتسمين في مهودهم، وتخفيفُ الأعباء الثّقيلة عن المرضى والمتعبين، ومباركةُ الجنس البشريّ في كلّ مكان.

ولكنْ ويا للأسف فهذا العصر الذّهبيّ قد آل إلى الانتهاء!.. وكان مُسَبِّبي هذا التّغييرِ المحزن جوبيترُ وأخوتُهُ.

وبالرّغم من أنّه يصعب علينا أن نصدّق كلَّ شيءٍ، لكنَّ النّاس زعموا: أنَّ جوبيتر كان ابن ملك التّيتان القديم ساتورن. وقيل: «إنّه حينما كان له من العمر سنةٌ واحدةٌ، بدأ يخطّط بجهدٍ وعناءٍ، كيفيّة تمكّنه أن يشنّ حرباً ضدّ والده!».

وحين بلغ مبلغَ الرّجال أقنع أخوَيْه: نبتون، وبلوتو، وأخَوَاتِه: جونو، وسيرسي، وفستا، بأن ينضمّوا إليه، فوافقوا على رأيه، وتعهّدوا له، بأن يطردوا التّيتان من الأرض نهائيّاً.

وعلى الأثر خاض الطّرفان حرباً ضروساً، كانت طويلة ومخيفة، والحقيقة أنَّ مساعدي جوبيتر: كانوا شجعاناً أشدّاء. فهؤلاء كانوا مجموعةً من العماليق، يتمتّع كلُّ عملاقٍ منهم بعينٍ واحدةٍ. ويطلق عليهم اسمَ: السيكلوبات. وقد انشغلوا في كلّ أوقاتهم بصنع الصّواعق، في الجبال المحترقة بالنّار.

واجتمع أيضاً عمالقةٌ ثلاثةٌ آخرون، كان لكلٍّ منهم مئةُ يد، فتعاونوا تعاوناً كاملاً في قذف الصّخور والأشجار، ضدّ مَعقل التّيتان الحصين. حتّى إنّ جوبيتر نفسه، كان يقذف نبالَه الحادّةَ المضيئةَ، كثيفةً، سريعةً، قاتلةً. فاشتعلتِ الغابات اشتعالاً هائلاً مُريعاً، وغلتِ المياهُ في الأنهار، من وهج الحرارة الشّديدة.

ومن الطّبيعيّ أنّ ساتورن العجوز، والجَدَّ الهادئَ المحمودَ السِّيرة، وأخوتَه وأخواته، لم يثبتوا ضدَّ أعداء أقوياءَ مثلَ هؤلاء، فاضطرّوا في نهاية السّنوات العشر الخضوعَ لهم. ولكنّهم رَجَوْهُمْ رجاءً حارّاً أن يحقّقوا السِّلْمَ.

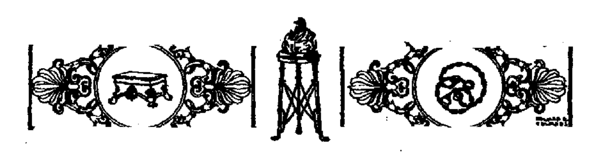
فما كان من هؤلاء المنتصرين، إلاّ أن أوثقوا التّيتان بالقيود، وربطوهم بصخور ثقيلة، ورمَوْهُمْ داخل سجنٍ في العالم السّفليّ. وأُرْسِلَ إلى هنالك السّيكلوبات، ذَوُو مئة اليد، ليكونوا سجّانين لهم، يحرسون سجنهم إلى الأبد.

وفي عهد حكم جوبيتر، كسَّر بعضُ النّاس الأشجارَ المثمرةَ في الغابات، كي لا يأكلَ منها الآخرون، واصطادوا الحيواناتِ المسالمةَ الجبانةَ، الّتي ما كانت في يومٍ من الأيّام، إلاّ صديقةً صدوقةً لهم، وذلك لمجرّد التّسلية. ولم يتورَّعُوا عن الفتكِ بالمخلوقات المسكينة، لكي يجعلوها طعاماً لهم.

وأخيراً بدلاً من أن يوحّدوا النّاسَ، ويضاعفوا الأُلفةَ بينهم، لكي يصبحوا أصدقاء، فقد حوّلوهم إلى أعداء ألدّاء.

وهكذا عوضاً من أن يسود السّلام، في العالم كلّه، كانت الحرب المدمّرة، وعوضاً من أن يشبعَ النّاسُ، فقد حلّ الجوع، وعوضاً من أن تسودَ البراءةُ والحبُّ، فقد انتشرتِ الجريمة. وأخيراً حلّتِ الطّامة الكبرى حينما استبدلوا السّعادةَ بالتّعاسة.

واتّباع ذلك السّلوكِ المشين، هو الّذي جعل جوبيترَ نفسَه جبّاراً متسلّطاً، لا يُصلى له بنارٍ. ونَهْجُ ذلك السّبيلِ العدائيِّ، جعلَ العصرَ الذّهبيَّ ينصرمُ نهائيّاً.



قصّة بروميثيوس

١- كيف أعطيتِ النّار للنّاس؟

في تلك العصور المغرقة في القِدَم، عاش أخَوَانِ متميّزان جدّاً عن النّاس الآخرين، وحتّى عن الجبابرة، الّذين لازموا قمّة الجبل.

لقد كانا ولَدَي أحد أولئك التّيتان، الّذين حاربوا ضدَّ جوبيتر، والّذين أُرسِلوا مقيَّدينَ إلى سجن العالم السُّفليّ المنيع، وكان أكبرَ هذين الولدين يُدعى: بروميثيوس أو (المتبصّرَ بالأمور)، لأنّه كان يفكّر بأمور المستقبل دائماً، ويُعدُّ العدّة الكافية لِمَا سيحدث غداً، أو ما سيجري في الأسبوع المقبل، أو العام الآتي، أو في مئة السَّنة القادمة.

وأمّا الأصغر فيدعى: أبيميثيوس (أو المفكّر المتخلّف)؛ لأنّه دائماً كان مشغول التّفكير، في الأمس، أو في السّنة الماضية، أو في مئة السّنة المنصرمة. فهو غير متبصّر في الأمور على الإطلاق، لأنّ ما يُتوقّع حدوثُه في المستقبل، يتبخّر من ذهنه بعد هنيهة. ومن أجل ذلك لم يرسل جوبيترُ هذين الأخوين إلى السّجن مع التّيتان الباقين.

إنّ بروميثيوس المتبصّر بالأمور، لم يهتمَّ أبداً بالعيش على قمّةِ جبلٍ، أو التّحليق وسط الغيوم، لأنّه اعتبر نفسه: أسمى بكثيرٍ من أن ينشغل بتلك البهرجة. وبينما كانت زمرةٌ كبيرةٌ من الجبابرة، تقضي أوقاتها الثّمينة جزافاً، لتكون خاملةً متكاسلةً، همُّها الوحيدُ احتساء شراب الآلهة، وأكلها طعامَهم، نرى بروميثيوس يخطّط باهتمامٍ: ليجعل العالم أفضل، وأحسن بكثيرٍ ممّا كان قبلاً. لذلك فإنّ قلبه قد امتلأ غمّاً، وتقطّر دماً، حينما لاحظ أنّ سعادة النّاس تتدهور، وتتضاءل رويداً رويداً، بعد الأيّام الذّهبيّة من حكم ساتورن العظيم.

فآه، ثمّ آه، لما آل إليه أمرُ الناس، وكم أضحَوا فقراءَ وبائسين، ومتخلّفين من وجهة نظره! فهو يشاهدهم بأمّ عينيه يعيشون في الكهوف، وجحور الأرض، مرتجفين من شدّة البرد؛ لأنّهم لم يعرفوا نعمة النّار، ويشاهدهم أيضاً يتضوّرون جوعاً لقلّة مواردهم، وفي أغلب الأحيان، يتعرّضون لاعتداء الوحوش الضّارية، وغيرها من المغيرين، وليس منْ مُعينٍ لهم في محنهم. ونظراً لكونهم أشدَّ بؤساً، وأكثرَ عوزاً من جميع المخلوقات الحيّة، فلا بدّ إذاً من السّرعة إلى نجدتهم، وإنقاذهم ممّا آلوا إليه، ومدِّ يدِ المساعدة لهم، لتخطّي الصّعاب الّتي تعترضهم.

وفي سبيل التّخفيف من تعاستهم وآلامهم المبرّحة؛ مضى بروميثيوس إلى مقابلة الإله جوبيتر، راجياً منه أن يمنح النّاسَ النّارَ؛ لكي يشعروا على الأقلّ بالدّفء، وبنوعٍ من الرّاحة في أشهر الشّتاء المظلمة، والقارسة البرد.

فردّ عليه جوبيتر بكلّ جفاء، وأجابه بحزمٍ وجزم: «إنّني قد آليتُ على نفسي، ألاّ أعطيَهم شرارةً واحدةً!» وأؤكّد لك ثانيةً بكلّ ثقة: «إنّني لن أمنحهم شيئاً». وإذا تساءلت لماذا هذا الرّفض المطلق فأجيبك: «لأنّهم في ملّتي واعتقادي إنْ أصبحت النّار في حوزتهم، واستفادوا منها استفادةً كاملةً، فسيكونون في المستقبل أقوياءَ مثلَنا – نحن معاشرَ الآلهة – وسَيَمْتَشِقُون سيوفهم، لكي يطردونا من مملكتنا القويّة. إذاً دَعْهُمْ في غباوتهم يعمهون، واتركْهم من البرد يرتجفون، ومعيشةً مزريةً يعيشون؛ بحيث لا يختلفون فيها عن وحوش البراري!، فهم كلَّ الشّرور مستحقّون. وأرى بعين بصيرتي أنّه من الأفضل لهم: أن يستمرّوا في دياجي الجهل، ودَرْكِ الفقرِ، كي لا يصبحوا مثلَنا متنعّمين، وسعداء مزدهرين!». فلم يُجِبْهُ بروميثيوس إطلاقاً على مزاعمه، ولم يردّ على غطرسته، وإمعانه في إذلال البشر، لكنّه صمّم في دخيلة نفسه أن ينقذ الجنس البشريَّ، وألاّ يتخلّى عنه أبداً. وهكذا انصرف من مجلس جوبيتر في أشدّ الغيظ، وغادره إلى الأبد!.

وقد روى بعضُهُم روايةً عن بروميثيوس فقال: «بينما كان بروميثيوس يتمشّى على شاطئ البحر، عثر على قصبة، وحينما كسرها رأى وسطَها – وقد ظنّه في بادئ الأمر فارغاً – لُبّاً جافّاً ناعماً، يمكن أن يحترقَ ببطء، وتستمرُّ النّارُ فيه وقتاً طويلاً، فأخذ السّاقَ بيده، واتّجه إلى منـــزلٍ يقعُ في الشّرق البعيد!».

وبعد ذلك قال بروميثيوس في أعماق نفسه: «إنّ الجنس البشريّ عانى كثيراً، ويجب أن

يحصل على النّار سريعاً، رغماً عن أنف ذلك الطّاغية، الّذي يقيم في أعلى الجبل!».

وعندما وصل بروميثيوس حثيثاً إلى مسكن الشّمس، في الصّباح الباكر، عند الشّروق، وفي الوقت الّذي كان فيه الكوكب الذّهبيّ ناهضاً من الأرض، وبادئاً رحلته اليوميّة عبر السّماء. مسّ نهاية القصبة الطّويلة بلهب الكوكب، فلامَس لُبُّها النّارَ، وأخذ يحترق ببطء.

ثمّ عاد مسرعاً إلى موطنه، حاملاً الشّرر الثّمين، المخبّأ وسط النّبات ذي اللّبّ الجافّ، وبادر إلى دعوة بعض النّاس، الّذين كانت تصْطَكُّ أسنانهم من شدّة البرد القارس، من كهوفهم المظلمة، مانحاً إيّاهم شرر النّار، هديّةً مجّانيّةً، ومعلّماً إيّاهُمْ أيضاً كيف يتدفّؤون بوهجها، ومدرّباً لفيفاً منهم، كيف يشعلون نيراناً أخرى، من فحم الخشب. ويا ليتك كنت تشاهد كم كان السّرور بادياً على وجوه النّاس، في بيوتهم البدائيّة في تلك المنطقة كلّها! لذلك احتشدوا حولَهُ جميعاً من رجالٍ ونساء، تعبيراً عن سعادتهم القصوى؛ لأنّهم تمتّعوا بنعيم الدّفء لأوّل مرّة، فشكروه شكراً جزيلاً، على هديّته الّتي لا تقدّر بثمنٍ، والّتي استمدّها لهم من الغزالة، وهي لا تزال في خدر أمّها. وبفعْلِ نارِ بروميثيوس العجيبة، تبدّلوا تبدّلاً سريعاً، وتخلّوا، كفعل السّحر، عن عاداتهم الهمجيّة والوحشيّة، بسرعة مذهلة.

وهكذا عوضاً أن يتواروا، مختبئين في كهوفٍ مظلمةٍ مَقيتة؛ فقد خرجوا منها وهجروها، ليستمتعوا بالهواء الطّلق، والشّمس المضيئة، وأصبحوا بين عشيّةٍ وضحاها، في حبورٍ غامرٍ، وعيشٍ رغيدٍ، لأنّ روحاً جديداً قد نُفِخَ في أبدانهم، وإيماناً راسخاً، وثقةً مطلقةً، قد دبّا في أعماقهم.

ولم يتخلَّ عَنْهُمْ بروميثيوس المضحّي، فقد تولّى تدريجيّاً تعليمهم أشياءَ حيويّةً كثيرةً، بلغ عددُها: الألف. ومن هذه الأشياء الهامّة نذكر: إنّه قد علّمهم كيف يشيدون البيوت من الحجارة، وكيف يسقفونها بالخشب، وكيف يدجّنون قطعان الغنم، وكيف يستفيدون من لبنها ومن لحمها وصوفها، وكيف يحرثون الأرض حراثةً جيّدةً، وكيف يبذرون البذور فيها، وحينما تنمو وتنضج أفهمهم: كيف يحصدون زروعها.

ولم يكتفِ بذلك بل درّبهم كيف يحمون أنفسهم، من عواصف الشّتاء العاتية، وكيف يدرؤون عن أنفسهم شرور وحوش الغابات. ومن جملة توجيهاته الهامّة: توضيحُهُ لهم كيف يحفرون الأرض، ليستخرجوا من باطنها فلزات النّحاس الأحمر، والحديد. ثمّ أشار إليهم: كيف

يذيبون المعدن الخام، ويطرقونه، مُصنِّعين إيّاه أدواتٍ وأسلحةً يحتاجونها، في أوقات السّلم والحرب.

وعندما رأى بروميثيوس أنّ عالم البشر، قد عمّت فيه ألوان السّعادة الحقيقيّة، هتف من أعماقه قائلاً: «ها إنّ أنوار الحضارة قد بدأت في البزوغ، وإنّ عالماً متطوّراً سيسوده عصرٌ ذهبيٌّ جديدٌ، يكون أسطعَ نوراً، وأكثرَ فضلاً، وأهمّيّةً من العالم القديم بكامله!».

٢- كيف حلّتِ الأمراضُ والهمومُ بينَ النّاس؟

من الأمور الّتي تجاهلها جوبيتر تجاهلاً تامّاً: إمكانيةُ استمرارِ النّاس بسعادةٍ وغبطةٍ كبيرتين، وتكرارُ حلول عصرٍ ذهبيٍّ ثانٍ لهم.

وفعلاً فقد فوجئ مفاجأةً كبيرةً في أحد الأيّام حين حدّق في أرجاء الأرض، فأبصر النّارَ مضطرمةً في كلّ مكان، والنّاسَ يقطنون في بيوت مُشيَّدَة، وقطعانَ ماشيتهم تقضم الأعشابَ المخضوضرةَ، على سفوح التّلال، وسنابلَ القمح تنضج في الحقول الذّهبيّة.

كلّ هذه المشاهدات غير المتوقّعة، جعلته يتميّز من الغيظ، ويتساءَلُ بشدّةٍ وحدّةٍ ونبرةٍ عاليةٍ قائلاً: «مَنْ تجرّأ أن يعمل كُلّ هذه الأعمال لهؤلاء الأغبياء؟!».

فأجابه أحدهم فوراً: «بروميثيوس».

فاضطرب اضطراباً شديداً، وصاح بملء فيه: «مَنْ؟ أحقّاً هو ذلك الفتى التيتانيّ الوغد؟. حسنٌ؟ إنّ هذا التصرّفَ الأحمق يستحقُّ العقابَ، الّذي لم يخطر له على بال! وسيتمنّى هذا المتهوّر إثرَ ما سيحدثُ، أنّه كان من الأفضل له فيما لو أنّني قد سجنته في معسكر أسرى الحرب، مع أقربائه التّيتان!. أمّا فيما يتعلّق بأولئك البشر التّافهين، الّذين ساعَدَهُمْ بكلّ ما يستطيع من قوّة، فسوف أدعهم يحتفظون بنارهم، ولكنّني في الوقت نفسه سأضاعف تعاستَهم، عشرةَ أضعافٍ عن زمانهم السّابق!» ثمّ أضاف قائلاً: «مِنَ السُّهولةِ بمكانٍ أنْ أنتقمَ من هذا المتمرّد، وأتصرّفَ معه التّصَرُّفَ القاسيَ، في وقتٍ آتٍ لا ريبَ فيه!».

ويبدو من قوله هذا أنّه كان غير متسرّعٍ في معاقبته له لأوّل وهلة، لأنّه صمّم أن يضيّق الخناق على الجنس البشريّ، الّذي يُجلُّ بروميثيوس أوّلاً.

وقد لجأ إلى تنفيذ خطّته الجهنّميّة، بصورةٍ غير مباشرة، فدعا في بادئ الأمر حدّادَه فولكانَ

– الّذي كان كورُهُ موضوعاً في فوّهة بركانٍ محترقٍ – ليتناول كتلةً من الطّين، وهو الّذي أعطاه إيّاها، ليصوغَها ويَصْنَعَها بشكل امرأة.

ولّما صدرتِ الأوامر بصورةٍ جدّيّة، إلى الحدّاد الماهر في مهنته، جبلَها بإتقانٍ عظيمٍ، وعندما تمّ تكوينُها النّهائيُّ، وأخذت شكل الصّورة، حملها بنفسه إلى مقام كبيرِ الآلهة جوبيتر، الّذي كان يتربّع على عرشه السّماويّ، في طبقة الغيوم، محاطاً بمجموعةٍ من قومه الجبابرة العظام.

والحقيقة أنّ تلك الصّورة، قد يُظنُّ في بادئ الأمر، لكثيرٍ من البشر، أنّها كبقيّة الصّور، جسمٌ لا حياة فيه، إلاّ أنّ فولكان العظيم، استطاع بعبقريّته الفذّة أن يمنحها شكلاً مكتملاً، وأن يبدعها تمثالاً فريداً، يُعَدُّ أفضلَ من أيّ تمثالٍ صنعه سابقاً.



وحينما شاهدها جوبيتر، أُعجبَ بما شاهد، وقال لمجلس الآلهة: «تعالَوا جميعاً نمنحْ هذه المرأة، بعضَ المواهب المتفوّقة». وبادر هو أوّلاً: لإعطائها الحياة، ثمّ أسبغ كلٌّ منهم على هذه المخلوقة، موهبةً من مواهبه، وصفَةً رائعةً من صفاته. فإحداهن أعطتْها: الجمالَ، وأمّا الثّاني من الآلهة فأعطاها: الصّوتَ الحسنَ، والثّالث: القلبَ النقيَّ اللّطيفَ، والرّابع: جمعَ فيها المهارة في كلّ فنٍّ. ثم دعَوها أخيراً باندورا، الّتي تعني: (ذاتَ المواهبِ المتعدّدة)؛ لأنّها استمدّت منهم هذه السّمات جميعاً.

ولقد كانت باندورا فائقة الجمال حقّاً، وتمتّعت بمواهبَ مدهشة، بحيث لم يستطع أحدٌ أن يحجمَ عن حبّها.

وبعد أن أبدى القوم المقتدرون، إعجابَهم الشّديدَ بها مُدّةً قصيرةً من الزّمن، سلّموها إلى مركوري (هرمس) الّذي يتّصف بين الآلهة بالحركةِ الرّشيقة، فاصطحبَها معه إلى سفح الجبل؛ حيث كان يحلّ بروميثيوس وأخوهُ ويكدحان بجدٍّ واجتهادٍ في سبيل مصلحة البشر.

وقد قابل مركوري إيبميثيوس أوّلاً، وقال له: «هذه امرأة رائعة الجمال يا إيبميثيوس، ولقد أهداك إيّاها الإله جوبيتر لتصبح زوجتك».

وكان بروميثيوس قد حذّر أخاه دائماً وأبداً، من تقبُّل أيّة هديّة يُحتمَلُ أن يرسلَها جوبيتر إليه؛ لأنّه كان يدرك إدراكاً تامّاً أنّ هذا الطّاغيةَ الجبّارَ، لا يوثق به إطلاقاً.

لكنَّ إيبميثيوس عندما شاهد سِحْرَ باندورا، وجاذبيّتَها النّادرةَ، وتَوَقُّدَ ذكائها الفيّاضِ، غفل عن تحذيرات أخيه! فرحَّبَ بمقدمها الميمون، وطلعتها البهيّة، الّتي ملأت قلبه وجوارحه سروراً وفرحاً، وتَشَرَّفَ بجعلها حليلةً لهُ.

ولقد أضحت باندورا سعيدةً سعادةً غامرةً، في منـــزلها الجديد، وتألقّ جمالها الفتّان، في حياة الاستقرار والدّلال، حتّى إنّ بروميثيوس الحكيم، نفسه كان مبهوراً بهذا الجمال الفائق!.

ويُذْكَرُ: إنّه عندما ودّعها الإلهُ جوبيتر، قدّم لها علبةَ حُليٍّ ذهبيّةً، محكمةَ الإغلاق، وأنبأها أن تحتفظ بما في داخلها من أشياءَ ثمينة!. وبنظرة ثاقبة، حذّرتها الإلهةُ أثينا الحكيمةُ، وملكةُ الهواء تحذيراً شديداً من فتحها؛ أو من مجرّد التّفكير، أو محاولة النّظر، إلى ما في داخلها، بأيّة حالٍ من الأحوال. لكن باندورا اللّجوجَ، شاءت أن تعرف ما: تحتويه العلبة، فهي هديّةُ ربِّ السّماءِ والأرضِ جوبيتر، وقد حدّثتها النّفس الأمّارة بالسّوء قائلةً: «لا بدّ من أنّها تحوي في داخلها،

أندر الجواهر النّفيسة، فإذا تسنّى لي أن أتجمّلَ وأتزيَّنَ بها، فكم سيصبح عند ذاك جمالي ساحراً أخّاذاً!».

وقلّبَتِ الأمور على وجوه متعدّدة، وساءلت نفسها: «ولكن لماذا منحني الإله جوبيتر هذه العلبة، من ذهبٍ إبريز، إنْ لم تكن في الدّاخل أثمن بكثيرٍ من الخارج؟» واستطردت في القول: «ولماذا عليّ أن آخذَ بقول أثينا؟ فإنّها غير جميلة، ولا تستعمل الجواهر إطلاقاً، ولا تكترث بالزّينة، إنّها أنانيّةٌ تحسدُ الجميلات، وتمنعهنّ من الظّهور بمظهرٍ لائق، وعلى كلّ حالٍ، فسوف لا تعلم بفتحي إيّاها، لأنّني سأكتم ذلك عن كلّ الجنس البشريّ أيضاً!».

وما كادت ترفع الغطاء قليلاً، حتّى انتشر على وجهِ البسيطة سحابٌ كثيفٌ من الأرزاء، وضبابٌ كالحٌ من الأسواء. وقد طرق سمعها فجأةً طنينٌ مريبٌ، وصوتٌ أجشُّ ذو خشيشٍ مؤذٍ. وقبْلَ أن تتمكّن من إطباق غطاء العلبة، طار منها إلى الخارج عشْرةُ آلافٍ من المخلوقات الغريبة، ذاتِ الأشكال المرعبة، والوجوه الشّبيهة بوجوه الموتى، الشّاحبة الألوان، الّتي ليس لها مثيلٌ في العالم المعروف آنذاك.

لقد رفرفت هذه المخلوقات المزعجة، في أرجاء الغرفة كلّها، ثمّ طارت في الجوّ، لتستقرَّ في بيوت النّاس جميعاً.

وإن سألْتَ عن ماهيّة هذه المخلوقات الممسوخة، فليست هي إلاّ الأمراض الفتّاكة، والمصائب المستعصية، والهموم الممضّة تلك الّتي تعصف ببني البشر يوميّاً.

وقبل حلول هذه الحوادث المزعجة، كان الجنس البشريّ بمعزلٍ، عن الأمراض والكوارث والمنغّصات، فلم يكن يكابد الآلام والمشقّات، وملوّثات الفكر والوجدان، ولم يتوجّسْ خيفةً ممّا سيأتي به الغد.

أمّا الآن، فقد عشّشتْ هذه المخلوقات المؤذية، في كلّ بيتٍ، وغزت كلّ مكانٍ. ودون أن يشاهدها أحدٌ، فقد استقرّت في قلوب الرّجال، والنّساء، وحتّى الأطفال؛ فسرقت فرحهم كلّه.

ومنذ ذلك اليوم الكئيب، وهذه المخلوقات تُحَلّقُ طائرةً، وتزحف غيرَ منظورة، ومسموعة، فوق كلّ البلدان ناشرةً الذّعر والخوف، وحاملةً في كلّ يومٍ للبشريّة جمعاءَ، الألم، والأسى، والموت. ولقد أصاب باندورا الذّعرُ الشّديدُ؛ برؤية ذلك المشهد المرعب. ولو أنّها لم تتمكّن من تغطيةِ العلبة سريعاً، كلمح البصر، فإنّ الأمورَ كانت ستتفاقمُ، وتكونُ أردأَ وأسوأَ ممّا حدث

بكثير، وبذلك حبست بقيّةَ المخلوقات الشّريرة من الانطلاق، وهكذا فإن هاجس الشّرّ اندفع نصف اندفاعٍ فقط. ولو أنَّ هذا الهاجس، انطلق إلى العالم الفسيح انطلاقاً كاملاً، لكانت البليّةُ أعظمَ، والكارثةُ أشملَ!. ومهما يكن من أمر فقد أفقدتْ خطيئةُ باندورا النّاسَ، التّمتّعَ بالفرح، والتّعلّلَ بالأمل، ماداموا على قيد الحياة. إذاً كانت المكيدةَ المدبّرةَ بإحكام، والمدمِّرةَ لكلِّ مخلوق بشريٍّ، تلك الّتي سعى إليها جوبيتر سعياً حثيثاً، لكي يجعل النّاس أكثر شقاءً وبؤساً ممّا كانوا عليه قبل مصادقتهم بروميثيوسَ.

٣- كيف عوقب صديق البشر بروميثيوس؟

إنَّ الفعل الشّنيع الثّاني، الّذي ارتكبه الإله جوبيتر من جديد، تمّ تنفيذه بحقّ البطل بروميثيوس، لأنّه سرق النّار من الشّمس، لا من أجله هو، بل من أجل البشريّة جمعاء. وانتقاماً منه، وإمعاناً في الشّرّ والغدر، فلقد أمر جوبيتر اثنين من جلاّديه، اللّذَيْن كان يطلقُ عليهما: السّلطةَ، والإكراهَ، أن يقبضا على التّيتان الشّجاع: بروميثيوس، ويحملاه بالقوّة إلى قمّة جبل القوقاز، ثمَّ أتبعهما أيضاً بفولكانَ الحدّاد، آمراً إيّاه بأن يوثقَ البطلَ بسلاسل الحديد، ويقيّدَه بصخرة صلدة ضخمة؛ بحيث لا يتمكّن إطلاقاً، أن يحرّكَ يديه أو قدميه.

ولكنَّ فولكان لم يوافق أبداً ،في أعماق نفسه، على تنفيذ هذا العمل الإجراميّ، وخاصّةً أنّه كان صديقاً حميماً لبروميثيوس؛ إلاّ أنّه لم يتجاسرْ أن يتمرَّدَ على سلطة، وجبروت جوبيتر.

وهكذا ترى أن صديق النّاس العظيم، الّذي منحهم النّار، ورفع عنهم الظُّلمَ والتّعاسةَ، وعلّمهم العيشَ الكريم، أصبح الآن مقيَّداً ومعذَّباً في قمّة الجبل. لقد عُلّق في العراء تعليقاً مزرياً، بلا رحمةٍ ولا شفقة، حيث عَصْفُ الرّياحِ، وزمجرةُ العواصفِ، وحيث التعرّضُ الدّائمُ لِلَسْعِ البرد القارس، الّذي كان يصفع وجهَهُ، صفعات قاسيةً مستمرّةً، إلى جانب الضّجّة الصّاخبة الحادثة، من زعيق النّسور الجارحة، والصّافرة صفيراً مزعجاً، في أذنية. والّتي كانت تمزّق كبده تمزيقاً موجعاً، بمخالبها الفتّاكة. والأنكى من هذا: أنّ العمليّة كانت تعود لتتجَدَّد.

والذي لا يكاد يصدّق، في هذه المأساة المروّعة، أنّ بروميثيوس تحمّل كلَّ هذه الآلام المضنية، الّتي ليس بمقدور البشر تحمّلها، دون أن يصدر عنه أيّ أنين، أو تأوّه، أو شكوى!.

وممّا يزيد إكبارنا له، وإعجابنا ببطولته النّادرة، أنّه لم يستَجْدِ الرّحمةَ من أحدٍ إطلاقاً، على

مدى ثلاثة آلاف عام، و لم يتفوّه أبداً بالاعتذار والتأسّف، لذلك الإله المتجبّر، طَوالَ هذه المعاناة القاسية.

وهكذا توالت السّنونَ بعد السّنين، والعصورُ تِلْوَ العصور، وبروميثيوس لم يزل معلّقاً، ومقيّداً في أعلى الجبل.

وكان هليوسُ (هيبريون) الهَرِمُ: قائد عربة الشّمس، ينظرُ إليه أحياناً، فيفترُّ فمُهُ عن ابتسامة عريضة! وكانت أسراب الطيور أحياناً أخرى، تحمل إليه رسائلَ حبٍّ وسلامٍ، من بلادٍ قصيّةٍ جدّاً. وفي بعض الأيّام، كانت تزورُهُ حوريّات البحر، فتنشد على مسمعه أغنياتٍ عجيبةً، ورائعةً جدّاً!

أمّا طبقات النّاس جميعاً، فكانوا يتأمّلونه في أغلب الأحيان، بعيونٍ دامعة، وقلوبٍ تَتَفَطَّرُ إشفاقاً ورحمةً!. وكم كانوا يجاهرون ساخطينَ، مستهجنينَ تصرّفاتِ الطّاغية، جوبيترَ المعتدي، ذاك الّذي كبّله في هذا الموضع، البالغ الصّعوبة!.

وتتمّةً لهذه المأساة المروّعة، الّتي لم يحدث مثلُها على مدى العصور! يُروى :أنّه كان في سالف الزّمان، وقديم العهد والأوان، أنْ سلكتْ هذا الطّريقَ، الّذي يؤدّي إلى هذا المكان، بقرةٌ بيضاءُ. ويا لَغَرابةَ المشهد المؤثّر؛ فقد كانت هذه البقرة تبدو رائعة الجمال، وذات عينين واسعتين حزينتين، وتتمتّع بوجهٍ صبيحٍ، سيماؤه إنسانيّة تقريباً!.

ولقد توقّفت هذه البقرة؛ حيث يربض البطل في منفاه القسريّ، فشاهدتْ هامَتَه الرّماديّةَ، وجسمَهُ العملاقَ، المكبّلَ بالأغلال والأصفاد، فلمَحَها بروميثيوس تسبح في تأملاتها المتوجّعة، من ذلك الواقع الظّالم! فخاطبها، بلطفٍ بالغٍ، وحنانٍ متدفّقٍ، وقال لها: «إنّني أعرفك من أنت، إنّك: إيو البريئة، الّتي كانت فيما مضى من الزّمان، فتاةً رائعةَ الجمالِ، تقطن في أرغوس البعيدة. وقد حُكِمَ عليك بسببِ الإله العاتي، المتكبّر المتجبّر جوبيتر، وزوجته الملكة الغيور، بالتّحوّل الدّائم، والتّشرّد المزري، وغير الإنسانيّ في مختلف الأوطان!.

ولكنّني بمحض المحبّة الأبويّة، والعاطفة الإنسانيّة، أنصحكِ ألاّ تيأسي إطلاقاً، وتَفقدي الأملَ. ولابدّ أن تواصلي السّير إلى الجنوب أوّلاً، ثمّ إلى الغرب، وبعد أيّامٍ معدوداتٍ من السّير الحثيث، عليك أن تَصِلي إلى، نهر النّيل العظيم، وهناك في ذلك الصّقع، ستتحوّلين من بقرةٍ بيضاءَ، إلى فتاةٍ جميلةٍ، ولكنْ بهذا التّحوّل الجديد، ثقي أنّك ستكونين حتماً، ألطفَ وأجملَ من الزّمن

السّابق. وستتوّجينَ في أبّهة المُلْكِ وروعته، وتُزفّين زوجةً إلى مَلِكِ النّيل، وسوف تُبَشَّرين بميلاد طفلٍ سعيد، ذاك الّذي سيعلو نجمه، ويرتفع قدره، وحينما يشبّ، سينحدرُ منه البطل العظيم، الّذي سيحطّم قيوديَ المُذلّةَ، ويحرّرني من هذا الأسر المهين!. أمّا أنا فإنّني صمّمت أن أستمرَّ، صابراً ومنتظراً يومَ التّحرير، الّذي هو آتٍ لا ريبَ في مجيئه، والّذي ليس باستطاعة حتّى جوبيتر نفسه، تقديمه أو تأخيره!».

وأخيراً: «وداعاً وداعاً، يا عزيزتي إيو!». ومنذ ذلك الوقت، الّذي أُسِرَ فيه بروميثيوس المنكودُ الحظّ، مرّت عصورٌ وعصورٌ، إلى أنْ أتى أخيراً إلى بلاد القوقاز، بطلٌ صنديدٌ، نادرُ المثال، اسمه: هرقل، فتسلّق قمة الجبل الوعر، متحدّياً صواعق جوبيتر المرعبة، وزوابعه المخيفة، وثلوجه المتساقطة، وبَرَدَهُ الّذي يهوي عنيفاً. فَذَبَحَ النّسور الجارحة المؤذية، الّتي مزّقت بدون رحمة، كبدَ العملاق السّجين طويلاً، في تلك الأعالي الشّاهقة. وبضربة بطلٍ مقتدرٍ، وغيرِ هيّاب، حطّم قيود بروميثيوس، وحرّر البطلَ الهرمَ المهيبَ، بعد أسره المديد!. فما كان من بروميثيوس إلاّ أن قال له شاكراً: «سَلِمَتْ يداك يا بطلَ الأبطال! لقد علمتُ علمَ اليقين بحَدْسي، أنّك آتٍ لا محالةَ، وأنّ الخلاص لا يكون إلاّ على يديك، فمنذ عشرات القرون، الّتي مضت وانقضت، حدّثتُ عنك إيو، تلك الفتاةَ الرّائعةَ الجمال، والّتي أصبحت فيما بعد ملكةَ منطقةِ وادي النّيل، وأنبأتُها عمّا أُحْدِثُهُ الآنَ، من تحدٍّ لذلك الجبّار العنيد!».

فأجابه هرقل: «إن جميع ما تفوّهتَ به كان عينَ الصّواب، وركنَ الحقّ، فمن يستطيع أن يجاريَك بالحكمة، فأنت أبو الإنسانيّة دون منازِعٍ، وإنّ إيو، الّتي ذكرتَها، كانت حقّاً أمّاً لتلك السُّلالةِ الّتي انحدرتُ منها؟!».





الطّوفان

في تلك الأيّام الممعنة في القدم، عاش رجل اسمه: ديكاليون بن بروميثيوس. وكان رجلاً عاديّاً كبقيّة النّاس. ولم يكن تيتاناً شبيهاً بوالده العظيم. ومع ذلك كان صيته ذائعاً في كلّ مكان؛ نظراً لأعماله العظيمة، وسلوكه المستقيم. وكان اسم زوجته: بيرّا، الّتي عدّت من أطهر بنات النّاس جميعاً.

وبعد أن قيّد جوبيترُ بروميثيوسَ، ووضعه على جبال القوقاز، ونشر الأمراض والهموم بن النّاس، أصبح البشر أكثرَ ضعفاً من ذي قبل، فكفّوا عن ممارسة مهنة العمارة، وبناء البيوت طويلاً، وأهملوا رعيَ المواشي، في المراعي الخضراء، حتّى إنّهم لم يتعايشوا فيما بينهم بسلامٍ ووئام، بل كان يسرقون وينهبون، ويشنّون حروباً دائمةً على جيرانهم. وآنذاك لم يستتبُّ الأمن، ولم يُنَفَّذ القانونُ في أرجاء العالم أبداً. وهكذا تردّت الأمورُ تردّياً خطيراً، أكثر ممّا كانت قبل مكوث بروميثيوس بين النّاس. وهذا الدّمار المهلك كان كلّ ما تمنّاه جوبيتر لهم جميعاً.

وحينما بدا العالم، في كلّ يومٍ، يسير من وضعٍ رديءٍ، إلى ما هو أردأ منه، ازداد تذمّر جوبيتر من مشاهدة الدّماء، المراقة بين البشريّة باطّراد، وملّ من سماع تأوّهات، وعويل المظلومين والمساكين، فما كان منه إلاّ أن قال قولاً حاسماً، لقومه الجبابرة المجتمعين حوله: «إن أولئك النّاس أصبحوا عبئاً ثقيلاً علينا، ولا يصلحون لشيءٍ، ولا يَعْدو وجودُهُمْ على هذه الأرض، إلاّ مصدرَ شقاءٍ وعناءٍ لنا. فحينما كانوا سعداء وصالحين: شعرنا بالخوف منهم، لئلاّ يتفوّقوا علينا ويصبحوا أعظمَ منّا، وها هم الآن يعرّضوننا لخطرٍ داهمٍ، يعدّ أسوأ من أخطار الزّمن السّابق، وإنّني أرى أنْ لا

حلٌّ لمسألة وجودهم، على سطح هذا الكوكب، إلاّ إجراءُ تطهيرٍ حاسمٍ لهم، ألا وهو استئصال شأفتهم، وإبادتهم على بَكرةِ أبيهم، والتخلّص منهم نهائيّاً!».

وهكذا سَلَّطَ جوبيتر على الأرض، عاصفةً جائحةً ممطرةً، استمرّت في عنفها وقتاً طويلاً، حتّى بلغت أمواه البحر ذروة عتوّها، واندفاعها إلى اليابسة. وقد أدّى انهمار المطر الدّائم، بالدّرجة الأولى إلى غمر السّهول، والغابات، والتّلال. وبالرّغم من حلول هذا الغضب الجنونيّ، المهدّد لبني البشر؛ فإنّهم تمادَوا في غيّهم، وشنّ حروبهم، وتعدّياتهم على بعضهم بعضاً، غير مبالينَ بالمطر، الّذي ينصبّ فوق رؤوسهم انصباباً هائلاً، ولا بأعاصير البحر الثّائرة، الّتي تطغى بأمواجها على أراضيهم، وممتلكاتهم، ومواشيهم!.

ولم يكن أحدٌ من هؤلاء البشر مستعدّاً استعداداً كافياً، لمواجهة عاصفة هائجة مفاجئة مثل هذه، سوى ديكاليون الصّالح ابنَ بروميثيوس، الّذي لم يرتكب ما ارتكبه هؤلاء، من صنوف الآثام، ولم يكن قطُّ مشاركاً إيّاهم، في أعمالهم البالغة السّوء. وكثيراً ما كان ينذرهم ويحذرهم، تحذيراً شديداً من عواقب تصرّفاتهم المشينة، ويحثّهم على الإقلاع عن شرورهم الفظيعة، الّتي لا تُغْتَفَر. وقد أنبأهم — إن أصرّوا على أعمالهم تلك — أنّ إدانتهم ستكون في النّهاية إدانةً أبديّةً، وستحقُّ عليهم جميعاً اللّعنة الدّائمة، والإبادة الجماعيّة. وعلينا أن نذكر: إنّه حينما كان ديكاليون يذهب فيما مضى، إلى بلاد القوقاز، ليتفقّد والده الأسير، المقيّد بالسّلاسل، في قمّة الجبل، ويتحدّث معه، كان الأب بروميثيوس يقول له: «عليك يا ولدي أن تُعدَّ العدّةَ ليومٍ آتٍ لا ريبَ فيه؛ حيث سيُنْزِلُ جوبيتر فيه من أعالي السّماوات، على بني البشر، عاصفةً هوجاءَ، ومطراً غزيراً، يؤدّي إلى طوفانٍ عظيمٍ، يُغْرِقُ فيه الجنسَ البشريَّ، ويزيله نهائيّاً من الأرض!». وهذه النّبوءة تحقّقت فعلاً، فقد استمرّ، كما ذكرنا سابقاً، سحُّ المطر، وتَفتُّحُ كوى السّماء، وتفجّر عيون السّحاب الأسود الكثيف، الّذي غمر أرجاء المعمورة كلّها. وعند ذلك اضطرّ ديكاليون أن يجذب من ملجئه فُلْكاً مهيَّئاً لطوفانٍ كهذا الطّوفان، ونادى زوجته الطّيّبة بيرّا سريعاً، لتلجأ معه إلى هذا الفُلْك، الّذي طفا في بادئ الأمر فوق المياه، الّتي أخذت تشرئبُّ وتعلو علوّاً كبيراً. ولكي تكتملَ المأساةُ، اشتدّت الأعاصير وتتابع هطول المطر ليلاً ونهاراً أيّاماً كثيرةً. وعليك أن تعلم يا صاحِ، أنّ المرءَ في هذه الأوقات العصيبة، يعجز أن يصوّر تصويراً حيّاً، كم تقاذفت المياه هذا الفُلْكَ، ودفعته في شتّى الاتّجاهات! وكم عانى هذان الرّاكبان التّقيّان، من هذا الطّوفان الهائل!.

واستمرّ تدفّق المطر بحيث أخفى هذا الطّوفان أوّلاً: أعاليَ الشّجر، ثمّ التّلال، فالجبال، ولم يَعُدْ يَرَى ديكاليون وبيرّا من كوّة الفُلْكِ سوى المياهِ، المياهِ، المياه!.

وبذلك أدركا إدراكاً تامّاً، أنّ جميع البشر قد أُغرقوا، وشمل هذا الإغراقُ كلَّ كائنٍ حيٍّ، كان يدبُّ على سطح البسيطة، أو طيرٍ يحلّق في السّماء. وأخيراً توقّف المطر، وتبدّدت الغيوم، وطُهِّرت السّماء الزّرقاء، وطلعت الشّمس الذّهبيّة في الجوّ، وغارت المياه في الأرض مسرعةً، وانحدر ما تبقّى منها إلى البحر، واستوى الفُلْك على جبل بارناسوس، وخرج ديكاليون وبيرّا أخيراً من الفلك، ليسيرا وحدهما على الأرض الموحلة، الّتي أخذت تجفّ رويداً رويداً.

وبعد ذلك لم يمضِ سوى وقتٌ قصيرٌ، حتّى انحسرت المياه عن الأرض نهائيّاً؛ فهزّت الرّيح أغصان الأشجار المورقة، واكتست السّهول ببساطٍ فتّان، من الأعشاب والأزهار، وأصبحت أروعَ جمالاً من الأيّام، الّتي كانت قبل الطّوفان.

لكنّ ديكاليون وبيرّا كانا شديديِ الحزن؛ لأنّهما أدركا أنّهما الإنسانان الوحيدان الباقيان، على قيد الحياة في الأرض كلّها.

وبعدئذ بدآ يهبطان من سفح الجبل إلى السّهل، مندهشَيْن مما جرى لهما، فهاهما الآنَ يشعران بالوحشة، لانفرادهما في هذا العالم الواسع الأرجاء. وبينما هما يتحدّثان ويمعنان في التّفكير بما سيتصرفان به، سمعا صوتاً خلفهما فالتفتا، فلمحا أميراً غضَّ الشّباب، يقف أمامهما على أحد الصّخور. وكان فارعَ الطّول، ذا عينين زرقاوين، وشعرٍ أشقرَ، وله جناحان في حذاءيه، ومثلُهما على قبّعته، ويحمل بيديه عصاً تلتفُّ حولها ثعابينُ مذهَّبةٌ، فعلما حالاً أنّه مركوري (هرمس) رسولُ الآلهة ذوي الجبروت، الفائقُ السّرعة، وقد انتظرا ليسمعا ماذا سيقول.

فسأل مركوري ديكاليون وبيرّا: «هل ترغبان في شيءٍ؟ أخبراني بذلك، وإنّني سأحقّق لكما ما تطلبان».

فقال ديكاليون: «إنّنا نرغب قبل كلّ شيء، في أن نرى الأرض عاجّةً بالنّاس مرّةً أخرى؛ لأنّ العالم إذا خلا من الأقارب والأصدقاء فإنّه سيكون مكاناً موحشاً جدّاً».

فما كان من مركوري إلاّ أن قال لهما: «إذاً عليكما أن تتابعا النّزول من الجبل، وأثناء هبوطكما، ألقيا عَظْمَ أُمِّكُما إلى الوراء، من فوق كتفيكما».

وبعد أن تفوّه بتلك الكلمات، قفز في الهواء، واختفى عن نظريهما.

فقالت بيرّا لديكاليون: «ماذا يعني بكلامه؟»

قال ديكاليون: «إنّني لا أعرف بالتّأكيد، ولكنْ دعينا نفكّر لحظةً، فمن تكون أمّنا هذه، إن لم تكنِ الأرضَ، الّتي نشأنا كلّنا منها؟ وأيضاً ماذا يعني بعظامِ والدَيْنا؟»

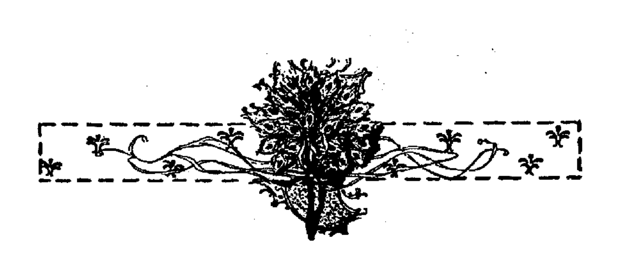
قالت بيرّا: «ربّما يقصد حجارة الأرض؛ لذلك دَعْنا نلتقط الحجارة في طريقنا، ونرميها خلفنا، من فوق أكتافنا، مع أنّه من السّخافة بمكانٍ أن نفعل ذلك، ولكن لا ضرر فيه، وسنرى ما يحدث!».

وهكذا هبطا من منحدر جبل البرناسوس الشّاهق، وحين نزولهما التقطا الحجارة المخلخلة في طريقهما، وألقياها إلى الوراء من فوق كتفيهما. والغريب أنّ الحجارة الّتي ألقاها ديكاليون، انقلبت إلى ما يشبه الرّجال، البالغي الكمال، وكانوا أقوياءَ وشجعاناً، وأمّا الحجارة الّتي رمَتْها بيرّا فقد انقلبت إلى ما يشبه النّساء البالغات الكمال أيضاً، وقد كُنَّ بديعات ولطيفات.



وحينما وصلا إلى السّهل، ألفيا أنفسهما على رأس مجموعة نبيلة، تتلهّف أن تخدمهما. ورأى هؤلاء النّاس الجدد، أنّ من الحكمة: أن ينصّبوا ديكاليون ملكاً عليهم، ليدبّر شؤونهم. فلمّا تولّى رئاستهم أسكنهم في بيوت، وعلّمهم كيف يحرثون الأرض، ودرّبهم كيف يعملون كلّ ما هو مفيد لهم.

وبهذه الجهود المتواصلة أضحت تلك المنطقة مأهولةً، بسكّان جدد، سَرْعَانَ ما أصبحوا أسعد بالاً، وأفضلَ حالاً من أسلافهم الّذين قطنوها قبل الطّوفان. وسمّوا منطقتهم هذه: هلاّس[١٦٧]؛ بعد أن كانت هلّين، وهو: اسم ابن ديكاليون وبيرّا. وبذلك أُطلِقَ على هذا الشّعب حتّى يومنا هذا اسم: الهلّينيّين، ولكنّنا نحن اعتدنا أن ندعوَ هذه المنطقة: بلادَ الإغريق.



[١٦٧] هلاّس: سام بلاد اليونان في اللّغة اليونانيّة.



قصّة إيو

في مدينة أرغوس، عاشت فتاةٌ اسمها إيو، وهذه الفتاة كانت رائعة الجمال، وقد بلغت الغاية في النّبل، بحيث إنّ كلّ من عرفها شغف بها، وقال عنها: «إنّها لا مثيل لها في العالم كلّه».

وسمع الإله جوبيتر المستقرّ في الغيوم، بصيتها، فهبط إلى مدينة أرغوس ليستمتع برؤيتها، ولمّا قابلها سحر بجمالها، ولطفها، ورجاحة عقلها، حتّى إنّه عاد في اليوم التّالي، وكرّر العودةَ يوماً بعد يوم، وأخيراً قرّر أن يقيم في أرغوس، ليحظى بقربها وقتاً طويلاً.

ولكنّ إيو لم تعرف من هو، فقد اعتقدت أنّه مجرد أمير، عليه إهاب الشّباب، جاء من أجلها من بلادٍ بعيدة، و لم يظهر لها بمظهر الإله العظيم، ملك الأرض والسّماء؛ كما كان معروفاً.

لكن زوجته جونو الّتي عَرَفَتْهُ، وشاركته في الألوهيّة والعرش، لم ترضَ عن سلوكه، و لم تحبَّ إيو أبداً.

وحين علمت أنّ زوجها جوبيتر، غادر بيته، وغاب عنه طويلاً، واتّصل بالفتاة، قرّرت في نفسها، وعزمت عزماً أكيداً، أن تؤذيها أذىً مؤلماً، بقدر ما تستطيع. وفي أحد الأيام ذهبت إلى أرغوس خصّيصاً، لتفعل ما بإمكانها، لتحقيق غايتها.

ورأى الإله جوبيتر جونو آتيةً من بعيد، وهي تسير في طريقها الفسيح، وقد علمَ عِلْم اليقين: لأيِّ أمرٍ أتت. ولكي ينقذ إيو منها حوّلها إلى بقرةٍ بيضاء، عالماً أنه بإمكانه إعادتها، إلى هيئتها السّابقة، عندما ترجعُ زوجته إلى منزلها.

ولكنّ الملكة جونو حالماً لمحت البقرة، علمت أنّها إيو، فبادرته بالقول: «آه يا جوبيتر العظيم، كم هي بقرةٌ جميلةٌ! أعطني يا جوبيتر الطّيب.. أعطني إيّاها هديةً!».

فلم يرضَ جوبيتر في بادئ الأمر أن يمنحها إيّاها، ولكنّها لاطفته كثيراً بحيث اضطرّته في نهاية الأمر أن يوافق على طلبها على مضض، ظانّاً بأنّه سوف لا يمضي وقتٌ طويلٌ، حتّى يستعيدَها منْها.

ولكنّ جونو كان حكيمةً، لا تثقُ به ثقةً تامّةً، فما كانَ منها، إلاّ أن جذبتِ البقرة من قرنيها، وساقتها إلى ظاهر المدينة.

وآنذاك قالت جونو، للبقرة إيو، متشفيّةً: «والآن يا خادمتي الحلوةَ، يا عشيقةَ الإله، إنّي أودّ من أعماقي، أن أراكِ في أحوالٍ زريّةً ومضطربةً، ما دمتِ على قيد الحياة!».

ومن أجل ذلك، وضعت جونو البقرةَ في حراسة حارسٍ أمينٍ وغريبٍ، يدعى أرغوس: الّذي ليست له عينان مثلنا فحسب، بل له عشر مرّات، عشرُ أعينٍ. وامتثالاً لتعليمات الإلهة الحاقدة جونو، فما كان من أرغوس الحارس، إلاّ أن قاد البقرة إلى غيضةٍ قريبةٍ، وربطها بجذع شجرةٍ، بوساطة حبْلٍ طويلٍ؛ بحيث تتمكّن أن تقف، وتسرح في المرعى، وتقضم العشب الأخضر، وتخور: «ماع! ماع!» من الصّباح حتّى المساء.

وحين غربت الشّمس، وحلّتِ الظّلمةُ، تمدّدت إيو على الأرض الباردة، وبكت بكاءً مرّاً، وعبّرت عن حزنها الشّديد بالخوار: «ماع! ماع!» باعتبارها بقرةً، حتّى استسلمت للنّوم.

ولكن لسوء حظّها، وفقدان أملها، فلا صديقٌ مشفقٌ أصغى إليها، أو مُنجدٌ سعى لمعونتها! لأنّه لا أحدَ من البشر والآلهة، ما عدا جوبيتر، قد عرف أنّ هذه البقرة البيضاء، الّتي تقف مربوطةً في الغيضة، هي: إيو، الفتاة الجميلة، الّتي أحبّها النّاس جميعاً. ولذلك جلس أرغوس ذو الأعين الكثيرة، على التّلّة باستمرارٍ، على مقربةٍ من البقرة يحرسها، ولزم اليقظة التّامّة. ولن تراه أبداً مُتهيّئاً للنّوم، لأنّك بينما تلحظ نصف عُيونه مطبقاً، ترى من جانبٍ آخرَ نصف عُيونه، مستيقظاً تماماً. وهكذا كانت هذه العيون، تتناوب فيما بينها النّوم تارةً، واليقظة والتّرقب تارةً أخرى.

أمّا جوبيتر فقد حزن حزناً شديداً، حينما رأى حياة إيو القاسية، والّتي حُكِمَ عليها قسراً بتحمّلها. ولذلك فكّر تفكيراً طويلاً، كي يبتكر طريقةً يتمكّن أن يحررها بها.

ومن أجل ذلك في يومٍ من الأيام، دعا خلسة مركوري، الّذي يُسمّى: (رسول الآلهة) – ذلك الّذي رُكّبَ جناحاه في خُفّيْه – وأمَرَهُ بإعداد نفسه، ليقود البقرة، مبتعداً بها عن الغيضة.

فهبط مركوري من علياء سمائه، ووقف قرب سفح التّلة؛ حيث كان يجلس أرغوس، وأخذ يتلاعب بأنغامه الرّخيمة، على آلة الفلوتِ (آلة نفخٍ موسيقيّة). وهذه الآلةُ كان يُحبُّ الحارسُ الغريبُ تماماً، أن يشنّف أذنيه لسماعها.

واستمتاعاً بهذه الموسيقا دعا الحارسُ أرغوسُ مركوري للنّفخ في آلته، ورجاه أن يتسلّق التّلة، ويجلسَ بجانبه، ليمنحه مزيداً من أنغامه الأخرى؛ فحقّق له مركوري رغبَتَهُ، وأخذ يُجَوِّدُ في الألحان الجديدة السّاحرة، الّتي لم تماثلها ألحانٌ أخرى، منذ ذلك الوقت حتّى الآن.

وبعد أن بدأ بعزفه، تمدّد أرغوس الغريب، على العشب مصغياً بتأمّلٍ، عالماً أنّه لم يترامَ إلى سمعه أنغامٌ تماثلها طوال حياته.

ولم يمضِ إلاّ وقتٌ يسيرٌ؛ حتّى أثّرت تلك الألحان السّماوية، بسحرها الغريب، في وجدانِ أرغوس، بحيث جعلت عُيونَهُ الكثيرةَ تطبق في الحال، ويسقط في نومٍ عميقٍ.

وهذا بالضّبط، ما كان مركوري يسعى بإلحاحٍ لتحقيقه. ولكنّه ويا للأسف! فقدْ تصرّفَ تصرُّفاً أحمقَ، لا يدلّ على أخلاقٍ عالية، أو شهامةٍ يَعْتَدُّ بها النّاس، فاستلّ فوراً سكّينه الحادّة الطّويلة من حزامه، وذبح أرغوس المسكين ذبحَ النّعاجِ، بينما كان مستغرقاً في النّوم. وما إنِ ارتكبَ مركوري هذه الجريمةَ المروّعةَ الشّنعاءَ، حتّى انحدر من التّلة، وسارع بفكِّ حبل البقرة، وقادها إلى المدينة.



ولكنَّ جونو – الّتي لا يغيب عن بالها شيءٌ – شاهدتْهُ بأمِّ عينيها، يفتك بحارسها الأمين، فتكاً مريعاً، بدمٍ باردٍ، فقابلته في الطّريق مبديةً غضبها العارم، فانتهرتْهُ انتهاراً شديداً، وهدّدتْهُ بترك البقرة كي تذهب وشأنها. فلمّا واجهته بهذه الثّورة العارمة، وهذا الهياج المخيف، انقلب على عقبيه كعادته، وولّى هارباً، وترك إيو المسكينةَ تَلْقَى مصيرَها المحتوم.

وهكذا أصبحت جونو حزينةً جدّاً، حينما شاهدت حارسها المخلص الحذِر أرغوس، ميّتاً ومطروحاً على العشب، مضرّجاً بدمائه، فلم يبقَ لها سوى أن تأخذ عيونه المئة، وتُرَصِّعَ بها ذنب الطّاووس، فغدت فيه عيوناً رائعةً مدهشةً، وما تزال تشاهَدُ هذه العيون، في ذيله حتّى اليوم. ولكي تبلغ الإلهةُ جونو بالانتقام حدَّهُ الأقصى؛ أوجدتْ ذبابةَ دوابٍّ كبيرةً مؤذيةً، بحجم كرة الطّوب، فسلّطتها على البقرة البيضاء، لتئزَّ في أذنيها، وتلذعَها دائماً، بحيث تجعلها لا تعرف طعمَ الرّاحة، طوال اليوم.

وهكذا حتَّمَتْ على إيّو المغلوبة على أمرها، أن تندفع مذعورةً من مكانٍ إلى آخر، لتتخلّص من تلك الآفة المزعجة. ومن سوء حظّها، أنِ استمرّت تلك الذّبابة اللّعينة، تئزّ وتئزّ بلا كللٍ ولا مللٍ، وتلسعها لسعاً مسموماً متواصلاً، لا هوادة فيه ولا رحمةً، حتّى أضحت تلك البقرة مستسلمةً، للخوف والألم الممضّ، فتمنّت من أعماقها الموت مراراً وتكراراً.

ولكنّها حينما لم تجد سبيلها إلى الموت، راحت تركض على غير هدىً، يوماً بعد يوم، تارةً في الغابات الكثيفة، وطوراً بين الأعشاب الطّويلة، النابتة في السّهول غير المشجّرة، وحيناً على شاطئ البحر. وأخيراً أتت إلى مضيق البحر، وحينما بدت لها اليابسة في الشّاطئ الآخر، وَوَجَدَتْ راحةً هناك، قفزتْ قفزاً سريعاً، وسبحت بقوّةٍ حتّى عبرتِ المضيق. وقد دُعِيَ ذلك المضيق البوسفور[١٦٨]، ومن ذلك الوقت حتّى الآن تجده مرسوماً في الخرائط، الّتي يستعملها الطّلاّب في المدارس.

وبعد ذلك اتّجهت إلى الأرض الغربية في الجانب الآخر، ولكنّها بالرّغم من كلّ ما فعلته، فإنّها لن تتخلّصَ من الذّبابة الشّريرة الّتي لازمتها طويلاً.

وفي نهاية المطاف، وصلت إلى قمم الجبال المعمّمة بالثّلج، والّتي بدت كأنّها تعانق السّماء،

[١٦٨] البوسفور: كلمة تعني بحر البقرة.

فهناك توقّفت مدّةً للرّاحة، ورفعت بصرها إلى الجروف، الهادئة الباردة؛ فوقها حيث ظهر كلُّ شيءٍ ساكناً وعظيماً، فتمنّت أن تكون هناك ميّتةً لتستريح!.

وفي غمرة الألم، وبينما كانت تسرّحُ بصرَها هناك، رأت هيئة عملاق يتمدّد فوق الصّخور، متوسّطاً بين الأرض والسّماء، فأدركت في الحال أنّه بروميثيوس، ذلك الشّابّ الجبّار الّذي قيّده جوبيتر؛ لأنّه أعطى البشرَ النّارَ. ففكّرت في نفسها قائلةً: «إنّ كلّ ما عانيته من همومٍ وآلامٍ، لا يعادل جزءاً يسيراً، مما عاناه هذا البطل الشّهم الشّجاع». وما كان منها بعد ذلك، إلاّ أن امتلأت عيناها بالدّموع!.

عندئذ نَظَر بروميثيوس من علياء سجنه إلى الأسفل، ليخاطبها بصوتٍ لطيفٍ مفعمٍ بالشّفقة والحنان، قائلاً لها: «لقد عرفتُ من تكونين أنتِ، وإنّي لأنصحكِ بألاّ تفقدي الأمل أبداً، وأن تتّجهي بطريقك إلى الجنوب، ثمّ إلى الغرب، وستجدين هناك مكاناً آمناً، ترتاحين فيه، وتستقرّين».

فأرادت أن تشكره بقَدْرِ استطاعتها، معبّرةً بذلك عن مشاعرها، العاطفيّة الجيّاشة نحوه، ولكنّها للأسف الشّديد حين حاولت أن تتكلّمَ، لم تتمكّن إلاّ أن تخور فقط: «ماع! ماع!».

وبعد ذلك تابع بروميثيوس كلامه العطوف، باثّاً الثّقة في نفسها، فأنبأها: «أنّه يأتي زمنٌ، سيكون حلولُه عمّا قريب، حيث تعود فيه ثانيةً إلى هيئتها الإنسانيّة الجميلة المعروفة، وستكون فيما بعد، أمّاً لسُلالةٍ عريقة، من الأبطال البواسل!». ثمّ أردف كلامه قائلاً لها: «أمّا بشأن فكّ قيودي، واستعادة حرّيّتي ، فإنّي أنتظر ذلك اليوم الموعود بصبرٍ وثبات. وإنّ أحدَ الأبطال الغرّ الميامين من ذرّيتك الشّريفة، سيتصدّى للظّلم والإرهاب، وسيحطّم تلك القيود، وسيجعل ليليَ الّذي ادلَهَمَّ طويلاً، ينجلي مشرقاً، وهكذا أيّتها العزيزة إيو، ما عليَّ أخيراً إلاّ الوداع!».



النّسّاجة العجيبة

١- السُّداة

في بلاد الإغريق عاشت فتاة شابّة اسمها: أرخني. كان وجهُهَا شاحباً، ولكنّه جميلٌ، أمّا عيناها فزرقاوان واسعتان، وكان شعرُها مسترسلاً، ذهبيَّ اللّون. وكانت تجلس في أشعّة الشّمس، من الصّباح حتّى الظّهر، تغزل، ومن الظّهر حتّى المساء، تنسج.

وكم كان جميلاً ومدهشاً ما ينسجه نولُها، من خيوط الكتّان والصّوف والحرير، تلك الّتي كانت تستعملها جميعاً!. وكان ما تصنعُهُ يداها من ثيابٍ رقيقاً ناعماً، حتّى إنّ النّاس أتوا من كلّ حَدَبٍ وصَوْبٍ، ليروا إبداعها. وقد قال هؤلاء في نفوسهم: «إنّ هذه الثّيابَ نادرةُ المثال. إذاً فلا يَدُورَنَّ في خلَدِكَ، أنّها مصنوعةٌ من الكتّان أو الصّوفِ، بل سُداها، غُزِلَتْ من أشعّة الشّمسِ، ولُحمةُ خيوطِها، صيغت من الذّهبِ الخالصِ».

وسواءٌ أجلستْ هذه الفتاة، يوماً بعد يومٍ، معرّضةً، لأشعّة الشّمس، تقيس نسيجَها بشبرها، أو جلستْ، في الظّلّ، وحاكتْ حياكتَها المعتادةَ، فإنّها كانت تقول في نفسها مفاخرةً: «لا يوجد في العالمِ أجمعَ غَزْلٌ كهذا الغزل، ولا ثيابٌ لطيفةٌ، وناعمة الملمس، كهذه الثّياب الّتي أنسجها، وليس للثّياب الأخرى الّتي ينسجها النّاس، خيوطٌ لمّاعةٌ كلمعان خيوطي، وليست نُدْرتُها كهذه النُّدرة!».

فقال لها بعضهم: «مَنْ علّمكِ الغزلَ والنّسجَ، الّذي تغزلينه وتنسجينه رائعاً هكذا؟!».



فأجابتهم فوراً: «لقد تعلّمتُ ذلك أثناء جلوسي، تحت أشعّة الشّمس، أو في الظّلّ الوارف، دون أن يُجنِّدَ أحدٌ نفسَهُ لمساعدتي بهذه المُهمّة».

فقالوا لها: «ولكنَّ الحقيقةَ النّاصعةَ الّتي تبدو لنا، أنّ أثينا ملكةَ الحكمة والهواء، قد علّمتْكِ ذلك دون أن تشعري!».

فأجابتهم أرخني محتدَّةً: «كم من سخفٍ في ادّعائكم الباطلِ هذا! إذْ كيف لهذه أن تعلّمني، وهل بمقدورها أن تغزل (شِلَلاً) كهذه (الشّلل)؟. وهل باستطاعتها أن تُجوِّدَ نسيجَها كما أُجَوِّدُهُ؟ وكم أتوق أن أرى تجربتَها، لأُعَلِّمها الإبداعَ والإبداعَيْنِ!».

وفي الحال رفعت أرخني بصرها، فرأت في مدخل الباب امرأةً فارعةَ الطّول، تلتحف معطفاً فضفاضاً، وكان وجهُها يتمتّع ببعض الجمال، ولكنّه كان عبوساً! وآه ثمّ آه، كم كان قاسياً أيضاً!، أمّا عيناها الرّماديّتان فقد كانتا حادّتينِ ولامعتينِ، حتّى إنّ أرخني لم تستطع أن تواجه نظرتَها المتفرّسة.

قالت هذه المرأة الرّصينة: «يا أرخني! إنّني أنا أثينا ملكة الهواء، وقد طرق سمعي تفاخرُكِ، فهل أنتِ لا تزالين تصرّين على الادّعاء، بأنّي لم أُعَلّمْكِ مهنةَ الغزْلِ والنّسيج؟».

فأجابت أرخني: «لا أحد علّمني شيئاً من هذا، ولن أشكرَ أيّاً كان، على ما أُتْقِنُهُ الآن من صنعة!». ثم ما لبثت أنِ انتصبتْ واقفةً، مستقيمةَ القامة، متصلّفةً، متكبّرةً. بجانب نَوْلها!.

فقالت لها أثينا: « ألا تزالينَ تعتقدينَ بأنّك تتقنين الغزل والنسيج، كما أُتْقِنُه أنا؟».

فازدادت وجنتا أرخني شحوباً، ولكنّها بالرّغم من اضطرابها قالت: «إنّني أستطيع أن أنسجَ، كما تنسجين أنتِ تماماً!».

عند ذلك قالت الإلهة أثينا: «إذاً علينا أن نبدأ بالنّسج ابتداءً من الآن، ولمدّة ثلاثة أيّام. فأنتِ تنسجين على نولكِ، وأنا على ما أملكه ويخصّني، من وسيلةٍ، وسندعو النّاسَ كلَّهم أن يأتوا، ويَرَوا عملنا، وسيكون الحَكَمَ بيننا جوبيتر العظيم الّذي يسكنُ الغيوم. فإنْ كان نسيجك أفضلَ من نسيجي، فسوف لا أمارس هذه المهنة أبداً؛ وسوف لا أحيك أيّة حياكةٍ مادام العالم موجوداً. ولكن إنْ كانت حياكتي أجمل وأفضل فعليك ألاّ تستعملي النّول، والمغزل، وعصا المغزل، مادمتِ حيّةً. فهل توافقين على ذلك؟».

فأجابت أرخني بثقةٍ تامّة: «إنّني أوافق!».

٢- لحمة النّسيج

ولّما حان موعد مباراة الحياكة، أتى النّاس من كلّ حدَبٍ وصوبٍ، ليروا من منهما تتفوّق في المباراة، حتّى إنّ جوبيتر العظيم، هبط من السّماء من بين الغيوم، ليراقب المباراة.

فنصبتْ أرخني نولها: في ظلّ شجرة التّوت، حيث الفراشات من شتّى الأشكال والألوان، تخفق بأجنحتها، والجنادب تُسْمع صريرَها، احتفالاً بهذه المناسبة، وقد استمرّت هذه الحياكة طوال اليوم بكامله.

وأما الإلهة أثينا: فقد نصبت نولها في السّماء؛ حيث النّسمات تهبُّ منعشةً، وشمس الصّيف تُشعّ متلالئةً، وقد فضَّلَتْ الإلهةُ أثينا أن يكونَ نولُها في السّماء؛ لأنّها حقّاً كانت ملكةَ الهواء.

وفي رجوعنا إلى الفتاة أرخني، نراها حين شرعت في عملها، قد استمدّت (شِلَل) نسيجها، من أنْعَمِ خيوط الحرير، وأخذت تنسج نسيجاً ذا رَوْنَقٍ مدهشٍ، فكانت خيوطها نظراً لدقّتها، تكاد تطير في الهواء، وبالرّغم من نعومتها، فقد كانت متينةً جدّاً؛ بحيث تستطيع إمساكَ الأُسُوْدِ بشباكها.

وقد كانت خيوطُ سُدى النّسيجِ، وخيوطُ لُحْمته من ألوان عديدة، وقد انتظمت وامتزجت كلّها امتزاجاً عجيباً؛ بحيث إنّ كلّ من رأى ذلك امتلأ بهجةً وسروراً. فقال النّاس معبّرين عن غبطتهم: «لا عجبَ إن افتخرَتْ هذه الفتاةُ بمهارتها فخراً عظيماً!». حتّى إنّ جوبيتر كبيرَ الآلهة نفسه، هزَّ رأسه موافقاً موافقةً تامّةً، على مهارتها الفائقة.

وابتدأت أثينا، إلهةُ الحكمة، تنسج نسيجها بنشاطٍ ملحوظٍ أيضاً. فاستمدّت هذا النّسيج من قضبان أشعّة الشّمس، الّتي ذَهَّبَتْ أعاليَ الجبال، واستَوْحَتْهُ من جُزَرِ الصّوف المتكوّنة في السّماء، في الغيوم الصّيفيّة، ومن الأثير الأزرق، لسماء الصّيف أيضاً، ومن الحقول الصّيفيّة الخُضْرِ، الزّاهيَة الألوان، ومن الأرجوان الملكيّ لغابات الخريف.

وماذا تظنّ أخيراً أنّ الإلهةَ أثينا قد نسجتْ؟. إنّ النّسيج الّذي حاكته في السّماء، كان حافلاً بصور الأزهار، وحدائقها الفاتنة، وبصور القلاع، والأبراج، والجبال العالية – يضاف إلى ذلك صور النّاس، بشتّى أوضاعهم – والوحوشِ الكاسرةِ في غاباتها، والجبابرةِ العظام، بمعاركهم الحربيّةِ، والأقزامِ الّذين مَسَخَتْهُمُ الآلهةُ مَسْخاً، والأشدّاء العُتَاة: حاشيةِ الإله الأكبرِ جوبيتر،

الّذي تستقرُّ مملكتُهُ في الغيومِ المتعالية.

وهؤلاء الّذين أشبَعُوا أنظارهم بروائع نسْجها؛ مَلأَتْهُمُ دَهْشَةً، وعَجَبَاً، وبهجةً غامرةً، حتّى إنّهم نَسَوا النّسيج الجميل، الّذي أبدعته أرخني، وحتّى إنّ أرخني نفسَها، حين رأت نسج أثينا، الفائقَ الجودة، وخالبَ الألباب، خبّأتْ وجهَها بين يديها، وبكت بكاءً مرّاً.

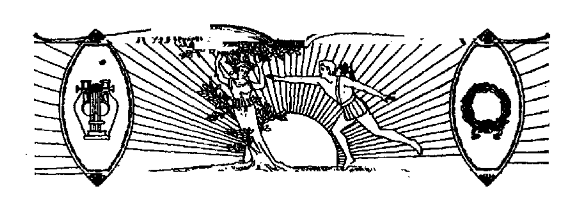
وبعد أن ذرَفت الدّموعَ سخينةً، هتفتْ من أعماقها: «آه ثمّ آه، كم تعاميتُ عن الحقيقة، فمهما امتدّ بيَ العمْرُ، وطالَ الزّمانُ، فابتداءً من الآن فصاعداً، يترتّب عليّ ألاّ أستعملَ نولاً، أو مغزلاً، أو عصا مغزلٍ أبداً!». ثمّ إنّها استمرّت في البكاء، والعويل قائلةً: «كيف يمكنني أن أتابع البقاء على قيد الحياة؟!».

ولكنّ الملكة أثينا رأت أنّ الفتاة المسكينة أرخني، لن تُسْعَدَ أبداً، إن لم يُسمَحْ لها بالغَزْل والنَّسيج، فأخذَتْهَا الشّفقةُ عليها وقالت لها: «إنّني مزمعةٌ أن أحرّرَكِ من الاتّفاق، الّذي أبرمتُه معك، إنْ قدرتُ على الأمر، الّذي ليس بمقدورِ غيري أنْ يفعلَهُ، ألا وهو إيقاف اتّفاقي معك؛ بشرط ألاّ تستعملي في المستقبل النّولَ والمغزلَ أبداً. وإنْ شعرتِ بأنّك لستِ سعيدةً ما لم تغزلي وتنسجي، سأحوّلُكِ إلى شكل جديد؛ بحيث يمكنك أن تمارسي عملَكِ بدون نولٍ أو مغزلٍ».

وإثرَ ذلك لمست الملكة أثينا أرخني برأس رمحها، الّتي كانت تحمله أحياناً، فتحوّلت الفتاة حالاً إلى عنكبوتٍ رشيقةِ الحركة، فركضت في مكانٍ ظليلٍ، وبدأت بفرحٍ عظيمٍ تغزل، وتنسج نسجاً جميلاً.

وقد سمعتُها تقول: «بأنّ كلّ العناكب الموجودة في العالم، منذ ذلك الحين هنَّ بنات أرخني!».

ولكنّني أشكّ، فيما إذا كانت هذه الحقيقة النّاصعة تماماً. ومهما يكن من أمرٍ، وبصورةٍ قريبةٍ من الصّحّة، فإنّني أعلم جيّداً: بأنّ أرخني لا تزال تعيش غازلةً ناسجةً، في زوايا البيوت المهجورة. ومن المناسب أن تعتقدَ أنتَ: أنّ العناكبَ الأخرى الّتي تشاهدُها الآن، يمكن أن تكون هي أرخني نفسها على الأغلب!.



سيّد القوس الفضيّة

١- ديلوس

قبل وجودكَ، أوْ وجودي، أو وجود أيّ إنسانٍ آخرَ يمكن أن يتذكّرَ، عاشت هناك مع القوم الجبابرة على قمّة الجبل المقدّس، سيّدةٌ جميلةٌ دُعيت ليتو.

كانت هذه السّيّدة على مقدارٍ كبيرٍ من الدّماثة واللّطف والجمال، حتّى إنّ كبير الآلهة جوبيتر أحبّها فتزوّجها. ولمّا ترامت إلى سمع جونو، ملكةِ الأرضِ والسّماء، (وزوجة جوبيتر الشّرعيّة) أخبارُ هذا الزّواج المريب، أضحت غاضبةً أشدَّ الغضب. فطَرَدَتْ ليتو من الجبل المقدّس شرّ طِرْدةٍ، وأمرت الأشخاصَ كباراً وصغاراً، برفض مساعدتها، رفضاً قاطعاً. وهكذا اضطرّت ليتو إلى الفرار كالغزال الشّريد، من قُطْرٍ إلى قُطْرٍ آخرَ، بحيث إنّها لم تجد ملاذاً آمناً ترتاح فيه، ومكاناً تطمئنّ إليه. لذلك لم تتوقّف أبداً عن متابعة المسير، لأنّ الأرض بسبب حقد جونو اهتزّت تحت أقدامها، والأحجار الصّمّاء صرخت بملء فيها: «اذهبي سريعاً! اذهبي عنّا بعيداً بعيداً!». وحتّى العصافير في الجوّ، والوحوش في الغابات، والنّاس في كلّ مكانٍ، دَأبوا على الصّياح المنكر خلفَها: «غادري المكانَ فوراً!». وبسبب لعنة جونو، لم يشفق عليها أحدٌ، في تلك الأرض الواسعة، أو يمدّ لها يد المساعدة، فالقوّةُ في جميع العصور هي المهيمنةُ!.

وفي أحد الأيّام قادتها قدماها إلى شاطئ البحر، وحينما استمرّت في هربها على طول شاطئه المرمل، زلّت قدماها، ولكنَّ يديها ساعدتاها على النّهوض؛ فلم تجد بدّاً من أن تجأرَ بالدّعاء العميق، والصّلاة الحارّة، إلى نبتون العظيم لينقذها من محنتها القاسية. فاستجاب لها ملك البحار، وأصغى إلى ندائها، واستغاثتها، وأبدى لها غاية المحبّة واللّطف!. وأرسل إليها سمكةً

ضخمةً تدعى دُلفين، لتنقذها من ذلك الشّاطئ الموحش.

وسَبَحَت السّمكةُ (الدّلفينُ) -الّتي جلست ليتو على ظهرها الواسع- فأخذت تبحر إلى ديلوس، تلك الجزيرة الصّغيرة، الّتي اضطجعت هناك على سطح الماء، كالقارب في عُرْضِ البحر.

ووجدت ليتو - تلك السّيّدةُ اللّطيفةُ الصّابرةُ - الرّاحةَ والمأوى في هذه الجزيرة بعدَ ازْدِرَاءٍ، وتعبٍ، ونصَبٍ؛ لأنّ هذا المكان كان خاصّاً بنبتون فقط، حيث إنّ كلمات جونو وتحريضاتها القاسيةَ، لم تكنْ مطاعةً فيه. ولقد وضع نبتون أربعة أعمدة مرمريّةٍ تحت الجزيرة، لدعمها لكي يجعلَها، تستقرّ استقراراً ثابتاً في البحر، ثمّ قيّدها بسلاسلَ عظيمةٍ حتّى أسفلِ البحرِ؛ بحيث إنّ الأمواج الصّاخبة والعاتية، لن تحرّكَها أبداً في المستقبل.

وعقب هذه الرّعاية العظيمة من إله البحار، أنجبت ليتو، اللاّجئةُ إلى الجزيرة، طفلين توأمين فيها: طفلاً ذكراً، سمّتهُ: أبولّو، وأنثى دعتها: أرتميس.

ولّما وصلت أخبار ميلاد الطّفلين، إلى الإله جوبيتر وقومه الجبابرة، عمَّ الفرحُ كلَّ مكان، وأضحى العالمُ كلُّهُ في سرورٍ وحبورٍ، فرقصت الشّمس فوق المياه البحريّة، رقصاً رائعاً، وأما البَجَعَات المغنّيات، فطارت حول الجزيرة احتفاءً بهذا الميلاد المجيد، حتّى إنّ البدر المنير في علياءِ سمائه، توقّف، ليقبّل بشغفٍ أرجوحتيهما المنصوبتين. ويذكر إنّ الإلهةَ جونو نفسَها عنوانَ الانتقام، نسيت غَضْبَتَها العارمة بهذه الولادة السّعيدة. والغريبُ العجيبُ أنّها أمرت النّاس في الأرض، والآلهة في السّماء، أن يكونوا رفقاءَ بليتو، طيّبين معها!.

وترعرع هذان الطّفلان بسرعة مدهشة. فأبولّو غدا طويلَ القامة، وقويّاً، ورشيقَ القدّ، وذا وجه متألّقٍ، كأشعةِ الشّمسِ في رابعةِ النّهارِ. وحينما شبَّ وكبر، كانَ ينقل البهجةَ والسّرور، إلى قلوب النّاسِ، في حلّه وترحاله. ولقد منحه والده جوبيتر: زوجاً من البَجَعِ، كانا يجرّان عربته الذّهبيّة، الّتي كانت تحمله فوق البحر، وتُقلُّهُ إلى أيّ مكان يقصده، وأهداه: قيثارةً سحريّةً، كلّما عزف عليها، صدرت عنها أعذبُ الأنغام. وأعطاه: قوساً فضّيّةً، ذات سهامٍ حادّة، لا تخطئ الهدف أبداً.

وكانت أخته: أرتميس (ديانا) فارعةَ الطولِ، وبارعةَ الجمالِ، وسخيّةَ الكفِّ، وتتوقُ إلى التّجوّلِ في الغابات، مع وصيفاتها اللّواتي يُدعَيْنَ: «حوريّات الغابات الجميلات».

وممّا روي عن أخبارها الغريبة: أنّها كانت تعتني عنايةً فائقةً بالغزال النّفور، والمخلوقات المغلوبة على أمرها، الّتي تعيش بين الأشجار في الحقول، وكانت تبتهج دائماً بصيد الذّئاب الخاطفة، والدّببة الفاتكة، والحيوانات المتوحّشة. ومن سيرتها الذّاتيّة: أنّها كانت محبوبةً ومرهوبةَ الجانب، في البلدان جميعها.

وقد توّجَها أبوها الإله جوبيتر: ملكةً على الغابات الخضراء، وجعلها: سيّدة الصّيد الأولى.

٢- دلفي

«أين يكون مركزُ العالم؟»

هذا السّؤال: وجّهه أحدُهم إلى جوبيتر، حينما كان مستوياً على العرش، في قصره الملكيّ، بين الغيوم في السّماء. ومن الطّبيعيّ جدّاً، أنّ حاكماً قديراً للأرض والسّماء كجوبيتر؛ كان أحكمَ من أن يرتبك من طرح سؤالٍ بسيطٍ عليه كهذا، ولكنّه كان منشغلاً جدّاً؛ بحيثُ لم يتمكّن من الإجابة عليه في ذلك الوقت.

فقال للسّائل: «تعالَ من جديدٍ بعد مضيّ سنةٍ كاملة، وسأريك المكان نفسه».

ثمّ ما كان من جوبيتر بعد تلك المدّة المحدّدة، إلاّ أن أخذ نَسْرَيْن سريعين، وألقاهما في الجوّ؛ فاستطاعا أن يحلّقا تحليقاً أسرعَ من ريح العاصفة، وكان اختيارهما: بحيث تكون سرعة الأوّل، بقدْرِ سرعة الثّاني تماماً. وفي نهاية السّنة قال لخَدَمه: «خذوا هذا النّسر إلى حافّة الأرض، حيث تشرق الشّمس خارج البحر، واحملوا رفيقه إلى الغرب البعيد، حيث يكون البحرُ ضائعاً في الظّلمة، ولا شيءَ يستقرّ خلفه. وعندما أعطيكم الإشارة، أطلقوا النّسرين كليهما في الفضاء، في الزّمن نفسه».

وقد نفّذ الخدم الأوامرَ، فَحَمَلا النّسرين إلى طرفي العالم، البَعِيْدَيْنِ جدّاً عن بعضهما، حينئذٍ صفّق جوبيتر بيديه، فلمع البرقُ، وقصف الرّعدُ، وتحرّر الطّائران السّريعان تماماً، فطار أحدهما باستقامةٍ إلى الخلف، متّجهاً إلى الغرب، وطار الطّائر الثّاني إلى الخلف، أيضاً ولكنْ باتّجاه الشّرق.

ولم يكن السّهم المنطلق من قوسه، أسرعَ من هذين النّسْرَين، اللّذين انطلقا من أيدي من أمسكوهما. وأُؤكّدُ لكم من جديدٍ: أنهما قد اندفعا مسرعَيْنِ كالشُّهب، الّتي تقتحم الفضاءَ

ليقابلا بعضَهما بعضاً.

وجلس جوبيتر، وأصحابُه الجبابرةُ العظماءُ، وسطَ الغيوم مراقبيْنَ النَّسْرَيْن، حين يقتربان، ثمّ يقتربان. مع العلم أنّه لم ينحرف أيٌّ منهما نحو اليمين أو اليسار، وحينما أصبح الاقتراب من بعضهما كبيراً، تلاقيا وجهاً لوجه؛ فارتطما ببعضهما ارتطامَ سفينتين، في عُرض البحر، فكان هذا الارتطام والاصطدام شديدين، فسقط كلاهما على الأرض جثّتين هامدتين.

فقال جوبيتر: «مَنْ منكُمْ سألَني سابقاً أين يكون وسطُ العالم؟ إنّني أعلمكم الآن بدقّة متناهية، أنّ وسطَ العالم هو: المكان الّذي لفظ فيه النّسران نَفَسَيْهما الأخيرَين!».

لقد سقط النّسران على قمّة جبل الإغريق المشهور، الّذي دُعِيَ منذ ذلك الوقت جبل بارناسوس. ولقد كرّر الفتى أبولّو أيضاً ما قاله والده: «حقّاً إن وسط العالم كان مكانَ سقوطِ النّسْرَين ذاتُهُ». ومن أجل ذلك سأجعل بيتي هناك، وإنّني مصمّمٌ أن أبنيه في ذلك الموضع نفسه، لكي يكون ضيائي مُشاهَداً في العالم كلّه.

وتنفيذاً لخطّته، فقد اتّجه إلى جبل بارناسوس، وبحث عن البقعة، الّتي ينوي أن يضع حجرَ الأساس فيها. ولقد كان الجبل ذاته مقفراً وموحشاً من قبل، وكان الوادي تحته منعزلاً ومظلماً، وأمّا سكّانه القلائل، فقد حَمَوا أنفسهم مِمّن يهدّدهم، باختبائهم بين الصّخور، وكأنّهم كانوا دائماً متوجّسين شرّاً، من خطرٍ فظيعٍ سيحيق بهم.

ولقد أعلموا الإله أبولّو بأنّه يوجد قرب سفح الجبل، جرفٌ صخريٌّ شديدٌ، يبدو لهم كأنّه ينشقّ إلى قسمين. وهناك كان يعيش ثعبانٌ خطِر يدعى بايثون (أي ثعبان الصّخور)، وهذا الثّعبان كان يقتنص الخراف غالباً، ويعتدي على قطعان الأبقار، وبلغت به الجرأة أنْ ينقضَّ أحياناً، على الرّجال والنّساء والأطفال، ويقودَهُمُ إلى مغارةٍ موحشة مخيفة؛ حيث يبتلعهم هناك.

والآن عندما لمح الثعبانُ المخيفُ الإلهَ أبولّو متّجهاً صوبَهُ، انحلّ عن استدارة جسمه المعهودة، وخرج ليقابلَهُ، فرأى الأمير الألمعي عَيْنَي ذلك المخلوق اللاّمعتين، وفمه الأحمر القاني، وسمع صخب جسمه الطّويل، فوق الصّخور، فجهّز أبولّو السّهم في قوسه، ووقف ساكناً. فشعر الثّعبان الضّخم بايثون، أنّ عدوَّه عدوٌّ غيرُ عاديٍّ، فالتفت ليولّي الأدبار، فما كان من سهم أبولّو المسدّد إليه، إلاّ أن انطلقَ من قوسه بلمح البصر، فغدا الوحش المؤذي، مجندلاً يتخبّط بدمائه. وإثر ذلك النّصر المؤزَّر، على ذلك التّنّين الّذي أقضَّ مضاجع النّاس زمناً طويلاً، قال

أبولّو في نفسه: «إنّني مزمعٌ أن أبني بيتي هاهنا، قريباً من هذا الجرف المنحدر، وتحت ذلك المكان الّذي سقط فيه النّسران، اللّذان أرسلهما أبي جوبيتر».

ولقد وضع أسسَ البناءِ الّتي جُدِّدَتْ حالاً، مكانَ جُحْرِ بايثون، فكانت جدرانُ معبد أبولّو البيضاءُ مشيَّدةً بين الصّخور، فبادر سكانُ تلك المنطقة الفقراءُ، إلى بناء بيوقم المتواضعة هناك، ليجاوروا المعبد.

وعاش الإله أبولّو بين ظهرانيهم سنينَ عديدةً، يعلّمهمُ: اللّطفَ والحكمةَ، ويبصِّرهم كيف يكون هو سعيداً ليسعدوا هُمْ أيضاً. وبذلك لم يعد هذا الجبل مقفراً وموحشاً، بل أضحى مركزاً مشعّاً للموسيقا الرّائعة، والأغاني السّاحرة. ولم يعد مظلماً ومنعزلاً، بل أصبح عامراً بالطمأنينة والرّوعة والجمال والنّور. وعقب ذلك سأله النّاس:«ماذا نسمّي مدينتنا أيّها السّيّد؟». فأجابَهُمْ أبولّو: «سمّوها دلفي أو دلفين، لأنّ الدّلفين: هو الّذي حمل أمّي (ليتو)، عبر البحر».

٣- دفني

في وادي تمبي الّذي يقع بعيداً إلى الشّمال، من معبد دلفي، عاشت ابنةٌ شابّةٌ تسمّى دفني. وكانت هذه الابنةُ غريبةَ الأطوار في سلوكها ونفسيّتها، بريّةً كالظبي النّفور. وكانت أيضاً سريعةً في مشيتها كسرعة الغزال ابنِ السُّهول. وأمّا طلعتها وجمالها وروعتها، فكانت كيومٍ زاهٍ من أيّام حزيران الجميلة. ولا يوجد أحدٌ تعمّق في التّعرّف على شخصيّتها الحسّاسة الوديعة، إلاّ وأحبّها حبّاً جمّاً.

وقد عشقت الطّبيعة عشقاً صوفيّاً؛ فكانت تقضي معظم أوقاتها في الحقول المزدهرة، والغابات الخضراء الكثيفة، ومَعَ العصافيرِ المغرِّدة، والأزهارِ الملوّنة المتفتّحة، والأشجارِ الباسقة، وكانت تحبّ أيضاً من أعماقها حبّاً لا مثيل له، كلَّ من يتجوّل على ضِفّتي نهر بينيوس الرّائع.

وفي معظم أوقاتها كانت تُنْشدُ أناشيدَ منغّمةً، وعذبةً لنهرها المحبوب، وتناجيه كأنّه كائنٌ حيٌّ، وهو بدوره كان يبادلها حبّاً بحبٍّ، ويصغي لأحاديثها، كما تصغي هي إلى رقرقة مياهه الصّافية. ولشدّة شغفها به، أصبحت تتخيّل أنّه يفهم كلّ ما تقوله له تماماً، أو أنّه يهمسُ كالأب الحنون، في أذنيها أسراراً عديدةً عجيبةً وموحيةً، كما تُلقي هي على سمعه أحلى الكلام، حتّى إنّ النّاس الطّيّبين الّذين عرفوها، قالوا عنها: «إنّها ابنة النّهر حقّاً!». وهي الّتي خاطبتْه في

يومٍ من الأيّام قائلةً: « نعم، ثمّ نعم، يا نهريَ العزيز، يا ذا القلب الكبير، دعني أكون ابنتك المحبوبة! ». فابتسم لها النّهر ابتسامتَهُ العريضةَ، وخاطبها بلغة الودّ، الّتي تستطيع أن تفهمها هي وحدَها. وكثيراً ما كانت تدعوه سرّاً وعلانيةً «أبي بينيوس!». وهذهِ الدَّعْوَةُ المحبّبةُ، قد أصبحت معلومةً لدى النّاس جميعاً.

وفي يومٍ من الأيّام الرّائعة، عندما أرسلتِ الشّمس أشعّتَها الذّهبيَّة على الأرضِ، دافئةً، وامتلأ الهواء بشذا الأزهار، مُعطَّراً، هامت دفني في تجوالها بعيداً عن نهرِها المفضّلِ، ذلك الّذي كانت تسرح وتمرح، على ضفّتيه الزّاهيتين سابقاً.

إنّها الآن قد احتازتِ الغابةَ الخضراءَ الظّليلةَ المزدهرةَ، وتسلّقت التّلّةَ المعشوشبةَ الرّائعةَ، الّتي من أعاليها تتمكّن أن تُطلَّ على أبيها: النّهر (بينيوس) في أسفل الوادي، وهو مستلقٍ أبيضَ اللّونِ، صافياً، مبتسماً، حتّى إنّه في انسيابه رقراقاً، يكادُ أن أن يكون في همساته متكلّماً. وتحت هذه التّلّة الّتي تبدو لكَ ساحرةً تلالٌ أخرى أقلُّ منها ارتفاعاً، حيث تتدرّج بها المنحدرات الخضراءُ الملوّنةُ مزدهيةً، وفوقها تعلو القمّةُ الحرجيّةُ بجَبَلِ أوسا العظيم مهيبةً. فيا لها من رحلةٍ هي رحلة العمر في تلك الآكامِ المدهشةِ، في عرسِ الطّبيعةِ الفتّان!.

لقد كانت دفني تعيش وحيدةً، وبعيدةً جدّاً عن النّاس، وكان بودِّها أن تتسلّق القمّة العالية لجبل أوسا الشّامخ، وتتحدّى بصعودها إليها الجبال الأخرى الأقلّ ارتفاعاً منها، وتطمح بعد ذلك أن تستقرَّ بعد جهدٍ على قمّتَي جبل بارناسوس العظيم، الّذي يقع بعيداً بعيداً في الجنوب، لِتَسْتَمْتِعَ برؤية البحر الأزرق الجميل. وقد قالت عند مغادرتها النّهر المفضّل: «وداعاً يا والدي بينيوس الحبيب، إنّني ذاهبة لأتسلّق الجبل، ولكنّني سأرجع إليك حالاً!».

فابتسم لها النّهر من جديدٍ، واندفعت إلى الأمام لتتسلّق التّلالَ، تلّةً تلّةً، وبالرّغم من سيرها الحثيث؛ فقد استغربت لماذا ما يزال الجبل المنشود يبدو لناظريها حتّى الآن بعيدَ المرتقى جدّاً؟ فَهَلْ هو شاهقٌ لا يبلغ ذروتَهُ إلاّ كلُّ جبّارٍ عنيدٍ؟.

وما لبثت بعد قليلٍ من صعودها، حتّى أشرفت على سفح منحدرٍ مشجَّرٍ، يتساقط من أعلاه شلاّلٌ أبيض اللّون، رائعُ الجمال، خريرُه ساحرٌ، تحفُّ بجانبيه الأزهار، والورود بألوانها الزّاهية.

وبعد أن احتازت الشّلالَ ترامى إلى سمعها أروعُ صوتٍ موسيقيٍّ، سمعته في حياتها، ينبعث من الغابة الكائنة على رأس الهضبة فوقَها؛ فتوقّفت ثمّ أصغت، ومن دون شكّ كان أحدُهم،

يعزف على قيثارةٍ أنغامَه الآسرةَ. وبالرّغم من خوفها من وجود أيّ إنسان، حسب عادها، يرمي إيقاعَها في شباكه، إلاّ أنّ الموسيقا، سحرتها واستوقفتها، فتشبّثتْ بمكانها حتّى إنّها لم تستطعِ الفرارَ أبداً!.

ولكنّ هذا العزفَ المطربَ سَرْعَانَ ما انقطع فجأةً، فوافاها من الأعلى شابٌّ طويلُ القامة، حسنُ الهيئة، وجهُهُ يلمعُ كشمس الضّحى. وفي هذه اللّحظات، أخذت في أسفل مُنحدر التّلّ، تحثّ الخُطا، فناداها بصوت عذب ملؤه الحبّ، قائلاً لها: «دفني! يا عزيزتي دفني!». ولكنّها لم تتوقّف لتسمعه إطلاقاً، بل استدارت هاربةً مسرعةً كالغزال المذعور، باتّجاه وادي تمبي.

فهتف الأمير الشّابّ ثانيةً" «دفني! يا حبيبتي دفني!» ولكنّها لهلعها وشدّة سرعتها لم تعرف حقّاً أنّ صاحب ذلك الصّوت العذب: هو الإله أبولّو سيّد القوس الفضّيّة، وحامل القيثارة الذّهبيّة!.

ولم يخطر ببالها إلاّ أنّ غريباً من جنس البشر، شاء أن يلاحقها؛ ليجعلها أسيرةً لديه. ففرّت راكضةً بمقدار ما سمحت لها قدماها التّحمّل.

وكيف لا تلوذ بالفرار، وهي الفتاة النّقيّة العفيفة، الّتي ما كلّمها في ماضي حياتها إنسيٌّ قطّ؟ لذلك فإنّ نغمة صوته ملأت قلبها رعباً!.

وشعر أبولّو فوراً بما يدور في خَلَد هذه الفتاة، فهتف قائلاً في نفسه: «إنّ هذه الفتاة أخوفُ فتاة رأيتُها في حياتي!، وكم أكون سعيداً، إذا استطعت أن أمتّع ناظريّ، بصورتها الجميلة النّادرة، وأن أجاذبها أطراف الحديث!».

ولكن يا لَخيْبَة أمله، ويا لَسُوءِ حظّه، فإنّها خلالَ الغيضة اليانعة المتكاثفة، وبين العلّيق الشّائك المتشابك، وفوق الصّخور النّاتئة، وعلى جذوع الأشجار السّاقطة هنا وهناك، وعبر الجداول المنحدرة السّائلة من أعالي الجبال، ركضت دفني المذعورةُ قافزةً، طائرةً، مندفعةً، دامية، لاهثةً، لا تلوي على شيء.



إنَّ دفني لم تنظر مرّةً من المرّات خلفها أبداً، حينما كانت تجري منطلقةً، ولكنّها الآن: سمعت خطواتِ أبولّو السّريعةَ تلاحقُها باستمرارٍ، فهي أقرب ما تكون إليها، وسمعت جلجلة قوسه الفضّيّة، المعلّقة بذراعيه، وحتّى إنّها سمعت تَنَفُّسَه المتلاحقَ، وهذا أكبر دليل على قربه الشّديد منها.

وقد تمّ ذلك الآن في الوادي، حيث كانت التّربةُ مُمَهَّدَةً ناعمةً، فكان الجرْيُ أسْهَلَ. ولكن بالرّغمِ من استماتتها في إجهاد نفسها في الرّكض؛ فإنَّ قوّتَها بارحتها، وكادت أن تستسلم للإله الجبّار! ولحسن حظّها وفي الوقت المناسب؛ فإنّ أباها النّهر استلقى أمامها أبيضَ اللّون، مبتسماً في أشعّة الشّمس السّاطعة، ومن عزّةِ الرّوحِ، مدّت إليه ذراعيها مستغيثةً به، وقائلةً له: «يا والدي الحبيب أنقذني! أرجوك أن تنقذني!». وتجلّت ذُرْوَةُ الوفاءِ، وروعةُ الإخلاصِ، حين بدا النّهر كأنّه ينهض لمقابلتها، ويهبّ لنجدتها. ويا ما أحيلى الأبوَّةَ الحقّةَ تجاه الأبناء المخلصين!.

ولقد كان الهواءُ مشبعاً بضبابٍ سديميٍّ معتمٍ، ففقد أبولّو رؤيتَه لحظةً فاختفتِ الفتاة من أمام ناظريه، إلاّ أنّها ما لبثت أن بَدَتْ من جديد، لائذةً بضفّةِ النّهر قريبةً منه، حتّى إنَّ شعرها الطّويل الجاري خلفها، قد مسّ جسدَه. وحينما رآها أبولّو تستجمع نفسها، وتوشك من جديد أن تقفز في مياه النّهر، الجارية المندفعة بقوّة، مدّ يديه لينقذها من الغرق المحقّق. ولكن هذه الفتاة سرعان ما تحوّلتْ، فلم تبقَ دفني الجميلة الخجولة بلحمها ودمها حين تمكّن أبولّو من احتضانها بذراعيه. لقد أضحتِ الآن جذعَ شجرةِ الغارِ، ذات الأغصان والأوراق الخضراء، المرتجفة في هبّات النّسيم. فصرخ أبولّو من أعماقه: «دفني! دفني!، أهذه، لسوء حظّي، هي الطريقة الّتي ينقذكِ بها أبوكَ النّهر.؟! أيحولكِ أبوكِ بينيوس إلى شجرةِ الغار ليقيكِ منّي؟»».

وإذا كانت دفني قد تحوّلت من فتاة إلى شجرة، فإنّني لا أعرف ذلك حقّاً، ولا أحدٌ يعرف السّبب الحقيقيّ الآن لذلك التّحوّلِ، حيث جرى ذلك منذ زمنٍ بعيد. ولكنَّ الإله أبولّو اعتقد أنّ تحوّلها قد تمّ فعلاً، فقد رأى ذلك رأيَ العيان، فحفظ المشهدَ. وتخليداً لهذه الذكرى صنع إكليلاً من ورق الغار، ووضعه على جبينه، وآلى على نفسه، بأنْ يتوّجَ به رأسَهُ دائماً وأبداً، ليكون ذكرى حسيّةً حيّةً، للفتاة الّتي أحبّها. وهكذا أصبحت شجرةُ الغار، الشّجرةَ المفضّلةَ

لديه دوماً. وتعظيماً لهذه الشّجرة، الّتي أضحت رمزاً خالداً، فإنّ الشّعراء والموسيقيّين، والأبطال العظماء، على مدى التّاريخ، يتوّجون رؤوسهم بتلك الأوراق، أوراقِ الغارِ، إلى يومنا هذا!.

٤- الضّلال

من مزايا الإله أبولّو أنّه لم يكترث بالعيش كثيراً، مع أقربائه الآلهة الجبابرة، على قمّة الجبل بين الغيوم، فلقد أولع بالتّجوال من مكانٍ إلى مكانٍ، ومن بلدٍ إلى بلدٍ آخرَ، لكي يعاين النّاس عن كثب، في غمرة أعمالهم، متعمّداً أن يجعل حياتهم سعيدةً. ولكن هؤلاء النّاس لّما نظروا إلى وجهه الصّبيانيّ الوسيم، ويديه البيضاوين النّاعمتين؛ استهزؤوا به، وقالوا علناً: «إنّه مُجَرَّدُ إنسانٍ كسولٍ فقط!». ولكنّهم سرعان ما تحوّلوا عن زعمهم هذا فيه، فإنّهم لّما سمعوا كلامه الفصيح المعبّر سُحِرُوا: ببلاغته، ووقفوا أمامه مشدوهين، منعقدي اللّسان، واضطّروا مرغمين، أن يعتبروا أن ما يتفوّه به على الدّوام، يعتبر قانوناً مقدّساً، لا يأتيه الباطل من بين يديه، حتّى إنّهم أثناء تدفّقه في الكلام، كانوا ينذهلون من حكمته البالغة، وآرائه الرّاجحة!. ومع توفّر كلّ هذه الصّفات فيه، لم يمنعهم ذلك من أن يروا فيه جانباً آخر، ألا وهو أنّه شابّ مغرم بالتّجوال، في جميع الجهات في عالم الطّبيعة، فهو يتأمّل حقول الأشجار المخضوضرة، والأزهار الملوّنة، والعصافير المغرّدة، والنّحل المتنقّل، من زهرةٍ إلى زهرةٍ أخرى، ومطاردة النّساء الجميلات.

ولكنْ من أهم تصرّفات هذا الإله الإيجابيّة، الّتي تسجّل له بمدادٍ من نورٍ، الحَدْبُ المطلق على بني البشر جميعاً، فحين يشعر أنّ المرض أَلَمَّ بإنسانٍ، مهما كانت طبقته، كان يُهْرَع إلى عيادته بكلّ طيبة خاطرٍ، ويقدّم له يد المساعدة، ويزوّده بالعقاقير، الّتي تؤدّي إلى شفائه العاجل.

ومن مزاياه الكثيرة: أنّ شغله الشّاغل، وهمّه الدّائم، أن يرشد بني البشر، إلى الفوائد الّتي توجد في الطّبيعة، فيعلّمهم بإخلاصٍ أن يَجِدُوا في النّباتات، أو الحجارة الصّمّاء، أو جداولِ المياه، ما يشفيهم، ويذهب عنهم أوصابهم، ويجدّد قواهم الجسميّة والعقليّة، ويبعث في نفوسهم النّشاط والحيويّة.

ومن غرائب ملاحظاتهم حوله: أنّه لم يتقدّم في السّنّ، ولم تظهرِ الكهولة أبداً على محيّاه، كبقيّة النّاس الفانين، بل ظلّ دائماً محافظاً على شبابه النّضر، وروحه الوثّابة. ومن جهة أخرى فهم لا يدرون: كيف يذهب، وإلى أين يتّجه. ومهما يكن من أمرٍ فإنّ الأرض تبدو للمحيطين

به، كما لو أنّها كانت أكثر إشراقاً وحلاوةً، أن تعاش، أكثر ممّا كانت قبل قدومه.

ولكنّ قصّتنا المحوريّة تدور الآن حول فتاة رائعة الجمال، ترعرعت في قرية جبليّة، وراء وادي تمبي، تسمّى: كورونيس، وحين لمحها الإله أبولّو، ثمّ متّع ناظريه برؤيتها البهيجة وإطلالتها السّاحرة، زمناً طويلاً، أضحى متيّماً بها. وكانت ثمرة هذا الحبّ والإعجاب الدّائمين: الزّواجُ المبارك الميمون.

وقد عاش مع هذه الفتاة الّتي سلبت فؤاده، وحرّكت لواعجَهُ النّفسيّةَ، عيشةً زوجيّةً راضيةً. وبعد قليلٍ من اقترانهما، رُزقا ولداً جميلاً سمّياه: إسكلبيوس، وقد أثارت طلعةُ هذا الطّفل، إعجابَ كلّ من شاهده. وتخليداً لميلاده البهيج، وفرحاً بهذه المناسبة السّعيدة، عزفت قيثارةُ والده، في تلك الجبال الشّاهقة، وغاباتها الكثيفة الملتفّة الأغصان، أعذبَ الألحان الّتي لم تُشنّفْ آذانُ السّامعين بها من قبل. وقد وصلت بشائر ولادة إسكلبيوس، إلى قومه الجبابرة، الّذين عاشوا بين الغيوم على قمّة الجبل؛ فكانوا في غاية السّرور بهذا الميلاد المجيد.

وكعادته الملحّة في الإدمان على السّفر والتّرحال، ترك الإله أبولّو زوجته العزيزة، وطفلها الصّغير، وقام برحلةٍ ليزور فيها بيته المحبوب، في جبل بارناسوس. وحين غادر ديارَهُ قال لزوجته: «سوف أسمع منك أخباراً كلّ يومٍ، فغُرابيَ المفضّلُ الّذي تعرفينه جيّداً، سوف يطير من عندكما، مندفعاً نحوي، بسرعته المعهودة، كلّ صباحٍ، قاصداً جبل بارناسوس، لينبئني عن أخبارك السّارّة، أنتِ وولدي المحبوب أسكلبيوس، وعمّا تفعلان في غيابي».

وكان غراب أبولّو هذا، الّذي دجّنه ودلّله، واعتنى بتربيته عنايةً فائقةً، يتّصف بحكمة بالغة، حتّى إنّه من فرط حبّه للتّعلّم، وذكائه النّادر، ودرايته بالأمور، استطاع أن يتكلّم!. ولا تَظُنَّنَّ أنَّ هذا الطّائرَ كان حالكَ السّواد، شبيهاً بالغراب الّذي نراه في زمننا اليوم؛ بل كان أبيضَ اللّون كثلوج الشّتاء النّاصعة.

وقد شاع بين النّاس، في تلك الأيّام، أنّ جميع الغربان كانت بيضاءَ اللّون. ولكنّني أشكّ في هذه الرّواية، إذ لم يوجد أيُّ بشريٍّ يؤكّدها تأكيداً تاريخيّاً، مستنداً إلى الوقائع الدّامغة!.

ومن المعلوم أنّ غراب أبولّو، إلى جانب مزاياه الكثيرة الإيجابيّة، لَهُ صفاتٌ سلبيّةٌ أخرى: فقد كان نمّاماً كبيراً، ولا يُصَرِّحُ بالحقيقة دائماً، وكان من عادته أيضاً، تسجيل رؤية الشّيء أو الحادث، في بدايته ويُلمّ بظاهره فقط، ولا يتريّث للتعرّف عليه تعرّفاً شاملاً. فكان لفرط ذكائه،

يسرع مبادراً دائماً، ليحوك حوله قصّةً طويلةً عريضةً، من نسج خياله الوثّاب، ليجذبَ إليه الأسماع والأنظار. والغراب هو الوحيد الّذي ينفرد بنقل الأخبار. ففي ذلك الزّمن السّحيق في القدم، لم يوجد أحدٌ غيرُهُ في أعماق الغابة، يحمل أخبار: كورونيس لأپولّو، في جبل بارناسوس؛ إذ لم يتوفّر آنذاك سلك تلغرافيّ في العالم أجمع.

وفي أوّل الأمر، كانت الأنباء عن الأمّ وولدها تُنبئ بالخير، والصّحّة والعافية، وخاصّةً في الأيّام الأولى. فهذا الطّائر الأبيض كان يشقّ طريقه، مُحلّقاً فوق التّلال، والسّهول، والأنهار، والغابات، حتّى يعثر على أپولّو موجوداً، إمّا في الغياض على قمّة جبل بارناسوس، أو في بيت العبادة في دلفي، فيحطّ على ذراعه، ويقول له: «إنّ كورونيس بخير! إنّ كورونيس على ما يرام يا سيّدي!».

وفي ذات يومٍ، أصبحت القصّة مختلفةً اختلافاً تامّاً: فلقد وافى الغراب قبل موعد مجيئه مبكّراً، أكثرَ من الأيّام السّابقة، وبدا كأنّه في عجلةٍ من أمره، ونعق نعيقاً مزعجاً: (غاقْ! غاقْ! غاقْ!)، وظهر كأنّه منقطعُ النّفَسِ، و لم يستطع أن يفصح عمّا يردّده، فعند ذاك نَفَدَ صبرُ أپولّو فصرخ به مرعوباً: «هل حلّ بكورونيس حادثٌ مؤلمٌ؟ أخبرني يا غرابَ البَيْنِ بالأمرِ فوراً، وبلا تردّدٍ أو تَلَجْلُجٍ، قل لي بربّك الحقيقةَ بلا مواربة!».

عندئذ نعب الغراب نعيباً مقلقاً، منبئاً بالشرّ المستطير: «إنّ كورونيس لم تعدْ تحبُّكَ! إنّها لم تعُدْ على العهد! لقد شاهدتُ عندها رجلاً! بالتّأكيد رأيت في بيتك رجلاً غريباً!». ودون أن يتوقّف ليلتقط أنفاسَهُ، أو يكمل الحكاية، حلّق في الجوّ عائداً إلى موطنه.

إنّ أپولّو الّذي كان يبدو حكيماً دائماً، وبصيراً في معالجة الأمور، ظهر الآن متوتّراً؛ بل مجنوناً كغرابه الطّائش. فلقد تَوَهَّمَ أنَّ زوجته كورونيس خانته، وتعلّقت برجلٍ آخر. ومن جرّاء هذا النّبأ العاجل، تعكّر مزاجه، وأصبح في موقفٍ حرجٍ، فتشرّب عقلَه الغضبَ الشّديدَ، والحزنَ الممضَّ.

فانتفض بكامل جبروته حالاً، ووثب هائجاً، والدّم يغلي في عروقه، متّجهاً إلى بيته، حاملاً قوسه الفضّيّة، و لم يتوقّف في طريقه ليتكلّم مع أيٍّ كان، لقد صمّمَ أن يكشف الحقيقة بنفسه!. ومن شدّة انفعاله، لم يصطحب معه سِرْبُ بَجَعَاته، ولا مركبته الذّهبيّةَ.

وباعتباره قد عايش النّاس، ولحكمةٍ في نفسه، رأى أنَّ عليه أن يسافر كما يسافرون، لذلك

أعدّ الرّحلة لكي تكون مشياً على الأقدام، فهي رحلةٌ طويلةٌ، بمفهوم اليوم، لأنّ الطّرق لم تكن قد شُقّتْ، وعُبِّدَتْ في تلك الأيّام الغابرة.

وبعد معاناته مشقات كثيرةً، عاد إلى قريته المحبوبة، الّتي عاش فيها سنوات عديدةً، بسعادةٍ وطمأنينة. ولكنّه الآن يواجه أزمةً نفسيّةً خانقةً، جرّته إلى البحث والاستقصاء الشّديدين. ونظر الآن إلى بيته، فوجده نصفَ مُخبّأً بين أشجار الزّيتون المورقة القاتمة. وفورَ وصوله، وفي دقائقَ معدودات، أراد أن يتحقّق فيما إذا كان غرابه قد بلّغه الحقيقةَ كاملةً، أو خلافَها. ولكن لسوءِ حظّه، فقد ترامى إلى سمعه وقعُ قَدَمَي أحدهِمْ يركض في الغيضة، ولمح رداءً أبيضَ يتنقّل بين الأشجار الكثيفة!. فعند ذاك استقرّ في خَلَده، أنّه هو الرّجل ذاته، الّذي أنبأ عنه الغراب، وتخيَّل الآن أنّه يسرع جاهداً ليولّي الأدبار، ستراً لجريمته النّكراء. وقبل فراره، ومحاولته طمسَ الجريمة، هيّأ أبولّو سهمه بسرعة فائقة، وجذب الوتر، جاعلاً إيّاه بنبض ويرنّ! فانطلق السّهم المسدّد، كوميض النّور في الهواء، وهو الّذي لم يخطئ الهدفَ قطُّ.

وفي الحال سمع صرخةً وحشيّةً حادّةً، من وقع الألم. وبسرعة البرق قفز إلى الأمام خلال الغيضة؛ فرأى زوجته المسكينة كورونيس مجندلةً على العشب، تتخبّط بدمائها. وكانت قبل لحظات قد رأته مقبلاً من بعيدٍ إلى بيته، بعد غيابٍ طويلٍ، فهبّت مسرورةً لاستقباله. ولكنّه لشكّه العميق، ظنّها العشيقَ المزعومَ، فعاجلها بسهمه القاسي، ليخترق قلبها بدون رحمةٍ ولا شفقة!.

وبعد فوات الأوان؛ أسرعَ في اتّخاذ القرار فعاجلَ إلى احتضانها بذراعيه محاولاً إعادة الرّوح إليها. ولكنّ محاولته كانت عبثيّةً، فلم يُقَدَّرْ لها النّجاح. حينئذٍ ندم ندماً شديداً على جريمته، حيث لا ينفع النّدم!.

وأما الزّوجة الوفيّة، كورونيس المضرّجة بدمائها، الّتي قضت في عزّ الشّباب، فهمست في أذن زوجها، الّذي أحبّته كثيراً همسةَ الوداعِ النّهائيّ حين كانت تلفظ أنفاسها الأخيرة!.

وبعد لحظة من فراقها الدّنيا: حطّ الغرابُ على غصنٍ إحدى الأشجار المجاورة، وأخذ ينعق بصوتٍ عالٍ: (غاقْ! غاقْ! غاقْ!). وكأنّه أراد بهذا النّعيب أن يُلقي آخرَ ستارٍ، على هذه القصّة المأساويّة. فما كان من أبولّو في سَوْرة غضبه، وحدّة فجيعته، إلاّ أن التفتَ إليه، وأمره أن يغرب عن وجهه سريعاً، إلى غير رجعة، وصاح من عمق مصابه: «طائرٌ ملعونٌ أنتَ!».

وأردف كلامه مخاطباً الغراب: «عليك ألاّ تنطقَ كلاماً بعد اليوم، بل تُدعى طائرَ الشّؤم، وسيكون شغلك الشّاغل، طوال حياتك النّعيق (غاقْ! غاقْ! غاقْ!). وإنّ ريشَك هذا الّذي تعتزّ به أشدَّ الاعتزاز الآنَ، سوف لا يبقى أبيضَ اللّون جميلاً، بل سيتحوّل إلى لون حالك السّواد، كظلمة منتصف اللّيل».

وهكذا بسبب وشاية ذلك الغراب الأحمق، حلّ غضب الإله أبولّو على أجناس الغِربان جميعاً؛ فحوّلهم إلى غِربانٍ غرابيبَ سود، ودعا عليهم بأن ينتقلوا من شجرةٍ مهملة، إلى أخرى مثلها فقط. وسيكون نعيقُهُمُ المزعجُ والمؤْذِنُ بفرقة الأحباب مكرّراً دائماً وأبداً، بهذه اللاّزمة المنذرة بالشّرّ: (غاقْ! غاقْ! غاقْ!).

٥- الإلهُ المُنتقمُ منه

بعد فاجعة مقتل كورونيس المريعة بقليلٍ، حمَل أبولّو طفلَهُ الصّغيرَ بين ذراعيه، متّجهاً إلى معلّم مدرسةٍ قديمٍ حليمٍ، ومشهورٍ بين النّاس يدعى: خِيرُن، الّذي كان يقطن في كهفٍ، تحت جروفٍ صخريّةٍ رماديّة، في جبلٍ قريبٍ من البحر.

فقال أبولّو لخِيرُن: «خذ هذا الابنَ، واعتبره ولداً من أولادك، وعَلِّمْهُ كلَّ العلوم الّتي تتعلّق بالجبال، والغابات والحقول، ولقِّنْهُ كلَّ تلك المعلومات القيّمة، الّتي كثيراً ما يحتاجُ إليها في المستقبل، ليعملَ كلَّ ما هو جليلٌ وعظيمٌ، لأصدقائه بني البشر».

وقد كان هذا التّلميذ في مدرسته، لطيفَ المعشر، قابلاً للتّعلُّم، متبصِّراً في الأمور. ولقد وثق به معلّمه خِيرُن وأحبَّه حبّاً جمّاً، نظراً لسرعة استيعابه العلومَ، ونباهته الّتي تتفوّق على كلِّ نباهة المبرّزين، من تلاميذه الكثيرين، وعَلَّمَهُ بإتقانٍ -كما طلب والدُه- كلَّ معارفِ، وحِكَمِ الجبالِ، والغابات، والحقول، وكشفَ له: عن تأثير تلك العلوم في الأعشاب البَرّيّة، والأزهار المتنوّعة، والأحجار الصّمّاء.

وقد أدرك إسكلبيوس بذكائه الوقّاد، وخبرته المكتسبة، طبائعَ وسلوكَ العصافيرِ، والطّيورِ، والوحوشِ، والبشرِ. والأعظمُ من ذلك، أنّه اختصَّ بمهارةٍ عظيمة، في تضميد جراح النّاس، وشفاءِ أمراضهم، وخاصّةً المستعصية منها. وحتّى أيّامنا هذه يذكره الأطبّاء ويكرّمونه، باعتباره أوّلَ طبيبٍ امتهن مهنتهم، وتفوّق بممارستها، وأعلى مكانتَها.

ولّما ازدادَ في السّنِّ، والحكمة، ذاع صيتُه في الأقطار كافّةً، فقدّسه البشرُ وعظّموه، وأعْلَوا شأنَه؛ لأنّه كان صديق الحياة، وعدوَّ الموت.

وبمرور الأيّام عالج إسكلبيوس أناساً مرضى كثيرين، وأنقذ من الهلاك نفوسَهم. مما حدا بيلوتو سيِّدِ العالمِ السّفليِّ، الشّاحبِ الوجه، إعلانَ انزعاجه الشّديد من إطالة هذا الطّبيب أعمارَ النّاس، فقال في نفسه ممتعضاً: «إنّني قريباً سوف لا أجد عملاً أبداً، وفي المستقبل لن تكونَ لي مكانةٌ بين الآلهة المشهورين، ولن أتزعّم عالَمَ الأموات، إذا كان دأبُ هذا الطّبيب شفاءَ أوصاب النّاسِ، والمدَّ في أعمارهم؛ بحيث لا يحلّون بالقدْرِ الكافي، في مملكتي السّفليّة من العالمِ الآخر!».

وعلى أثَرِ ذلك أرسل إلى أخيه: جوبيتر سيِّدِ الآلهة، رسالةً حادّةَ اللّهجة، وردَ فيها ما يلي: «إنّ هذا الطّبيبَ إسكلبيوسَ يخادعه ويغشّهُ، ويتطاول على سلطانه، بإطالته أعمارَ النّاس، بحيث يُفْرِغُ مملكتَهُ السّفليَّةَ الكئيبةَ من الموتى!».

والغريب أنَّ جوبيتر المتجبّرَ المتكبّر، أصغى إلى رسالته، واستمع إلى شكواه المضرّة، وغير المنصفة، فنهض من قلب غيومه السّوداء، برعونته المعهودة، ودكتاتوريّته الشّرسة، فقذف فوراً، بلا شفقةٍ ولا رحمة، صواعقَه المحرقةَ على إسكلبيوسَ البريءِ، دون إنذارٍ سابقٍ، حتّى قتله غيلةً، بقسوةٍ ووحشيّةٍ متناهية!.

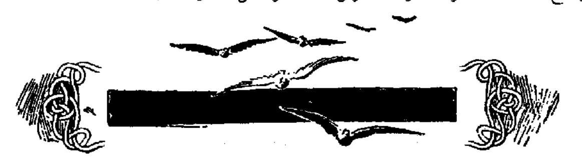
وبالَوَقْعِ الحادث الأليم على نفوس النّاس، فقد ضجَّ العالم في كلِّ مكانٍ لهول المصاب، فعمّ الحزنُ القلوبَ، وانهمرت الدّموعُ غزيرةً، حتّى دموع الوحوش والطّيور، وانحنت الأشجار جزعاً لهذا المصاب الأليم، ناهيكَ عن الأحجار الّتي بكت على الرّاحل، بكاءً مرّاً، لأنَّ كلَّ هؤلاء اعتبروه صديقَ الحياة، وعدوَّ الموت!.

وكان ألم أبولّو وسخطه هائلَيْن، بسبب اغتيال ابنه المفاجئ!. ولكنّه لم يستطع أن يثأرَ من الإلهين المتجبّرين، جوبيتر وبلوتو، إذْ إنّهما كان أقوى منه شكيمةً وأنصاراً، وعُدّةً وعَتاداً، وأشدَّ بطشاً وفتكاً. فاكتفى بأن هبط إلى مصنع الإله فولكان، تحت الجبال المدخّنة، وذبح الحدّادين، الّذين صنعوا الصّواعقَ المحرقةَ المميتة، لأبيه جوبيتر على بَكْرةِ أبيهم.

فما كان من جوبيتر: سيّد الآلهة والمتحكّم بهم، إلاّ أن أظهر غضبه علناً، فأمر أبولّو أن يَمْثُلَ أمامَه ليعاقبَه العقابَ الشّديد، الّذي يزعم أنّه يستحقّه. وفعلاً فقد كان الانتقام منه عنيفاً ومزرياً، فسلبه قوسَهُ الفضّيّة، وسهامه القاتلة، وقيثارته الذّهبيّةَ العجيبة، وأزال كلَّ ما يتعلّق

بشخصه المحبّب من جمالٍ، في الشّكلِ والصّورةِ، لدى النّاس جميعهم. وإمعاناً في إهانته فقد ألبسه بعد ذلك: أسمالَ شحّاذٍ بائسٍ، وأجبره أن ينـــزل من جبله المقدّس، وحكم عليه بعدم استعادة مجده، الّذي كان له من قبل حتّى تنتهي مدّة العقوبة. والأنكى من ذلك: إجبارُهُ على أن يخدم وهو صاغرٌ، أحدَ النّاس سنةً كاملةً، باعتبارِه عبداً ذليلاً له!.

وهكذا جُرِّدَ أبولّو من عالم الألوهيّة، فأضحى وحيداً ليس له نصيرٌ من الآلهة، وحتّى من بني البشر الّذين كثيراً ما أحسنَ إليهم، وأصلح أمورَهم. إذْ إنّ هؤلاء النّاسَ دائماً يُطأطئون الرّؤوسَ، للقويِّ الجبّارِ، ويتنكّرون لكلِّ من يُنْكَبُ في هذه الحياة! ولذلك لم يقفوا بجانبه أبداً، باعتباره كان في الأيّام القريبة، سيّداً مُطاعاً، وفنّاناً لا مثيلَ له، وألمعيّاً متفضّلاً عليهم في كلِّ شيء، وشيخَ الشّباب جمالاً وأناقةً، وسيِّدَ القوس الفضيّة، وحاملَ القيثارة الذّهبيّة!.





أدميتوس وألكيست

١- العبد

في مدينة صغيرة، شمالي دلفي، لم تكن بعيدةً عن البحر، عاش شابٌّ سُمِّيَ أدميتوس، لقد كان حاكمَ المدينة، بل بالأحرى ملكَها. وهذه المدينة كانت صغيرةً جدًّا، بحيث يستطيع المرءُ أن يدور حولها، في نصف يوم فقط.

ولقد حفظ أدميتوس أسماء الرّجال، والنّساء، والأولاد، في مدينته! فأحبَّهُ النّاس جميعاً؛ لأنّه كان لطيفَ المعشر، كريمَ النّفس، وهو الملكُ المتوّجُ في الوقت نفسه.

وفي يومٍ من الأيّام، كان المطرُ يهطل غزيراً، والرّيح تعصف، وتهبّ باردةً، وافى قصرَهُ متأخّراً، شحّاذٌ منهوكُ القوى، رثُّ الثّياب، وسخٌ، وجائعٌ. ولقد أدرك أدميتوس فوراً، بأنّ هذا الوافد كان أجنبيّاً؛ لأنّ مدينته تخلو من الجياع، ولأنّه يعرف مواطنيه تماماً، كما ذكرنا. فما كان من هذا الملك المضياف، الّذي آلى على نفسه حمايةَ الضّعفاء، إلاّ أنْ آواه في مكان ملحقٍ بقصره، فقدّم له الطّعام. وبعدَ أنْ استحمَّ، أعطاه ثوباً دافئاً، وأمرَ خدمه أن يُعدّوا له الموضعَ، الّذي ينام فيه.

وفي الصّباح الباكر من اليوم التّالي، استدعاه الملكُ ليَمْثُلَ أمامه؛ فسأله عن اسمه، ومن أين وافى القصرَ، ولكنّ هذا الفقيرَ هزَّ رأسه، ممتنعاً عن الجواب، و لم ينبسْ ببنت شفة.

ولأمرٍ ما: تغاضى الملكُ عن استجواب ذلك الفقير، الّذي كان يقول له بإلحاح: «أيّها الملك المعظّم، والسّيّد المُطاع، اعفِني من الجواب، وأرجوك أن تجعلني عبداً لك، ومن خدمك المطيعين، ودع تلك الخدمة، والعبوديّة، تمتدّان سنةً كاملةً!».

إلاّ أنّ الملك الشّابّ لم يكن بحاجة إلى الخدم؛ لأنّ الّذين يخدمونه كانوا كثيرين، ولكنّه نظر

بعين العطف إلى فقرِ هذا المتسوّلِ المُدْقِعِ، وإلحاحه بطلب العبوديّة، والخدمة، وبخاصّة أنّه شعرَ أنّ أفقرَ عبدٍ في مملكته، كان أفضلَ حالاً منه، فغضّ طَرْفَهُ عن تهرّبه من الكشف عن هُويّته، وقال له موافقاً: «أيّها الغريب، لقد تَوَسَّمْتُ فيك الخير، لذلك سأُلبّي طلبك حالاً، وسأمنحك الإقامة في مملكتي، وسأعطيك منــزلاً مريحاً، وطعاماً وكسوةً، وسأجعلك تخدمني سنةً كاملةً!».

وكان في المملكة فئةٌ قليلةٌ من النّاس فقط، قد عرفت العملَ المكلّفَ به، ألا وهو رَعْيُ قطيع الملك من غنمٍ وماعزٍ، على التّلال المرعة الخصيبة، القريبة من القصر.

ومن مظاهر وفاء هذا الغريب، خلالَ أيّامه، الّتي قضّاها في الخدمة، اعتناؤه بالقطيع، وحمايتُهُ من الذّئاب الضّارية المفترسة، والانتجاعُ به مواضعَ الكلأ الأخضر، وجَعْلُهُ يرد الماءَ سلسبيلاً عذباً صافياً.

وبالتّالي فمن الأمور المؤاتية: أنّ الملك أدميتوس، رعى هذا الغريبَ رعايةً جيّدةً، لمَا رآه من حسن سلوكه، فكان لطيفاً وكريماً معه ومع غيره من الخدم، وهذه مزيّةٌ فُضلى تسجَّلُ له، فالطّعام الّذي كان يقدّمه للفقير هذا مثلاً، يُعدُّ من أفضل الأطعمة، واللّباس الّذي يستر جسمه، من أحسن الألبسة.

ومن غرائب الأمور: أنّ هذا الرّاعي الصّالح، طوالَ مدّة خدمته، لم يصرّح للملك باسمه، ولا بأسماء أقربائه، ولا بمسقط رأسه!. والأغرب من ذلك: أنّ الملك لم يحاصره، لحسن حظّه، بطلب هذه المعلومات!.

ولمّا زاد يومٌ واحدٌ على العامِ كاملاً، بمضيّ أبولّو في خدمة سيّده، بدا لأدميتوس الملك، أن يتمشّى على التّلال الجميلة المزهوّة المحيطة بقصره، مراقباً قطعان مواشيه، وهي ترعى في مراعيها. وحينما حلّ في ذلك المكان المنشود، ترامى إلى سمعه فجأةً صوت عزفٍ موسيقيّ. ولكنّ هذا الصّوت، لم يكن شبيهاً بصوت الرّعاة المعهود، الصّادر عن نفخهم بالنّاي، بل كان أجملَ عزفاً، وأغنى إيقاعاً، وأشدّ تأثيراً في النّفوس، من أيّ عزفٍ موسيقيٍّ سمعه في حياته. فتوقّف قليلاً ليعرف من أيِّ اتّجاه، يأتي هذا العزف الملائكيُّ، وناجى نفسه قائلاً: «لا شكّ أنّ مصدر العزف يهبط من الأعلى، فمن هو هذا الّذي يعزف في رأس التّلّ، وحوله قطيعُ ماشيته يشنّف آذانه إليه، ويصغي إلى موسيقاه السّاحرة؟!، ومن الجليّ أن يبدو له أنّ هذا العازف ليس راعياً عاديّاً محترفاً، بل هو إنسانٌ هبط من السّماء، ليمتّع آذان البريّة، بألحانٍ سماويّة، وأنغامٍ عُلْويّة

ليست من إبداع البشر!».

وكما توقّع حينما صعد التّلّ، فقد شاهد للتو، شابّاً، مديدَ القامة، وسيمَ الطّلعة، قويَّ الحضور، ليس كمثله إنسانٌ، يرتدي حلّةً ملكيّةً، أكثرَ بهاءً وإضاءةً من كلّ الحُلل، ويتزيّا بزيٍّ يسحر الألباب، ويأخذ بمجامع القلوب، ويذهلُ بني البشر، أكثر من أيّ ملكٍ مَهيبٍ متوّجٍ على عرشه، وقد ظهر وجهه ساطعاً كشعاع الشّمس، وعيناه تلمعان كالبرق، وفوق ذراعه تظهر قوسه الفضيّة، وبمنطقته عُلّقت جعبة سهامه، المسنّنة الحادّة، أما قيثارته الذّهبيّة، فكانت تزهو بين يديه بعزفه الفريد. فوقف الملك مترنّماً، ساكناً، متعجّباً ممّا يشاهد، وكأنّه لم يدرِ تماماً أهو في الواقع أمْ في حُلْمٍ!.

ولّما رأى هذا الغريبُ الملكَ في ذهولٍ! بادره بفصاحته المعهودة: «يا جلالَة الملك الفائق الاحترام، أنا هو الشّحّاذ الفقير ذو الأسمال البالية، الّذي قصدتُك في أعماق الضّيق، فأَغَثْتَني بعد تشرّد، وأطْعَمْتَني بعد جوعٍ، وكسوتَني بعد هلهلة، وبالرّغم من أنّي كنت عبداً ذليلاً مهملاً لا يأبهُ بي أحدٌ، فقد أبديتَ غايةَ اللّطفِ تجاهي، وأسديتَ عطفاً وحنوّاً لشخصيَ المزري. ولقد خدمتُك –حسبما رجوتك أنا بنفسي، سنةً كاملةً– أدّيتُ فيها ما يملي عليَّ الواجبُ تجاهَكَ. والآن أستميحُكَ العذرَ، إذا بدت منّي أيّةُ هفوة، أو ارتكبت أيّةَ زلّة، وأستأذنُك بالعودة إلى منـــزلي الّذي اشتقتُ إليه، فهل تأمرني قبل مغادرتي ديارَك، ومملكَتك المحميّةَ، أن أقدّم لك أيّةَ خدمة أخرى تحتاج إليها؟!».

فأجاب الملك أدميتوس: «إنّ ما أريده منكَ فقط أن، تعلمني ما هو اسمُكَ؟»».

فأجابه الغريب فوراً: «اسمي: أبولّو»، ولمزيد من ماضيَّ المتكتّم معك، والّذي صبرتَ عليه مشكوراً، سأسرد لك حكايتي من أوّلها إلى آخرها: «بعدَ فجيعتي بفقد ابني إسكلبيوس، فإنّ والدي جوبيتر؛ بسبب غيظه الشّديد من تصرّفاتي الثأريّة، ممّن يودّهم من الحدّادين، طرَدني من أمام وجهه، وأمرني أن أغادر منـــزلي وبلدي، صاغراً مهاناً وشريداً، بلا أصدقاء وأعوان، وأجبرني بجبروته، أن أهيم على وجهي وحيداً في الأرض، وحكمَ عليّ في الوقت نفسه ألاّ أعودَ إلى منـــزلي، حتّى أخدمَ أحدَ النّاس مدّةَ عامٍ كاملٍ، باعتباريَ عبداً له. لذلك همْتُ على وجهي لا ألْوي على شيء، فقصدت ديارَك العامرةَ، وقصركَ المُنيفَ، شحاذاً جائعاً خائفاً، مُهَلْهَلَ الثّياب. ومن فرط حَدْبكَ على الفقراء والمحتاجين، بادرتَ إلى إطعامي، أحسن طعام،

وكسوت عُرْيي، أفضلَ كساء، وضمّدتَ جراح قلبي المكلومةَ، خيرَ تضميد. وبمحض اختياري التمستُ أن أكون عبداً مطيعاً لك، فعاملتَني أفضلَ معاملة، كما لو كنتُ ابنكَ الحبيب، الّذي به سررتَ. ولا أدري أيّها المليك المبجّل، ماذا عليّ أن أعمل، لأردّ لك بعضَ جميلك وفضلك؟!».

فقال له الملك: «أيُّها السيِّد ذا القوس الفضيّة، بالرّغم من كونك تنتمي إلى آلهة الأولمب، فقد تواضعتَ كثيراً حينَ خدمتَني راعياً صالحاً أميناً، ولي الشّرفُ الأعلى أن يصرّح الإله أبولّو العظيم بإعلانه العفويّ، عن مساعدتي له، وهذا وسامٌ أعتزّ به وأفتخر، وحين استخدمتك فيما مضى، ما كنتُ أدري أنّكَ من صنف الآلهة، والآن لا أطمع بالمزيد من الخدمة أكثر من ذلك».

فأجابه أبولّو: «كلّ ما تفوّهتَ به أيّها المليك، يُعَدُّ من الجواهر الثّمينة، ولكنّني أستحلفك بعن تودّه من الآلهة، إذا جاء وقتٌ من الأوقات، شعرتَ أنّك بحاجة ماسّة إليّ، أو حلّت بكَ أزمةٌ مفاجئةٌ —لا سَمَحَتْ الآلهةُ بذلك— فأرجوك رجاءً حارّاً أن تخبرني لأقدّم لك يد المعونة، تجاه حسناتك إليّ، الّتي لا تقدّر بثمن!».

وعلى أثر تلك المحادثة، ما كان من هذا الإله الألمعيّ أبولّو، إلاّ أن ودّع الملك أدميتوس، ثمّ جدّ بالمسير، وهو يعزف على قيثارته الشّهيرة، موسيقاه الّتي فاقت كلَّ موسيقا بالكون آنذاك. وأمّا الملك فقد عاد إلى قصره مندهشاً، وراضياً، ومسرورَ الخاطر، بما جرى له مع الإله أبولّو بن جوبيتر محبّ البشر!.

٢- المركبة الملكيّة

كانت مدينة فيريس في تساليا، الّتي عاش فيها الملك الشّابّ أدميتوس، تَبْعُدُ عدّةَ أميالٍ فقط عن أبولكوس، المدينة الغنيّة المنبسطة الواقعة على شاطئ البحر.

وكان ملك أبولكوس: طاغيةً متجبّراً يُدْعَى: بلياس. وقد وصفه جميع المؤرّخين في ذلك الزّمان، بأنّه لم يكُنْ يُعيْرُ أحداً اهتماماً، بل كان هذا الاهتمام محصوراً بنفسه فقط.

وكان لهذا الملك ابنةٌ مشهورةٌ بحسنها وجمالها، وقد اعتبرها النّاسُ جميعاً جميلةَ الجميلات، وغادةَ الغادات، وكان اسمها ألكسيست، وهي الفتاة الّتي تتفوّق بفتنتها، على أيّة وردةٍ زاهيةٍ متألّقةٍ في شهرِ حزيرانَ الرّائع. ويضاف إلى حسنها الجسديّ، حسنٌ روحيٌّ قلَّ نظيرُه في تلك الدّيار. فقد كانت رقيقةَ الحاشية، طيّبةَ المعشرِ، تضحّي بالغالي والنّفيس من أجل راحة وطمأنينة

شعبها، مّما حملهم جميعاً إلى الثّناء العاطر عليها، وتمجيد أخلاقها الرّفيعة.

وقد تزاحمَ على باب أبيها الملك، الخُطّابُ من عظماء الأمراء المشهورين، عبر البحار، كما أدلى شبابُ الإغريق النّبلاءُ الشّجعانُ بدلائهم بين الدّلاء الكثيرة، لنيلِ ودّها وطلبِ يدها الكريمة، من أبيها الملك الفظّ.

ولكنّ الّذي حرّك مشاعرَها الرّقيقةَ، وعواطفَها النّبيلةَ، فأُعْجبَتْ بمزاياهُ العالية أيّما إعجاب، وأصغتْ إلى نداء قلبه الحسّاس، فهو مجاورُ مدينتها الملك الشّابّ أدميتوس.

وقد بادلها مودّةً بمودّة، وحُبّاً خالصاً بحبٍّ، مما دفعه أن يقابل أباها الملكَ المتعجرفَ: بلياس، ليطلب يدها للزّواج المقدّس بسنّة الآلهة، ورضا الوالد. ولكنْ ياَلخَيبَة الأمل، وياَلجَرْحِ المشاعر! فقد أجابه الملك المتغطرس العجوز بقساوته المعهودة: «وَيْلَكَ أيّها الطّامع في البعيد البعيد، يا لكَ من مغرورٍ خائبٍ! هل تَظُنَّنَّ أنّ أحداً في هذا العالم، باستطاعته الزّواجَ من ابنتي ألكسيست، إلاّ بعد أن يثبت عمليّاً، بأنّه جديرٌ حقّاً بمصاهرتي؟!، فإنْ شئتَ أنْ تركبَ هذا المركبَ الصّعبَ، فعليك أن تُقْبِلَ إلى مملكتي العامرة، راكباً على عربةٍ ملوكيّة مذهّبة، يجرّها في الوقت نفسه أسدٌ غَضَنْفَرٌ، وخنــزيرٌ بريٌّ متوحّشٌ!».

ولّما كان هذا الملك العاتي المتجبّر، يعتقد اعتقاداً جازماً أنّ هذا الشّرط، يتعذّر تحقيقه على بني البشر، هزِئَ بالملك الشّابّ الطّيّب: أدميتوس، واستخفَّ بمقامه، وحطّ من شخصيّته، ولم يكتفِ بوقاحته هذه، بل طرده خارج قصره شرَّ طِردَة!.

وبعد هذه الصّدمة الأليمة، غيرِ المتوقّعة، انصرف الملك الشّابّ أدميتوس، حزينَ الفؤاد، مكسورَ الخاطر، فاقدَ الأمل في الوصْل بحبيبته. إذ كيف يستطيع إنسانٌ أن يجمعَ سيّدَ الغابة الهزَبْرَ، والخنــزيرَ البرّيَ المتوحّش معاً، ليجرّا مركبةً ملكيّةً مسافةً طويلةً؟!. إنّ هذا الشّرطَ التّعجيزيَّ، يَعْيا عنه أشجعُ شجعانِ الدُّنيا، وأحكمُ حكمائها!.

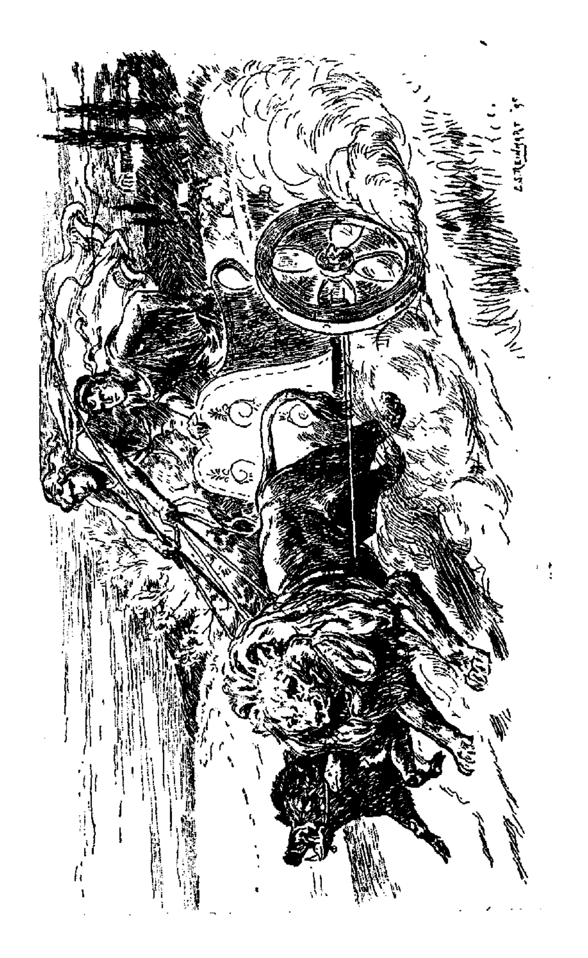
فعادَ أدميتوس يجرُّرُ أذيالَ الخيبة والخذلان، واتّجه إلى مدينته في أتعس حالٍ!. وبينما كان يسير مُبَلْبَلَ الفكر، لا يدري ماذا يفعل، خَطَر بباله خاطرٌ ألا وهو: أن يُعَرِّجَ على تلاله؛ ليشاهد قطعان ماشيته من أغنامٍ وماعزٍ، وهي ترعى العشب الأخضر، فذكّره هذا المشهد بأبولّو راعيه الإلهيّ، وبكلماته الأخيرة: «حينما تجتاحُكَ نائبةٌ ممضّةٌ، وتشعر أنّك بحاجة ماسّة إليّ، فما عليك إلاّ أن تبادر إلى إعلامي بحاجتك تلك، وأنا مستعدٌّ أن أقْضِيَهَا لك في الحال، بكلّ طيبة خاطرٍ».

فقال الملك أدميتوس في نفسه: «عليَّ إذاً أنْ أُعلِّمَ الإله أپولّو علم اليقين، بما حدث لي مع الملك بلياس؛ ولكن قبل دعوته، يترتّب عليَّ أن أكرّم هذا الإله، بما يستحقّه من قداسة وتبجيل!».

وفي صباح اليوم التّالي أمرَ خدمه جميعاً، بتشييد مذبحٍ من الحجارة المنحوتة، باسم الإله أپولّو العظيم صديقِ البشرِ، في حقله المكشوف، وأعدَّ له هناك محرقةً، وذبح تَيْسَهُ المسمَّن، وألقى بفخذيه في لهب المحرقة. ولمّا انتشرت رائحة الضّحيّة في الفضاء الواسع، رفع يديه متضرّعاً، ومستغيثاً بالإله أپولّو، وهو يتّجه إلى قمّة جبل البارناسيوس، ثمّ صرخ من أعماقه داعياً ومبتهلاً إليه، وقائلاً له: «أيّها الإله القدير، يا ذا القوس الفضّيّة، ويا أيّها المهتمّ بمعاناة بني البشر، وخاصّة العشّاق، تعالَ منحدِراً من علياء سمائكَ، وأنقذني من هذه المحنة، الخانقة القاسية جدّاً، الّتي أطْبَقَتْ على صدري، وإنّني في يوم الشّدّة هذا، أنتظر بصدقٍ وعْدَكَ الإلهيَّ لمحبّيك من بني البشر المتعبين!».

وبينما كانت عيناه تتطلّعان إلى السّماء، تَطَلَّعَ العبدِ اليائسِ المستجير، إذْ بالإله الألمعيّ أپولّو، يهبط بسلامٍ بكلّ جلال مجده وعزّته، من أعالي جبله المقدّس، ثمّ ينتصب أمامه، ويخاطبه، باعتباره سيّدَهَ السّابقَ قائلاً له: «أيُّها الملكُ المضيافُ الرّحيمُ، لا أدري كيف أكافئك على صنيعك، لي، يومَ كنتُ مستعْطياً فقيراً، وأنت تجهلني تمام الجهل!».

عندئذٍ هبّ الملك أدميتوس منحنياً بخشوعٍ له، وشاكراً الإلهَ أپولّو على حضوره السّريع، واستجابته لصلاته الحارّة. وما كان منه، إلاّ أن قصَّ على مسمعه أخبار الفتاة الجميلة ألكسيست، وكيف صمّمَ والدُها ألاّ يزوّجها إلاّ إلى رجلٍ يقود عربةً ملكيّةً، يجرّها أسدٌ غضنفرٌ، وخنـــزيرٌ برّيٌّ فاتكٌ. وبعد سماع الإله أپولّو روايةَ أدميتوس مفصّلةً، ذهب الاثنان معاً، إلى وسط الغابة الكثيفة الأشجار، وكان سيّدُ القوسُ الفضّيّة، يرشد الملك إلى طريقها. وفورَ وصولِهما، أثارا الأسدَ العاتيَ ليخرج من عرينه، وطاردا ملكَ الوحوش، وأثارا حفيظتَهُ. ولم يمضِ سوى وقتٍ وجيزٍ، حتّى استطاع الإله أپولّو السّريعُ الخطوات، أن يقبض على الأسد القويّ من لبدته، وكان زئيره المرعب يتعالى في أجواز الفضاء، وقد حاول عدّةَ مرّاتٍ أن يَعضَّ أپولّو بفكّيه الشّرسين، إلاّ أنّه لم يستطع أن يسبّب له أيَّ أذىً.



وأثار أدميتوس الخنـــزير البرّيّ في الغابة، وبعد ذلك طارده الإله أبولّو مطاردةً مثيرةً، أمّا الأسد سيّد الغابة فقد أذلّهُ، وجعله يجري بجانبه كالكلبِ المُرَوَّضِ. وبعد أن قَبضَ على الخنـــزير البرّيّ العنيد المتوحّش من عمق الغابة، تمكّن أبولّو أن يسوق الوحشين الضّاريـــين المفترسين، فجعل أحدهما بيده اليمنى، والآخر باليد اليسرى، أمّا الملك أدميتوس فكان يتبعه في مسيره الشّاقّ الطّويل، شاكراً له صنيعَهُ.

ولم يَحِنِ الظُّهْرُ، حتّى وافيا إلى طرف الغابة، فأطلاّ على البحر الأزرق، ثمّ بدت مدينة أبولكوس، ولم تكن تبعد عنهما إلاّ قليلاً. وكانت العربة الملكيّة الذّهبيّة، تنتظرهما على جانب الطّريق. عند ذلك شدّا إليها الأسد المتكبّر، والخنـــزير البرّيّ الشّرس. ويَبْدُو هذان القرينان المتوحّشان للنّاس جميعاً، غريبين تمام الغرابة وهما يجرّان العربةَ!. وقد حاولا أكثر من مرّة أن يتعاركا بعنف، ولكنَّ سوط الإله أبولّو، كان يجلدهما ويتصدّى لوحشيّتهما. وفي وقتٍ قصيرٍ استطاع الإله أبولّو أن يروّضَهما، ويحدَّ من نزوهما، حتّى كفّا عن وحشيتهما، وتهيَّأا للإذعان لأوامره.

حينئذٍ ارتقى أدميتوس العربةَ الملكيّةَ المذهّبةَ، ووقف الإله أبولّو بجانبه، وأمسك الملك الشّابُّ بالعنانِ بيدٍ والسّوطِ باليد الأخرى.

واتّجه الاثنان مُسْرِعَيْنِ إلى مدينةِ أبولكوس. فدهش ملكها الشّيخ بلياس المتعجرف، من العربة الملكيّة العجيبة، الّتي وافت قصره دون توقّعٍ، من قائدها الشّابّ المتألّق!. وحينما طلب أدميتوس الملك يدَ الحسناء ألكسيست، من الوالد المتغطرس من جديدٍ، لم يستطع الآن أن يرفضَ طلبَهُ.

ولمّا ضُرِبَ موعدُ الزّواجِ الحافل، أطْلَقَ أبولّو سراحَ الوحشين: الأسد، والخنـــزير البرّيّ، وأمرهما بالعودة إلى الغابة. وبعد هذه المعاناة الأليمة والدّعم القويّ من الإله أبولّو، اقترن أدميتوس بألكسيست، فَعَمَّ الفرحُ كلَّ مكانٍ من مدينتهما، وحضر النّاس جميعاً حفل الزّواج البهيج، باستثناء والدها الملك العجوز العنيد، الّذي تَغَيَّبَ عنه.

وكان الإلهُ أبولّو أبرزَ من دُعوا إلى وليمة العرس، فعند التّهنئة، أهدى هديّةً ثمينةً للعروسين

الشّايين، باسم القوم الجبابرة السّاكنينَ على قمّة الجبل، بين الغيوم، والمُؤَلّفيْنَ من جوبيتر وأنصاره الكبار، الّذين وعدوا الملك أدميتوس وَعْدَاً صادقاً، أنّه إذا ألمّ به مرضٌ خطِرٌ، وأشرف على الموت؛ فإنّه سيتعافى من مرضه سريعاً، وَيَحِقُّ لمن يحبّه أن يتجرّع غُصَصَ الموتِ عوضاً عنه.

٣- الشّبح القائد

عاش الزّوجان أدميتوس، وألكسيست سَعِيْدَيْنِ مغتبطَيْنِ، مدّةً طويلةً من الزّمن. وكان شعبهما بكامله في مملكتهما الصّغيرة، يحبّهما ويعظّمهما.

ولأمرٍ ما سقط الملك أدميتوس مريضاً عليلاً. والمؤسفُ حقّاً، أنّ حالتَه الصّحيّةَ، تبدّلت يوميّاً من سيِّئٍ إلى أسوأ. وهذا ما ذَكَّرَ شعبَهُ، بأنّ هديّةَ الزّواج، الّتي أهداه إيّاها الإله أبولّو، ذاتُ معنىً عميقٍ، وخلاصتُها: أنّ الملك حين يُلمُّ به المرض الشّديد، الّذي لا برءَ منه، ويشرف على الموت، الّذي لا فكاكَ منه، يستطيع أيُّ متطوّعٍ من خاصّته أو شعبه، أن يذوقَ غُصَصَ الموت بدلاً منه.

ومع أن والديه كانا طاعنَينِ في السّنّ، ومعرَّضَيْنِ في كلّ يومٍ إلى الهلاك، فإنّهما كانا يأملان في استمرار عيشهما ودوامه. ولكنَّ هذا العيشَ وإنِ امتدَّ، فإنّما يكون امتدادُه لوقتٍ قصيرٍ، في أحسن الظّروف.

ومن المفروض أنّ أحد هذين العجوزين، سيكون سعيداً أن يتخلّى عن البقيّة الباقية من حياته، لينقذ ولده الحبيب، إكراماً لمكانته المرموقة، وإنقاذاً لشبابه الغضّ!. وحين يتجرّأ أحد المقرَّبين على الكلام، فيطلب منهما واجب التّضحية، في هذا الظّرف العصيب، فإنّهما للأسف الشّديد يهزّان رأسيهما، رفضاً لفكرة الموت. وحينما سُئِلَ أخوتُه وأخواتُهُ أيضاً، إذا كانوا يريدون أنْ يفتدوا أخاهم الملك، ويموتوا بدلاً منه، رفضوا تلك الفكرةَ، وآثروا أَنْفُسَهُمْ عليه، وتركوه وحدَه يعاني سكرات الموت، دونَ مبالاة بمكانته السّامية، باعتباره عاليَ القدر عند شعبه، حتّى إنّهم تركوه وشأنَهُ لا عناية به إطلاقاً!. وكان في المدينة أصدقاءُ له يبادلونه ودّاً بودٍّ، ويضحّون من أجله تضحياتٍ جساماً، ولكنَّ فكرة الموت بدلاً منه، لم يَسْتَسِغْهَا أحدٌ منهم أبداً.

وحيث إنّ جميع من ذكرنا: هزّوا رؤوسَهم بالنّفي، ولسانُ حالِ أيٍّ منهم يقول بصراحة متناهية: «لست أنا!». ولكنّ امرأةً وحيدةً من بينهم هتفت من أعماقها: «أنا مستعدّةٌ للموت

السّريع، فداءً للحبيب!». وكانت تلك المرأةُ حسناءَهُ الفاتنةَ، وزوجتَه المحبوبةَ ألكسيست، فقد آثَرَتْهُ على نفسها، وصمّمتْ أن تضحّي بشبابها، وجمالها، على مذبح الزّوجيّة المقدّس، من أجل من أحبّها، واختارها حليلةً له، بالرّغم من كلّ الصّعوبات الّتي تعرّض لها.

وأثبتت ذلك عمليّاً بإسراعها إلى مقصورتها، مستدعيةً الإلهَ أبولّو بصَلاتها وابتهالها، ورجته أن تقوم بواجبها، ولسانُ حالها يقول: «ابذلي لحَبيبِك وصديقِك دَمَك ومالَك!». وهكذا بدون تفكيرٍ عميقٍ، أو خوفٍ، أو رهبةٍ من فراق الدّنيا، اضطجعتْ ألكسيست على سريرها، وأغمضت عينيها استعداداً للموت. وبعد وقتٍ قليلٍ، توافدت وصيفاتُها إلى المقصورة، فوَجَدْنَها جسداً هامداً مطروحاً على السّرير!.

في هذا الوقت ذاتِه شعر أدميتوس، بأنّ علّتَهُ الشّديدةَ قد ولّتْ، ومرضَهُ المُضْنيَ قد شُفيَ، وسقمُهُ المستمرُّ قد فارقه إلى غير رجعةٍ، ولمس بقوّةٍ أنّ الحيويّة والنّشاط، قد دبّا في أوصاله. فتعجّبَ من شِفائِه السّريعِ، ومن انفتاح أبواب الفرج له، فشكر الآلهة، على نظرها إليه بعين العطف، وهبّ سريعاً ليَلْقَى حبيبتَه ألكسيست، ويزفَّ إليها البُشرى السّعيدة بأعجوبة الشّفاء، الّتي منحته إيّاها آلهةُ السّماء.

ولكنّه عندما دَلَفَ إلى غرفتها فيا هولَ ما شاهد!. لقد ألفاها مُلقاةً على سريرها، شاحبةَ اللّون، فاقدةَ الحركةِ والحياة، فتقدّم من السّرير مرتاعاً، وقد لجم الحزنُ المفاجئُ فاه عن الكلام، وحاول الصُّراخ من جديدٍ، ولكنْ أنّى له أنْ يصرُخَ أوْ يُوَلْوِلَ، فالصّدمةُ كانت فوق التّصديقِ، والاحتمال! فتمنّى من أعماقه أن يسارع شبحُ الموت إليه، فينتزع روحه من جسده بدلاً منها، ويعيدَها إلى الحياة، ولكنَّ ذلك لم يتحقّقْ كما يقول الشّاعر: «وما نيلُ المطالبِ بالتّمنّي!».

وشاع خبر موت ألكسيست بين النّاس جميعاً. وأيُّ فقْدٍ كان هذا الفقد؟! لقد كانت الفاجعة عامّةً شاملةً، فتبلّلت العيون بالدّموع، ناهيك عن عويل المُعْوِلينَ، ونَوْحِ النّائحين، في بيوت تساليا جميعاً!.

أما الملك المفجوع بحليلته، فجلس بجانب سريرها، وأمسك بيدها الباردةِ برودةَ الموت، وكان في حالة يُرثي لها من الألم والذّهول، استمرّتْ أطرافَ النّهار، وآناء اللّيل. وحينما انبلج الفجر تمنّى ألاّ يرى النّور.

ولمّا أشرقت الشّمس بنورها السّاطع، سيطرت عليه الدّهشةُ -فكادَ لا يصدّق ما يحدث-

حينما شعر أن يدها الباردة، قد أخذت تدبّ فيها الحرارة رويداً رويداً، وأنّ وجهها الشّاحبَ، بدأت تعود إليه الحمرة، وأنّ جسدها الممدّد أصبحت تبدو عليه علامات الحركة والحياة. وما لبثتْ بعد ذلك أن فتحت عينيها، ثمّ جلست في سريرها حيّةً معافاةً، وكأنّها أفاقت من نومٍ عميق!.

وكم كانت فرحةُ أدميتوس عظيمةً، لا يوفّيها الوصفُ حقّها، فما كان منه إلاّ أن خرَّ على الأرض ساجداً شاكراً الإله، الّذي أظهر له العظائمَ، بإحيائها وإقامتها من بين الأموات، إنّ هذه لأُعْجُوبةُ الأعاجيب!.

وفي نهاية الحدث، يتساءلُ المرءُ كيف عادت هذه الملكة الجميلة ألكسيست إلى الحياة، بهذه السّرعة؟ وجواباً على هذا السّؤال فقد قيل: «إنّ الشّبحَ القائدَ من وادي ظلال الموت، الّذي لم يعرف يوماً شفقةً، ولا رحمةً ببني البشر، قادَها -كما كان دائماً يقود النّاس الآخرين- إلى أبهاء بَرْسَفونةَ المكدّرة، ملكةِ العالم السّفليّ. ولما اعترض بعضهم على هذه الميتة المفاجئة، أُخبِرَتْ برسفونة بأنّ ألكسيست الملكة، كانت في ريعان الصّبا، وفي غاية الجمال والدّلال، وأنّها ضحّت بحياتها دون سائر النّاس جميعاً، لتنقذ زوجها الملك الشّابّ من براثن الموت، الّذي حُكم عليه به، من قبل إحدى الإلهات الحاقدات.

فتحرّكت عاطفة الشّفقة في قلب برسفونةَ لأوّل مرّة، فأمرتِ الشّبحَ الّذي يقود إلى الموتِ بصورةٍ خاصّة، أن يعيدَ الملكةَ المضحّيةَ إلى الحياة، حيث الفرحُ والغبطةُ، وضوءُ الشّمسِ السّاطعُ الّذي يشرق كلَّ صباحٍ في العالم العلويّ، فيملؤه حياةً وجمالاً».

وهكذا نرى أنّ الملكة ألكسيست عادت إلى الحياة، فعاشت مع زوجها الملك - الّذي أحبّها حبّاً جمّاً - عيشةً راضيةً في مدينتهما الرّائعة، الّتي لم تكن بعيدةً عن شاطئ البحر. وقد حازت هي وزوجها، على مباركة الآلهة الجبابرة الكبار، الّذين يقطنون في قمّة الجبل بين الغيوم.

ولّما طعن الزّوجان المحبّان في السّنّ؛ فإنّ الشّبحَ القائد الّذي لا ينسى أبداً، والذي لا يُبقي ولا يَذَرُ، ساقهما معاً إلى ديار الموتى، كباقي النّاس الّذين يتساقطون، على سطح هذا الكوكب الأرضيّ يوميّاً، كما يقول الشّاعر في الموت:

«لا بُدَّ مِمَّا ليسَ منهُ بُدُّ».



قدموس وأوربا

١- الثّــور

عاش في آسيا ملكٌ معروفٌ، رُزق ولدين: صبيّاً وبنتاً، وكان الصّبيُّ يُدعى: قدموس، والبنت تدعى: أوربا. أمّا بلدُ الملكِ فكان صغيرَ المساحة جدّاً، حيث كان بإمكانه أن يقف على سطح قصره العالي، فيشاهد بأمّ عينيه وطنه الصّغير، الّذي كانت تحيط به الجبالُ الشّامخةُ من أحد جانبيه، ومن الجانب الآخر، يحيط به البحر الأبيض الواسع.

وقد تخيَّلَ هذا الملك الهُمام، أنَّ بلدَهُ الرّائعَ الجميلَ، يقعُ وسطَ العالم. أمّا ما يعرفه عن الأقطار الأخرى المجاورة، فكانَ ضئيلاً جدّاً. فهو مثلاً يجهل تمامَ الجهل أحوالَ شعوبها المعاشيّة، وعاداتِهم وتقاليدَهم. بَيْدَ أنّه كان في سعادة غامرة في مملكته الآمنة الصّغيرة. وكان هذا الملك شديدَ التّعلّق بولديه الحبيبين، فهو يملك الأسبابَ المهمّةَ والوجيهةَ الّتي تمكّنه أن يكون محبّاً لهما، وفخوراً ومعتزّاً بهما، اعتزازاً عظيماً، أمام النّاس جميعاً. فقدموس قد أُرْشِدَ في بلاطه العامر من قبل المربّين، الّذين ربّوه تربيةً، مُعَدَّةً بعناية فائقة، ليكون من أفضلِ المهذّبين أخلاقيّاً، وأكثر المفكّرين علماً وحكمةً ودرايةً، والمختصّين أيضاً في إعداده ليكون أقوى الشّبّان شجاعةً ونجدةً، في أنحاء المملكة كلّها. أمّا أخته أوربا فقد فاقت لِدَاتها[١٦٩] علماً ولطفاً ودماثةً، وحبّاً صادقاً، وإخلاصاً وتضحيةً. وكانت تتمتّع بجمالٍ فائقٍ فتّان، جعلها أكثرَ وسامةً وسحراً من جميع الفتيات، في مملكتها الزّاهية.

ولكن لا مجالَ للكمالِ المطلقِ في هذه الحياة الدّنيا، فقد عانت هذه الأسرة الملكيّة الصّغيرة أيّاماً عصيبةً، ومصاعبَ شتّى!.

---

[١٦٩] اللّدات: ج لِدَة: وهنّ اللّــواتي وُلِدنَ وتربّينَ معها.

وذلك أنّه حدث في صباح يومٍ من الأيّام الرّبيعيّة الجميلة، أنْ ذهبتْ أوربا الشّابّةُ للتّنـــزّه في حقلٍ من حقولِ أبيها الواسعةِ الخصيبةِ المرعةِ قربَ شاطئِ البحر، ولكي تقطف الأزهارَ الملوّنةَ؛ لتصنع منها طاقاتٍ بديعةً. وكان قطيع والدها هناك يرعى العشب الأخضرَ، والبرسيمَ اللّذيذَ، والنُّفلَ المزهرَ اليانعَ. وكانت حيوانات هذا القطيع مألوفةً جميعاً لديها، فهي تعرفها جيّداً، وتناديها بأسمائها. وكان راعي القطيع، متّكئاً على جذع شجرةٍ، ينعم بظلالها الوارفةِ، وينفخ مُجَوِّداً بناي صَنَعَهُ من قصبِ غيضة الحقلِ أنغامَهُ العذبةَ السّاحرةَ.

أمّا أوربا الجميلةُ،فمن المعروف لدى سكان بلدها، أنّها كانت تزور باستمرارٍ حقولها المزهرة، وتسرح وتمرح فيها بحرّيّةٍ تامّةٍ، دون أن ينغّصَ لهوَها أحدٌ، أو يُسَبِّبَ لها أيَّ تنكيد أوْ أذَىً.

ولكنّها في هذا الصّباح شاهدت، للمرّة الأولى على غير عادتها، ثوراً ضخماً غريباً، قد اندَسَّ بين حيوانات القطيع الوادع، وكان لونُهُ أبيضَ كالثّلج النّاصع، ويتمتّع بعينين عسليّتينِ رائعتين، تعبّران عن، الشّفقة، والدّعة، واللّطف، أحسنَ تعبيرٍ. ولكي يبعد هذا الثّور الشُّبُهاتِ عن نفسه ، لم يعمد إلى توجيه نظراته إلى أوربا، بل كان يوزّعها هنا وهناك، ويتظاهر بأنّه منهمكٌ تماماً بقضمِ الأعشابِ الغَضَّةِ، والبرسيمِ الأخضرِ. وحينما أبصر أوربا الجميلةَ تقطف أزهارَ الأقحوان الصُّفْرَ، وشقائقَ النّعمانِ الحُمْرَ، تقدّم نحوها ببطءٍ وهدوءٍ، وبالرّغم من اقترابه الشّديد منها، فلم تكن خائفةً منه أبداً، بل إنّها توقّفت لتمتّعَ ناظريها برؤيته عن كثبٍ؛ حيث بدا لها حيواناً جميلاً، ولطيفاً وَوَديعاً. ولمّا شاهد مودّتَها وحسن تَصَرُّفِهَا معه، دنا منها دنوَّ المحبِّ العاشقِ، فلمس ذراعَها لمساً ناعماً، ولسانُ حاله يقول لها: «عمي صباحاً يا أجملَ المخلوقات البشريّة!».

وهي بدورها بادلته حبّاً بحبٍّ، فمسحت بأناملها العَنَميّة[١٧٠] النّاعمة، رأسَهُ وعُنُقَهَ، وبدت مبتهجةً غاية الابتهاج بطلعته البهيّة، فصنعتْ له طوقاً زاهياً من زهر الأُقحوان اليانع، لتزيّنَ به عُنُقَهَ الجميلَ، فرنا إليها بعينينِ لطيفتينِ حنونتين، عبّرتا عن بالغ شكره الجزيل لها.

ومن أجل إرضائها، وخَطْبِ ودّها، تمدّد على الأرضِ المعشوشبةِ بكلّ راحة واطمئنان، وعند ذلك بادرت أوربا إلى صنع إكليلٍ صغيرٍ زاهٍ، ثمّ امتطتْ ظهرَهُ، لكي تَلُفَّهُ على قرنيه الفضّيّينِ

[١٧٠] العنميّة: نسبة إلى العَنَم، والعَنَمُ: شجرةٌ لها ثمرةٌ حمراءُ تُشبَّهُ بها الأناملُ المخضوبةُ.

الرّائعين. وفجأةً وقف الثّور، ثمّ قفزَ، وهرولَ بعيداً، حتّى إنّ أوربا لم تتداركْ نفسها، ولم تُثَبِّتْ جسدَها على ظهره، إلاّ بصعوبةٍ بالغة؛ لأنّها لم تكن تتوقّع ما حدث، وحين حاولتِ القفزَ عن ظهره إلى الأرض، لم تستطعْ؛ لأنّه كان يجدُّ بسرعته البالغة. وكلُّ ما تمكّنت أن تفعله هو الإمساك بعنقه بقوّةٍ، وكانت تصرخ صراخاً عالياً، مستغيثةً بالنّاس، وطالبةً النّجدةَ منهم!.

فسمع صراخها راعي قطيعِ والدها، الّذي اضطجع تحت الشّجرة، فهبَّ واقفاً مذعوراً؛ فشاهد بأمّ عينيه الثّورَ الأبيضَ الضّخمَ راكضاً وهو يتّجه نحو شاطئ البحر، وقد استقرّت أوربا على ظهره، فما كان من هذا الرّاعي الصّالح، إلاّ أن اندفع بدوره راكضاً بسرعةٍ قصوى، ولكنْ شتّانَ ما بين سرعة الاثنين. لذلك ضاعت محاولة الرّاعي إنقاذَها بدون جدوى!.

وركِبَ الثّورُ الأبيضُ العاشقُ ظهرَ البحر، وأخذ يجدّ في السّباحة، حتّى ابتعد بُعداً شديداً عن الشاطئ. وقد شاهدَهُ جمعٌ غفيرٌ من المواطنين، فهُرِعوا إلى قصر الملك، ليُعْلمُوهُ بما جرى.

وبسرعةٍ فائقةٍ وصلت أنباء الخطفِ المروّعِ، إلى كلّ مكانٍ، حتّى إنّ المدنَ المجاورةَ الأخرى أُنْذِرَتْ بالخطر. وإنّ نَزْعَتَي الفضولِ، ومحاولةِ القيام بالواجب تجاه ما حدث، دعتا أهلَ مدينتها إلى الإسراعِ إلى شاطئ البحر، علّهم يستطيعون إنقاذها. ولكنّ كلّ ما ظهر لهم هو أنّ، كائناً ما غامضاً، أبيضَ اللّون، وعلى ظهره شيءٌ يحمله، ويركبُ البحر سابحاً، جادّاً فوق المياه الزّرقاء، ليختفيَ بعد ذلك عن الأنظار.

وتحمّسَ بعضُ المواطنين؛ فاندفعوا بسفنهم في عُرْضِ البحر، لكي يقبضوا على الخاطف المعتدي، فلم يوفّقوا في مسعاهم. أمّا أبوها الملك، فقد أرْسَلَ أسْرَعَ ما عنده من السّفن، لتحاولَ اللّحاقَ بالثّور الأبيض الجريء، لكي تخلّصَ أوربا منهُ؛ فجدّفَ بحّارتُها بعيداً جدّاً، ومَخَرُوا عُباب اليمِّ، بسرعةٍ فاقَتْ سرعةَ كلِّ من سبقوهم. وبالرّغم من هذه المغامرات المُخاطرة، والسّعْيِ الحثيثِ، والبحث الطّويلِ، فقد أخفقوا في العثور على أيِّ أثَرٍ لأوربا. وحينما عادوا من محاولاتهم خائبين، شعر كلٌّ من في المملكة من النّساء، وحتّى الأطفال، بقسوةِ الفقد، وخيبةِ الرّجاء، فذُرفتِ الدّموعُ السّخينةُ، وأُعْلِنَ الحدادُ العامّ، بسبب خطْفِ الأميرة المحبوبة!.

وبعد اليأس حبسَ الملكُ نفسَهُ في قصره جَزَعاً من مصابه الأليم، ولم يذق طعاماً، أو شراباً مدّة ثلاثة أيّامٍ كاملة. وأخيراً استدعى ابنه قدموس، وأمره أن يبحر إلى أعماق البحار، باحثاً عن أخته أوربا، وألحّ عليه بأن لا يثنيه أيُّ خطرٍ داهمٍ، عن مهمّة التّفتيش عنها، وألاّ يقفَ في وجهه

أيٍّ عائقٍ، دون تحقيق واجبه المقدّس، وزاد على ذلك بأن لا يعود ابنُهُ إلى وطنه إطلاقاً، إلاّ إذا عثر عليها.

وكان قدموس الأميرُ الباسلُ، مبتهجاً حقّاً، لتكليفه بالبحث عن أخته؛ لذلك اختار عشرين شابّاً، من أشجع الشبّان في مدينته، ليرافقوه في مغامرته الخطرة، وقرّروا الإبحار في اليوم التّالي فوراً.

وبدونِ شكٍّ كانت مهمّتُهُ مهمّةً شاقّةً للغاية، فقد كُتبَ عليه، وعلى رفقائه، أن يخوضوا بحراً مجهولاً، وهم لا يعرفون بالتّحديد، إلى أيٍّ بلدٍ يتّجهون، وليس معهم خارطةُ طريقٍ، تدلّهم على أيّة جزيرةٍ في عُرْض البحر، وكانت الخشيةُ من أن لا تحُطَّ أرجُلُهُمْ، على أيّة أرضٍ عامرةٍ إطلاقاً، في شواطئ هذا البحر الخِضَمّ. إذْ من المعتادِ أنّ سفنَ مدينتهم السّاحليّة، لم تكن تجرؤ في ذلك الحين، أن تبتعدَ كثيراً عن المدينة.

ولكنَّ قدموسَ المتمرّسَ على تحدّي الصّعوبات، بصحبة رفقائه الأشاوس، صمّموا صادقين، ألاّ يفتَّ الخطر في عزائمهم، وألاّ يتسرّبَ الخوفُ إلى نفوسهم. وشعارُهُمْ الّذي رسموه هو كما يقول الشّاعر:

وإذا لَمْ يكنْ منَ الموتِ بُدٌّ   فمنَ العجْزِ أنْ تموتَ جبانا.

وبعد مضيّ أيامٍ معدودات، من الإبحار الجادّ بالمجاذيف، رستْ سفينَتُهُمُ الصّغيرةُ على شاطئ جزيرةٍ، قد وطئوها لأوّل مرّةٍ في حياتهم، تدعى: قبرص. فسار قدموس على شواطئها، وحاول أن يتكلّم مع هؤلاء السّكّان الغرباء، قاطني الجزيرة محاولاً أن يُفهِمَهُمْ مهمّته، الّتي جاء هو ورفقاؤه من أجلها.

ومن حسن حظّه، أنّ هؤلاء السّكّان كانوا طيّبي المعشر، مهذّبين في سلوكهم مع الآخرين، فعاملوه هو وأصحابه بلطفٍ بالغٍ، وفتحوا له قلوبهم، بَيْدَ أنّهم لم يفهموا كلامه، فما كان منه إلاّ أن وضّح لهم قصدَه، بوساطة الإشارات، والحركاتِ المعبّرة، فأعلمهم من يكون هو، وابنَ مَنْ. وسألهم فيما إذا كانوا قد لمحوا أختَه الشّابّة أوربا، حين كان الثّور الأبيض يحملها على ظهره، وينطلق بها قريباً من جزيرتهم، سابحاً كالسّهم. ولكنّهم للأسف حرّكوا رؤوسهم بالنّفي!. وأشاروا عليه وعلى أصحابه، بالاتّجاه نحو الغرب.

فما كان من هؤلاء الشّبّان المغامرين، وعلى رأسهم البطل قدموس، إلاّ أن تابعوا إبحارهم في

عُرض البحر، قاصدين جزراً عديدةً، واستوقفوا في طريقهم سكّاناً كثيرين، راجينَ منهم أن يُعْلِمُوهُمْ فيما إذا وجدوا أثراً لأختِ قدموسَ والثّورِ الخاطفِ لها، ولكن لسوء الحظّ، لم يُفِدْهُم أحدٌ منهم، في حلّهم وترحالهم، بصيصاً من النّور بشأنها!.

وأخيراً حطّ بهم التّرحال، في بلاد نطلق عليها اليومَ اسمَ بلادِ اليونانِ أو الإغريقِ، وكانت هذه البلادُ المذكورةُ في ذلك الزّمن السّحيقِ القدَم بلاداً جديدةً، والّذين يقطنونها، كانوا قليلي العدد. وقد استطاع قدموس حين حلوله بين ظهرانيهم، أن يُتْقِنَ لغتَهم سريعاً.

وهكذا مضى زمنٌ طويلٌ كان قدموس، يتجوّل فيه من مدينةٍ يونانيّةٍ صغيرةٍ إلى مدينةٍ أخرى، يَرْوي لكلّ من يراه من سكّانها قصّةَ أختهِ المخطوفةِ أوربا.

٢- بيثيا

أثناء تجوالِ قدموسَ، وتبيان قصّةِ أخته لكلّ من يشاهدهم، عرضَ لهُ رجلٌ مسنٌّ، صادَفَهُ في الطّريق، أمراً مهمّاً، وهو أن يذهبَ إلى دلفي، ويسألَ بيثيا عرّافةَ بلاد اليونان، أن تخبره عمّا تستمدّه بالوحيِ، عن أحوال أخته الوحيدة أوربا المختفية.

وفي ذلك الوقت، لم يكن قدموس قد ترامى إلى سمعه شيءٌ، عن معبد دلفي، ولا عن كاهنته بيثيا، لذلك سألَ الرّجل العجوزَ لماذا ينصحه بزيارة المعبد؟ فأجابه الرّجلُ الطّاعنُ في السّنّ: «لقد تَوَسَّمتُ في شبابكَ، وطلعتكَ الخيرَ، والبركات؛ لذلك قرّرتُ أن أُفصِّلَ لكَ قصّةَ دلفي، فَأَصْغِ إليَّ باهتمامٍ، لتُدْرِكَ نتائجَ تلك الزّيارةِ الخطيرة: إنَّ مدينةَ دلفي بُنِيَتْ قرب سفح جبل بارناسوس، في مركز العالم تماماً، ولا شكَّ أنّها مدينةُ الإله أبولّو، جالب الحظّ السّعيد للنّاس، ومُفْرِجِ كروبهم. ولقد أُسِّسَتْ في المكان، الّذي قَتَلَ فيه هذا الإلهُ أبولّو، الثّعبانَ الأسودَ المؤذيَ (بيثونَ)، منذ سنواتٍ عديدة، حيث بَنَى فيها معبداً عظيماً، هو معبدُ دلفي. وهذا المعبد يعتبر أغرب وأعجب معابد العالم!. ففي وسط أرض المعبد يوجد شقٌّ واسعٌ، أو بالأحرى صدعٌ كبيرٌ، وهذا يتّجه إلى الأسفل، ويتعمّق في الصّخر، ولا أحد يعرف عمقه بالضّبط. ومن شقوقه تنبعث أبخرةٌ متصاعدةٌ، ذاتُ رائحة غريبة. ومن شأن هذه الأبخرة إذا استنشقها المرءُ أن تُشتِّتَ فكرَه، وتُفْقِدَهُ الإحساسَ والشّعورَ تماماً!».

فقال قدموسُ: «ولكنْ أعلمني، أيُّها الشّيخُ الجليلُ، من تكون بيثيا هذه، الّتي ذكرتَها، في

معرض حديثك، عن معبد دلفي المقدّس؟». فأجابَه الرّجل المسنُّ: «إنّ بيثيا هي امرأةٌ عرّافةٌ حكيمةٌ، تقيم في المعبد، وحينما يسألها أيُّ إنسانٍ سؤالاً عن مصيره، وما يعترضه من صعوباتٍ في حياته، كانت تجلس على كرسيٍّ ذي ثلاثة أرجلٍ، يدعى: الثّلاثيُّ القوائمِ، الّذي وضَعَتْهُ فوق ثقبٍ في أرض المعبد. والكرسيّ الّذي تجلس عليه، كما ذكرنا، بلا مَسْنَدِ ظَهْرٍ. وحينذاك تستنشقُ البخارَ الّذي يتصاعد من شقوق،الأبخرةِ الغريبةِ الرّائحة، وعوضاً أن تفقد إحساسها، كباقي النّاس الّذين يجرّبون الاستنشاقَ، فإنّها بتلك الوضعيّة تستمدُّ الوحيَ، من أپولّو الإله، الّذي يجيب على أسئلة النّاس حولَ: مصائرهم، ومشاريعهم، وهواجسهم الكثيرة؛ فتنقلُ الكاهنة بيثيا بدورها، هذه الأجوبةَ إلى سائليها مباشرةً. وهذا ما دعا الحجّاج أنْ يقبلوا من كلّ أنحاءِ العالم، ليسألوا هذه الكاهنة الشّهيرة، عن كلّ ما يعترضهم من أمورٍ مستعصيةٍ، حاضرةٍ أو مستقبليّة؛ لذلك يُشاهَدُ في صحن المعبد، الكثيرُ من الهدايا الجميلةِ، والكنوزِ الثّمينةِ، الّتي جلبها هؤلاءِ الحجّاجُ، ذوو السّلطانِ والجاهِ إلى المعبد، لقاءَ عرافةِ الكاهنة بيثيا، وحَلِّها الألغازَ المحيّرةَ. وكانت بيثيا أحياناً تجيب على أسئلتهم بِيُسْرٍ وسهولةٍ، وأحياناً أخرى، تبدو الإجابات ألغازاً تحتاج إلى تأويلٍ، إلاّ أنّ ما كانت تتلفّظُ به، كان يمثّل الحقيقةَ بعينِها!».

وبعد وصف الرّجلِ معبدَ دلفي وصفاً مفصّلاً، ذهب قدموسُ بنفسه إلى هذا المعبد، ليسأل كاهنَتَهُ العرّافةَ عن اختفاء أخته أوربا الشّابّة، ومصيرها المجهول. ومن حسن حظّه أنّ محاورتَه الكاهنةَ، كانت في غاية السّهولة في التّعامل معه؛ لأنّها أبدت له لطفاً وتهذيباً، في الإجابة على تساؤلاته. وتُجاه موقفها الإيجابيّ منهُ، قدَّمَ لها كأساً ذهبيّةً ثمينةً، وهي بدورها جلست على الكرسيّ الّذي لا مسندَ لهُ، وتنشّقَتْ بُخارَ الرّائحةِ الغريبةِ، الّتي انبعثت من الثّقب الصّخريّ، وأثناء الاستنشاق شحب لونُ وجهها كثيراً، وأصبحت عيناها وَحْشيَّتَيْنِ، وبدا التّعبُ والإعياءُ المُمِضُّ عليها، وتَلا ذلك استمدادُها الوحيَ من الإله أپولّو.

وبعد أن سألها قدموسُ أن تخبره مضمونَ وحيها حول خطفِ أوربا، كان جوابُها: «إنّ جوبيتر كبيرَ الآلهة، الّذي يسكن في أعالي الغيوم، قد اختطفها، حيث جعل نفسه هيئة ثورٍ أبيضَ وديعٍ، للتّمويه، وقد حملها على ظهره إلى جزيرةٍ من جزر البحر. ثمّ أكّدَتْ له في النّهاية، أنْ لا فائدة ترجى من البحث عن أوربا، فقد أضحت في حوزة إلهٍ لا يُقاوَمُ إطلاقاً».

فقال لها قدموس: «ولكنْ بناءً على عرافتك الصّحيحة القيّمة، بماذا تنصحينَني أن أتصرَّفَ،

وخاصّةً، بعد أنْ أمرني والدي بألاّ أعودَ إلى وطني، إن لم أعثرْ على شقيقتي أوربا؟».

فأجابته الكاهنة بيثيا: «إنّ والدك قد تُوفّيَ، وإنّ ملكاً أجنبيّاً آخر، قد تُوِّجَ على العرش بدلاً منه، فَعَلَيْكَ أن تستقرّ في بلاد اليونان، وهذا قَدَرُكَ الّذي كُتِبَ لك في سِفْرِ الحياة، لأنّ عملاً عظيماً ينتظرُك، وعليك أن تؤدّيَهُ بإخلاص».

فقال قدموس: «وماذا عليّ أن أفعل؟» فأجابته بيثيا: «اتْبعْ بقرةً بيضاءَ في مسيرِها؛ وعلى التّلّة الّتي تستقرّ عليها، ابنِ هناك مدينةً، وسيكونُ لها شأنٌ عظيمٌ».

في بادئ الأمر لم يفهم قدموسُ مقصد الكاهنة، ولكنّه بالرّغم من ذلك، لم ينبس ببنت شفة، وقال في نفسه: «لا شكَّ أنّ ما قالته هذه الكاهنة، لا يعدو أن يكون واحداً من ألغازها الكثيرة!». ثمّ تركها وغادر المعبد.

٣- التـنّـين

لّما خرج قدموس من معبد دلفي، شاهد بقرة بيضاء كالثّلج، واقفةً عند الباب، ويبدو من وقْفَتِها، أنّها كانت تنتظره صابرةً. فرنَتْ إليه طويلاً بعينيها الدّعجاوينِ البنّيّتين، ولكنّها بعد ذلك، استدارت، ومشت جادّةً في طريقها. ففكّر حينئذ بما قالته له الكاهنة بيثيا في المعبد، فاقتفى أثر البقرة مسرعاً أيضاً. ومشى مشياً متواصلاً آناء اللّيل، وأطراف النّهار، في طرقٍ بريّةٍ وعرةٍ لم يسلكها إنسانٌ من قبلُ؛ حيث تكتنفها العقباتُ والنّتوءات، من الصّخور الصّمّ، والمنعرجات الضّيّقة، والدّروب، الّتي لم يسكن على جانبيها بنو البشر. وقد لازمه في رحلته الآن صديقان مخلصان من رفقائه.

وفي صباح اليوم التّالي، برزتِ الغزالةُ في خدر أمّها، وأضاءت الكون بنورها السّاطع. فتراءتْ لهم، على رأس تلّة، تحيط بها الأشجارُ الباسقةُ، من جانب، ويزيّنها مرجٌ أخضرُ، من جانبٍ آخرَ، البقرةُ البيضاءُ، حيث توقّفت عن المسير واضجعتْ هناك. فحدّثتْ قدموسَ نَفْسَهُ قائلةً له: «هنا في مكان اضطجاع البقرة، ستَبْني مدينتَكَ العظيمةَ يا قدموسُ، تلك الّتي وردَ ذكرُها في نبوءة معبد دلفي!».

عندئذ عمد قدموس إلى ذبْحِ البقرة، وأشعل مع رفيقيه ناراً، من أغصان الأشجار اليابسة، ليقدّمها محرقةً مخصّصةً للآلهة؛ حيث تتصاعد رائحتها الزّكيّة، فيشمّها الإلهُ جوبيتر العظيم،

وقومُه الجبابرةُ، الّذين يعيشون معه وسط الغيوم فوق جبل البارناسوس. وأملَ الأبطالُ هؤلاءِ بتوطيد العلاقة، مع الإله الأكبر جوبيتر، لبناء المدينة المرتقبة، راجينَ منه مباركةَ عملِهِمْ، وعدمَ تأخيرهم في المشروعِ المُتنبَّأ به.

إلاّ أنّ هؤلاءِ الثّلاثةَ، كانوا يحتاجون إلى الماء ليغسلوا أيديهم، وينظّفوا لحم البقرة المضحّاة، فانبرى أحد الشّابّين المرافقين، إلى الانحدار إلى أسفل التّلّة ليجلب الماء الصّافي، من الينبوع الموجود هناك. إلاّ أنّه تأخّر في العودة، فقلق رفيقه، فتبعه ليعلمَ ماذا حلّ به، إلاّ أنّ الثّاني لم يَعُدْ أيضاً.

أمّا قدموس فقد انتظرهما، حتّى ارتفعتِ الشّمس في كبد السّماء. فناداهما في بادئ أمره نداءً عاديّاً، لكنّه عندما نَفِدَ صبرُهُ، صرخَ من أعماقه بأعلى صوته، ذاكراً اسميهما علّهما يجيبانه، «ولكنْ لا حياةَ لِمَن تنادي!».

لذلك استلّ سيفه المرهف، وهبط مسرعاً من أعلى التّلّة، ليشاهدَ بأمّ عينيه سببَ تأخّرهما؛ فَتَتَبَّعَ الممرَّ الضيّقَ الّذي سلكه رفيقاه، وفي الحال وصل إلى ينبوعٍ باردٍ عذبٍ سلسبيلٍ، في سفح التّلّة. فرأى كائناً حيّاً يتحرّك بين الأدغال المتكاثفة بجانب الينبوع، فتبيّن أنّ هذا العدوّ الشّنيعَ، كان تنّيناً بشعاً يتأهبُ لينقضَّ عليه، ويحاولُ أن يمزّقَهُ إرْباً إرْباً. وفي أثناء محاولة التّنّين الانقضاضَ عليه، لمح قدموس آثار دماءٍ على الأعشاب، وعلى أوراق الأشجار المتساقطة، فعلم علم اليقين، أنّ هذه الدّماء المُراقة، هي من آثار دماء رفيقيه الشّابّين، اللّذين مزّقهما التّنّين اللّعين.

وفعلاً فإنّ هذا التّنّينَ الهائجَ وثبَ بحقدٍ على قدموسَ، ليفتُكَ به كما فتك برفيقيه البطلين، بأنيابه المسنّنة الحادّة. لكنّ قدموس قفز بسرعةٍ متنحيّاً جانباً، ثمّ انقضَّ بهجومه الكاسح، على التّنّين المتربّص به شرّاً، وعاجَلَهُ بضربةٍ قاضية، من سيفه الصّقيلِ الحادِّ الطّويلِ، فأرداهُ قتيلاً متخبّطاً بدمائه، وانساب جدولٌ من الدّم القاني، من جرحه البليغ، سائلاً على الأرض، وأضحى التّنّين المعتدي، الّذي روّع النّاس طويلاً، في هذه المنطقة مجندلاً، على الأرض.

ولا شكّ أنّ قدموسَ المناضلَ، تعرّض في حياته لمشاهد مخيفة، ومثيرة جدّاً في ملاقاة الأعداء، ولكنّه لم يشاهدْ وحشاً فظيعاً بشعاً كهذا الوحش!. وبعد أن تغلّب على هذا التّنّين الهائل استطاع أن ينقذ الكثيرين من بني البشر، من هذا الشّرّ المستطير.

ولكنّه بعد أن انتصر على العدوّ الهائل، جلس على الأرض مرتجفاً، من هول ما جرى،

وأطلق لنفسه العنان في البكاء والنّحيب ؛ لفقده رفيقيه، وصديقيه العزيزين، في غربته القاسية، لقد كانت مَنَاحَتُهُ مؤلمةً، لم يعانِ أحدٌ مثلَها في حياته، وبعد مكابدته الأحزان، لفقده الخليلَيْن، فكَّر الآن كيف يتسنّى له أن يبني مدينةً آهلةً -كما تنبّأت بيثيا كاهنةُ معبد دلفي- ولا سندَ لهُ، ولا معينَ في أداء مهمّته الصّعبة، بعد مصابه الأليم، بمن اختارهما لصحبته؟.

٤- المدينــة

وكم كانت دهشة قدموس عظيمةً، حينما كان ينتحب لفقد رفيقيه، فسمع إحداهنَّ تناديه باسمه!. فانتصب واقفاً، ونظر حوله، فرأى في سفح التّلّة امرأةً فارعةَ الطّولِ، تعتمر خوذةً حربيّةً، وتحمل بيدها ترساً، أمّا عيناها فكانتا رماديّتين واسعتين. ومع أنّ وجهها لم يكن وسيماً؛ إلاّ أنّه تبدو عليه آياتُ النّبلِ والشّهامة.

لقد أدرك قدموس أنّها ليست من طينة البشر، بل هي الإلهةُ أثينا ملكة الهواء، ومانحةُ الرّجالِ الحكمةَ. فاقتربت منه، وأمرته بأن يقلع أسنان التّنّين، ويزرعهما في الأرض. ففكّر قدموس بقولها مليّاً، وتحيّر من هذا القول؛ لأنّ هذا الزّرع صنفٌ نادرٌ من المزروعات، لم يعهده أحدٌ من قبل!. ولكن أثينا أردفت قائلةً: «إنْ فَعَلَ قدموسُ ما أَمَرَتْهُ به، فإنّه سيحصل على رجالٍ شجعانٍ، يحتاج إليهم كثيراً في بناء مدينته!». ثمّ ما لبثت أن اختفت عن الأنظار. وممّا لا ريب فيه أنّه كان لهذا التّنّين أسنانٌ كثيرةٌ، فلما اقتلعها قدموس ملأت خوذته تماماً.

وقد تبادر إلى ذهنه أنّ الواجب يحتّم عليه، أن يزرع هذه الأسنان في تربةٍ صالحة. ومن حسن حظّه أنّه حينما أراد الانصراف من قرب جدول الماء الجاري، رأى زوجين من الثّيرانِ واقفَيْنِ قريباً من الطّريق. فلما أسرع إليهما وجدهما مشدودَيْنِ إلى محراث. وماذا عساه يرجو أكثر من ذلك، وخاصّةً أنّ تربة المرج كانت ناعمةً سوداءَ؟ فأمسك مِقبضَ المحراث وأخذ يحرث بمساعدة الثّورين، صانعاً أخاديدَ في الأرض أينما اتّجه.

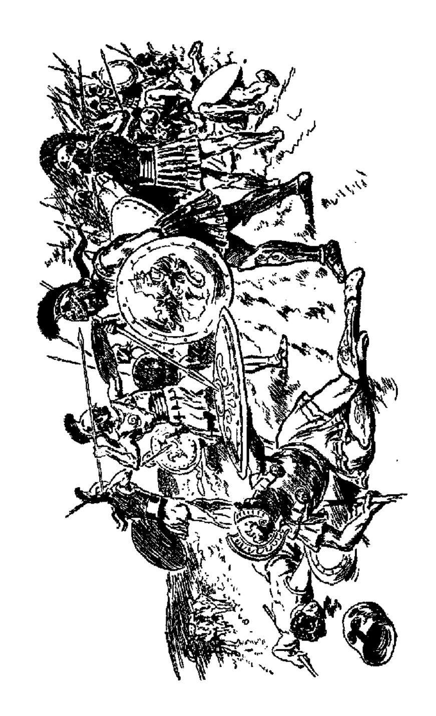
وفي هذه الأخاديد المشقوقة، أخذ يزرع الأسنان واحداً تلوَ الآخر، وغطّاها بهذه التّربة الغنيّة الخصبة. وبعد الانتهاء من الزّراعة جلس في سفح التّلّة، وراقب ما يمكن أن يحدث في هذه التُّراب المزروع. ولم تمضِ إلاّ مدّةٌ قصيرةٌ، حتّى بدأت التّربةُ تَتحَرَّكُ. وما لبثت أن نمتْ، ثمّ زهتْ في مختلف الأمكنة، الّتي زُرعت فيها الأسنانُ، أشياءُ لامعةٌ، وتَوَضَّحَ فيما بعد أنّها خُوَذٌ نحاسيّةٌ، اندفعت من قلب التّربة إلى العلاء، وشوهدت بجلاءٍ في الحال وجوهُ رجالٍ، ثمّ ظهرت بالتّدريج أكتافُهُمْ،

فأذرعتُهُمْ، فأسلحتُهُمْ، وأخيراً أجسادُهُمُ كاملةً.

وقبل أن يفكّر قدموسُ بإمعان، فيما كان يجري كالسّحر أمام ناظريه. فإذا بآلاف الأبطال يقفزون بسرعة خارج الأخاديد، وينفضونَ التّرابَ الأسودَ العالقَ بهم. وكان كلُّ واحدٍ منهم مُدَجَّجًا بالسّلاح، ويحمل حربةً بيمينه، وترساً بيساره. ولقد ارتعب قدموس حقّاً حينما شاهد هذا المحصولَ، الّذي نتج عن البذار المزروع من أسنان التّنين، فذهل من هذا الحشد الهائل!. وقد بَدَا لهُ هؤلاءِ رجالاً متوحّشين مخيفين، لا يميّزون بين الحقّ والباطل، إن رأوه فتكوا به بلا شفقةٍ ولا رحمةٍ! لذلك خبّأ نفسه بعيداً عنهم، خلف محرائه. ودفاعاً عن وجوده شَرَعَ يرميهم بالحجارة!، ولكنّهم لم يعرفوا من أين تأتيهم هذه الحجارة، لأنّ كلاًّ منهم اعتقد أنّ المحارب، الّذي يجاوره يقذفه بها. وفي خروجهم من أعماق التّراب شاكي السّلاح، ظنّوا أنّهم برزوا من الأرض ليخوضوا حرباً ضروساً، ففتكَ بعضُهم ببعضٍ على غير رويّةٍ أو هدىً، وكانت معركةً ملحميّةً لا مسوّغَ لها، استمرّت طويلاً، فسقط من كلا الفريقين عددٌ كبيرٌ من القتلى، مجندلين في ساحِ المعركة واحداً، إثرَ واحد. ومن المؤسف حقّاً أنّه لم يبقَ منهم، سوى خمسة محاربين أحياء فقط!.

فأسرع قدموس إلى الرّجال الخمسة الباقين، ودعاهم إلى نُصرته قائلاً لهم: «كفّوا عن هذا القتال العبثيّ فيما بينكم، لقد آن لهذه الحرب الأهليّة غيرِ المجدية، أن تنتهي!. فإنّني قد عزمت أن أجعلكم رجاليَ الخاصّين، فَسَارِعُوا إلى الانضمام إليَّ، لكي نصبحَ حلفاً قويّاً، نتحدّى به من يتحدّانا، ونشرع كلُّنا في بناء مدينةٍ عظيمة!». فأطاعوه فوراً، وألقوا سلاحَهم، وتبعوه إلى قمّة الرّبوة.

وهكذا بَدَوا للملأ عاملينَ مُجدّينَ ممتازينَ، حيث إنّهم شمّروا عن سواعد الجدّ والاجتهاد. وفي المكان الّذي استقرّت فيه البقرة البيضاء، استطاعوا أن ينجزوا بناءَ بيتٍ جميلٍ، في مُدّة وجيزة. وتابعوا عملهم فيما بعد ببناء بيوتٍ أخرى، أجْمَلَ من البيت الأوّل. ولمّا ترامى إلى أسماع النّاس، أنّ هؤلاءِ يبنون بيوتاً لبني البشر، توافدوا إليها زرافاتٍ ووحدانا ليسكنوها، وأطلقوا على هذه المدينة الصّغيرة في بادئ الأمر: اسم قدموسيا. ولمّا تكاثر القاطنون فيها، اجتمعوا في يومٍ من الأيّام فيما بينهم، تكريماً لهذا الباني العظيم، وصيانةً لإدارة شؤونهم، وفضّ المنازعات فيما بينهم، فنصّبوا قدموسَ أوّلَ ملكٍ متوّجٍ على هذه المدينة. وبعد أن تكاثرت الأبنية وازداد العمران، ونُظِّمَت الطّرق تنظيماً جيّداً، وفد النّاس إليها من كلّ حدَبٍ وصوبٍ، حتّى جعلوها مدينةً كبيرةً، وأطلقوا عليها اسمَ طيبة.



وقد كان قدموس عند حسن ظنّ جميع الرّعيّة، بجدّه، وحكمته، وعدله، حتّى وصلت أخبـــاره الطّيبة إلى معاشر الآلهة العظماء، الّذين كانوا يقطنون في قمّة جبل البرناسوس، مع جوبيتر الإله الأكبر، فسرّوا ببنائه المدينةَ، سروراً عظيماً، وساعدوه في أعماله المنظّمة، وفضلاً عــن هــذه المساعدات الأولى، مدّوا له أياديَ العونِ والدّعمِ والتّشجيعِ، في أوقات الشّدّةِ، وفي أكثر الأيّــام حرجاً.

وبعد أن توطّد حكمه، وذاعت شهرته، تزوّج في حفلٍ رائعٍ هارمونيا، ابنة الإلهِ مارْسَ العظيمِ وإلهة الأولمب. وحضر هذا العرسَ البهيجَ كلُّ الآلهة الجبابرة الكبار، بما فيهم الإلهة أثينا، الّتي أهدت العروس عقداً غريباً يقال: «إنّه سيكون وبالاً على أسرة قدموس جميعها!». وسنفصّل ذلك فيما بعد.

وأخيراً لا بدّ لنا من أنْ نذكر العملَ العظيمَ، الّذي أدّاه قدموس خدمةً لليونان، والّذي اُعْتُبِرَ من أجله المعلّمَ الأوّلَ للإغريق، فقد علّمهم الحروفَ الأبجديّةَ، الّتي كانت مستعملةً في وطنه الأصليِّ، عبر البحر. وحَسَبَ لفظِ اليونانيّين اُعْتُبِرَ الحرفُ الأوّلُ (ألفا)، والحرف الثّاني (بيتّا). إذاً فقد كان قدموسُ السّببَ في تكلّم الإغريق الأبجديّة، وكتابتها حتّى اليوم. وحين أتقن اليونانيّون الأبجديّةَ السّوريّةَ، بدؤوا حالاً يقرؤون، ويكتبون، ويبدعون، ويؤلّفون الكتبَ المفيدة، حتّى زماننا الحاضر هذا.

ونعود إلى قصّة الصّبيّة أوربا أخت قدموس المخطوفة. فقد حُملتْ آمنةً بسلام، فوق أمواج البحر، إلى شاطئٍ آخرَ بعيد. وأُقدّرُ: أنّها كانت سعيدةً في الأرض الّتي وَطِئَتْها قدماها من جديد، ولا يسعني إلاّ أن أستنتجَ من خلال الحدث: «أنّها لم تكن مهتمّةً بصديقاتها القديمات، أو وطنها الأمّ فيما بعدُ!».

وهنا لا بدّ لي أن أتساءل: «أحقّاً إنّ جوبيتر اختطفها في هيئة ثورٍ أبيضَ وديعٍ من بلادها الأصليّة؟».

إن هذا الحدث يعدّ من باب الأساطير، ولا أحد يعرف ذلك تماماً، فكثيراً ما كانت الرّوايات، محرّفةً ومختلقةً منذ قديم الأزمان. ولا يبعد أنّ أوربا حينما كانت تتنــزّه في حقلها السّاحليّ، قد تعرّض لها بعض قراصنة البحر؛ فسرقوها من وطنها الأصليّ، وأنّ سفينةً مسرعةً بأشرعتها البيضاء، قد حملتها من بلادها إلى الشّاطئ الآخر.

ولكنّ الأمرَ الّذي أتأكّد منه تماماً، أنّها كانت لنبل محتدها، ولحسن تربيتها، محبوبةً من كلّ من عرفوها، وأنّ البلاد الّتي حُملت إليها كانت مجهولة الاسم، فسمّيت منذ ذلك الحين باسمها، أي أوربا.



البحث عن رأس ميدوزا

١- الصُّندوق الخشبيّ

كان لمدينة أرغوس ملكٌ رُزِقَ ابنةً وحيدةً -وليست البنتُ كالصَّبيِّ في رأيِه- فلو وُلِدَ له صبيٌّ لَدَرَّبَهُ تدريباً جيّداً، لكي يصبح في المستقبل بطلاً مغواراً، وملكاً عظيماً. ولكنّه بولادة هذه الأنثى، اغتمَّ وارتبك كثيراً، وأرَّقته الهواجسُ والوساوسُ، ولم يدرِ كيف يصونُ عرضَهُ المستقبليَّ، ويتصرّفُ ببنتٍ جميلة ذات شعرٍ، ذهبيِّ اللّونِ، وعينين زرقاوين صافيتين، كصفاء السّماء في أيّام الصّيف، ولا سيّما حين تترعرع وتغدو شابّةً، ويكونُ وجْهُهَا مثلَ فَلَقِ الصُّبحِ ألَقاً وجمالاً، وتكون فارعةَ القامةِ، هيفاءَ الخَصْرِ، بالغةَ النّبل، والمعرفة والحكمة.

وأخذ هذا الملك يحاور نفسه، ويرسم خطط المستقبل، ويتساءل بقلقٍ وحزنٍ وكآبة، كيف سيموت أخيراً -وإن امتدَّ به الزّمانُ- ويُورِّثُ مملكتَه العامرةَ، وأراضيَهُ الواسعةَ، ومالَه الكثيرَ، وذهبَه الأصفرَ الرّنانَ، لهذه البنت الشّقراء!.

وبعد التّخبّط في بحار من هذه الأفكار المضنّة، قرّر الرّحيل إلى معبد دلفي الشّهير، لتقرأ له الكاهنةُ بيثيا طالعَهُ، وتنبئه عن مستقبله المجهول، بعد استشارة الإله أبولّو!. ويا لَهولِ ما سمع في معبد دلفي! فقد أنبأته الكاهنة بصراحتها المتناهية، بأنّه حين يحين أجلُهُ، سيكون موتُهُ غيرَ طبيعيٍّ، حيث إنّ حفيده سيسقيه كأس الرّدى!.

ولا شكَّ أنّ هذه النّبوءة المشؤومة، زادت من هواجسه، وأرعَبَتْه رعباً شديداً، وضاعفت حَذَرَهُ، وغيّرت مجرى تفكيره نهائيّاً. لأنّها حُفِرَتْ في حنايا نفسه، وحَسِبَها من الظّنِّ الصّادق، الّذي لا مريّةَ فيه. وبعد تفكيرٍ عميق، وأخْذٍ وردٍّ، عزمَ على تنفيذ خطّةٍ جهنّميّةٍ مدروسة، ليغيّر

مجرى النّبوءة، وهي: «بناءُ سجنٍ محكمِ الإغلاقِ، ليحبس فيه ابنتَه الوحيدةَ طوال حياتها!». ومن أجل تحقيق غرضه استدعى عمّاله النّشيطين، وأمرهم أن يحفروا حفرةً مدوّرةً في الأرض في قصرهِ، ثمّ استدعى حرفيّين آخرين ليصنعوا في الحفرة ذاتها، بيتاً نحاسيّاً، مؤلّفاً من غرفةٍ واحدةٍ فقط، بدون باب، أمّا نافذتُها فمحصَّنةٌ تحصيناً قويّاً، في سقف الغرفة.

وعندما أنهى العمال الحاذقون عملَهم، وضع في هذه الغرفة الغريبة العجيبة، فلذةَ كبدِه، ابنتَه اليافعةَ الجميلةَ المدعوّةَ داناي!. إلاّ أنّنا لا يمكننا أن نعتبره بالغ القسوة، فقد خصّص لها مربّيةً تشرف على خدمتها، ووضع في الغرفة النّحاسيّة ثيابَها الأنيقةَ الرّائعةَ، ولُعَبَها المفضّلةَ، وأمّن لها المنافع اللاّزمة، وكلّ ما يجعلها مرتاحةً سعيدةً، في هذا السّجن الّذي ضيِّقَ دائرةَ فضائه. وبعد ذلك ارتاح من معاناته، وأطلق حكمته الواثقة الرَّشيدة: «إنّ العالم سيرى بوضوحٍ من الآنَ فصاعداً، أنّ الكاهنة المشهورة بيثيا في معبد دلفي، لا تتنبّأُ دائماً تنبُّؤاً محقّقاً، دقيقاً!».

إذاً في هذا السّجن النّحاسيّ حُبِسَتْ داناي السّيّئةُ الحظّ، وحَظَّرَ عليها أبوها مخاطبةَ أيِّ كائنٍ بشريٍّ، غير مربّيتها، ومنَعَها من الخروج من هذه الغرفة المخصّصة لها لمشاهدة الطّبيعة وزينتها، والبحر الواسع وروعته، والسّماء الزّرقاء وسُحُبَهَا البيضاءَ السّابحةَ فيها أيّام الصّيف، إلاّ من نافذة سقف الغرفة النّحاسيّة الضّيّقة.

ويوماً بعد يومٍ كانت تجلس تحت هذه النّافذة العلويّة نادبةً حظّها العاثر، وتتساءل بحُرقةٍ وألمٍ وحزن: «تُرى لماذا حَبَسَهَا أبوها في هذا السّجن الضّيّق؟ وما المسوّغ لهذا التصرّف الغريب، وهي الّتي لم ترتكب ذنباً، ولم تخالف أمراً؟ وهل سيعرّج هذا الوالد في أحد الأيّام، على هذا السّجن المنعزل داخل القصر، فيُفرِّجَ عنها، ويفكَّ أسرها، ويطلقَ سراحَها، ويجعلَها تتنعّم كباقي رعيّته بالهواء الطّلْق، والنّور الساطع، والحرّيّة الّتي يمارسها النّاس جميعاً؟ ألم يشعر بأنّ نفسها تتوق إلى معانقة الأقرباء، ومعاشرة الصّديقات، والأصدقاء، ورؤية الكائناتِ بشتّى أنواعها؟».

وإنْ سألتني بعد هذه التّشكّيات الحزينة، والتأوّهات العاصفة، كم من السّنينَ أمضت هذه المسكنية داناي في سجنها الخانق؟ فأجيبُكَ: «لا أدري!. ولكنَّ الّذي أدريه، أنّها كانت تتألّقُ جمالاً يوماً بعد يومٍ. ولم تَغْدُ طويلةً في قامتها فحسب، بل أضحت شابّةً جذّابةً بكلّ أوصافها الجسميّة،والفكريّة، والنّفسيّة، وسبحانَ العاطي!».

وأطلّ كبير الآلهة جوبيتر، ذاك الّذي كان يستقرّ في وسط الغيوم، من علياء سمائه أخيراً،

ونظر إلى الأسفل، أي إلى سجن داناي النّحاسيّ من نافذتها العلويّة، فرآها في ريعان الشّباب والبهاء، فَرَاعَهُ جمالُها، وتيّمه حبُّها، وشُغِفَ بها شغفاً عظيماً!.

وعلى أثر ذلك، تواردَتْ على داناي بوادرُ الحظِّ السّعيد، وانجلى الغمُّ، وفُتِحَتْ لها أبواب السّماء الموصدة، فإذْ برشاشٍ من الذّهب الأصفر الخالص، يتساقط عليها من الأعلى متتابعاً!. ولما انقطع هذا الرَّشاشُ المجهولُ المصدر، إذْ بشابٍّ، يَمْثُلُ أمامَها، جميلَ المحيّا، فارعَ القامة، نبيلَ القسمات، حلوَ اللّفتات، مرحَ الأعطاف، يمدُّ لها حبال الغرام والهيام!.

ولم تعلم داناي الجميلة -ولا يهمّني أنا ذاتيّاً أن أعلم- فيما إذا كان الإله جوبيتر، هو الّذي هبط عليها على شكل مطرٍ ذهبيٍّ، ولكنّ الّذي عَلِمَتْهُ هيَ ذاتُها، أنّ أميراً مغامراً شجاعاً منقذاً، جاء من فوق البحر ليطّل عليها، وليدخلَ بعد ذلك من الأعلى بيتَها النّحاسيَّ، ويزورَها سجنها الضّيّق، الّذي طال مكوثها فيه بلا ذنب جنته.

ثمّ تكرّرَ مجيءُ هذا الأميرِ، الوسيمِ الوجه، السّاحرِ الطّلعة، الفارعِ الطّول، البشوشِ الوجه، وبعد هذه الزّيارات الكثيرة، وهذه الأُلفة الفريدة، قرّر الاثنان الزّواجَ، وضَرَبَا موعداً له، وكان هذا العرس للحبيبين المشغوفين ببعضهما عرساً متواضعاً، حضرته المربّيةُ فقط. والغريب أنّ داناي، ابنه الملك، كانت سعيدةً جدّاً بهذا العرس البسيط، بالرّغم من أنّ هذا العريس الطّارئ سَرعَانَ ما يغادر البيت النّحاسيّ، ويبتعد عنه طويلاً، ولكنّها لم تشعر بالوحشة لغيابه!.

وحدث في يومٍ من الأيّام حين تسلّق هذا الأمير الجدار، وخرج من النّافذة العلويّة مسرعاً، أن صدرَ فيضٌ من النّور الباهر حوله، ثمّ غاب غياباً طويلاً، ولم يعد من جديد!. وشعرت داناي بتغيّرات في أحشائها ولا شكّ أنّها حَمَلَتْ، وبعد انقضاء مدّة الحَمْلِ، ولدت طفلاً بَهِيَّ الصُّورة، مبتسمَ الثّغرِ، بريءَ الوجه، ففرحت به وأطلقت عليه اسمَ: برسيوس.

وخوفاً من سطوة أبيها الملك، خبّأته هي ومربّيتُها مدّةَ أربعِ سنواتٍ كاملة، حتّى إنّ النّساءَ اللّواتي كنّ يجلبْنَ الطّعام إلى النّافذة العليا في البيت النّحاسيّ، ويقدّمْنَهُ للمربّية لم يدرينَ بوجوده.

ولكنْ حدث أن مرّ الملك مرّةً من المرّات، بالقرب من بيت ابنته النّحاسيّ، فترامى إلى سمعه كلامُ طفلٍ وثرثرتُه، فرابَهُ الأمرُ، واستقصى عن السّبب، وسأل عن الأب، ولّما علم الحقيقة المُرّةَ، ارتعدت فرائصُه، واضطرب اضطراباً شديداً، ثمّ أرغى وأزبدَ، وغضبَ وتوعّدَا!. وبعد أن هدأَ هدوءَ العاصفة بعد حلولها، وقع في ذهولٍ كبيرٍ، وحالةِ مَنْ هدّتْهُ الأقدارُ، وعَلِمَ عِلْمَ اليقين أنّ

كلَّ إجراءاته الوقائيّة السّابقة، ذهبت أدراجَ الرّياح، وأنّ نبوءةَ الكاهنة بيثيا كانت صحيحةً وصادقةً تماماً. وتُجاه هذا الموقف الحرج، وهذا المأزِق الّذي شدّد عليه الخناقَ، ساءَلَ نفسَهُ: «كيف يتصرّفُ الآن، وكيف يستطيع أن يمنع ما لا بدَّ من حدوثه في المستقبل؟ وبعد تفكيرٍ عميقٍ: رأى أنّ الوسيلة الوحيدة، لينقذ نفسه من الموت المحقّق، أن يفتك بهذا الطّفل الصّغير قبل أن ينمو ويترعرع، ويشتدّ عودُهُ، فيزداد خطرُهُ!».

ولّما أخرج الملكُ برسيوسَ وأمَّهُ داناي خارج السّجن، وأزمعَ تنفيذ القتل، والخلاصَ نهائيّاً من هذا الطّفل فوراً. تراءت له على شاشة تفكيره، وفي أعماق نفسه، بشاعةُ جريمة الفتكِ بطفلٍ بريءٍ عاجزٍ، لا حول له ولا طَوْل، ولاسيّما أنّه حفيده، وأنّه سيفجع أمّه المسكينة به. لذلك سرعان ما غيَّرَ خطّته الإجراميّة الفظيعة من جديد. فهو وإن كان جباناً رعديداً، لكنّه من جهة أخرى كان يحمل في حناياه قلباً عطوفاً، لا يسوّغ له أن يرى كائناً من كان، يعاني الألم والعسف والظّلم، فكيف إذا كانت الخطّةُ تتطلّبُ القتل السّريع؟.

ولكنْ تجاه وضعه العصيبِ المهدّدِ لحياته، لا بدَّ من تصرّف ما، وإلا فإنّ الواقعةَ ستقع يوماً ما، والنّبوءة ستتحقّق. لذلك تمخّض تفكيرُه عن خطّةٍ جديدةٍ، أكثرَ من الوضع في السّجنِ النّحاسيِّ قسوةً ووحشيّةً، وهي: أنّه أمَرَ خدمه بصنع صندوق خشبيّ واسعٍ جدّاً، ومتينِ الخشب، ويتحمّل الصّدمات، لتوضع فيه داناي المعذّبةُ، وطفلُها البريءُ برسيوس، ويؤخذ بعيداً إلى شاطئ البحر، ويُلقى فيه، ويترك هناك في خضَمِّه، لتتقاذفه الأمواج العاتية!. وأقنع نفسه بهذه الخطّة أنّه سيخلّص نفسه من ابنته وحفيده الصّغير، لأنّه بدا له أنَّ ذلك الصّندوق لا بدّ أن يغرق في البحر بعد مدّةٍ من الزّمن، وإنْ سَلِمَ من الغرق؛ فإنَّ الرّياحَ والأمواجَ العاتيةَ، ستقذفه إلى شاطئٍ غريبٍ بعيدٍ، وعندئذٍ سوف لا يكون باستطاعة داناي وابنها الصّغيرِ العودةَ إلى مدينة أرغوس أبداً.

وطوالَ النّهار، وطوالَ اللّيل، وخلالَ اليوم التّالي، دفعتِ الأمواجُ الأمَّ داناي، والطّفلَ برسيوس، وهما داخل الصّندوقِ الخشبيِّ في البحر الواسع.

وفي بادئ الأمر اهتزّتْ هذه الأمواج بالصّندوق، وارتجّتْ، وتلاعبتْ به وحوله. أمّا الرّياحُ الغربيّةُ الرُّخاء، فزمَّرتْ، وغنّتْ مبتهجةً بالطّفلِ البريء، وبأمّه داناي، ثمَّ حوّمتْ فوقهما طيورُ السّماءِ المزقزقةُ في الهواء. والغريب أنّ الطّفلَ برسيوس لم يكن خائفاً أبداً، بل كان مبتهجاً،

لذلك كثيراً ما غاصت يداه في أمواج البحر المتجعّدة، وضحك مع النّسيم العليل، ورجّع بغبطة وسرورٍ، تغريدَ أسرابِ الطّيور.

ولكنْ في اللّيلة التّالية، تَجَهَّمَ كلُّ شيءٍ في الطّبيعة: فالعاصفةُ هبّتْ، والسّماء اسودَّتْ، والأمواجُ ارتفعتِ ارتفاعَ الجبالِ، والرّياحُ زأرتْ زئيرَ الأسودِ الغاضبة. وأثناء هياج الطّبيعة نام الطّفلُ الرّضيُّ برسيوسُ بسلامٍ وأمانٍ، بين ذراعي أمّه، فردَّدَتِ الأمُّ فوق طفلها المستغرق في نومه، هذه الأغنية المعبّرة:

١- نمْ آمنــــاً يـــا طفلــيَ الحبيــبُ! نَــمْ آمنــاً وخُــذْ راحَتَــكْ!
نمْ آمنـــاً علـــى صـــدرِ أمِّــكَ المُعَنّـــى، الّـــذي مَزّقَتْـــهُ الأيّـــامْ!
فــــالآنَ باســــتطاعتكَ أنْ تغفــــوَ دونَ خـــوفٍ أو وَجـــلْ،
بـــالرُّغمِ مـــن كـــلِّ الأخطـــارِ المتربّصـــةِ، بـــكَ مـــن جميـــعِ الجهـــاتْ،
مَلْفوفـــاً بالأغطيـــةِ الدّافئـــةِ، ومتمتّعـــاً بالسُّـــباتِ العميـــقْ،
٢- فإنّكَ لنْ تسمعْ بعد اليوم، أيّها الطّفــلُ الحبيــبُ، أمَّــكَ باكيـــةً شــاكيةْ،
ولـــنْ تـــرى في خِضَـــمِّ البحـــرِ، الأمـــواجَ المجنونـــةَ مشـــرئبّةً مُتوَعِّـــدَةْ،
ولـــنْ تبـــاليَ أبـــداً بالرّيـــاحِ الحافظـــةِ دومـــاً علـــى يقظتهـــا ونشـــاطِها.
٣- فالنّجومُ تتوارى وراءَ الغيومِ مُختبئةً مُحتجبـــةً، واللّيـــلُ دامـــسٌ مـــوحشْ
والأمـــواجُ تنـــدفعُ انـــدفاعاً عاليـــاً، والعاصـــفةُ تـــزأر زئـــيراً مخيفـــاً؛
ولكنّكَ يا ولدي العزيز، بـــالرّغم مـــن ذلـــك، تَـــنْعُمُ بالطّمأنينـــةِ والهـــدوءْ،
ولا تكترثُ يا برسيوسُ الحبيبُ بالصّـــخَبِ، الّـــذي يـــدورُ متوحّشـــاً حولَنـــا.

وهكذا استمرّتِ العاصفةُ تدوّي بأبواق الجنِّ والعفاريت، واستمرّ اضطرابُ البحر العاتي أيضاً، وأخيراً أقبل صباحُ اليوم الثّالث؛ فقذفتِ الأمواج الصّندوقَ الخشبيَّ إلى ساحلِ جزيرةٍ نائيةٍ غريبة، تزيّنها الحقولُ الخضرُ، وتضطجع تحتها مدينةٌ صغيرةٌ.

ولحسن الطّالع فإنّ رجلاً صيّاداً كان يتمشّى قرب الشّاطئ، فرأى الصُّندوقَ الخشبيَّ تتقاذفه أمواجُ البحر، ولّما اقترب منه، نقلهُ بعد جُهدٍ ونَصَبٍ إلى الشّاطئ الرّمليّ، وحينما فتحه، رأى داخلَه سيّدةً وسيمةَ الوجهِ، فارعةَ القدِّ، وطفلاً لم يُشاهدْ في حياته أجملَ منه، فسهّل لهما سبيلَ

الخروج من الصُّندوق، وخفّف بكلامه اللّطيف من تعبهما وإعيائهما، ثمّ اعتنى بهما عنايةً فائقةً، واستضافهما ضيافةَ الرّأفة والرّحمة.

وبعد أن استراحت الأمُّ داناي، ولَمْلَمَتْ جراحَها النّفسيّة، أخبرته بقصّتها الغريبة، فتأثّر تأثُّراً عميقاً لمصابها الأليم، ولمعاناتها الشّديدة، في حياتها المتعثّرة المضطربة، وللظّلم الشّديد الّذي حلّ بها، وبابنها برسيوس، ورجاها رجاءً حارّاً ألاّ تشعرَ بالخوف والاضطراب بعد الآن، فبإمكانها أن تقيم هي وطفلها، في منــزله ما شاءت أن تقيم، معزّزةً مكرّمةً إلى أن يظهر الفرج، وينجلي الكرب، وعاهدهما أن يكون لهما، الأبَ والصّديقَ المخلصَ دائماً وأبداً.

٢- الخفّـان السّحريّـان

وبعد ذلك أقامتْ داناي وابنُها في بيت المحسن الكريم، الّذي أنقذهما من الغرق في البحر، وتبنّاهما فيما بعد كما ذكرنا.

ومرّتِ السّنونَ في ذلك البيت، فازداد برسيوس طولاً، وشجاعةً، وقوّةً، وحيويّةً، ووسامةً. أمّا أمّه داناي فحينما شاهدها ملك الجزيرة، بعد مدّة، فأعجب بجمالها، وتمنّاها أن تصبح زوجته. ولكنْ أنّى يتحقّق له ذلك؟ فهي تكرهه كرهاً شديداً؛ لأنّه كان أسودَ اللّون، دميمَ الهيئة، قاسيَ القلب، فظَّ الطّباع، لذلك أعلنت له حينما طلب يدها للزّواج، بصراحة مُتناهية الرّفضَ المطلقَ. واعتبر هذا الملك أنّ رفضها له، يعود بالدّرجة الأولى إلى ابنها برسيوس. وانتقاماً منه وثأراً لنفسه الرّديئة، خطّطَ لزَجّ هذا الشّابّ في سَفْرَة شاقّة بعيدة، وخَطِرَة جدّاً.

ونوى بفعلته الشّرّيرة هذه أن يبعده عن الجزيرة نهائيّاً، وبعد إبعاده قرّر أن يجبر أمّه على الزّواج منه بالإكراه، سواء شاءت أم أبت!.

ولتحقيق هذه الخطّة الدّنيئة عمليّاً؛ استدعى شبابَ جزيرته كلّهم، مدّعياً بأنّه صمّم على الزّواج من ملكة في بلد ما، يقع وراءَ البحر. وطلب منهم ألاّ يجلبَ أيٌّ منهم أيّةَ هديّة مُباشَرَةً، لأنّ هديّةَ العرسِ، قد قَرّرَ أن يسمّي هو نوعَها بنفسه، حين يُحدّدُ موعداً لمجيئهم فيما بعد، وحينذاك تُقدّمُ هذه الهدايا إلى والد الملكة، وقت الزّفاف. لأنّ العادة الجارية في تلك الأيّام الغابرة، توجب على معارف وأصحاب أيّ شابٍّ مقبلٍ على الزّواج، أن يقدّموا له هديّةً، وهو بدوره يُهديها إلى والدِ العروس.

وبعد دعوة الملك شبابَ الجزيرة إلى قصره، لتقديم ما يتوجّب عليهم، قالوا لملكهم: «ما نوع الهديّة الّتي تودّ أن نُهديَها إليكم، بمناسبة زواجكم السّعيد؟» فأجابهم مباشرةً: «أريد من كلّ شابٍّ منكم حصاناً»، تعريضاً بالشّابّ برسيوس الّذي لا يملك شيئاً.

فاغتاظ برسيوس من أسلوب الملك، واعتماده هذا التّصرّفَ الممقوتَ، ثمّ قال له: «لماذا لم تطلبْ شيئاً يستحقُّ الإهداء كرأس ميدوزا مثلاً؟». وهذا بالضّبط ما كان يدور في رأسِ الملك. فصاح بملء فيه، موافقاً: «أحْسَنْتَ أيّها الشّابُّ، إنّ الّذي أريده تماماً هو رأسُ ميدوزا ذاته!»، ثمّ أضاف قائلاً: «إنّ هؤلاء الشّباب جميعاً باستطاعتهم أن يهدوني خيولاً، ولكنّك أنت بالذّات، ستقدّم إليّ رأس ميدوزا!». فأجابه برسيوس إجابةَ الواثق من نفسه: «نعم، إنّني سأقدّمه لك هديّةً ثمينةً، بدون رَيب في الوقت المناسب!». أمّا هؤلاء الشّباب الّذين مَثُلوا أمامَ الملك، فقد هزئوا ببرسيوس؛ بسبب حمقه، وتلفّظه بعبارات مجنونة، فأينَ هو وأينَ رأس ميدوزا المستحيل؟!.

لذلك لا بدّ لنا أن نوضّح بجلاء شيئاً للقارئ عن ميدوزا فنقول: «ما هو، يا تُرَى، رأسُ ميدوزا الّذي وعدَ برسيوسُ الملكَ وعداً مرتجلاً بجلبه؟».

لا شكّ أنّ والدةَ برسيوس كثيراً ما حدّثَتْهُ عن ميدوزا، ولكن أين يكون مستقرّ ميدوزا هذه؟ والجواب على هذا السّؤال: «إنّه بعيدٌ، بعيدٌ جدّاً، يقع في طرف العالم، حيث عاشت هناك ثلاثُ أخواتٍ ضارياتٍ، دُعِيْنَ الجورجونَ، وميدوزا منهنَّ، ولهنَّ وجوهُ نساءٍ، وأجسادُهُنَّ، ولكن من جهةٍ أخرى، يملكن أجنحةً ذهبيّةً، ومخالبَ نحاسيّةً مخيفةً، أمّا شعورُ رؤوسهنّ فتتخلّلها ثعابينُ سامّةٌ متوثّبةٌ دائماً للنّهشِ والعضِّ. وفي الحقيقة إنّهنّ ضارياتٌ مريعاتٌ. والغريبُ أنّ كلّ من ينظر إليهنّ، أو يحدّق في وجوههنّ، يتحوّل إلى حجرٍ. واثنتانِ من أولئك الثّلاث الضّاريّات، خالدتانِ تسحرانِ الأحياءَ من النّاسِ، ولا تُؤثّر فيهما الأسلحة الفتّاكة إطلاقاً. وأمّا الثّالثة منهنّ فهي أصغر سنّاً، وأشدّ ضراوةً، وتُدعى ميدوزا، فإذا تمكّنَ منها بطلٌ مقتدرٌ، وسدّدَ إليها الضّربةَ القاضيةَ، فيُستطاع الفتكُ بها».

والحديث عن ميدوزا يطول ويطول، ولكنّ برسيوس عندما انصرف من قصر الملك، أخذ يشعر بالنّدم والأسف الشّديد، لأنّه تسرّع وأطلق كلامه على عواهنه، بدون تروٍّ وإمعانِ فكرٍ، لذلك بدا الآنَ مفكّراً: «فلأيِّ مدىً يا تُرى سوف يتقيّد بوعده، وينفّذ أمرَ الملك؟ حقّاً إنّه لا يعرف أيّةَ طريقٍ تقوده إلى الجورجونات، وليس بيده سلاحٌ فعّالٌ يقضي على ميدوزا المخيفة!.

إذاً فعليه ألاّ يُري وجْهَهُ للملكِ ثانيةً، ما لم يظفر بالوجه المرعب». وهكذا حارَ في أمره، واسودّت الدُّنيا في عينيه، فانحدر إلى الشّاطئ، وجلس هناك متطلّعاً عبر البحر، باتّجاه أرغوس، مدينته الّتي انحدر منها. وكانت الشّمس تودّع الدّنيا لتقضيَ نَحْبَها، غائبةً وراء الأفق البعيد! وبدأ القمر يطلُّ من علياء سمائه، والنّسيم العليل ينسمُ من جهة الغرب.

وفي هذا الجوّ المنعش الّذي أخذ يوحي له ببعض التّفاؤل، سرعان ما فوجئ بانتصاب شخصين أمامَهُ هما: رجلٌ وامرأةٌ، وكان كلاهما فارعَ القامة، نبيلَ المظهر. أمّا الرّجلُ منهما: فكان يشبه أميراً جميلاً، يزيّن قبّعته جناحان ملوكيّان، وعلى خفّيه جناحان سحريّان أيضاً. وقد حمل بيده صولجاناً يحيط به ثعبانان ذهبيّان متماثلان.

وبادرَ هذا الرّجلُ برسيوسَ بسؤال يتعلّق بوجومه، وسكوته عن البوح عمّا يجول في خاطره، فأجابه الشّابُّ بصراحة متناهية: «إنّ ملك البلاد تصرّف معه بأسلوبٍ غير لائقٍ ينطوي على تحدٍّ له، وردّ هو عليه بكلامٍ متسرّعٍ وغيرِ متروٍّ!».

وأمّا المرأة الّتي كانت ترافقه، فقد خاطبت برسيوسَ بكلامٍ مهذّبٍ ولطيفٍ، فأعجب بدماثة أخلاقها، ورقّة طباعها، ولكنّه حين تمعّن في تقاطيع وجهها، وجَدَها غير متمتّعة بمسحةٍ من الجمال، وبالرّغم من ذلك كان لها عينانِ شهلاوانِ ساحرتان، عجيبتان، وعنيفتانِ في الوقت نفسه، ووجهٌ ذو تعابيرَ آسرة، تحير من يكون في حضرتها مهما كان شأنه على الطّاعة، والامتثال لها، والخلاصة أنّ محيّاها مُحَبَّبٌ، وهيئتها ملوكيّةٌ؛ لأنّها في حوارها معه قد أشعرته بالاطمئنان والرّاحة، وأبعدت عنه الهواجسَ والأفكارَ المثبِّطَةَ، وطلبت منه أن يكون شجاعاً مقداماً، فلا يخاف أبداً من العقبات الّتي تعترضه، بل يُقْدِمُ على المهمّة الّتي ندب نفسه من أجل تحقيقها، بكلّ تصميمٍ وبطولةٍ، وصبرٍ وجلَدٍ، ويسعى سعياً حثيثاً للوصول إلى بلاد الجورجون، وستساعده هي بكلّ قواها، لكي يكون بمقدوره قطعُ عنقِ ميدوزا، والحصولُ على رأسها المخيف.

وبعد إصغائه باهتمامٍ إلى حديث المرأة، بادر مُخَاطِبَيْه الاثنين بقوله: «ولكنْ ليس بحوزتي سفينةٌ سريعةٌ، فكيف يكون باستطاعتي أن أذهب إلى بلادِ الجورجونِ البعيدة؟».

فقال له الأمير العجيب: «سوف تحتذي خُفَّيَّ المجَنَّحَيْنِ، اللّذيْنِ سيحملانِك بسهولةٍ فوق البرِّ والبحرِ».

فأجاب برسيوس: «ولكنّني لا أعلم الاتّجاهَ الصّحيحَ، فهل سأتّجه إلى الشّمال أو الجنوب، أو الشّرق أو الغرب؟».

فأجابته المرأة الفارعة الطّول: «إنّني سأرشدك إلى الاتّجاه الصّحيح الّذي تَنْشُدُهُ؛ ولكنْ عليك أوّلاً: أن تذهبَ إلى بلاد الأخواتِ العجائزِ الشُّمْطِ الثّلاث، اللّواتي يَعِشْنَ وراء البحر المتجمّد، الواقع في الشّمال، أي الشّمال البعيد. إنّ أولئك الأخوات المختفيات عن الأنظار، لا يعرف أحدٌ مكانَهُنَّ أبداً. والمُهِمُّ في الذّهاب إليهنّ، أن تخبرهنَّ أن يُعْلِمْنَكَ بالدّرجة الأولى: كيف ستعثر على أولئك العذارى، اللّواتي يحرسن التّفّاحات الذّهبيّات في الغرب، وبعد أن يخبرْنَكَ بذلك، الْتَفِتْ إلى الجهة المعاكسة، واذهب إلى هناك بخطٍّ مستقيمٍ، وإنّهنَّ سَيَمْنَحْنَكَ ثلاثةَ أشياءَ مهمّة، بدون الحصولِ عليها، لَنْ تظفرَ برأس ميدوزا المخيف. وهنَّ وحدهُنَّ اللّواتي سيُعْلِمْنَكَ كيفَ تطير محلّقاً، فوق المحيط الغربيّ إلى طرف العالم، حيث يوجد موطنُ الجورجون».

ولتسهيل مهمّة برسيوس، خلعَ الرّجل الخفّين المجنّحين، ووضعهما في قدميه. أمّا المرأة: فقد همست في أذن برسيوس، بأنْ يبتعدَ في الحال عنهما مسافراً، ويشرع في تحقيق غايته، الّتي وعدَ بتحقيقها، وألاّ يخشى أيّةَ صعوباتٍ تعترضه، لأنّ الشّاعرَ الحكيمَ يقول: لن تبلغَ المجدَ حتّى تلعقَ الصَّبِرَا!. وقد أدرك برسيوس بأنّ هذين الشّخصين ليسا من صنف البشر، فلا بدّ أن تكون تلك المرأة العظيمة هي: الإلهة أثينا، ملكة الحكمة والهواء، وأنّ رفيقها: هو مركوري رسول الآلهة، وسيّد غيوم الصّيف.

وقبل أن يوجِّه الشّكر لهما للطفهما الفائق معه، ومساعدتهما الجُلّى له، في مهمّته الصّعبة، فقد اختفيا في الغَبَشِ بين النّور والظّلام. أما هو فقد قفز فوراً في الهواء ليجرّبَ الخفّينِ السّحريّينِ، اللّذَيْنِ وهبهما له الإله مركوري، لقضاء مهمّته شبه المستحيلة.

٣- الأخواتُ العجائزُ الشُّمْطُ الثّلاث

طار برسيوس محلّقاً في أجواز الفضاء، أسرعَ من أيِّ نسرٍ قويٍّ، وإثْرَ ذلك دارَ دورةً لا بدّ منها؛ حيث حمله الخفّانِ السّحريّانِ فوق البحر، متّجهاً بخطٍّ مستقيمٍ نحو الشّمال: ولقد اندفع إلى تحقيق مهمّته، فوق البحرِ الواسعِ المضطربِ اضطراباً شديداً، وأتى إلى منطقةٍ شهيرةٍ؛ حيث

تتناثر المدنُ والبلْداتُ، ويستوطن البشر الكثيرون فيها. ثمّ حلّق بعد ذلك فوق سلسلةِ جبالٍ مغطّاة بالثّلج، تكاثفت خلفها غاباتٌ عظيمةٌ، أشجارُها باسقةٌ، وسهولُها فسيحةٌ، تشقُّها وتتعرّجُ فيها أنهارٌ غزيرةٌ، تصبُّ جميعُها في البحر.

وبرزت أبعدَ من هذه السّلسلة، سلسلةٌ جبليّةٌ أخرى لا تقلّ عنها ارتفاعاً، وتلاها مستنقعاتٌ متجمّدةٌ، وكان إلى جانبها بريّةٌ مثلّجةٌ، ثمّ بعدها ظهر له البحرُ من جديد، ولكنّه كان متجمّداً تقريباً. وهكذا تابع برسيوس طيرانَهُ السّريعَ، مستعيناً بخفّيه السّحريّين، فوق الكتل الثّلجيّة العائمة على المياه، وكانت في تلك الدّيار تعصفُ الرّياحُ الباردةُ عصفاً شديداً. ولم تستطعْ أشعّةُ الشّمسِ السّاطعةُ، بكلّ حرارتها المرتفعة، أنْ تدفّئها ولو قليلاً.

وأخيراً وصل بعد تعبٍ ونَصَبٍ شديدين، إلى الكهف الموصوف له؛ حيث تسكن فيه العجائز الشُّمْطُ الثّلاثُ، بناتُ عمِّ الجورجون، وبدت هؤلاء العجائز في أرذل العمر، لكرورِ الأيّام، وتوالي السّنينَ عليهنَّ، في تلك الأصقاع البعيدة، حتّى إنّهنّ قد نسين أعمارَهن لامتداد الزّمان، ولم يكن بمقدور أحد من البشر، أن يحصيَ الأعوامَ الكثيرةَ الّتي عشْنَها.

وأمّا من حيث الهيئة والتّكوين: فكانت شعورُهنّ مسترسلةً، رماديّةَ اللّونِ منذ ولادتهنَّ. وكان لهنّ عينٌ واحدةٌ، وسنٌّ واحدةٌ أيضاً، تنتقل كلتاهما من الأمام إلى الخلف، ومن عجوزٍ إلى أخرى.

وحين وصل برسيوسُ إلى موضع سكناهنَّ، سَمِعَهُنَّ يُغَمْغِمْنَ ويُهَمْهِمْنَ في الكهف، فوقف ساكناً لا يتحرّك، مُصغياً إليهنّ إصغاءً تامّاً. فقالت إحدى الأخوات: «نحن نعرف سرّاً خفيّاً ونكتمه، وهذا السّرّ الخفيّ لا يعرفه حتّى القوم الكبار، الّذين يعيشون في قمّة جبل البرناس بين الغيوم، أليس كذلك يا أختيَّ؟».

وثرثرتِ الأختانِ الأخريانِ: «ها! ها! إنّ حفْظَ السّرِّ دَأْبنا وفِعْلُنا! إنّ ذلكَ الأمرَ دأْبنا وفعْلُنا!».

ثمّ قالت الأخت القريبة من برسيوس لأختها: «أعْطيني يا أختاهُ السِّنَّ، فربّما أستعيدُ بها ريعانَ شبابي، وبهاءَ جمالي من جديد!».

وقالت لأختها الأخرى الّتي تجلس إلى جانبها: «وأنتِ يا أُختي العزيزةَ عليكِ أن تعطيني العينَ، الّتي يمكن أن أتطلّعَ بها بارتياحٍ، وأرى فيها ما يجري في جميع أنحاء العالم، الّذي يَنْهَمِكُ

بأفراحه وأتراحه!».

فغمغمتِ الأختُ الّتي أخذت بدورها العينَ والسّنّ منهما، وتركت أختيها هذه المدّةَ بدونهما وقالت: «آه ما أحيلى ذكرياتِ أيّامِ الشّبابِ الجميلةَ، نعم يا أختيَّ نعمْ! ثمّ نعمْ!».

في هذه اللّحظة الأخيرة، وبلفتة سريعة، تَفُوقُ سرعةَ البرقِ، قفز برسيوس إلى الأمام، واختطف الشّيئينِ الثّمينينِ كليهما منها، وهكذا ترك الأخواتِ الثّلاثَ في ظلامٍ دامسٍ، فهُرِعت الأختان الأخريان إلى مكان سماع الحركة، وصاحتا في هلعٍ وذُعْرٍ، مادّتين ذراعيهما الطّويلتين، لتتلمّسا السّنّ والعينَ هنا وهناك، وتقولان: «أين أصبحتْ، يا تُرى، السّنُّ والعينُ؟ هل سقطتا منكِ يا أُختَنا؟ هل اختفيتا بقدرة قادر؟».

عندئذٍ قهقهَ برسيوسُ، القابضُ عليهما قبضةً شديدةً، وسَخِرَ منهما سُخريةً عَبّرَ عنها بصوتٍ عالٍ، حين كان يقف في باب الكهف، وأدرك تماماً مدى ارتباكهما الشّديدَيْن، والرُّعبَ الّذي انتابهما، والهمَّ الّذي أصابهما. فخاطَبَهُنَّ منتقماً متشفّياً: «لقد أصبحت بكَفَّيَ سنُّكُنَّ وعينُكُنَّ، أيّتها العجائز الحمقُ، وإنّني مُصَمِّمٌ تمامَ التّصميم، ألاّ أجعلَكُنَّ تلْمَسْنَهُنَّ إطلاقاً، ما لم تُخْبِرْنَني سرَّكُنَّ الدّفينَ، الّذي يرشدني إلى مكان العذارى، اللّواتي يحرسْنَ التّفاحاتِ الذّهبيّاتِ في البلاد الغربيّة، وما لم تذكرْنَ ليَ الوسيلةَ، الّتي تمكّنني أن أعثر عليهنَّ بأهونِ السُّبُلِ!».

فقالت الأخواتُ الشُّمْطُ الثّلاثُ: «أيُّها المنتصبُ أمامَنا! إننا ندركُ من صوتك الجهوريّ، أنّك تبدو في ريعان الشّباب، ونحن كما ترانا عجائزُ في غاية الوهن، ونعاني متاعبَ الشّيخوخة، فَبِحَقِّ الآلهة، نتوسّل إليك ألاّ تلجأ إلى استعمال القسوة المتناهية معنا، وعليك أن تشفق على ضعفنا وتوسّلاتنا، وتردَّ إلينا عينَنا الّتي لا نبصر إلاّ بها، وسنَّنا الّتي لا نتقوَّتُ إلاّ بها! ».

وعندما لم يلقيْنَ منه أذناً صاغيةً، ذَرَفْنَ الدّموعَ الغزيرةَ، علّه يردّ إليهنّ العينَ والسّنَّ —ولكنْ لا حياةَ لمَنْ تنادي— فلجأْنَ إلى سلاحٍ آخرَ، فجامَلْنَهُ، وتملّقْنَ لهُ، من أجل استعادتها، ولمّا لم ينفع ذلك معه، عَمَدْنَ إلى أسلوب التّهديد والوعيد، ولكنّه لم يأبه بهنّ أبداً، فتنحّى عنهنّ جانباً، ثمّ أخذ يتهكّمُ ويهزأُ بتصرّفاتِهنَّ، فتأوّهْنَ متحسِّراتٍ، وتَمْتَمْنَ كلماتٍ غيرَ مفهومة. وتعبيراً عن خيبة أملهنّ به، صرخْنَ صراخاً عالياً!. وأخيراً حين سُدَّتْ جميعُ المنافذ في وجوههنّ، فقالت إحداهنَّ: «يا أختيَّ العزيزتين، لا فكاكَ لنا من هذا الشّابّ العنيد، إلاّ بإباحة السِّرِّ له».

فأجابت العجوزان الأخريان: «صدقتِ يا أختَنا، فآه! ثمّ آه. ونعمْ! ثمّ نعمْ! فلا بدَّ لنا من

إفشاء السّرّ له، وذلك ضروريٌّ لإنقاذ عيننا وسِنّنا!».

وهكذا اضْطُرِرْنَ ذليلاتٍ صاغرات، إلى الخضوع لمطلبه، وإعلامه سريعاً: كيف يستطيع أن يذهب بسلامٍ، إلى البلاد الغربيّة، ثمّ دلَّلْنَهُ بدقّة متناهية إلى أقرب الطّرق، الّتي تمكّنه أن يسلكها، حتّى يعثر على العذارى، اللّواتي يحرسن التّفاحات الذّهبيّات.

ولّما شعر برسيوس، أنّهنّ كنَّ صادقاتٍ في أقوالهنَّ، مستدلاً على ذلك بصراحة لهجتهنَّ ووضوحِها، أرجع لهنّ عينهنّ وسنّهنّ فوراً. وإثْرَ ذلك ضحكْنَ جميعهنَّ من أعماقهنَّ، وهتفنَ بسرورٍ قائلات: «ها! ها! لقد عادت لنا العينُ والسّنُّ، والآنَ لا شيءَ يمنعنا أن نستعيد أيّام شبابنا السّعيدة، من جديد!».

ومنذ ذلك الحين وحتّى اليوم، لا يَعرِفُ مخلوقٌ بشريٌّ شيئاً عن العجائز الشُّمْطِ الثّلاث، ولا أيّةَ معلوماتٍ عمّا آلت إليه أحوالُهُنَّ بعد ذلك التّاريخ!.

ولكنْ وبالرّغم من ذلك فما زالت الرّياحُ تَعْزِفُ عزيفَ الجنّ في كهفهنَّ الموحشِ المهجورِ البعيد، والأمواجُ الصّاخبةُ الباردةُ تُهَمْهِمُ، وتُدَمْدِمُ في ذلك الشّاطئ البحريِّ، الشّتائيِّ العاصف، والكتلُ الجليديّةُ تتساقطُ، وتتهدّمُ وتتحطّمُ هناك. ولكن لم يُسْمَعْ أيّ صوتٍ أو نَأْمةٍ، من أيِّ كائنٍ حيٍّ في تلك الدّيار المقفرة جميعها.

٤- العذارى الغربيّات

والآنَ من جهةِ برسيوس الرّشيق فقد قفز من جديد في الهواء، وشقّه بعد جُهد بخُفَّيْه السّحريّين، مُيَمِّماً طيرانَه شطرَ الجنوب، مسابقاً الرِّيحَ. وبقوّةِ الماردِ الجبّارِ، اندفع اندفاعاً شديداً، مخلّفاً وراءه بحراً متجمّداً. وأخيراً وصل إلى البلاد المشمسة، ذات الغاباتِ المتكاثفة، والمروج الخُضْرِ المزهرةِ، والتّلال المزيّنة الرّائعة، والأودية العميقة الملتوية. وقادته هذه الرّحلة إلى حدائقَ ممرعةٍ مزدهرةٍ غنّاءَ، تَسُرُّ العينَ، وتُبْهِجُ الخاطرَ بما فيها من أزهار، متعدّدةِ الأشكال والألوان، وأثمارٍ يانعة تتدلّى من الأغصان، فكانت بهجة النّاظرين، تنتثر فيها القرى والبلدات في كثير من الجهات.

ولقد أيقن أنّ هذه البلاد المأهولة، الّتي حلّ في ربوعها هي: البلادُ الغربيّةُ، المشهورةُ باعتدال مناخها، وروعة مشاهدها، وقد ذكرنا أنّ الأخوات الشّمط الثّلاث، قد وَصَفْنَ له مناظرها،

ومعالمها الطّبيعيّة. فما كان منه بعد هذا الطّيران المضني، إلاّ أن حطّ على الأرض، ومشى مشية الواثق من نفسه، بين الخمائل الملتفّة، والأشجار الباسقة، دون أن ينال قسطاً من الرّاحة. وبعد مسيرٍ طويلٍ، دلف إلى وسط حديقة مزدهرةٍ، لفتت نظره، فرأى فيها عذارى الغرب، يرقصن بابتهاجٍ، ويغنّينَ بفرحٍ أغانيَ المرح، ويَدُرْنَ باستمرارٍ حول شجرةٍ عجيبة، يحرسْنَ محصولها من تفّاحٍ ذهبيٍّ يخلب الألباب، وهو يخصّ الإلهةَ جونو، إلهةَ الزّواج، وملكةَ الأرض والسّماء. وقد أُهْدِيَتْ إليها هذه الحديقة العجيبة الغريبة، بمناسبة زواجها السّعيد.

وكان من واجب أولئك العذارى الجميلات، اللّواتي انتُدِبْنَ لحراسة هذه الشّجرة المباركة، العنايةُ الفائقةُ بها، ومراقبتُها على الدّوام، وعدمُ السّماح لأيٍّ كان من إنسٍ وجانٍ، أن يلمس تفّاحاتها الذّهبيّاتْ. فوقف برسيوس مندهشاً من روعة المشهد، وخاطب نفسه قائلاً: «لا شكّ أنّ هذه هي الجنّةُ الموعودةُ!». ولكنَّ الّذي سحر لُبَّهْ، ورفعه إلى السّماوات العلى، أغنيةٌ امتازت بجميل معناها، وروعة أدائها، غَنّتْهَا العذارى الثّلاث بألحانِهِنَّ الإلهيّة العذبة، وهنّ يرقصنَ حول الشّجرة الّتي لا مثيل لها:

(١)

نُغَنّــــــــــي للكِبــــــــــارْ ‏ ‏ ‏ ‏ نغنّــــــــــي للصّــــــــــغارْ
أفراحُنــــــــــا كــــــــــثيرهْ ‏ ‏ ‏ ‏ أحزانُنــــــــــا صــــــــــغيرهْ
مُغَ‍ّ‍ـ اتْ ‏ ‏ ‏ ‏ وراقم اتْ
قلوبُ ا ‏ ‏ ‏ ‏ في ذه ولْ
دأبُهــــــــــا التّرحيــــــــــبْ ‏ ‏ ‏ ‏ بالحقيقــــــــــةِ والخــــــــــيرْ

(٢)

الأ‍ّ ارُ في طر‍ ‏ ‏ ‏ ‏ قِ ا زّوالْ
والم اءُ مق‍ ‏ ‏ ‏ ‏ لّ بـ رعةْ
والشّ ‍سُ ‍ ‏ ‏ ‏ ‏ وفَ تة رُبْ
والنّج رمُ ‍ ‏ ‏ ‏ ‏ ‍طالُعْ
مُغَ‍ّ‍ـ اتٌ وراقم اتْ

قلوبُ ا في ذه رلْ
٢ ب ي فجـــــــــرَ الـ ة الجديـــــــــدةْ.

(٣)

فســـــــــواءٌ عنــــــــدنا يــــــا أخــــي العزيــــزْ
أَذَبــــــــلَ الشـــــــجرْ أمْ تســـــــاقطَ التُفّـــــاحْ
أو أضنــــــانا الألَـــــمْ أو عاجَلَنــــــا المـــــوتْ
أو ارْتعـــــــدَتِ الفـــــرائصْ أو تســـــرّبَ الحـــزنُ إلينـــا
أوْ خُــــــدعَتِ العقـــــولْ أو غُشّــــتِ النفـــوسْ
ففســـــــحةُ الأمـــــلْ سَــــــتُعَزّي الجميــــعْ

(٤)

القمّ ة ـ ُرْوَى في الـ الْ
والأغـ ةُ اليائـ ةُ ـ يُغَنّى
وة رسُ الع زّ ـ زْ
والقر ارُ ـ يغدو بـــــــــلا أوتــــــــارْ
والرُّء ـ يُهَدّدُ ا الديارْ
والـ زنُ ـ يُداهمُ الإنـ انْ
والقلـــــــــوبُ البريئـــــــةُ حـــــــالاً سَــــــتُخدَعْ
إلى أنْ تَهُ ـ رة احُ الأمَ لْ
بكــــــلّ أنــــــواعِ السُّــــــرورِ والحُبـــــورْ.

(٥)

فجديــــــدُ الأشـــــجارِ ســــينمو، وَينمـــــو دومـــــاً
-كمـــــا اعْتَـــــدْنا قـــــدْماً- مـــــن الجُـــــذورْ.
وَ ـ تنادى: راعمُ الأزه ارْ

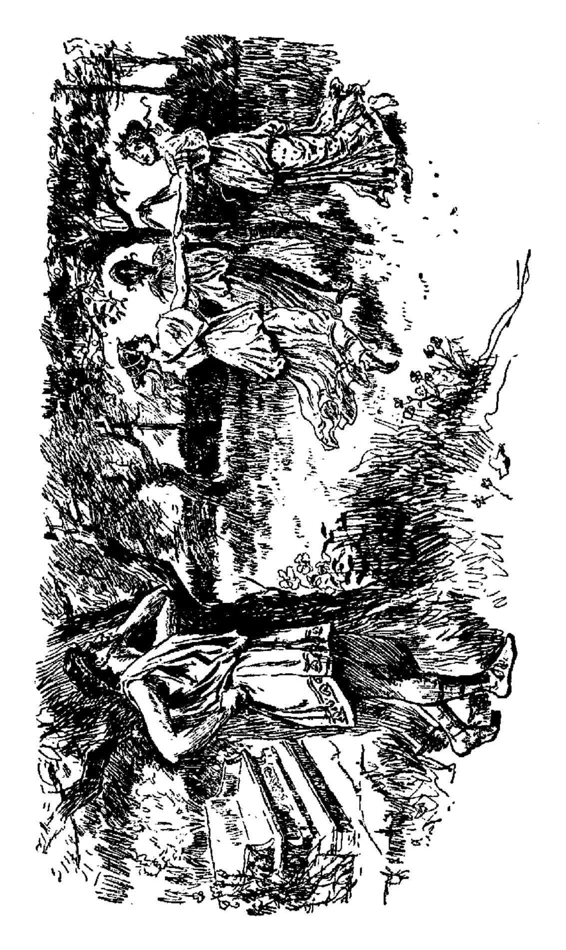
فتُحْيِـــــــــــي بعِطْرِهـــــــــــا ســــــــــائرَ الأقطـــــــــــارْ.

(٦)

مَنْ رِحاتٌ مُبتَهِج اتْ
ومـــــــن الفـــــــرحِ مَجْنو اتْ
مِنْ الِلاتٌ وراقِـ اتْ
تحـــــــتَ التفّاحــــــاتِ ا ذهبيّاتْ

وبعد سماع برسيوس هذه الأغنية الجميلة، اتّجه إلى الأمام، إلى حيث العذارى يمسكنَ بأيدي بعضِهنّ بعضاً، وكان النّور يُشرقُ من وجوهِهنّ، وجمالُهُنَّ يملأ السّاحة، ولمّا لَمَحْنَهُ توقّفْنَ بغتةً عن الغِناء، وبَدَوْنَ سريعاً واجماتٍ ساكناتٍ، كأنّهنّ قد تعرّضنَ فجأةً إلى خطرٍ داهمٍ! فيا لَخَيْبةِ أملِ برسيوس من هذا الموقف الحرج!.

ولكن لحسن الحظّ سَرعانَ ما انقلب الموقف رأساً على عقب، فتحوّل الغمُّ إلى سعادة!؛ لأنّه حينَ شاهدتِ العذارى الخُفّين الذّهبيّين، بقدمَي برسيوس، أسْرَعْنَ إلى لقائه لقاءً ودّيّاً، مستأنساتٍ ومرحِّباتٍ بقدومه، إلى بلدهنَّ الغربيِّ الخصيب، وإلى حديقتهنّ الغنّاء، وبادَرْنَهُ مبتسماتٍ منطلقاتِ الوجوه، وقائلاتٍ له: «أهلاً وسهلاً بالزّائرِ الكريمِ، لقد عَلِمْنا علمَ اليقين أنّكَ ستُقْبِل إلى حديقتنا، لأنّ الرّيح الغربيّة قد أنبأتنا بمجيئك الميمون، وخُفّي مركوري دلاّ عليك، فأنتَ في ديارك الآن وبين أخَواتك!. ولكنْ لا بدَّ أن نسألك سؤالاً ودّياً: لماذا تَجشّمْتَ عَناءَ السّفر، واغتربتَ عن بلادكَ، وشرّفتَ بلادَنا قاطعاً الجبالَ والأنهارَ، ومجتازاً المحيطاتِ والبِحارَ، والسّهولَ والوديانَ، بهذه السّرعة من بلادك البعيدة؟».



فأجابهنّ برسيوس، بوجه بشوش، وبلقاء المستأنس بهنّ، والمتفائل بنجاح رحلته. ثمّ حدّثهنّ مفصّلاً عن معاناته هو وأمّه، منذ أنْ كان طفلاً، ثمّ يافعاً، ثمّ شابّاً، وعن كلّ ما يتعلّق برأس ميدوزا المخيف، ثمّ صرّح لهنّ قائلاً: «إنّه قصد بلادهنّ بعد صعوباتٍ جمّة، ليلتمس منهنّ – حسب تعليماتِ الإلهين أثينا ومركوري– ثلاثةَ أشياء، لا بُدَّ منها، تُساعِدُهُ في حربه الخطرة مع الجورجون».

ولحسن حظِّه، فقد أجَبْنَ طلبَهُ فوراً بكلّ سرورٍ، ورحابةِ صدرٍ، ووَعَدْنَهُ أنّهنَّ لا يعطينه ثلاثة أشياء لقضاء مهمّته فَحَسْبُ، بل أربعة. وبادرت إحداهنّ إلى منحه سيفاً، مرهفَ الحدّ ولكنّه كان معوجّاً كالمنجل، وكانت تثبِّته بحزامٍ في وسطها. وانبرت الثّانية إلى منحه ترساً لّماعاً، ذا بريقٍ يخطف الأبصار، ويفوقُ لمعانُه أيّةَ مرآةٍ شاهدها في حياته. وأمّا الثّالثةُ فقدّمت له جراباً سحريّاً واسعاً، كانت تُعَلِّقُهُ بسَيْرٍ جلديٍّ فوقَ كتفها. وقد قُلْنَ له في آخر حديثهنّ: «ثلاثةُ الأشياء تلكَ، ستساعدُكَ في الحصول على رأس ميدوزا، الصّعب المنال. وهناكَ الشّيءَ الرّابعَ، منّا نحنُ، علاوةً على ما سبق –لأنّك إنْ لم تحصلْ عليه سيكون سَعْيُكَ سعْياً عَبَثيّاً– ألاَ وهو القبّعة السّحريّة الّتي يُطْلَقُ عليها: قبّعةُ الإخفاء».

وحينما أخذها برسيوس منهنّ، اعتمر بها، فاختفى نهائيّاً عن الأنظار، بحيث لا يمكن لأيٍّ كان، سواء في الأرض، أو السّماء –وحتّى العذارى أنفسهنّ– أن يراه. وبعد أن تواصل الودُّ بينه، وبين أولئك العذارى، حاز على محبّتهنَّ وإعجابهنّ، وزيادةً على ما زوّدْنَه به، أخبرْنَه عن الزّمان والمكان، الّذي سيعثر بهما على الجورجونات، وعَلَّمْنَهُ أيضاً كيف سيَحُزُّ بسيفه القاطع رأس ميدوزا، ويهرب من أختيها سالماً مُعافىً.

وعند الوداع قَبَّلْنَهُ قبلاتٍ أخويّةً حارّةً، وتَمَنَّيْنَ له حظّاً سعيداً، يمكّنه أن يتغلّب به على العقبات الّتي تعترضه، ودَعَوْنَه أن يسارعَ بجَلَدٍ وصبرٍ إلى عمله الخطر!.

وقبل مغادرة المكان شكرهُنّ شكراً جزيلاً، وبعد ذلك اعتمر قبعة الإخفاء، وطارَ محلّقاً في الجوّ، مستعيناً بخفّيْه، قاطعاً المسافات الشّاسعةَ، بسرعته الفائقة، قاصداً الطّرف الأبعد من العالم. وأمّا العذارى الجميلات: فقد اتّجهنَ إلى شجرتهنَّ يرقصْنَ حولها من جديد، ويحرسن التّفّاحات الذّهبيّات، بلا كلَلٍ ولا ملَلٍ، وبأمانةٍ وإخلاصٍ، حتّى يتحوّلَ العالمُ من عالَم قديمٍ، إلى عالَمٍ جديدٍ؛ حيث يسود التّفاؤلُ والسّلامُ والمحبّةُ، ويسعد النّاس جميعاً، بهذا التّحوّل.

٥- الجورجونات المخيفات

لقد طار برسيوس إلى الأمام بشجاعة نادرة، وكان سيفه الحادّ متدلّياً على جنبه، أمّا ترسه الشّديد اللّمعان فقد قبض عليه بذراعه، وكان همّه الوحيد البحث بجدٍّ ودأب، عن الجورجونات المخيفات. ومن أجل تحقيق هدفه، اعتمر قُبّعَةَ الإخفاء على رأسه. وإنْ تَيَسَّرَتْ لكَ الرّؤيةُ الواضحةُ؛ فإنّكَ تراهُ في طيرانه أسرعَ من الرّيح، الّتي تهبّ باندفاعٍ شديد. وهذه السّرعة الفائقة، ساعدته في وقتٍ قصيرٍ جدّاً، أن يعبر المحيط، الّذي يزنّرُ الأرضَ كلّها. وكانت نهاية رحلته، بمكان مظلمٍ يقع في موضعٍ منعزلٍ، بعيدٍ عن الأنظار. وهناك تأكّدَ بنفسه، ومن وصف العذارى الثّلاث أيضاً، بأنّ مخبأ الجورجونات المخيفات، غدا قريباً جدّاً من المكان الّذي هو فيه.

ولّما حطّ قليلاً على الأرض، سمع أصوات تنفّساتٍ عميقةٍ لكائنات ما، فنظر نظرات حادّةً، ليعرف مصدر الأصوات بين أعشابٍ ضارّة، تحت قرب ضفّة النّهرِ العَكِر. فلاحظ أنّ تلك الكائنات، الّتي تصدر عنها أصوات التّنفّسات، تتوقّد في تلك الضّفّة بالنّور الشّاحب، فارتفع بوساطة خفّيه السّحريّين قليلاً جدّاً عن الضّفّة، ولكنّه لم يتجاسر أن يسدّد نَظَرَهُ باتّجاه مستقيمٍ نحو هذه الكائنات، لئلاّ يواجه وجوهَ الجورجونات المؤذيات الفظيعات، فيتحوّل حجراً؛ لذلك التفتَ جانباً، وجعل ترسَهُ اللّمّاعَ أمامه، وعندما حدّق فيه بإمعانٍ، استطاع أن يرى الأجسامَ الخلفيّةَ، كأنّها ظاهرةٌ في مرآة.

فأوّاه! ثمّ أوّاه! كمْ كان هذا المشهد مخيفاً ومرعباً، كما بدا في صفحة الدّرع، بالرّغم من أنّ الجورجونات كنّ نصفَ مختبئات، بين الأعشاب المؤذية، وأنّهنّ كنّ يَغْطِطْنَ في نومٍ عميق!. وكانت أجنحتُهنّ الذّهبيّةُ مضمومةً بعضُها إلى بعضٍ، أمّا مخالبهنّ الفتّاكة، فقد برزت كأنّها كانت تتهيّأُ للقبضِ على فريسة، قد صَمَّمَتْ على تمزيقها، أمّا أذرُعُهُنَّ فكانت مغطّاةً بأفاعٍ سامّة، ساكنة أثناءَ النّومِ، ولكنْ والعياذ باللهِ منها إنْ هي حَرَّكَتْ رؤوسَها لتلسعَ، كائناً مَنْ كان من البشر!.

وقد ميّزَ بمشاهدةِ درعه اللّمّاعةِ أوضاعَ الجورجونات، فكانت الأختان المعمّرتان الضّخمتان، تغطّانِ في سباتٍ عميقٍ كما ذكرنا، وكان رأساهما مدسوسين بين أجنحتهما الذّهبيّة، كالطّيور

الّتي تخبّئ رؤوسَها استعداداً للنّوم. أمّا الجورجونةُ الثّالثةُ: الّتي كانت تضطجع بينهما، فقد استسلمت للنّوم أيضاً، ولكنّ رأسها اتّجه نحو السّماء، وهي تبدو للمتمعّن أصغرَ سنّاً منهنّ، وهذا ما عَلِمَهُ برسيوس من أفواه النّاس سابقاً. عندئذ تأكّد تأكّداً تامّاً، أنّ هذه الجورجونة الشّنيعةَ المنظر، هي ميدوزا عينُها.

فما كان منه إلاّ أن اقتربَ منهنّ رويداً رويداً، وهو يتخفّى تخفّياً شديداً، مديراً ظهره لهؤلاء الجورجونات المؤذيات، وناظراً إلى الدّرع اللاّمعة، ليرى من خلالها كيف يتقدّم ويتّجه. ولّما تأكّد من إحكام خطّته، استلّ سيفه البتّارَ، وانقضّ به بكلّ ما أعطيَ من قوّة، مُوجّهاً إيّاه نحو الأسفل باتّجاه الجورجونة، الّتي جاء من أجلها، وضربها ضربةً خلفيّةً خاطفةً جدّاً، ولقد كانت هذه الضّربةُ الموجّهةُ إلى عنقها، ضربةً صادقةً ومملوءةً بالثّقة؛ بحيث فصلت رأسَ ميدوزا عن أعلى ذراعيها، فصلاً عجيباً! وعند ذلك تدفّق منه دمها الأسود، كالجدول الجاري. وبلفتة أسرعَ من البرق الخاطف، دفع رأسَها المريع في جرابه -دون أن ينظر إليه- وقفز قفزةَ النّصرِ في الهواء، ثمّ حلّق بعيداً، مسابقاً الرّيحَ في طيرانه.

فهبّت الأختانِ الجورجونتانِ الخالدتان، من نومهما مرعوبتين، ثمّ أخذتا تصرخان صراخاً عالياً مخيفاً! ونشرتا جناحيهما الذّهبيّين، واندفعتا اندفاعاً سريعاً، نحو ذلك الفاتك المندفع إليهنّ، والّذي غزاهُنّ، في عُقر دارهنَّ، غير آبه بهنّ!. ولكنّهما لم يلمحاه بفضل قبّعة الإخفاء، الّتي قد سترته عن عَيْنَيْهما الحادّتين. وبالرّغم من تحليقه في أجواز الفضاء هارباً، إلاّ أنّهما شمّتا رائحة الدّم المنبعثة من الجراب، فتَتَبّعتاه ككلاب الصّيد الّتي تطارد طريدةً ثمينةً. لأنّهما كانتا تجدّان في طلب الثّأر منه.

وحينما زاد برسيوس من تحليقه بين الغيوم، سمع صراخَهما المرعبَ، وقعقعةَ أجنحتهما الذّهبيّة الصّاخبة، ثم قرقعةَ أنياب فكّيهما المخيفين. والغريب أنّه لم يرهبْهُما، ولم يكترثْ بسرعتهما؛ لأنّ سرعته، مستعيناً بخفّيه السّحريّين، كانت أكبر بكثيرٍ من خفقان أجنحتهما، الذّهبيّة أثناء الطّيران. وبمرور مدّة قصيرة جدّاً استطاع برسيوس، أن يسبقَ الجورجونتين الخالدتين، سبقاً عظيماً. وبعد ذلك تلاشى الصّراخُ المخيفُ، عن سمعه. فأضحى برسيوسُ الجريءُ آمناً في الجوّ، بعد أن حقّق انتصاره العظيم، على أتعس المخلوقاتِ طُرّاً في التّاريخ.

٦- الوحش البحريّ الضّخم

في هذا الوقت عَبَرَ برسيوسُ المحيطَ حالاً، وعاد ثانيةً إلى بلاد الغَرْب، فتمكّن في طيرانه العالي، مشاهدةَ العذارى الثّلاث، يرقصن كعادتهنّ حول الشّجرة الذّهبيّة. لكنّه لم ينوِ التّوقّف هناك، لأنّه قَرَّرَ أن يسرع إلى منـــزله، بعد غياب طويل، ولا سيّما أنّه يحمل في جرابه الموضوع على جنبه، رأسَ ميدوزا، الّذي ينبغي أن يوصله سالماً إلى وطنه، وهكذا حلّقَ فوق البحر العظيم، باتّجاه مستقيم نحو الشّرق، وأخيراً وصل إلى البلاد الّتي يُزيِّنُها ثالوثٌ رائعٌ، ألا وهو: النّخيلُ الجميلُ، والأهراماتُ العظيمةُ، والنّهرُ الكبيرُ، الّذي ينبع من الجنوب، ألا وهو: نهر النّيل.

وعندما كان ينظر إلى الأسفل، رأى مشهداً مرعباً –ويا هولَ ما شاهدا!– إنّه مشهد فتاة رائعة الجمال، مكبّلة بسلاسلَ حديديّة، وبقيود تُوثِقُها بصخرة ضخمة على الشّاطئ، وهي في حالة هلعٍ وذعرٍ شديدين؛ لأنّ وحشاً بحريّاً ضخماً كان يتوجّه نحوها، ويُمَنّي نفسَهُ المتوحّشةَ الجشعةَ، بافتراسها في أقرب وقت.

وبلمحةٍ سريعةٍ هَبَطَ البطلُ برسيوسُ من الجوّ، وبادرَ الفتاةَ بالكلام، تلك الّتي عَرَفَها فيما بعد باسم: أندروميدا. ولكنّها عوضاً أن تطمئنّ إليه، وتُوعَدَ بالخلاص من التّنّين حين كلّمها، تضاعف الذّعر في نفسها، لأنّها لم ترَ شخصاً معيّناً يوجّه إليها الكلام؛ بسبب قبّعة الإخفاء الّتي كان يعتمرها على رأسه، فكانت تُسائل نفسها بقلق: من أين تُرى يأتيها هذا الكلام؟ فشعر باضطرابها وخوفها الشّديدين؛ لأنّه أدركَ أنّها تجهلُ مصدرَ الكلام، بالإضافة إلى اندفاع التّنّين نحوها!. لذلك خلعَ برسيوسُ طاقيّةَ الإخفاء عن رأسه فوراً، وجلس فوق الصّخرة، ولمّا شاهدَتْهُ أندروميدا، وهي تعاني ما تعاني من وطأة الوحش! خفّت آلامُها رويداً رويداً، ولاسيّما حين شاهدته بارزاً بقامته المديدة، وشعره الأشقر الطّويل، وعينيه الزّرقاوين السّاحرتين، ووجهه المبتسم المشرق، والخلاصةُ: لقد بدَا لَهَا أجملَ شابٌ في العالم!.

عندئذ عادت إليها الرّوح برؤيته، وصرخت من أعماقها مستغيثةً به، مادّةً ذراعيها نحوه، وطالبةً النّجدةَ منه، وقائلةً له: «أنقذني أيّها الشّابّ الماجد، أرجوكَ أن تنقذَني!».

فأسرع برسيوسُ الشّجاعُ لتلبية ندائها، فاستلّ سيفَه المرهفَ من غمده، وقطّع القيودَ الّتي تكبّلها، ثمّ أنهضها لتجلس فوق الصّخرة.

في هذا الوقت الحرج، كان الوحش يسبح متّجهاً نحوها، ويضرب الماءَ بذيله القبيح، فاغراً فكّيه الواسعين، ومصمّماً أن لا يفتك بالفتاة، وببرسيوس فَحَسْبُ، بل يودّ ابتلاع تلك الصّخرة الضّخمة، الّتي يجلسان عليها أيضاً! إنّهُ وحشٌ شنيع الهيئة، ومخيفٌ حقاً لكلّ من يصادفه. لكنَّ رعبَ برسيوسَ منه، لا يعادل أبداً نصف الرّعب المسبِّبِ عن رُعْبِه من الجورجونات، ولا سيما ميدوزا. وحينما كان هذا التّنين يتابع سباحته، مبحراً باندفاعٍ إلى الشّاطئ، قاصداً الفتك السّريع بكل من يصادفه، أخرج برسيوسُ رأسَ ميدوزا المميتَ من جرابه، وعندما شاهد التّنينُ المتجبّرُ الرّأسَ المؤذيَ، صُعقَ من هول المفاجأة، فتوقّف قليلاً، ثم تحوّل إلى حجر.

ويَرْوِيْ لنا كلُّ من عبر المنطقة البحريّة، أنّ ذلك التّنين المتحجّر، لا يزال يُرَى ماثلاً، في ذلك الموضع نفسه حتّى اليوم.

وبعد ذلك أعاد برسيوس رأسَ ميدوزا الأسطوريَّ إلى جرابه، ثمّ تحوّل ليتابع حديثه مع هذه الفتاة، الّتي سحرته بجمالها الأخّاذ، وسلبت لُبّهُ، فهو قد أحبّها لأوّل وهلة، وهي بدورها روت له قصّةَ تقييدها على الشّاطئ، وقالت له في الحال: «إنّ اسمها أندرميدا، وهي ابنة ملك هذه البلاد، وإنّ أمَّها الملكةَ رائعةُ الجمالِ، وهي معتزّة بهذا الجمالِ كثيراً، لذلك كانت تنــزل كلَّ يومٍ إلى شاطئ البحر، لتتأمّل صورتها في صفحة الماء الصّافي.

وفي يومٍ من الأيّام تباهت بجمالها، الّذي رأته يفوق كلَّ جمالٍ في العالم، حتّى إنّها ادّعتْ بأن الحوريّات اللّواتي يَعشْنَ في البحر، لَسْنَ وسيمات أبداً بمقدارِ وَسَامَتِهَا. ولما وصل هذا الزّعم إلى أسماع الحوريّات، غضبْنَ غضباً شديداً منها، فَطَلَبْنَ من الإله نبتون العظيم، ملك البحر، والمهيمن عليه، معاقبة هذه الملكة المتكبّرة، والمغرورة بجمالها!.

وهكذا فإنّ الإله نبتون المنتصرَ لحوريّاته، أرسل هذا الوحش البحريّ، وسلّطه على مملكة الملكِ: والدي، انتقاماً من أميّ، فأخذ يحطّم السّفنَ جميعَها، ويفتك بقطعان ماشيته على طول الشّاطئ، ويهدم أكواخ الصّيّادين هناك. فتضايق سكّان المنطقة من هذا التّخريب المُتعمَّد، وحاروا في أمرهم، وأخيراً اضطرّوا أن يرسلوا وفداً من كبرائهم، إلى الكاهنة بيثيا، في معبد دلفي ليستشيروها، في حلّ هذه المعضلة المستحكمة، الّتي حلّت في ربوعهم. فأجابتهم الكاهنة بقولها: «إنّ هناك طريقةً واحدةً لإنقاذ بلادهم، وتخليصها من التّدمير، ألا وهي: تقدمةُ ابنة الملكِ المدعوّة: أندروميدا إلى الوحش الهائج ليلتهمها، فآنذاك يكفّ عن الإضرار بهم،

وبلادهم».

ولكنّ الملك والملكة كانا يحبّان ابنتهما الوحيدة، حبّاً جمّاً، يفوق العبادة، لذلك رفضا رفضاً قاطعاً فتوى الكاهنة بيثيا، بتقديمها ضحيّةً لهذا الوحش البغيض، المسلّط عليهما، وعلى شعبهما، وقد استمرّا في رفضهما زمناً طويلاً. ولكن الوحشَ الضّاريَ أغضبه هذا الرّفضُ، فعاث في البلاد فساداً، وتخريباً يوماً بعد يوم، وهدّد جميع سكان المنطقة، بأنّه سوف لا يكتفي بتخريب المزارع فقط، بل سيخرّب المدنَ أيضاً، فاضطرّوا مكرهين أن يجبروا والدي: الملكَ، ووالدتي: الملكةَ، على تَسْلِيْمِي له لأكون ضحيّةً من أجل شعبي، ولينقذوا البلادَ من شرّه المستطير. وهكذا فلا تتعجّبْ أيّها الأمير السّعيد، أن تراني الآن مقيّدةً بهذه الصّخرة، على هذا الشّاطئ، ولَقد تُركْتُ وحيدةً! وجرى ما جرى، لكي يمزّقني هذا الوحش الهائل، بفكّيه الواسعين وأنيابه الحادّة!».

وبعد سماع برسيوس هذه القصّة المؤلمة، المثيرة للعواطف، تأثّر تأثُّراً شديداً، وحزن لما أصاب أندروميدا من هلَعٍ وخوفٍ!. وبينما كان مسترسلاً معها في الكلام، أقبلَ أبوها الملك، وأمُّها الملكة، وجمهورٌ غفيرٌ من النّاس المتفانين في حبّ الأسرة الملكيّة، منحدرين إلى شاطئ البحر، وهم يبكون وينتحبون، وينتفون شعورَهم، ويمزّقون ثيابَهم، لظنّهم باستشهاد أندروميدا، الّتي كانت معبودةَ النّاس، ولاعتقادهم اعتقاداً جازماً، أنّ الوحش المسلّط عليهم في ذلك الحين، يكون قد أجهز على فريسته وقَطّعها إرْباً إرْباً، والتهمَ جسدَها الغضَّ التهاماً. ويالَدَهشتهم حينما شاهدوها على قيد الحياة، وهي على خير ما يرامُ، تنعم بصحبة هذا الشّاب الوسيم!. فسجدوا للآلهة شاكرين، وعلموا أنّ عنايتهم، قد هيّأت لها هذا البطل الشّجاع، لإنقاذها في الوقت المناسب. وبرؤيتهم هذا المشهدَ البهيجَ، الّذي أبرزها حيّةً تُرْزَقُ، ما كان منهم إلاّ أنْ وقفوا بجانبها مهلّلين، مغتبطين بسلامتها، وهاتفين هتافاتٍ عاليةً للأمير برسيوس بالنّصر، واطّرادِ التّقدّمِ والنّجاحِ!.

أمّا برسيوس فكان أشدَّ فرحاً منهمُ جميعاً، لاستمتاعه بجمال أندروميدا، وحسن طلعتها البهيّة، ورقّتها، وكمال أدبها، وحديثها العذب. ولكنّه بالرّغم من روعة هذا الموقف وسروره به، لم ينسَ الغرضَ الأساسيَّ من مغامراتِه الجريئة، ألا وهو: حصولُهُ على رأس ميدوزا، الذي لم تكتمل فصوله بعد، ولم يفعل أفعالَه الحاسمة!.

ولّما سأله الملك –بعد شكرِه الجزيلِ له– ما المكافأةُ التي يبتغيها، بعد إنقاذ ابنته من الموت

المحقّق؟ أجابه فوراً: «إنّ مطلبيَ الوحيدَ -أيّها المليك المعظّم- أن تتكرّم بالموافقة على زواج ابنتكم منّي!».

هذا الجوابُ أبهجَ الملكَ، ووقع على قلبه برداً وسلاماً. لذلك كانت موافقته فوريّةً. وبعد مرور سبعة أيّامٍ اقترن برسيوس بأندروميدا، وأقيم حفل زواجٍ بهذه المناسبة السّعيدة، وكان جميع الحاضرين محتفلينَ بالعرس بملءِ مشاعرهم، ومَغمورينَ بالفرح والسّعادة والسّرور. وبروح الحبّ، وذروة التّوافق تمتّع العروسان بقضاء شهرِ عسلٍ رائعٍ في بلاد النّخيل، والأهرامات، وعلى شواطئ النّيل العظيم. ومن ساحل البحر الجميل، إلى الجبال الشّمّاءِ في الدّاخل، لم يلهج القومُ إطلاقاً إلاّ بشجاعة برسيوس الفائقة، وجمال أندروميدا النّادر.

٧- الإنقاذ في الوقت المناسب

إنّ برسيوس ما نَسيَ أمّه الحنون داناي قطّ، طوالَ مغامراته. فما كان منه الآن إلاّ أن أبحر بسفينة جميلة، في أحد أيّام الصّيف إلى موطنه، الذي ترعرع فيه، لأنّ الخُفّين السّحريين، اللّذَيْنِ منحه إياهما الإله مركوري، لم يكن بمقدوريهما حمله هو وزوجته في أعالي الهواء، الّذي اعتاد أن يشقّه في مغامراته الكثيرة السّابقة. وبعد طول إبحارٍ رست سفينته في الموضع ذاته، الّذي طُرِحَ فيه الصّندوقُ الخشبيُّ على الشاطئ. ومن هناك مشى برسيوس، وزوجته على اليابسة، خلال الحقول النّضرة باتّجاه مدينته، الّتي أحبّها.

ومنذ أيّام سفره الطّويل، للحصول على رأس ميدوزا؛ فإنّ حاكمَ تلك البلاد لم يكفَّ عن محاولاته، لإجبار أمّه داناي أن تصبح زوجتَه بالقُوّة. ولكنّ الأمّ داناي لم تصغي إليه مطلقاً، ولم تكترث به.

ومن أساليبه الخبيثة اللّجوءُ إلى التّوسُّلِ طوراً، والتّهديد والوعيد تارةً أخرى. ولكنّه كلّما أمعن في أساليبه الماكرة المتعدّدة أبغضته الأمّ، ونفرت منه نفوراً شديداً.

وأخيراً عندما وجد أنْ ليس بإمكانه، أن يقنعها أن تنصاع لإرادته، وأن تصبح بحوزته، وتحت وصايته، صرّح علناً أنّه سيقتلها شرَّ قتلة.



وفي ذلك الصّباح ذاته، اندفع من قصره غاضباً شاهراً سيفه بيده، مصمّماً أن يرغمها على الخضوع له بقوّة السّلاح. وقد صادف ذلك عودة برسيوس، وأندروميدا إلى المدينة لملاقاة الأمّ، الّتي كانت قد هربت للتّوّ إلى معبد جوبيتر –ولم تكن قد علمت بمجيء برسيوس– حين كان الملكُ يلاحقها، وينوي الشرَّ لها.

وتجاه هذه الوحشيّة المفرطة، وهذا الموقف المهدِّد لها بالموت السّريع، كانت داناي مرتعبةً حقّاً! ولم يكن يعصمها من هذا الهجوم الإجراميّ، إلاّ استجارتُها بمعبد الإله جوبيتر، الّذي اندفعت باللّجوء إليه؛ لأنّه كان الملاذَ الوحيدَ، الذي يحميها من بطش ذلك الملك المعتدي، في غياب ابنها، لأنّ قانون ذلك البلد لا يسمح حتّى للملك، أن يؤذيَ أيّ شخصٍ يلجأ إلى محراب جوبيتر.

وأمّا من ناحية برسيوس، فحينما شاهد الملك يندفع وراء أمّه كالمجنون، يريد الفتك بها، عندما كانت تحاول أن تلجأ إلى الهيكل، تصدّى له بقوّة، وأمره بالتّوقّف، ولكنّ الملك الهائج لم يأبه له، بل سدّد إليه ضربةً بحدّ سيفه، فما كان من برسيوس البطل إلاّ أن تحاشاها بترسه الصّقيل، فاتّقاها فوراً. وبسرعة البرق أخرج رأسَ ميدوزا من جرابه السّحريّ، وصاح بالملك المُتفرْعِنِ على امرأةٍ لاجئة إلى بلاده –لاحولَ لها ولا طَوْلَ– صيحةً مدوّيةً: «إنّي قد وعدتُك أيّها الملك الشّرير الظّالم، أن أقدّم لك هديّةً تليق بك، وها هي بيديَّ الآن». ولمّا نظر الملك إلى رأس ميدوزا، تحوّل فوراً إلى حجر، حينَ كان يرفع سيفه بنظرته الغاضبة المخيفة!.

وسُرّ قاطنو البلاد سروراً عظيماً، بتحوّل ملكهم إلى حجر. وكانوا جميعاً يبغضونه بغضاً شديداً، فَهُمْ منذ زمنٍ طويلٍ، كانوا يرزحون تحت حكمه المتّصفِ بسوء السّيرة، والاستبداد، والقسوة المتناهية مع جميع النّاس، يضاف إلى ذلك انحلاله الأخلاقيّ.

ولكنّ فرحتَهم الرّئيسةَ كانت، بعودة برسيوس إلى بلده الثّاني، ولاسيّما أنّه يصحب زوجةً جميلةً وذكيّةً وحكيمةً، هي الأميرة أندروميدا. وبعد سقوط الملك متحجّراً، تداولوا كثيراً بأمر خلافته بصورةٍ جدّية، وأخيراً قرّروا أن يُنَصّبوا برسيوسَ ملكاً ليحكم بلدَهم؛ وعرضوا عليه الأمرَ بالإجماع، فما كان منه إلاّ أن شكرهم على حسنِ ظنونهم به، وكبيرِ ثقتهم، بإحكام إدارته؛ ولكنّه قال لهم مصرِّحاً: «إنّه سيحكمهم يوماً واحداً فقط؛ وبعد ذلك سيتوّج عليهم ملكاً آخر جديراً بثقته، وثقتهم».

وأمّا من جهّته فسوف يغادر بلدهم، ويرجع بأمّه إلى وطنها الحبيب، بعد أن عانت ما عانت من هذا الملك الطّاغية المتجبّر. وهكذا استقرّ رأيه على السّفر كما ذكرنا، والعودة بأمّه إلى أهلها في أرغوس البعيدة.

وقد نفّذ تصميمه أخيراً بالإبحار في اليوم التّالي، بعد أن سَلَّمَ المملكةَ إلى الرّجل الرّحيم، الّذي أنقذه هو وأمّه من الغرق، والموتِ المحتّم، في شاطئ البحر، واستقبلهما مدّةً طويلةً أثناء محنتهما. وبعدئذٍ ركب سفينةً خاصّةً بصحبة زوجته المخلصة أندروميدا، وأمّه الحنون داناي، وعبروا البحر قاصدين أرغوس مدينتهم العزيزة.

٨- القرص القاتل

عندما وصل إلى سمع ملك أرغوس أبي داناي، المتقدّم في السّنّ، أنّ سفينةً مقبلةً إلى بلاده عَبْرَ البحر، تحملُ على ظهرها ابنته داناي، وابنَها الشّابَّ برسيوسَ، وزوجته الشّابّة أندروميدا، أصابه غمٌّ شديدٌ لأنّه تذكّر نبوءة بيثيا سادنة معبد دلفي، بموته على يد حفيده برسيوس. لذلك غادر قصره متعجّلاً، قبل أن يرى السّفينة، وفرَّ مذعوراً خارج المملكة، قائلاً في نفسه: «إذا احتجبتُ عن وجه حفيدي؛ فإنّني أستطيع أن أنجوَ من انتقامه!». مع العلم أنّ برسيوس لم يكن راغباً في إيذائه، أو حتّى الإساءة إليه، والدّليل على ذلك أنّ حزناً شديداً قد أصابه، حين علم أنّ جدّه المسكين قد فرّ مرعوباً من مملكته، بالرّغم من كبر سنّه، دون أن يُعْلِمَ أحداً إلى أيِّ مكانٍ يتّجه!.

أمّا مواطنو أرغوس، فقد رحّبوا بعودة داناي إلى موطنها القديم، وكانوا حزانى على ما أصابها من محنٍ، فخورين بابنها الشّابِّ الوسيمِ برسيوسَ، حتّى إنّهم رجوه أن يقيم في مدينتهم، وبين ظهرانيهم، بحيث يتمكّن بمضيّ الوقت أن يرث العرش ثمّ، يُولّى ملكاً عليهم.

وحدث بعد ذلك بقليلٍ أنّ ملكاً في بلادٍ مجاورةٍ، ليست بعيدةً كثيراً عن أرغوس، أقام ألعابه الرّياضيّة الأولمبيّة المعتادة، وأشرف عليها بنفسه، وقرّر أن يمنح الجوائز، إلى العدّائين الماهرين، والوثّابين المشهورين، ورُماة الأقراصِ المتمرّسين.

وعند سماع برسيوس بهذا النّبأ، اتّجه فوراً إلى تلك البلاد، ليدليَ بدلوه بين الدّلاء، وليختبر مدى قوّته، بصحبة شباب المنطقة أنفسهم، لأنّه عَلِمَ عِلْمَ اليقين، أنّه إن استطاعَ الحصولَ على

الجائزة الأولى، فإنّ اسمه سيذاع في العالم كلّه.

وبالرّغم من أنّ ذلك الأمير الشّابّ، حقّقَ أعظم بطولةٍ في تاريخ الإغريق، حين حصل على رأس ميدوزا، الّذي لم يجرؤْ أحدٌ من الأبطال أن يفكّر فيه. إلاّ أنّ شعبَ أرغوس لم يعرف شيئاً عن تلك البطولة!. ولكنّهم حينما شاهدوه وجهاً لوجه، أعجبوا بقامته المديدة، وهيئته النّبيلة، ومهارته الفائقة في معالجة الأمور الهامّة، ولياقته البدنيّة، لذلك توقّعوا بسبب رشاقته، وجماله الجسميّ، أن يحصدَ في مجال المسابقات الرّياضيّة، الجوائزَ الثّمينةَ الأولى.

وفي اليوم المخصّص للبطولة، أراد أن يستعرض في حلبة المنافسة، قوّته الخارقة في رَمْيِهِ القُرصَ، بالرّغم من ثِقَله الكبير. وفي الوقت المحدّد ألقاهُ بعزمٍ ثابت، وبتسديدٍ محكم، إلى مسافةٍ بعيدة، فاقت كلّ محاولاته السّابقة، ولكنْ لسوء الحظّ، فإنّ عاصفةً شديدةً هبّت في تلك اللّحظات، فحوّلته عن مساره الطّبيعيّ، فسقط بين جمهور المشاهدين، وأصاب ذلك الغريب، الّذي كان يجلس بينهم، فرفع يديه بسرعة في الهواء، ثمّ هوى مطروحاً على الأرض، فاقدَ القوى. وأسرع برسيوس لنجدته، وإسعافه، وإنقاذه من هول الصّدمة، ولكنّه للأسف الشّديد، وَجَدَهُ قد فارق الحياة!.

ولم يكن ذلك الرّجل الغريب المصاب إلاّ والدُ داناي، وجدّ برسيوس، ملك أرغوس الطّاعن في السّن.

أمام هذا المشهد الدّراميّ المفجع، استحوذ الحزن الشّديد على الأميرِ برسيوسَ، فحاول بشتّى الوسائل أن يمجّد ذكرى جَدّه، الملك التّعيس الرّاحل، الّذي تحقّقت فيه نبوءة الكاهنة بيثيا، ولا مفرّ من القدر!.

وهكذا بوفاة الجدّ أصبحت مملكة أرغوس من حقّ برسيوس الشّرعيّ —حسب قانون الوراثة في ذلك الزّمان– ولكنّه أبى أن يحكمها بسبب تلك المأساة، وكان سعيداً جدّاً أن يستبدلها بحكم مدينتين - ليستا بعيدتين عنها، تدعيان: مكيني وتيرنس – مع ملكٍ آخرَ. وبهذه المبادلة حقّق سعادته، هو وزوجته الملكة أندروميدا سنواتٍ عديدةً.



قصّةُ أتلانتا

١- دبّة الجبل

في بلدٍ مشمسٍ في بلاد اليونان يدعى: أركاديا، عاش ملكٌ وملكةٌ، لم يُرزَقا أولاداً بعدَ زواجهما مباشرةً، فتمنّيا من أعماقهما، أن يولد لهما صبيٌّ يُفَرِّحُ قلبيهما الكئيبين. ويرثُ هذا الولدُ عرشَ أركاديا، بعد وفاة أبيه الملك. ومن أجل تحقيق أمنيتهما، صلّيا وقتاً طويلاً، للإله جوبيترَ العظيمِ، القاطن في الغيوم، على قمّة جبل البرناس. فاستجيبتْ صلاتُهما الحارّة، فولد لهما مولودٌ جميلٌ، إلاّ أنّه كان مخيّباً لأمليهما؛ إذ كان طفلةً وليس طفلاً.

فصبَّ الملكُ جَمَّ غضبِهِ، على الإله جوبيتر، وبطانته، وانتقدهم علناً، وقال بعد ذلك: «لأيّ شيءٍ تصلحُ البنتُ؟» فمنَ المؤكّد أنّه ليس باستطاعتها، أن تفعل شيئاً جيّداً سوى الغناء، وغزل الصّوف، وإنفاق المال دون حساب. أمّا الولد فباستطاعته أن يفعل كلَّ شيءٍ، فيتعلّم ركوبَ الخيل، وممارسةَ الصّيد، والتّدرّبَ على استعمال السّلاح، استعداداً للحروب، وفي المستقبل يرثُ وليُّ العرشِ والدَهُ، ويتوّج ملكاً على أركاديا، أمّا هذه الفتاةُ القاصرُ فلن تصلُحَ أن تكون ملكاً أبداً.

لذلك استدعى أحدَ رجاله الأشدّاء، وأمره أن يحمل هذه الطّفلة، إلى مكانٍ جبليٍّ بعيد، حيث لا توجد سوى الصّخور الصمّاء الدّاكنة، والغابات الكثيفة الموحشة، الّتي ينعق فيها البومُ والغرابُ، ثمّ يلقيها هناك لتفترسها الدّبة المتوحّشة، الّتي تعيش عادةً في تلك الغابات، وكهوف الجبال. ورأى برأيه السّقيم، أنّ هذا التّصرّفَ هو أسهل طريقة للتّخلّص نهائيّاً، من هذه المخلوقة

العديمة النّفع.

فامتثل هذا الرّجل المكلّف بأمر الملك، فحمل الطّفلةَ بين ذراعيه، متسلّقاً الجبلَ، متحمّلاً المشاقَّ، متّجهاً إلى مسافة قصيّة عن العمران؛ حيث وضعها أخيراً، في مضجع طحلبيّ، في ظلّ صخرة ضخمة. وحين أزمع على مغادرة المكان،مدّت له الطّفلة ذراعيها النّديّتين، وابتسمت له ابتسامةً بريئةً. لكنّ هذا الرّجل المأمور من قبل الملك بتنفيذ المهمّة، والمغلوب على أمره، تركها هناك، وانصرف مسرعاً، سادّاً مغاليق قلبه العاطفيّة. وكيف له أن يعصَى أمر الملك؟!.

وهكذا ظلّت الطّفلة مكانَها طوال اللّيل والنّهار، مضطجعةً على الطّحلب، تنتحب لفقدها حضنَ الأمّ. وفي هذا الجبل النّائي، لم تسمع صراخَها الطّفوليَّ، سوى الطّيور المغرّدة على الأغصان، وبعض الفراشات الملوّنة المتجوّلة بحرّيّة هنا وهناك.

ولقد تعرَّضَتْ بهذا الوضع المأساوي، للضّعف والوهن؛ بينما كانت في هذه السّنّ المبكّرة، بحاجة ماسّة إلى العناية الدّائمة، وإلى حنان أمّها، وحليب ثدييها. وهكذا بسبب فقدها كلّ شيء، أخذت تبكي بكاءً شديداً، وتُحَرِّكُ رأسَها الصّغيرَ من جانب إلى آخرَ. حينئذٍ كان من المتوقّع: أن يُكْتَبَ لها الموتُ المحتّمُ، إنْ لم يمدّ لها أحدٌ يدَ المساعدة.

ولحسن حظّها، قبل أن تَحُلَّ الظّلمة، في مساء اليوم الثّاني، خرجت دبّةٌ من وجارها؛ تبحث عن جرائها الّتي فقدتْها —وتُرَجّحُ سَرِقَتَهَا من قبَلِ بعض الصّيادين، في اليوم نفسه- فسمعتْ هذه الدُّبّةُ الثّكلى، صراخَ الطّفلة، فقالت في نفسها متعجّبةً: «إنّني لست الوحيدةَ الّتي فقدتُ جرائي!». ولّما شاهدتْ هذه الطّفلةَ متمدّدةً على الطّحلب، بلا نصير ولا معين، رثت لحالها، واقتربت منها ناظرةً إليها بعين العطف!. وهنا يتبادر إلى ذهننا سؤالٌ: «أمِنَ الممكنِ أنّ هذه الدّبّةَ الّتي حُرِمَتْ من جرائها، وأصبحت ثكلى لفقدها، قد استعاضت عنها بطفلة بريئة جميلة، ذات يدين بيضاوين سمينتين، وذات سلسلة ذهبيّة برّاقة، تحيط بعنقها؟»».

ولكنّ اللّبيبَ اللّبيبَ يعلم أنّ هذه الدّبّة الأمّ، لا تدرك ذلك! ولكنْ من المحتمل؛ أنّها نظرت بعينيها السّوداوين اللاّمعتين، إلى هذه الطّفلة الرّائعة الوجه، فَهَمْهَمَتْ لها بنعومة ورقّة، كما تُهَمْهِمُ لجرائها، ولَحَسَتْ وجهَها الغضَّ بلسانها الدّافئ، واضَّجَعَتْ قربَها، كما كانت تفعل مع صغارها حين ترضعها.

أمّا الطّفلةُ الرضيعةُ فكانت من الصِّغَرِ بحيث لا تخاف، ولا ترتعبُ من الدّبّة المتوحّشة، لذلك

عانَقَتْها معانقةً حميمةً؛ لأنّها شعرت أنّها خيرُ صديقةٍ لها، تعطفُ عليها في محنتها القاسية. وهكذا بعد أن شعرت بالشِّبَعِ، والحنانِ، والاطمئنان، استسلمت لسلطان النّوم استسلاماً تامّاً. أمّا الدّبّة الّتي أصبحت بمثابة أمّها، فقد خافت عليها من الاعتداء، فحرستها حتّى الصّباح الباكر، ثمّ ذهبت إلى أطراف الجبل لتبحث عن الغذاء.

وفي المساء قبل حلول الظّلام، أتتِ الدّبّة من جديد، لتحملَ الطّفلةَ إلى جُحْرِها، الّذي يقع تحت صخرة، لها سقفٌ واق، تحيط به أشجارُ الكرمة، والأزهار البرّيّة. ودأبت الدّبّة على المجيء كلَّ يومٍ من الأيّام إلى جُحْرِها، لتغذّيَ الطّفلةَ بحليبها، وتداعبَها بملء الحبّ، كما تداعب جراءَها الصّغار. وتسرّب خبرُ وجودِ الطّفلةِ في كنَفِ الدّبّة الأمّ، إلى أسماع الدّببة في ذلك الجُحْر من الجبل، فتوافدتْ جموعُها، زرافاتٍ ووحداناً، لمشاهدة الجروة البشريّة العجيبة، الوافدة إلى ذلك المكان، ولم يخطر ببال أيِّ دبٍّ أو دبّة، إيذاءَها أو إزعاجَها إطلاقاً. وهكذا بفضل عناية الدُّبّة الأمّ، نمت الطّفلة بسرعةٍ فائقة، وأخذت تزداد قوّةً، ولم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتّى استطاعت، أن تمشيَ بين الأشجارِ الكثيفةِ، والصّخورِ الصّماء، والعلّيقِ الشّائك، الّذي ينبت حول سفح ذلك الجبل الشّامخ. لكنَّ أمَّها الدّبّةَ، لم تسمحْ لها أن تشرد بعيداً عن جُحْرِها الموجود تحت الصّخرةِ؛ حيث تتكاثر حَفَناتُ الكروم، والأزهار البرّيّة.

وبعد مرورِ شهورٍ كثيرةٍ تسلّق صيّادون الجبلَ، باحثين عن صيدٍ ثمين. وبمحض المصادفة، جذب أحدهم في هذا المكان، أغصانَ الكرمة النّامية حول جُحْر الدّبّة، وكانت دهشتُهُ عظيمةً، حينما شاهد طفلةً جميلةً، مستلقيةً على العشب تحتها، تلهو بالأزهارِ البرّيّةِ الملوّنة، الّتي تكاثفت قربَها. وعندما فوجئت هذه الطّفلة بوجود الصّيّاد، قفزت برجليها القويّتين، وطفرت كالغزال المذعورِ، تُسابِقُ الرّيح. فتعرّضتْ لمطاردةٍ مثيرةٍ بين الأشجارِ الكثيفةِ، والصّخورِ البارزةِ، ولَقَدْ تعاون الصّيادون على محاصرتها، لإلقاءِ القبض عليها. ومع أنّها كانت تفوقهم جميعاً في الجري، فقد أطبق عليها اثنا عشرَ صيّاداً، من جميع الجهات، وهكذا لم يمضِ طويلٌ وقتٍ حتّى أمسكوها، وجعلوها في حوزتهم، كما ذكرنا.

ونظراً لسعادتهم الغامرةِ، بأسرها لم يَسْعَوا للحصول على صيدٍ آخرَ، كما كانوا يفعلون من قبلُ، لأنّهم اقتنعوا بما حصلوا عليه، ولم يكترثوا بعد ذلك بشيءٍ آخر، فالعثورُ عليها، في رأيهم، لا تعادله كنوزٌ ثمينةٌ.

ونعود لتصوير مشهد القبض عليها فنقول: «إنّها لم تستسلمْ بسهولة، فقد عاركَتْهُمْ عراكاً شديداً، وكافحت من أجل حرّيتها، بدُرْبةٍ خارقة، باذلةً أقصى جهودِها، للتّخلّص منهم، ولكنّ كثرتَهم جعلتْها في الأسر».

فحملها هؤلاء الصّيادون المحترفون، إلى أسفل الجبل، وأخذوها معهم بموكب النّصر إلى بيتهم، في الجانب الآخر من تلك الغابة الشّاسعة، فبكت بكاءً مرّاً، زمناً طويلاً، حتّى إنّ حزنها بلغَ حدَّ الكآبة، لفقدها أمَّها الدُّبّةَ الّتي ربّتها، ورعتْها بمحبّة وإخلاص. إلاّ أنّ هؤلاء الصّيادين أدركوا تماماً عمق أزْمتها النّفسيّة، فعوّضُوها عمّا فقدته من حنانٍ وعنايةٍ، ودَلّلوها دلالَ المحبّين، ومنحوها كلَّ ما هو ثمينٌ، ورائعٌ وجميلٌ، في هذه الغابة الممتدّة الأطرافِ لتلهوَ به، وتستمتعَ بجمالياته، ويضاف إلى ذلك، اللّطْفُ في المعاملة، واستعمالُ أسلوب اللّين، والتّرغيب بالصّواب، والتّوجيه السَّديد. وهكذا لم يمضِ طويلُ وقتٍ، حتّى ألِفَتِ الجوَّ الجديدَ، وخاصّةً بعد أن أخذت تتدرّج، في مدارج النّطق والكلام.

وقد أطلق عليها هؤلاء الصّيّادون، الحاذقونَ اسمَ: أتلانتا. ولمّا زادت في السّنّ، وحُسْنِ التّفكير، زوّدوها بقوسٍ وجُعبةِ سهامٍ، وسهامٍ مسنونة، وعلّموها الرّمايةَ كلَّ يومٍ، وأعطوها رمحاً نافذاً لَمّاعاً، وبيّنوا لها كيف تحملُهُ وتستعملُه، وتسدّدُهُ إلى الطّريدة، وكيف تقذف سهامه الصّائبة إلى عدوٍّ لدود. وقد دأبوا على اصطحابها معهم، عندما يذهبون إلى الصّيد، فتعوّدتْ على صيد الطّرائد وقَنْصِها، إذْ لَمْ يكنْ يَسُرُّها شيءٌ مثل الجَوَلانِ، في الغابات، والعَدْوِ السّريعِ خلف غزالٍ مُسْرِعٍ، أو ما يشبهه من الحيوانات البَرّيّة.

وبفعل رَكْضِها الدّائمِ، وراءَ الطّرائد أصبحت قدماها سريعتيِ الجَرْيِ، حتّى تمكّنَتْ أن تتفوّقَ، على أكثرِ العدّائين سرعةً، وبسبب ممارستِها المستمرّةِ لهذه الهواية، أصبحت ذراعاها قويّتين، وأضحت عيناها حادّتيِ النّظرِ، ومضبوطتيِ الرّؤية؛ بحيث لا تخطئُ الهدفَ، عندما كانت تسدّدُ رُمحَها النّافذَ، وسهامَها الحادّة إلى طرائدها. وهكذا في هذه البيئة الطّبيعيّة القاسية، ترعرعت بسرعة عجيبة. وقد ساعدها على التّفوّق في هذا الصّعيد، أنّها كانت فارعةَ الطّول، رشيقةَ القدِّ، مهيّأةً للتّصدّي، والطّعن في الصّدورِ والنّحورِ. فذاع صيتُها، ولمعَ نجمُها، في جميع أنحاء أركاديا، حتّى أطلق عليها النّاسُ جميعاً: الصّيادةَ الفذّةَ، ذاتَ القدمين السّريعتين.

٢- الجمرة في الموقد

وتتمّةً لِمَا أوردناهُ من أخبار: أتلانتا سابقاً، نذكر أنّه ليس ببعيدٍ عن إقليم أركاديا، تقع مدينةٌ صغيرةٌ تُدعى: كاليدون، وهي تنبسطُ وَسَطَ حقولِ القمحِ الخصبةِ، والكرومِ المثمرة. وخلْفَ هذه الكروم توجد غابةٌ كثيفةٌ عميقةٌ، تعيش فيها الوحوش المفترسة. وأمّا ملك كاليدونَ فيدعى: أوينيوس، وكان يسكن في قصره الأبيض مع زوجته ألثيا، وأولاده الذّكور والإناث.

ولكنّ مملكةَ كاليدون كانت صغيرةَ المساحة؛ بحيث لا يتعبُ الحاكم في حكمها، فقضى مَلِكُها المذكورُ معظمَ أوقاته في الصّيد، وحراثة الأرض، والعنايةِ التّامّةِ بالكروم. ولقد كانت أيّامُه سعيدةً، لكونه يتمتّع بالشّجاعة، والإقدام، اللّذَيْن خوّلاه أن يصبح صديقاً لجميع الأبطال العظماء، في ذلك الزّمن البطوليّ.

ويُذْكَرُ أنّ ابنتي الملكِ أوينيوسَ، وزوجَتَه الملكةَ ألثيا، كنّ يَفُقْنَ في زمنهنّ جميعَ نساء العالم جمالاً ورقّةً، وأنّ واحدةً من ابنتيه: كانت زوجةَ البطلِ العظيم هرقل، الذّائعِ الصّيت، الّذي اجترح أعمالاً بطوليّةً كثيرةً معجزةً، يذكرها التّاريخُ له، وحرّر البطلَ بروميثيوس الصّابَر من قيوده!.

والحقيقة إنّ أولاد الملك أوينيوس، وزوجتَهُ الملكة ألثيا، كانوا نبلاءَ في سلوكهم، وأخلاقيّين في تعاملهم، وأصدقاءَ لامعين في حُبِّهِمْ، ولكنّ الابنَ الأصغرَ سنّاً منهم، المدعوّ ميليغر: كان أنبلَهم وألمَعَهم جميعاً.

ويُروى عنه أنّه حينما كان طفلاً صغيراً، لا يتجاوز عمرُهُ سبعَ السّنواتِ، تعرّض لحادث غريبٍ في قصر والده الأبيض. فقد استيقظت أمّه ألثيا في منتصف اللّيل، فرأت ناراً تشتعل في الموقد، فتعجّبتْ ممّا يحدث، ولكنّها بالرّغم من ذلك حافظتْ على هدوئها فجلستْ إلى جانب طفلها، ولاحظت ما يجري ببصرها، وأصغتْ إليه بسمعها!.

وما لبثت بعد ذلك حتّى رأت ثلاثَ نساءٍ غريبات، فارعاتِ القَوَامِ، يجلسْنَ قرب الموقد. تبدو على اثنتين منهما مُسحةٌ من الجمالِ، ولكنّهنّ كنّ عابساتِ الوجوه عامّةً.

فعلمت ألثيا حالاً أنّ هؤلاء النّسوة، اللّواتي جئن في هذا الوقت، ما هنّ إلاّ: إلهاتُ القضاء والقَدَرِ. ولقد قيل عنهنّ: «إنّهنّ يمنحن هدايا، بل حظوظاً من نوعٍ مختلفٍ عن المألوف، لكلّ

ولد يُولَدُ، ويُنْبِئن أهلَهُ، عن حياته المستقبليّة، فيما إذا كانت ستَتَّسِمُ بالسّعادة والسّرور، أو بالويلِ والثُّبور، وعظائم الأمور. وهذا ما أعلنَتْهُ إحدى هؤلاء الغريبات الثّلاث، واسمها أتروبوس، الّتي كانت أكثرَ عبوساً وقتامةَ وجهٍ من أختيها، والّتي كانت تمسك بيدها مقصّين حادّين. فقالت متسائلةً: «ترى ماذا سنمنحُ هذا الولدَ من حظٍّ؟».

أمّا أجملُهُنَّ شكلاً، وأصغرهنّ سنّاً، واسمها: كلوثو، فكانت تمسك بيدها عصا مغزل، ملفوفاً عليها خيوطُ كتّانٍ، وقد صَنَعَتْ منها خيطاً ذهبيّاً، وهي تردّدُ وتقول: «إنّني سأمنحه قلباً شجاعاً».

وأمّا ذاتُ الشّعرِ الدّاكن منهنّ، وكان اسمها: لَكْسيس، فقالت: «وأنا بدوري سَأَمْنَحُهُ طبيعةَ اللّطفِ والنّبلِ». وبعد ذلك سحبتْ لَكْسيسُ بلطفِ الخيط، الّذي غزلته كلوثو، وهي تلتفتُ إلى أتروبوسَ العابسة، قائلةً لها: «ضعي يا أختي المِقصَّيْنِ جانباً، وأعطِي هذا الولدَ هديّتَكِ!». فأجابتْها أتروبوسُ العابسةُ: «إنّني سأعطيهِ حياةً تستمرُّ فقط، بمقدار الزّمن الّذي تحترقُ فيه هذه الحطبةُ، ثمّ تصبحُ رماداً». وما كان منها إلاّ أنْ تناولت حطبةً من أخشاب الغابة، وأشعلَتْها لتتحوّلَ إلى فحمةٍ تحترق.

وقد انتظرتِ الأخواتُ الثّلاثُ، حتّى أخذت الحطبةُ بالاحتراق، فغادَرْنَ القصرَ الأبيض. وبعد ذهابهنَّ مباشرةً، قفزت الأمّ أَلْثيا سريعاً لتنظرَ ماذا فعلْنَ، فلم تَرَ في المكان شيئاً، سوى الموقد والحطبة الّتي تحترق فيه، فما كان منها إلاّ أنْ صبّت الماءَ على تلك الفحمة، حتّى خمدت كلُّ شرارةٍ فيها، فرفعتْها قبل أن تترمّد، وخبّأتْها في صندوقها المتين، مع كنوزها الثّمينة، قائلةً في نفسها: «إنّ حياةَ ولدي ميليغر، لن تتعرّضَ للأذى مادامت الحطبةُ، لم يتمَّ احتراقُها».

وتوالت الأيّامُ بعد هذا الحادث الغريب، فترعرعَ الطّفلُ ميليغُر، ثمّ أصبح شابّاً جميلَ الطّلعة، لطيفَ المعشرِ، نبيلَ الأخلاق، مغرماً بالمخاطرات، وهذه الصّفاتُ العاليةُ: جعلته مشهوراً في بلاد الإغريق كلِّها. وقد تَوَّجَ حُسْنُ سلوكه وإقدامُهُ قيامَهَ بأعمالٍ جريئة مع أبطال الإغريق الآخرين، ومنها ذهابُه برحلةٍ فذّة ونادرة، عبرَ البحار للبحث عن الجزّة الذّهبيّة العجيبة. وحين عاد من مغامرته البحريّة إلى مدينته: كاليدونَ مظفّراً، أعلنَ شعبُ مدينته أجمع، أنّ ميليغرَ أجدرُ أولادِ أوينيوسَ، بخلافةِ والدِه، وتَسَلُّمِ عرشِهِ الملكيِّ.

٣- التّقدماتُ على المذابح

والآن نذكر أنّه في صيفٍ من أصياف ذلك الزّمان الغابر، كانت الكرومُ مثقلةً بعناقيد العنب، أكثرَ من أيّ وقتٍ مضى، وكانت سنابل القمح في الحقول ملأى بالحبوب، وتتكدّس أكداساً أكداساً على البيادر، بحيث لم يعرفوا ماذا يفعلون بها، وأينَ يضعونها. لذلك قال الملك أوينيوس مخاطباً شعبه: «أيها النّاس الأكارم، سنحتفل بيوم شكرٍ مخصّصٍ للآلهة، وإنّنا سنقدّم بعضَ قمحنا الجيّد، وبعض ثمارنا، وأعنابنا الممتازة، على مذابحَ ننصبها للآلهة الجبّارة المقدّسة، الّتي جعلتْ مُستَقَرَّها على قمّة جبل الأولمب بين الغيوم، والّتي بأمرها تبزغ أشعّةُ الشّمس المشرقة، وبمشيئتها نستمتعُ بالمناخ اللّطيف، وبعطفها تهبّ الرّياح الرّطبة علينا، فتسبّب الأمطار الدّافئة، الّتي تروي زروعَنا، وأشجارَنا المثمرة، وجفناتِ كرومنا. وإنّنا لا نجني العنبَ الحُلْوَ المذاقِ حقّاً، إلاّ بمعونتها، ولا نحصد الزّرعَ الوفيرَ، إلاّ بمساعدتها!».

وبعد هذا القول، ذهب الملك وشعبه إلى الكروم والحقول، في اليوم التّالي؛ ليقدّموا القرابين السَّخيّة، إلى آلهتهم المتعدّدة ممّا أُعْطُوا من خيراتٍ برضاها.

ولقد بَنَوا هنا وهناك مذابحَ من الحجارةِ والتّرابِ المُعْشبِ، وجعلوا العساليجَ والأعشابَ فوقها. وعلى هذه العساليج والأعشاب وضعوا عناقيدَ العنب، من مختلف الأنواع، وكذلك وضعوا السّنابل الملأى بالحبوب، معتقدين أنّ هذا كلَّهُ سيبهج قلوبَ الآلهة، الّتي منحتهم هذه المحاصيل والغلال الكثيرة.

وهكذا بنوا مذبحاً خاصّاً بالإلهة العظيمة: سيرسي، تلك الّتي علّمتِ النّاسَ كيف يزرعون القمحَ، وبنوا مذبحاً آخر: لباخوس إله الخمر، الّذي يُفَرِّحُ قلوبَهم، والّذي أرشدهم إلى زراعة الكرمة، ومذبحاً: لمركوري، رسولِ الآلهة، ذي القدمين المجنّحتَين، ذلكَ الّذي يوافي النّاس دائماً من الغيوم. وبنوا أيضاً باجتهادٍ مذبحاً: لأثينا، ملكةِ الحكمةِ والهواءِ المشهورة، ومذبحاً لحارس الرّياحِ الأمينِ، ومذبحاً لمانحِ الكونِ النّورَ، ومذبحاً لقائدِ مركبِ الشّمسِ العظيمِ، ومذبحاً لملك البحرِ الزّاخرِ الأمواجِ، وتوّجوه بمذبحٍ يليق بمقامِ سيّدِ الآلهة والنّاس أجمعين: جوبيتر الرّعّاد، والقادر على كلّ شيءٍ، ذلك الّذي يستقرّ مع بطانته على قمّة جبل الأولمب، ومن هناك يحكم العالم بأجمعه.

ولمّا أصبح كلُّ شيءٍ على هذه المذابح، مهيَّأً وعلى ما يرام، أعطى الملك إشارته بالشّروع، بإجراء مراسيم التّقدمات، بخشوعٍ وإجلالٍ عظيمَيْن، فلمستِ النّار، الّتي بدؤوا بإشعالها، العشبَ والأغصانَ، فالتَهَبَتْ، وشبّتْ، وعناقيدَ العنب وحبوبَ القمحِ، فاحترقتْ، وتصاعَدَ دخانُها. وعندئذٍ صرخ النّاس صراخاً عظيماً، منبعثاً من الأعماق لتعظيم الآلهة، والاحتفال بالأضاحي النّباتيّة، الجيّدة والمختارة، ثمّ رقصوا رقصاً مقدّساً متواصلاً، بسرورٍ وغبطة، زمناً طويلاً، متصوّرينَ أنّهم بأفعالهم هذه، يُصعِّدون محرقاتِهم إلى أعالي السّماء، فَيَتَحَقَّقُ شكرُهم الجزيلُ، إلى الآلهةِ المانحةِ الخيرَ لهم. ولقد خَصُّوا بالإكرام والتّبجيل: كُلاًّ من سيرسي، وباخوس، ومركوري، وبقيّة الآلهة كما ذكرنا، وعلى رأسهم جوبيترُ العظيمُ الإلهُ المتجبّرُ القهّارُ في سائر الأقطار.

وحينما انتهت التّقدماتُ المقدّسةُ، وحانَ المساءُ، ذهب النّاس إلى بيوتهم بقلوبٍ عامرةٍ بالبهجة، ومملوءةٍ بالشّكر، شاعرين أنّهم أدُّوا الواجبَ المقدّسَ، تجاه الآلهة على أتمِّ وجه، وأحسنِ صورةٍ. ولكنّهم للأسف الشّديد، رغم تضحياتهم الكثيرة؛ فإنّهم نَسَوا التّضحيةَ لواحدةٍ من الإلهات الجبّارات المؤثّرات، ألا وهي: ديانا ربّةُ الصّيد، وملكةُ الغابات، ولسوء حظوظهم، لم يقدّموا لها ولو: عنقوداً واحداً من العنبِ، أو حبّةً واحدةً من القمحِ!.

ولا شكّ أنّهم لم يقصدوا الإساءةَ إليها، أو الاستخفافَ بمكانتها الرّفيعة، ولكنّنا نقول بثقة تامّة: «إنّهم نَسَوْها فقط –قاتل جوبيترُ وأعوانُهُ النّسيانَ!– و لم تخطر على أذهانهم قطّ!».

وإنّني لا أظنّ على الإطلاق بأنّ الإلهةَ ديانا –كانت مكترثةً أبداً بالعنب اللّذيذ، أو شاغلةً بالها بالحصول على القمح الطّيّب، وحَرْقه بالنّار، ولكنّ الّذي أشعلَ غضبها، وحرّك مشاعرَها العدائيةَ ضدّهم، هو الشّعورُ بأنّها كانت منسيّةً ومهملةً تماماً، و لم تُوضعْ في قائمة الآلهة المقدّسة، أو تُذكَرْ في لائحة الآلهة، الّتي تستحقّ أن يُضَحَّى من أجلها؛ لذلك قالت هذه الإلهةُ الحاقدةُ في نفسها: «سوف أُري هؤلاء القومَ أنّني لست مزدراةً، أو محتقرةً إلى هذا الحدّ، وسوف أنتقمُ منهم انتقاماً شديداً أنسيهم به الحليب الّذي رضعوه».

ولكنْ –مهما يكن من أمر– فكلُّ شيءٍ مرّ على المضحّين للآلهة مروراً حسناً، منذ زمن التّضحيات إلى أوّل الصّيف التّالي، حتّى إنّ شعب كاليدون أخذ يضاعفُ سعادتَهُ وتفاؤلَهُ، ظانّاً أنّ محصوله في الصّيف القادم،سيكون أوفرَ ممّا مضى وانقضى.

وأراد الملك أوينيوس –بصرف النّظر عن حقوله وكرومه الخاصّة –أن يعيد إكرامَهُ للآلهة مرّةً أخرى، وسيكون هذا الإكرام من قبل الشّعب كلّه، فخاطب النّاس المجتمعين قائلاً: «إنّي أعلمكم بكلّ ثقة أنّ آلهتنا المقدّسة، تستحقّ تضحيات جديدةً، وتقدمات متواصلةً أخرى، وشكراً عظيماً لا حدودَ له، حينما ستبدأ عناقيدُ العنب بالنّضوج في هذا الصّيف أيضاً».

وبالرّغم من اهتمام الملك بالتّحضير لموسمٍ مقدّسٍ، جديدٍ من الأضاحي والتّقدمات، لكلّ الآلهة، فلم يخطر على باله التّضحية للإلهة ديانا وإكرامها. وجزاءً وفاقاً لهذا النّسيان، الّذي يُعَدّ جُرْماً كبيراً في حقّها، فإنّها سلّطت في اليوم التّالي الخنـــزيرَ البرّيَّ عليهم – وقد اشْتُهِرَ فيما بعد باسم: خنـــزير كاليدون– ذلك الحيوان الّذي يُعدّ أعتى الخنازير، وأكثرها إيذاءً وتوحّشاً، وكان غيرَ معروفٍ مِنْ أيّ إنسان قطُّ قبل هذا التّاريخ. وإنّك لتراه عياناً الآنَ يندفع من مكمنه، في قلب الغابة بزخمٍ شديد، منطلقاً خارجَها، قاصداً بشروره مدينة كاليدون بالذّات. وإنْ خطرَ ببالك أن تَصِفَهُ وصْفاً حيّاً، فاذكرْ أنّه كان مزوّداً بنابين حادّين، كالسّكاكين القاطعة، حينما يخرجهما للفتك من جانبَي فيه، أمّا شعره القاسي النّابت على ظهره فكان سميكاً شائكاً، وطويلاً كصنّارات الحَبْك.

والآن عندما جدّ في سَعْيِه مسرعاً إلى كاليدون، كان يعضّ على أسنانه، ويخرج الزّبَدَ من فمه، ولا شكّ أنّ مشهداً كهذا سيلقي الرّعب في نفسِكَ، أو في نفوس المارّة جميعاً.

وبعد أن اندفَعَ داخلَ حقولِ القمح أتلفَ كلّ السّنابلِ، وحين هاجَم الكرومَ، فقد كسَّرَ جميعَ الجفناتِ، ثمّ اقتلع في طريقه كلّ أشجارِ البساتينِ المثمرةِ، وعندما لم يبقَ ما يخرِّبه فيها، توجّه إلى المراعي في السّهول والتّلال، وفتكَ بقطعان الأغنام والماعز، الّتي ترعى فيها، وعاث فساداً بأعشابها الخضراء.

والخلاصة أنّه ارتكب أقصى أنواع الوحشيّة، في اندفاعاته الجنونيّة. وهكذا تراه في إيذائه وتخريبه بلغ الغايةَ القصوى. وكان النّاس جميعاً مغلوبين على أمرهم؛ بحيث لا يستطيع أيُّ بطلٍ شجاعٍ خاصّةً، أن يتصدّى له، إنْ نوى تسديدَ السّهامِ أو الرّماح إلى جلده السّميك، ذلك الجلد الّذي لا يؤثّر فيه شيءٌ، كما روى ذلك شعبُ كاليدون ذاتُه.

أمّا إن سألتني عن ضحاياه الكثيرة، فلا أعرف عددَهم، وهكذا في أسابيعَ معدودة، حقّق كلّ ما يبغي من شرورٍ، حتّى إنّ الّذين خلَصُوا من أذاه، هم الّذين قد اختبؤوا ضمن الجدران

فقط. وأخيراً فإنّه بعد أن جعل المنطقة بكملها خراباً، عاد إلى غابته الّتي انطلق منها.

ولكنَّ النّاسَ كانوا جميعاً متوجّسينَ شرّاً، من أن يعود إلى منطقتهم من جديد فيهدم أبوابَ المدينة كلّها.

وتجاهَ هذه الفظائع المريعة، الّتي أرهبتِ الشّعبَ جميعَهُ، صرّح الملك أوينيوس قائلاً: «أيّها الشّعب الكريم الّذي تحمَّلَ ما تحمَّلَ من آلامٍ وكوارثَ، أنبئكم أنّ كلَّ ما حدث، يعود إلى أنّنا ارتكبنا خطأً جسيماً، حينما جعلْنا كلُّنا أحدَ الآلهة مستثنىً من شكرِنا وتضحياتِنا في الصَّيفِ الماضي، فحلَّ علينا غضبُه الإلهيُّ. فمن يكون ذلك الإله، أو تلك الإلهة، اللّذيْنِ نسينا أحدهما يا ترى؟!».

وبعد هذا التّساؤل تذكَّرَ إهمالَه: إحدى الإلهات البارزات، فتابع كلامه قائلاً: «لا شكَّ أنَّ تلك الإلهةَ المنسيّةَ هي ديانا ملكةُ الغابات، والصّيد، لذلك أرسلَتْ إلى ديارِنا هذا الحيوانَ الشّرسَ، عقاباً لنا على إهمالنا لها، ويا لهُ من عقاب!. وبعد هذا الدّرس الأليم، سأتذكَّرُها وأنتبهُ لكلِّ نقصٍ مادمت حيّاً!. ولكنْ ما جَرَى جَرَى، والحكيمُ يقول: «لا تأسَ على ما فات!». إذاً فَلأُعالِجْ هذه الفاجعةَ المدمِّرةَ، بحكمةٍ ورويّة، وخيرُ ما أفعله أنْ أرسلَ رسلاً، إلى كلِّ البلدانِ المحيطةِ بكاليدون، طالباً حضورَ الرّجالِ الشّجعان، وأمهرِ الصّيادين من أصدقائنا ليهبّوا إلى مساعدتنا، وإغاثتنا من هذه الكارثة، في الوقت المعيّن، وليبادروا إلى قتل هذا الخنـــزير البرّيِّ المتوحّش. وسأقتصر على دعوة هؤلاء الأبطال، الّذين كانوا برفقة ابني ميليغر، في رحلةِ البحثِ عن الجزّةِ الذّهبيَةِ. وإنّني متأكّدٌ أنّهم في الوقت المناسب، سيُهْرَعُون، وإلى نجدتنا، سيسرعونَ».

٤- الصّيد في الغابة

وحين أقبل اليوم، الّذي أعدّه الملك أوينيوس، للاجتماع بالأبطال، تجمّع حشدٌ عجيبٌ من الرّجال في كاليدون، فتجمهر هناك أعظمُ أبطال العالَمِ، آنذاك، وكان كلٌّ منهم مدجّجاً بالسّلاح، وآملاً أن تكون مساهمتُه أفضلَ مساهمة، في صيدِ الخنـــزيرِ البرّيِّ، وبطولة قنْصه، والتّغلّبِ عليه.

وقد رافقت المحاربين الآتينَ من الجنوب، إلى: كاليدون، فتاةٌ فارعةُ القامة، ممشوقةُ القدِّ، متسلّحةٌ بقوسٍ وجعبةِ سهامٍ، ورمحٍ طويلٍ. وإنْ سألتَ عنها فإنّها الصّيادةُ الماهرةُ الذّائعةُ الصّيتِ، أتلانتا الجميلةُ، صديقةُ البطلِ ميليغر.

فلما شاهدَها الملك أوينيوس المتقدّمُ في السّنّ، في حَفْلِ الاستقبال، دُهش لمجيئها مع الأبطال، فقال لها: «أهلاً وسهلاً بالزّائرةِ الكريمة، والفتاة الجميلة، إنّ بناتي من سنِّك يلعبنَ بالطّابة، في حديقة القصر، فضعي أيّتها الفتاةُ اللّعوبُ، رمحَكِ وسهامكِ الّتي تثقلُكِ جانباً، وساهمي في اللّعب مَعَهُنَّ».

فما كان من أتلانتا، الواثقة ببطولتها، إلاّ أن هزَّتْ رأسَها، ورفعت ذقنَها، ثمّ حَدَجَتْهُ بنظرتها القاسية، بسبب هذا العرض، الّذي ينتقصُ، من تشامخها، وقُوَّتها، وثقتها، الدّائمة ببطولتها.

ولما لاحظ الملكُ أوينيوس إحجامها، وتمنُّعَها عن اللّعب، صاغ عبارته بأسلوبٍ آخرَ قائلاً: «ربّما تُحبّين الجلوسَ مع زوجتي الملكة، تُحاذينَها أطراف الحديث، أو تؤْثرينَ الاعتزالَ، وتفضّلينَ الغَزْلَ والنّسجَ على كلّ شيءٍ آخرَ».

فأجابت أتلانتا برفعة، وإباء، وشمم: «كلاّ أيّها الملك السّعيد، والخطير جدّاً، إنّني لم أحضر إلى هنا للّهوِ، واللّعبِ، والحديثِ، والغزْلِ والنّسْجِ، بل جئت برفقة الأبطالِ لصَيْد الخنـــزيرِ البرّيِّ الّذي أزعجكم زمناً طويلاً».

بعد هذا القول الجريء: اقتنعَ الملك بقولها، فسكتَ، ولم ينبس ببنت شفة، أمّا الرّجال المرافقون لها، فاستكبروا هذا القول، ففتحوا عيونهم قائلين: «يالَلزَّعمِ، يالَلإدّعاء! إنّنا ما سمعنا قطّ طوالَ حياتنا، بأمرٍ كهذا. فهل يُعقَلُ أنّ فتاةً غضّةَ العود، وعديمةَ التّجربة، ستجرؤُ على مشاركة الأبطال، في صيد خنـــزيرٍ برّيٍّ شرسٍ، قد عاث فساداً في أرض كاليدون، مدّةً طويلةً؟»

وقال أحدهم بثقة تامّة: «إنْ شاركتْ هذه المُدَّعيةُ بالصَّيْد، فلن أكونَ بين الصّيادين». وأضاف آخر: «ولا أنا كذلك».

وقال ثالثٌ متهكّماً: «ولا أنا سأكون مشاركاً إطلاقاً في هذا الصّيد، لأنّ العالم كلّه سيهزأُ بنا، وسيضحك من تصرّفاتنا الرّعناء، إنْ نحنُ أشركناها فيه، وسوف لا نرى لضَحكه نهايةً!».

والغريب أنّ الكثيرين منهم، تضامنوا مع من تكلّموا بجفاء، وهدّدوا بأن يعودوا إلى ديارهم البعيدة، إن ساهمت هذه الفتاة في الصّيدا.

ولكنَّ أتلانتا الشُّجاعةَ، لم تُقِمْ وزناً لهذا الهُراء، بل قبضت على رمحها بحزمٍ وعزمٍ، ووقفت ثابتةَ الجَنانِ، منتصبةَ القامة، كالطّودِ الشّامخ، في باب القصر الملكيّ، متحدّيةً جميع المحتجّين.



في هذا الوقت الحَرِج، وعندَ هذا الهجوم المُتعمَّد عليها، حضرَ شابٌّ وسيمُ الهيئة، واثقُ الخطوات، عميقُ التّفكير، فائقُ الشّجاعة، ألا وهو البطلُ ميليغرُ ابنُ الملك أوينيوسَ، وكان يَسْمَعُ ما يقال، فصاح بملء فيه: «ما هذا الّذي يجري بين ظهرانينا، وفي عُقْرِ دارنا؟ وما هذه التّقوّلاتُ الحمقاءُ، والكلماتُ الجارحةُ؟ ومن الّذي ادّعى بأنّ أتلانتا، لا تستحقُّ الذّهابَ إلى الصّيد؟ إنّكم أيّها المدْعُوُّونَ إلى مدينتنا، من أجل مَدِّ يَدِ المساعدة لنا، قد تجاوزتم الحدودَ، وابتعدتم عن أصول اللّياقة، فمن سمح لكم بالتّدخّل بأمورٍ، لا تعنيكم من قريبٍ أو بعيد؟ فما هكذا يتمّ الصّيدُ، ولا هكذا تتمّ المساعدة! فإنْ كنتمْ تعتبرونَ أنفُسَكُمْ أبطالاً شجعاناً، صالحينَ للصّمودِ والتّصدّي، وتَتَمَتَّعُونَ بالنُّبلِ، واللّطفِ، واحترامِ الآخرين، فاثْبتوا في المحبّة، وتعرّضوا إلى هذا العدوِّ الشّرسِ فقط. وإلاّ سأعتبركم خائفين، من أن تَبْرُزَ هذه الفتاة في ساح المعركة، وتُجلّي في ميدان القتال، فتبدو أشجعَ الشّجعان، وأقوى شكيمةً وثباتاً من معظم الحاضرين، وهذا كلُّ ما أوجّههُ لكم، فإنْ كنتم تفكّرون هذا التّفكيرَ القاصرَ، فَلْيذهبِ الجبناءُ إلى بيوتهم حالاً!».

وبالرّغم من هذا التّقريع والتّجريح للرّجال المتحاملين على أتلانتا بدونِ حقٍّ، وللمتقوّلين عليها بالسّوءِ منهم، لم ينصرف أحدٌ منهم إلى دياره. وأخيراً أعلنَ ميليغر بصراحته التّامّة: «إنّ هذه الفتاةَ ستشقّ طريقها إلى الغابة، بالرّغم من أنوف جميع المعارضين».

ولكن أخَوَي الملكة: الأمّ ألْثيا، واصَلاَ هَمْهَمَتَهُما، وتَذَمُّرَهما!. أمّا الملك أوينيوس فقد دعا أخيراً جميع الأبطالِ إلى الإقامة في مضافة قصرِه، معزّزينَ مكرّمينَ مدّة تسعة أيّام.

وفي اليوم العاشر انطلقوا إلى الغابة. فوجدوا الخنْــزيرَ المتوحّشَ الكاسرَ فيها، مُهَيِّئاً نفسَهُ للقتال، بوضعيّته المتوثّبة، وشَعْرِه المنتصب، لقد كان على أهبة الاستعداد للفتك بأعدائه، المُسَلّط عليهم، من قبل الإلهة ديانا واحداً واحداً. وعند مشاهدة الأبطال منظرَهُ البشعَ، وموقفَ الغدرِ الّذي يقفه، فرّوا مذعورين، واختبؤوا خلف الأشجارِ، أو تَسَلّقُوها، لأنّهم لم يتوقّعوا أن يروا وحشاً مخيفاً، شرساً بهذا الشّكل. لقد وقف الخنــزيرُ المتعطّشُ للدّماء، متربّصاً بأعدائه في وسط فجوة مفتوحة، شاقّاً الأرض بأنيابه، والزّبدُ الأبيضُ يخرجُ من فمِه، وعيناهُ تتوقّدان محمرّتَيْن، كالنّارِ المضطرمةِ، وقد نخرَ نخيراً وحشيّاً ليُرْهِبَ أعداءَه حتّى إنّ الغاباتِ والوديانَ دوّتْ بأصداءِ أصواته المتحدّية خصومَهُ!.

فما كان من أحد الأبطال الشّجعان، إلاّ أن سدّد رُمْحَهُ إلى الخنـــزير المتوحّش، وعوضاً من أن يجبره على التّخفيفِ من سَوْرةِ عُنْفِهِ وغضبِهِ، جعله أكثرَ تحدّياً وتوحّشاً، من ذي قبل. فما كان من هذا الخنـــزير إلاّ أن انقضَّ على أحد الأبطال مُباغتاً إيّاه، قبل أن يسرع لإنقاذ نفسه، فمزّقه إرْباً إرْباً بأنيابه الحادّة. وخاطرَ بطلٌ آخرُ مخاطرةً جريئةً بنفسه، حينما خرج من مخبئِهِ، فما كان من هذا الخنـــزير الهائج، إلاّ أن هجم عليه هجمةً صاعقةً، كانت القاضيةَ عليه. ووجّهَ واحدٌ من أقدم الأبطال، وأشدّهم مجالدةً وعراكاً، رُمْحَهُ بكلّ ما يستطيع من قوّة، فكشط جلدَه فقط، وطاش الرّمح متّجهاً إلى الجهة الأخرى، فاخترق قلب زميله البطل المجاور، مأسوفاً عليه!. وهكذا بدا لهم جميعاً كأنّه قد انتصر عليهم، وبدّد شملَهُمْ.

ولكن الآنَ جاء دورُ أتلانتا، الّتي وثبت إلى الأمام وثبةَ الأسدِ الهصورِ، وألقت رمحَها الطّويلَ بتسديد مُحْكَمٍ، وعزيمةٍ صادقةٍ، فأصابت الخنـــزير في مؤخّرته، فجُرِحَ جرحاً بليغاً، وتدفّقَ منه جدولٌ غزيرٌ من الدّمّ.

وعلى أثَرِ ذلك، تشجّع بطلٌ آخرُ، فأطلق سهماً من قوسه، فقلع إحدى عينَي الوحشِ المفترس.

وكانتِ الهجمةُ القاضيةُ على ذلك الوحش، الّذي صالَ، وجالَ، وعربَدَ، واستطالَ، لبَطَلِ الأبطالِ، وأشجعِ الشّجعان، ميليغرَ بعزمه القويّ، الّذي لا يُفَلُّ ولا يلين، حينَ طعنه برمحه القاتل، ذاك الّذي لا يُخطئ الهدف، فنهض الخنـــزير مدّةً قصيرةً من عزّة الرّوح، وعارك عراكاً يائساً لحظات قليلةً، وهو يتخبّطُ بدمه. ثمّ خرَّ صريعاً جزاءً وفاقاً لشروره الّتي لا تحصى.

فانتظر الأبطال بعضَ الوقت، حتّى انتهتْ حياتُه، وأخيراً سارعوا إلى قطع رأسه، الّذي احتاج إلى ستّةٍ منهم حتّى استطاعوا حَمْلَهُ، ثمّ بادروا إلى سلْخِ جلدِهِ عن جسمه الضّخم، وقدّموه إلى ميليغر جائزةً ثمينةً، ولكنَّ ميليغرَ الشّهْمَ قال لُمكرِّميه من الرّجال: «إنّ البطلةَ أتلانتا تستحقُّ الجائزة أكثَرَ منّي؛ لأنّها أوّلُ من أصاب الخنـــزيرَ إصابةً فعليّةً، وسبّبتْ له الجرحَ البليغَ الأوّلَ».

ثمّ سلّمها الجائزة، مشيداً بشجاعتها الفائقة أمام الملأ. ومن المؤكّد أنّ أبصارَ الأبطالِ قد تركّزتْ عليها، بعد نصرِها المؤزّر على الخنـــزير، وبعد تقديم الجائزة الوحيدة لها، وهي تلك البطلة الّتي تُعْتَبَرُ أطولَ فتاة صيّادة، برزت الآن بقامتها المديدة، بين الأشجار الكثيفة الباسقة، مع

جلد الخنــزير المُلقى بثقله، على ذراعها الأيسر، والّذي وصل إلى قدميها. ولكنْ مع كلّ تألّقها وجمالها، لم تبدُ شبيهةً بملكة الغابات ديانا!.

وبالرّغم من أنّ أخوي ألثيا الوقحَيْن، لم يحقّقا شيئاً في صيد الخنــزير، فقد تسرّب إلى قلبيهما الحسدُ، والغيرة الشّديدةُ، فبدأا فوراً يُعكّرَان الموقفَ، ويفعلان الشرّ. فقد تجرّأ أحدهما: فخطفَ الرّمحَ من يدها، وجرّ بعنفٍ الجلدَ من ذراعِها. وأمّا الآخر: فقد دفعها بشدّة وغلظة، وأمرَها أن تعود إلى موطنها الأصليّ في أركاديا، لتعيش من جديد مع إناث الدِّبَبة، بجانب الجبل.

هذه التّصرّفات الّتي لا مسوّغ لها أبداً، أغاظتْ ميليغرَ كثيراً، فطلب منهما أن يعيدا الرّمحَ والجائزةَ لها، ويكفّا عن الشّتمِ والقَدْحِ، والكلام القبيح وغير المهذّب. ولكنّهما لم يكترثا بقوله، وتماديا في غيِّهما، وتفاقم الأمرُ، فتحوّل الوضع من سيّئ إلى أسوأ، وتطوّر الجدل الحادّ، إلى التّهجّم والقتال. فتحدّيا ابنَ أختِهما شخصيّاً، وهاجماه بشدّة وعنف، وصمّما أن يقتلاه، إن لم يسحب سيفه، الّذي يدافع به عن نفسه. وما كان منهما أخيراً إلاّ أن شهرا سيفيهما من غمديهما، وأخذا يضربان بهما يَمنةً ويسرةً، ضرباً عشوائياً كأنّهما أعميان. وحينما اشتدّ الخطبُ، واشترك آخرون في الضّرب، احتدم القتالُ، واختلط وقعُ السّيوف بالسّيوف، فعميت بصيرتُهما، فلم يلبثا من شدّة هياجهما وجولانهما، إلاّ أن سقطا قتيلين مجندلين على الأرض، يتخبّطان بدمائهما. فزعمَ بعضُ الّذين لم يشاهدوا المعركة عن كثب، أنّ ميليغر قد قتلهما بسيفه المسلول!.

ولكنّ الّذي أعتقدُهُ –وهو التّحليل الصّحيح– أنّهما في غمرة الهياج، وشدّة الانفعال، لم يَعُدْ هذان المعتديان يميّزان بعضَهُما بعضاً، فدارت الدائرة على الباغيَيْن!».

وبعد هذه المقاتلة الشّرسة، قرّرَ جميع الأبطال الرّجوعَ إلى المدينة. وها إنّنا نرى بعضَهُم، قد جنّدوا أنفسهم لحملِ رأسِ الخنــزيرِ الضّخم، وبعضَهم الآخر لحمل أجزاءٍ من أعضائه، بينما البقيّةُ الباقية منهم قد صنعوا نعوشاً من الأغصان الخضراء، وحملوا جثامينَ المقتولين. وإنّ من يشاهدْ سَيْرَهُمْ هذا، يراه موكباً كئيباً غريباً، ينطلقْ من الغابة الدّامية!.

ومن ناحيةٍ أخرى، فإنّ أحدَ أعداءِ ميليغرَ، جَدَّ في مسيرِه متقدِّماً الموكبَ، ومتّجهاً إلى المدينة لينقلَ خبر مقتل الأخوَيْن.

ولسوء الحظّ، كانت الملكة ألثيا واقفةً في باب القصر، منتظرةً أخبارَ صيدِ الخنـزير، وعندما رأت الرّجلَ متّجهاً نحوها، بادرت بلهفةٍ وخوفٍ سائلةً إياهُ ماذا حدث في الغابة؟»».

فأخبرها فوراً بأنّ ابنها ميليغر، قد قتل أخويها الاثنين عمداً!. فسقط عليها النّبأ سقوطَ الصّاعقة، ومع أنّها تعلم علمَ اليقين، كلَّ أخطائهما المتعدّدة الشّاذّة، وتصرفاتهما الشّائنة الرّعناء، إلاّ أنّها كانت بالرّغم من كلّ ذلك، تحبّهما حبّاً جمّاً.

وإنّه لَمَشهدٌ مريعٌ، ومزعجٌ أن يرى المرءُ انفعالَها الشّديد، وحزنَها المديد! فقد خرجت عن وقار الملكة، فصرخت صراخاً متواصلاً،غيرَ مألوف، وناحت نوحاً مؤلماً، غيرَ مسبوق، حتّى إنّها نَتَفَتْ شعرَها، وحاولت تمزيق ثوبها. والأصعبُ من هذا أنّها تمرّغت بالتّراب، خارجةً عن محجّة الصّواب، فتجمّع النّاس حولها زرافاتٍ ووحداناً، ولكنّها اندفعت إلى القصر بصورةٍ هوجاء، وهي تسرع في الدّخول والخروج، من غرفةٍ إلى أخرى، على غير هدىً. والحقيقة إنّها فقدت رشْدَها، و لم تَعُدْ تدري ماذا تفعل!.

وكان من عادة القوم في ذلك الزّمان الغابر، أن يأخذوا بثأر المقتولين من أقاربهم!. ومن سخريات القدر أنْ سلكتِ السُّلوكَ نفسَهُ، فتركّزَ تفكيرُها على الانتقام والتّشفّي، من قاتل أخويَها، دون تحقيقٍ أو تدقيقٍ، أو السّؤال عمّا اقترفا من ذنوبٍ. وفي نوبةِ جنونها هذه نسيت نهائيّاً، أنّ ميليغر ابنها الحبيب، وغفلت عن كلّ صفاته الحميدة، وفقدت التّروّي في الأمر ومعالجة الكارثة فورَ وقوعِها، بحكمةٍ وسدادِ رأيٍ. والّذي خَطَرَ على بالها فقط زيارةُ ربّات القدر قصرَها، في طفولة ابنها ميليغر، وتذكّرت حَطَبَتَهُمْ الّتي وَضَعْنَها في الموقد، والّتي لم يكتمل احتراقها، لأنّها هي نفسها قد أسرعت إلى إطفائها في ذلك الوقت، ثمّ وضعتْها في صندوقها الخاصّ، منذ سنواتٍ كثيرة. ولكنّها للأسف الشّديد قد بادرتِ الآن في حال هياجها الأرعن، لإخراجها من الصّندوق، ثمّ أشعلتها فوراً، وانتظرتها حتّى تأجّجتْ بنورها السّاطع، وقد تركّزَ اهتمامها في أن تحوّلها إلى رماد، وعندما خمدت آخرُ ومضةٍ منها، فإنّ ابنَها البطلَ النّبيلَ ميليغر، الّذي كان ماشياً بجانب أتلانتا، سقط فجأةً على الأرض جثّةً هامدةً، وعندئذٍ حلّتِ الكارثةُ ، ويا هولَ ما حدَث!.

ولّما حُمِلَ إليها نعيُ ميليغر المأسوف على شبابه، وعلى بطولته الفذّة، لم يَرِفَّ لها جفنٌ، و لم يضطربْ لها قلبٌ، و لم تنبسْ ببنتِ شفةٍ!. ولكن بعد ذلك التّصرّف الأحمق، استيقظ ضميرُها،

وعاد إليها رشدُها، وأدركت أيّةَ جريمةٍ اقترفت! فَاصْفَرَّ لونُها، وتمزّقَ قلبُها، فانتحت زاويةً من زوايا القصر، ثمّ اتّجهت إلى غرفتها الخاصّة. وحينما جاء الملك أوينيوس إلى القصر، متوجّساً الشرَّ ممّا حدَثَ، وجدها قد فارقت الحياة!.

وهكذا انتهى صيدُ خنـــزيرِ الغابةِ الشّرّيرِ، في مدينة كاليدون، بمأساةٍ مروّعةٍ، تُعتبر من أشدّ المآسي في بلادِ الإغريق!.

٥- سباقٌ من أجلِ زوجة

بعد وفاة ميليغر، الّذي كان أعزَّ الأصدقاء لأتلانتا، عادت إلى بيتها القديم بين الجبال الشّامخة، والأشجار الكثيفة الباسقة، في غابات أركاديا. وكما ذكرنا سابقاً، فلقد كانت حقّاً صيّادةً ماهرةً، سريعةَ القدمين، لا يفوقها أحدٌ في هذا المضمار. فهي لم تشعر بسعادةٍ غامرةٍ في أيِّ مكانٍ قطُّ، كما تشعر حينما تكون متجوّلةً، بين أشجار الغابات الخضراء، أو بين الصّخور في أعالي الجبال، أو حينما تطارد غزالاً بريّاً شارداً.

وهكذا ذاع صيتها في العالَمِ كلّهِ، ولم يشغل بالَ الشّبابِ في البلدان المجاورة لأركاديا، شيءٌ مثل التّحدّث عن جمالها الأخّاذ، ورشاقة حركاتها، وسرعتها الفائقة، في الجري والمطاردة، وشجاعتها النّادرة، وحزمها وعزمها، في الأمور الفاصلة، وسبحان المعطي!.

وهكذا فإنّ أيّاً من الشّباب الطّامحين، المماثلين لها في السّنّ، حرص على أن تكون زوجته. وكان باستطاعتها في أيِّ وقتٍ من الأوقات أن تُتوَّجَ ملكةً، إنْ هي نطقتْ بكلمةٍ واحدةٍ، ألا وهي الموافقة على طلب يدها، لأنَّ أغنى ملوك الإغريق في البلدان المجاورة لأركاديا، لهم الشّرفُ الأعلى بالزّواج منها. ولكنها لم تكن مهتمّةً إطلاقاً بأيِّ ملكٍ أو شابٍّ، بحكم نشأتها المبكّرة في البراري الشّاسعة. فلقد عشقت منذ نعومة أظفارها، حياة الحرّيّة، والتّجوال في الغابات، والحصول على الصّيد الثّمين. لذلك رفضت رفضاً باتّاً حياةَ الرّفاهية، والمكانة الاجتماعية، والحصول على الأشياء الجميلة، الّتي تتوفّر في البيوتات العريقة، والقصور العامرة!.

أما خُطّابها الطّامحون بالحُظوة بها، فلا يُريدُ أيٌّ منهم أن يُجاب على طلبه بِلاَ، ولا يريد أنْ يكون: هو المقصود بالرّفض. لذلك كان الكثيرون يُداومون، على المجيء إلى ديارها، والإقامة في جوارها، حتّى امتلأت بهؤلاء الرّاغبين في الزّواج غابات أركاديا.

وفي هذه الأحوال ليس من السّهولة بمكان، التّفاهم مع هؤلاء العشّاق، على الإطلاق. وحين رأتْ أنْ لا خلاص لها منهم، ولا وسيلة تمكّنها من صدّهم، أو إقناعهم بما يجول في نفسها، من رفضٍ باتّ للزّواج. لذلك دعتهم في يومٍ من الأيّام إلى التّجمّع في مكانٍ واحد، ثمّ قالت لهم: «أيّها الشّباب الأماجد، إنّ أيَّ شابٍّ منكم يطمح بالزّواج منّي، أليس كذلك؟ حسنٌ جدًّا!. كلّ واحدٍ باستطاعته أن يحقّق غايته، بشرط أن يتفوّق عليّ في السّباق، الّذي يُحدَّدُ بدءاً من هذا الجبل إلى ضفّة النّهر. وسأكون حتماً حليلةَ من يسبقني».

فصاح كلّ الشّباب المتجمّعين هناك بملء أفواههم: «إنّنا موافقونَ! إنّنا موافقون جميعاً».

فتابعت كلامها مخاطبةً إيّاهم: «لكن أصغوا إليّ جيّداً، إنّني سأضعُ شرطاً رئيساً، يترتّب على كلّ متسابقٍ، ألا وهو: إنّ كلّ من يجرّب حظّه في هذا السّباق، ثمّ يخسره فسيكون مصيره الموت!».

فيالَخيْبَةِ الأملِ، بعد النّطق بهذا الشّرط! فكم انطلقت من أعماقهم: آه، ثمّ آهٍ، وكم من وجوهٍ علاها الاصفرارُ، وجلّلها الأسى والألم!.

فما كان من بعضهم إلاّ أنِ انسحبوا من أركاديا، يائسين مكتئبين!. أمّا المتشبّثون بالبقاء، والواثقون بعضَ الثّقة بأنفسهم، فقالوا لها: «ألا تعلميننا شيئاً قليلاً، عن نقطة بدء سباقك المزعوم؟». فأجابتهم: «أوه، نعم، سأؤكّد بأنّ بدءَ سباقي سيكون من هنا بالضبط، وبما لا يقلّ عن مسافة مئة خطوة، ولكن كما أخبرتكم سابقاً: إنِ استطعتُ أن أصل إلى ضفّةِ النّهر قبل أيّ متسابقٍ منكم، فإنّه سيفقد حياته حتماً في اليوم نفسه!».

بعدَ هذا الشّرط المرعب، ادّعى شبابٌ متردّدون منهم أنّهم معتلّو الصّحّة؛ لذلك يجب عليهم أن يغادروا المكان فوراً!. وذكر بعضهم الآخر، بأنّ هناك أعمالاً ملحّةً، تستدعي عودتهم إلى بيوتهم، لقضائها عاجلاً؛ لذلك فقد قرّروا الرّحيل. ولكنّ شباباً كثيرين وجدوا أنّ أجسامَهم صحيحةٌ، بالإضافة إلى أنّهم يتمتّعون بلياقاتٍ بدنيّة ممتازة، وعلاوةً على ذلك فقد درّبوا أنفسهم، على إجراء تمرينات في الجري، فكانوا بها يخترقون أماكنَ فسيحةً معيّنةً، وهم قد صمّموا أن يجرّبوا حظّهم في سباقها مهما كان الأمر، لأنّ ألسنةَ أحوالِهمْ تقول: «هل تستطيع فتاةٌ رقيقةُ القوام، ومماثلةٌ لنا في السنّ، أن تنتصر علينا في حَلَبَةِ السّباق؟ إنّ ادّعاءَها بالتّفوّقِ علينا لَمِنَ الهُراء، وليس معقولاً أبداً!».

ولكنْ بالرّغم من احتجاجهم على قولها، فقد كانوا واهمين؛ لأنّ ضحاياها كانوا من الكثرة بمكان!.

وإنّه لَمِنْ دواعي الشّفقة، بل الحزن الشّديد، أن يفقد، نتيجةً للسّباق الخاسر، كلَّ طلوعِ شمسٍ تقريباً، شابٌّ غضُّ الإهابِ حياتَه الغاليةَ جدّاً!. ولكن بالرّغم من هذه الخسائر البشريّة الجسيمة، فمن المستغرب أنّ الشّباب من مختلف الجهات، استمرّوا في التّدفّق على أركاديا للغرض نفسه!. وما يزاحُ أحدُهم عن الطريق بالموت، حتّى يحلّ واحدٌ آخرُ محلَّهُ!.

وفي يومٍ من الأيّام جاء قادماً، من مدينة بعيدة، شابٌّ طويلُ القامة، وسيمُ الوجه، رائعُ الإطلالة، يدعى: ميلانيون، فأدهش أتلانتا جمالُه، وسحرها مشيتُه! فرحّبت به أيّما ترحيب، وبادرته بالقول: من الأفضل لك ألاّ تسابقَني، وتُدليَ بدلوك بين الدّلاء، فكلّ من جرّبوا حظّهم معي أصابهم: الموت الزّؤام، لأنّ نصريَ مؤكّدٌ دائماً، لذلك اتّعظْ بقول الشّاعر: ليس المخاطرُ محموداً وَلَوْ سَلِمَا!.

ولقد ترامى إلى سمعك ماذا أصابَ الشّبابَ المُقْدمين، على هذا الأمر أمثالَك من مآسٍ يوميّة، واللّبيبُ من الإشارة يفهم!».

فأجابها ميلانيون بنبرة الواثق من نفسه: «دعي هذا الكلامَ أيّتها الفتاةُ الجميلةُ، فإنّك في نهاية المطاف سترينَ عياناً: مَنْ أنا!».

لكنّ ميلانيون، في قرارة نفسه، شعر أن الخطر يحيق به، ويهدّده، وأنّ أتلانتا صادقةٌ فيما تقول، لذلك فإنّه قبل أن يدخل في السّباق، ويجرّب حظّه مع أتلانتا: صلّى بحرارةٍ إلى ملكةِ الحبِّ والجمالِ، الرّبة العظيمة فينوسَ، الّتي تقطنُ مع الإله الأكبر في وسط الغيوم، على قمّة جبل الأولمب، والتمسَ منها التّدخّل في مجرى السّباق -بعد أن استدعاها بتقواه وإيمانه إلى عالمه الأرضيّ!- فما كان من هذه الإلهة الغيور على العشّاق إلاّ أن لبّتْ دعوتَهُ، باعتباره أميرَ الشّباب، ولأنّه كان: وسيمَ الوجه، لطيفَ المعشر، ومتبصّراً بعمقٍ في الأمور، ومستنجداً بالآلهة في كلّ حينٍ، وخاصّة في الأزمات الشّديدة. والخلاصة الّتي تُذكَرُ لهذا الدّعم الإلهيّ: «إنّ الإلهةَ الذّائعةَ الصّيت، أشفقت على شبابه الغضّ من أن يحيق به الهلاك، لذلك منحته ثلاثَ تفاّحاتٍ ذهبيّات، وأعلمته كيف يتصرّف بها، ويحسن استعمالها».

وحين أصبح كلُّ شيءٍ مُهيّئاً للسّباق، حاولت أتلانتا جاهدةً أن تقنعَ ميلانيون، أن يتراجع

عن مطلبه المُلِحّ، فلا يباريها، ويزجّ نفسه في معركة خاسرة معها، ثمّ عادت وأكّدت له، أنّ مصيره للأسف الشّديد، سيكون الموت العاجل!. وإشفاقاً على كونه في ريعان الشّباب، قالت له بصراحتها المتناهية: «اعْلَمْ جيّداً يا عزيزي ميلانيون، أنه ليس باستطاعة ابن أنثى، مهما كان مدرّباً على السّباق، أن يسبقني إطلاقاً!» فأجابها ميلانيون، وهو يُعِدُّ نفسَه للجري: «حسن جدّاً ما تنطقينَهُ، ولكنِ اعْلمي جيّداً أنّه: لا توجد قوّةٌ في السّماء والأرض، تستطيع أن تثنيني عن مطلبي». وقد تفوَّهَ بذلك، لأنّه كان متسلّحاً بثلاث التّفاحات الذّهبيّات الفينوسيّات، الّتي وضعها في جيبه. وتسامحاً منها معه فقد أعطته الفُسْحةَ، أن يكون المبتدئ الأوّل في السّباق، ولكنّها سرعان ما لحقته؛ لأنّها كانت تنطلق انطلاقةَ السّهم من قوسه.

والحقيقة النّاصعة الّتي لا مِراءَ فيها، أنّ ميلانيون لم يكن عدّاءً سريعاً، وليس من العسير على أتلانتا أن تسبقه. ولكنّها رأت بأن تدَعَهُ يقترب من الهدف؛ لأنّها كانت تعطف عليه دائماً، وتشفق على شخصه من أن يلقى حتفه السّريع. والآن عندما أحسَّ باندفاعها على الأثر خلفه، وسمع صوتَ تنفّسِها المتلاحق، عَلِمَ عِلْمَ اليقين أنّها ستتخطّاه بسرعتها المذهلة، عندئذٍ ألقى أولى التّفاحات الذّهبيّات من فوق كتفه!.

ويجب علينا الآن أن نذكر – قبل متابعة قصّة مباراة أتلانتا المثيرة مع ميلانيون – ما ترويه القلّةُ القليلةُ من النّاس عن بعض أسرارها الخفيّة أنّه: «إنْ كان هناك شيءٌ يعجبُ أتلانتا بعد العيش في الغابات، وحمل السّلاح، ويهزُّ مشاعرها ووجدانها، ويلعبُ بعواطفها، ويسمو بأمانيها، فهو الحصول على الجواهرِ النّادرة الباهظة الثّمن، أو قِطَعِ الذّهبِ الأصفرِ الرّنان!».

لذلك فحينما سقطت التّفاحة من يد ميلانيون على الأرض، رأتها أتلانتا في غاية الرّوعة والجمال، فَتَوَقّفَتْ لالتقاطها. فاستفاد ميلانيون من توقّفها القليل، فتقدّم عدّة خطوات، ساعدته في السّباق. ولكنْ ماذا في ذلك؟ إنّها استطاعت بما يعادل دقيقةً واحدةً، أنْ تلحقَهُ، وأن تعوّضَ عمّا تأخّرَتْهُ، وأنْ تحقّقَ سُرعةً تفوقُ بكثيرٍ، سرعتَها فيما مضى.

فعندئذٍ أدرك ميلانيون أنّهُ أضحى في مأزقٍ حقيقيٍّ؛ حيث إنّه لا طاقة له بالتّصدّي لهذه العملاقة في السّباق، لذلك لم يبقَ له مخرجٌ، سوى أن يُلقيَ التّفاحةَ الذّهبيّةَ الثّانية، من فوق كتفه.

والغريب أن أتلانتا رأت هذه التّفاحة الآن أشهى منظراً، وأغلى قيمةً، من التّفاحة الأولى،

ولم تتحمّل إطلاقاً فكرةَ السّماحِ لغيرها بالتقاطها. لذلك توقّفت وقفةً أخرى، للحصول عليها من بينِ الأعشاب الخضراء الطّويلة. ولكنّها لكي تعثر عليها استغرقت وقتاً أكثرَ مما توقّعَتْهُ، فحقّق ميلانيون في جَرْيِهِ مئةَ خطوةٍ زيادةً عنها تقريباً. ولا شكّ أنّ ذلك الكسب أقلقها! ولكن لفرط إعجابها بتحايله – والإلهة فينوس أعلم ما يدور بخاطرها – أخذتها الشّفقة عليه، وعذرته على تصرّفه المجنون!.

وهكذا جرت بسرعة أكثر من المعتاد، وسرعان ما سمع ميلانيون وقع خطواتها، السّريعة الّتي تسابقُ الرّيحَ، فأُسْقِطَ بِيَدِه، لذلك لجأ إلى إلقاء التّفّاحة الثّالثة –وهي السّلاح الأخير له- من فوق كتفه إلى جانب الممرّ، حيث الأرض تنحدر نحو النّهر، فرأت عَيْنَا أتلانتا اللّماحتان، التّفّاحةَ الذّهبيّةَ تسقط على الأرض، وتجري بين الأعشاب، فبدت لها أروعَ منظراً، وأكثرَ سحراً من التّفّاحتين السّابقتين، وأدركت أنّها إنْ لم تبادر فوراً إلى التقاطها، فإنّها ستتدحرج إلى المياه العميقة، ثمّ تفقدها إلى الأبد، وهكذا تكون من نصيب غيرها. والتّفريطُ بها أمرٌ لم تُردْ أن تفعلَهُ قطّ!. ولكنَّ هذه التّفاحةَ، نظراً لإعاقةِ الأعشاب لها، انحرفت عن طريقها جانباً، فانشغلت أتلانتا بعض الوقت في التقاطها، واستطاع ميلانيون بسبب تأخّرها، أن يسبقها من جديد، وكاد يصل إلى الهدف!.

والسّؤال الّذي يخطر ببالنا الآن: «هل أجهدتْ أتلانتا نفسَها لتلحقَ به؟».

ما نعتقده تماماً، أنّها حدّثت نفسها قائلةً: «هذا الشّابّ أجمل شابٍّ رأيتُه في حياتي، وهو واثق الخُطوة في تصميمه، ورجاحة عقله، ولقد منحني ثلاثَ تفّاحاتٍ ذهبيّات، فهل يحقّ لي أن أسبقَه، لأجعله في عداد الأموات؟ إنّ هذا لن يحدث أبداً!».

ولهذه الأسباب جميعها تَرَكَتْهُ يصلُ إلى الهدف أوّلاً. ونتيجةً لتحقيقه قصَبَ السَّبْقِ أمام المشاهدين كافّةً، أصبحت أتلانتا حليلتَهُ. وبدون إجراء مراسيم الزّواج، واحتفالاته المعتادة، أخذها ميلانيون إلى بيته البعيد، وهناك عاشا معاً، بسعادةٍ وحبورٍ سنواتٍ كثيرةً.



الحصانُ والزّيتونُ

١- العثورُ على مَلِكٍ

في تلّةٍ حجريّةٍ شديدةِ الانحدارِ في بلادِ اليونان، عاش هناك في الأزمنةِ الغابرةِ، قومٌ فقراءُ، قليلو العددِ، لم يعرفوا بناءَ البيوت. لقد كان يسكنون في كهوفٍ صغيرةٍ، حفروها في الأرضِ، أو جوّفوها في الصّخور. وكان طعامُهُمُ الرّئيسُ، من صيد الحيوانات البَرّيّةِ في الغابات، أو من ثمرِ العُلّيقِ أو الجوز. ولم يتعرّفوا على صناعة الأقواسِ والسّهامِ، بل اقتصروا على استعمالِ المقاليعِ، والهراواتِ، والعُصيِّ المدبَّبة، سلاحاً لهم. أمّا ثيابُهُمْ فكانت قصيرةً مستعملةً، من جلودِ الحيواناتِ الّتي يصطادونها. وقد عاشوا في أعالي التّلال، الّتي أمّنَتْهُمْ من شرورِ الوحوشِ الضّاريةِ، المتجوّلةِ في المناطقِ المجاورةِ لهمْ. وكانت التّلّةُ الّتي يقطنُها هؤلاءِ منحدرةً من جميع جوانبها، حيث لا طُرُق للصّعودِ إليها، غير طريقٍ واحدٍ مأمونٍ؛ لأنّه كانت محروساً من أحد الرّجال في أعلاها.

وفي يومٍ من الأيّامِ عندما كان القومُ يصطادون في الغابات، عثروا على شابٍّ غريبٍ، ذي وجهٍ وسيمٍ، لكنّهم لم يستوعبوا شَبَهَهُ بهِمْ إلاّ بصعوبةٍ بالغة؛ لأنّ جسمَه كان نحيفاً ولَدْناً، مكّنه من التَّحَرُّكِ بسرعةٍ ورشاقةٍ، بين الأشجارِ الخضراءِ المتكاثفةِ، حتّى ظنّوه ثعباناً في هيئةٍ بشريّةٍ، وهكذا كانوا مندهشين ومذعورين منه!.

ولقد حاول هذا الشّابُّ أن يكلّمَهُمْ، ولكنّهُمْ لم يفهموا أيّةَ كلمةٍ قد قالها لهم. فاضطرَّ هو عند ذاك، الإشارةَ إليهم أنّهُ جائعٌ، فأعطَوهُ ما يأكلُه. وبالرّغم من اندهاشهم، ولكنّهم لم يخافوه.

وكان شأنُهُمْ شأنَ الشعوبِ المتوحّشةِ البدائيّةِ في الغابات؛ لذلك فكّروا أن يقتلوه حالاً ويستريحوا منه، ولكنّهم أرْجَؤُوا الفتكَ به إلى أن يُرُوا نساءَهم، وأولادَهم هذا الإنسانَ التعبانَ — رؤيةَ العينِ — وأن يُسمعوهم كلامَهُ الغريبَ تماماً عن لغتهم. ومن أجل ذلك اصطحبوه معهم إلى بيوتهم، في أعلى الهضبة. وهناك خطر بباهم أن يَدْعُوْهُ يعيشُ بضعةَ أيامٍ، وبعد ذلك يقتلونه، ويقدّمونَ جسده ضحيّةً، إلى كائنٍ مجهولٍ، يتخيّلونَهُ إلهاً غامضاً؛ ليحصلوا على نوعٍ من الرِّضا من هذا الإله، الّذي يتحكّم بحياتهم ومصيرهم، حَسَبَ زعمهم.

وقبل أن ينفّذوا الفتكَ به، تبيّنَ لهم أنَّ هذا الشّابَّ كان طيّبَ السّريرةِ، لطيفَ المعشرِ؛ لذلك أحْجَمُوا عن غيّهم بفكرة القتل. ونتيجةً لتَحَقُّقِهِمْ من أمره، وطبيعة سلوكه، فكّروا أنَّ مُجرَّدَ إيذائه، والإضرارِ بشخصه، سيسبّبُ لهمْ حزناً عظيماً، ممّا جعلهم يصرفون النّظرَ بمنظارِ الشرّ عنه نهائيّاً، ولذلك استمرُّوا في تقديم الطّعام له، ومعاملته بالحُسْنى. وهو بدوره صمّمَ أن يتعاطفَ معهم ويتقرّبَ منهم، فغنّى لهم: أعذبَ الأغاني، الّتي أشجَتْهم، ولاعَبَ أطفالَهم الصّغارَ بمحبّةٍ لا توصفُ، وسعى سعياً حثيثاً، بحسن تَصرُّفه، ليجعلَ أيّامَهم أسعدَ ممّا كانت قبلاً. ويُسَجَّلُ له أنّه من فرط ذكائه، وشدّة استيعابه للأمور، تمكّن أن يتعلّمَ لُغَتَهَمْ في وقتٍ قصيرٍ. وأخيراً أعلن لهم أنَّ اسمَهُ: كيكروبْس، ثمّ بيَّنَ لهم: أنّهُ لجأ إلى بلدهم بعد أن تحطّمت سفينتُهُ، في مكان غيرِ بعيدٍ عن ساحل البحر. ثمّ حدَّثَهُمْ عن أشياءَ غريبةٍ، حدثَتْ له في البلد الّذي وافاهُمُ منه، والّذي ليس باستطاعته الآن أن يعودَ إليه أبداً.

ومن حُسْنِ الحظِّ، أنَّ هؤلاءِ النّاسَ بدؤوا يُصغُونَ إلى آرائه إصغاءً تامّاً، حيث أعجبهم سلوكُه فيما بعد إعجاباً ملحوظاً، ولم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتّى أخذوا يحبّونَهُ، وينظرون إليه باعتباره رجلاً، أحكمَ من عقلائهم بكثيرٍ، وهكذا أصبحوا يستشيرونه في كلِّ شاردةٍ وواردةٍ، وصغيرةٍ وكبيرةٍ في أمورِهِمِ الخاصّةِ. وحين وجدوا أنّه كان يَسْمُو بهم إلى الخير، داعياً إيّاهم إلى كلِّ عملٍ مفيدٍ، لم يرفض أحدٌ منهم لهُ طلباً.

واستطاع كيكروبْسُ —الرّجُلُ الثّعبانُ— كما كانوا يسمّونه، أن يفرضَ، بحسن إدارته، سُلْطَانَهُ عليهم. ورأوا أنَّ من مصلحتهم أخيراً، أن ينصّبُوهُ ملكاً على البلد، وخاصّةً أنّهم كانوا شعباً فقيراً، ومحتاجاً إلى رجلٍ حكيمٍ، يُصرِّفُ شؤونَهم المعاشيةَ تصريفاً جيّداً.

ولقد كان عندَ حُسْنِ ظنّهم تماماً، حين أصبح المرشدَ والأمينَ، والحافظَ حقوقَهُمْ، بحكمةٍ،

ودراية، وخبرة، مستمدّة من الواقع المَعيش. فقد علّمَهم تدريجيّاً كيف يصنعون الأقواسَ والسّهامَ، من أجل الحرب والصّيد، ثمّ درّبهم كيف ينصبُون الشّباكَ لصيد العصافير، وكيف يصيدون السَّمَكَ بوساطة الصنّارات، وقادهم قيادةً مظفّرةً لمقاومة الرّجال المتوحّشين، في أعماق الغابات الكثيفة المظلمة، وشدّدَ عزائمهم لقتل الوحوش الضّارية، الّتي تسعى إلى إلقاء الرُّعب في قلوبهم، والفتك بهم. ولكنَّ أهمَّ ما في الأمر: تعليمُهُمْ كيفَ يبنونَ البيوتَ، وكيف يسقفُونَها بالقَصَب، الّذي ينمو في المستنقعات المجاورة لهم، ويُضاف إلى ذلك: تعميقُ الحياة الاجتماعية في نفوسهم، فجعلهم يعيشون حياةً أسريّةً متماسكةً، بعد أن عاشوا زمناً طويلاً، حياةً متفرّقةً ممزّقةً، ليس لها أيّةُ روابطَ، حيث كانوا يعيشون كوحوش البرّيّة، الخالية من التّفكير. ثمّ أدخل أخيراً إلى حياتهم المعتقدات الدّينيّةَ. فأرشدهم إلى عبادة الإله العظيم جوبيتر، الّذي يعيش مع قومه الأشدّاء، على جبل الأولمب، وسطَ الغيوم.

٢- اختيار الاسم

وبعد قليل بُنيت هناك مدينةٌ صغيرةٌ في، أعلى التّلّة، عوضاً عن الكهوف البائسة، بين الصّخور. وكانت بيوتُها رائعةً، وفيها ساحةُ السّوق، وحولَها سورٌ قويٌّ، وفيها طريقٌ يؤدّي إلى بابٍ ضيّقٍ؛ حيث يُبْدَأُ بالنّزول منه إلى السّهلِ تماماً، ولكنّ هذا المكانَ حتّى الآنَ كان بدون اسم.

وفي أحد الصّباحات، بينما كان الملكُ ورجالُهُ الحكماءُ، جالسين معاً في ساحة السّوق، يخطّطونَ لجعْلِ البلدةِ قويّةً، ومتينةَ البناء، وفخمةً، شوهدَ غريبان في الشّارع العامّ. وليس بإمكان أحد من النّاس، أن يُخبِرَ كيفَ، ولا مِنْ أينَ أتَيَا!؛ وذلك لأنَّ حارسَ البابِ، لم يسمح لأحدٍ أبداً، أن يتسلّقَ الممشى الضّيّقَ، الّذي يؤدّي إلى التّلّة دون استئذان.

إلاّ أنَّ هذين الغريبين الاثنينِ وقفا هناك، وكان أحدُهما ذكراً، وكانت الأخرى أنثى. وكان كلاهما طَويلَي القامة، وذَوَي وجهينِ كبيرينِ، وملامحُهُما تدلّ على النّبل. حتّى إنَّ مَنْ رأوْهما لأوّلِ وهلةٍ وقفوا واجمين، ومتعجّبين من غرابتهما، لذلك سكتوا، ولم ينبسُوا ببنتِ شَفة!. وكان الرّجلُ منهما يتجلبَبُ دثاراً حولَ جسمه، ويحمل بيده صَوْلجاناً قويّاً، ذا ثلاثِ حرابٍ حادّةٍ مدبّبة، ولها نهايةٌ واحدةٌ.

أمّا الأنثى منهما: فكانت لا تتمتّع بقسطٍ من الجمال، يجذبُ الأنظارَ إليها، إلاّ أنّها ذاتُ عينينِ رماديّتينِ رائعتين، وتحمل بيدٍ رمحاً، وباليد الأخرى تُرساً، ذا صَنْعة عجيبة.

فبادرَ الرّجلُ النّاسَ المتجمّعينَ حولَهُ قائلاً: «ما اسمُ هذه البلدة؟». فحدَّقَ من يحيطون به باستغراب، و لم يفهموا قصدَه إلاّ بصعوبة!. ولكنّ رجلاً ذكيّاً كبيرَ السّنِّ منهم أجابه: «ليس لبلدتنا اسمٌ حتّى الآن، والقليلون منّا الّذين نعيشُ معهم على هذه التّلّة، يدعونها: (كريني). ولكنْ منذ أنْ وافانا ملكُنا: كيكروبْس، كنّا مشغولين بأعمال شتّى؛ بحيث لم يتوفرِ الوقتُ الكافي لنفكّرَ بالأسماء».

فسألتِ المرأةُ: «ولكنْ اين يوجدُ ملكُكُمْ كيكروبْس؟». فأجاب أحدُ الحاضرين فوراً: «إنّه في الجانب الآخر من السّوق، يتداولُ مع الرّجالِ الحكماءِ شأنَ المدينة».

فقال الرّجل: «أرشدونا إليه حالاً!».

ولّما علمَ كيكروبْس بسؤالِ الغريبَين عنه في ساحةِ السّوقِ توجَّهَ إليهما، ووقف أمامَهما باحترامٍ وإكبارٍ، منتظراً إيّاهما ليبدأا الكلامَ.

فقال الرّجل منهما: «أنا نبتون سيّدُ البحار!». وقالت المرأةُ: «أنا أثينا الّتي تمنحُ الحكمةَ للرّجال!».

أمّا نبتون فتابع كلامه: «إنّني أسمع في هذه الأيّام، بأنّكم تخطّطون بدأب وصبرٍ، جادِّينَ لتجعلوا بلدتكم مدينةً كبيرةً، وقد وافيتُ من عالم البحار، لأساعدكم في هذا التّخطيط. وما أطلبه منكم أن تُطلقوا اسمي على هذا المكان، حينئذٍ أكونُ لَكُمُ الحاميَ والنّصيرَ، وبعد ذلك ستتدفّقُ عليكم عن طريق البحار، ثروةُ العالَمِ كلُّها، وستتوجَّهُ إلى مدينتكم كلُّ البلدان من جميع الأصقاع، فتحمل إليكم البضائعَ الثّمينةَ، والذّهبَ والفضّةَ، وبذلك ستكونون حتماً سادةَ البحر».

والإلهةُ أثينا خاطَبَتْهم بقولها: «إنّ عمّي نبتون يعدكم وعوداً حسنةً، فلا بأسَ بوعوده»، ولكنْ أصغوا إليَّ جيّداً: «إنّني أطلب منكم أن تسمّوا بلدتكم باسمي أنا، ولسوف أمنحكم ما لا يوزن بالذّهب الأصفر الرّنّان، ومنه تعليمكم أن تعملوا ألْفاً من الأعمال المفيدة لكم، الّتي لا تعرفون عنها شيئاً. وسأجعل مدينتَكُمْ وطنيَ المحبوبَ دائماً وأبداً، وسأمنحكم أيضاً الحكمةَ، الّتي تؤثّرُ في عقولِ الرّجالِ وقلوبهم، وتُنْضجُ تفكيرَهم السّليم إلى نهاية الأزمان».

فانحنى الملك كيكروبْسُ إلى الإلهة أثينا، والتفت إلى الشّعب سائلاً إيّاهم: «مَنْ مِنْ هذين الإلهين الجبّارين ستختارون ليكون حامياً ونصيراً لبلدتنا، الّتي نسعى سعياً حثيثاً إلى إعلاء شأنها. فالإله

نبتون سيمنحنا الصّحة والثّروة، والإلهة أثينا ستمنحنا الحكمةَ والمعرفةَ. فعلى منْ منهما يقع اختيار كم؟».

فقال فريق منهم: «إنّنا نفضّل الإله نبتون والصّحّة!». وقال الفريق الآخر: «إنّنا نختار الإلهةَ أثينا والحكمةَ!». وعندما لم يتوضّح مع من تكون الكفّة الرّاجحة، انبرى من بين الجموع رجلٌ، مشهودٌ له بالحكمة، والنّصائح الهامّة، والحرصِ على مصلحة الشّعب فقال: «هذان الجبّاران أعطيانا وعوداً فقط، ولكنّهما ذكرا لنا أشياءَ مهمّةً كنّا نجهلها تماماً. إذاً فنحن لمنْ نصوّت؟ لا شكّ أنّنا سنصوّت لمن يبيّن لنا عمليّاً، كيف الصّحّةُ تكون، وكيف الحكمةُ تكون، فإنْ أعطانا أيٌّ منهما شيئاً متميّزاً ملموساً من المنفعة الحقّة، ففي هذا المكان علينا أن نناقشه بالضّبط والدّقّة، وأن نستوعبه ونتفهّمه، لنرجّحَ الأفضلَ منهما».

فصاح الشّعب: «إنّ ما قلتَهُ حقٌّ! إنّ ذلك حقٌّ تماماً!». فقال الغريبان على أثر ذلك: «حسنٌ جدّاً، كلانا سنعطيكم عطيّةً واقعيّةً، وستُحْسَمُ بالضّبط هذه القضيّة الآن وهنا، وبعد ذلك تختارون واحداً منّا».

ولقد قدّمَ نبتون العطيّة الأولى، حين وقف منتصباً بقامته العاتية في رأس التّلّة حيث كانت الصّخرةُ صمّاءَ جرداءَ، ودعا الشّعبَ أنْ يتجمّعَ حولَهُ؛ ليريَهم قوّته الجبّارةَ، فلقد رفع ثلاث حراب في الجوّ، ثمّ أنزلها بقوّة عظيمة، فبدأ البرق يومضُ، والأرض تهتزُّ، والصّخورُ تتشقّقُ تشقّقاً قويّاً، على امتداد نصف المسافة من أعلى التّلّة، ووصولاً إلى سفحها. ونتيجةً لما حدث: فقد قفز فجأةً خارجَ الشّقّ الواسع، مخلوقٌ عجيبٌ، أبيضُ اللّونِ، ناصعٌ كالحليب، له عنقٌ طويلٌ مُقوّسٌ، وعَرْفٌ جميلٌ، وذيلٌ من حرير.

و لم يكن قد رأى الشّعبُ مخلوقاً شبيهاً به من قبلُ. لذلك ظنّوه لأوّل وهلة نوعاً جديداً من الدّببة، أو ذئباً مفترساً، أو خنـــزيراً بريّاً، اندفع من بين الصّخور ليفترسَهُمْ، فأسرعَ بعضهم راكضين ليختبئوا في بيوتهم، بينما تسلّق آخرون الجدرانَ هرباً منه، وبقيَ بعضهم في أماكنهم، قابضينَ على أسلحتهم، درْءاً للخطر الدّاهم، الّذي اعتقدوا أنّه يُهدّدهم.

ولكنّهم حين رأوا هذا المخلوقَ العجيبَ، قد وقف بجانب نبتون هادئاً وديعاً، اقتربوا منه ليمعنوا النّظر فيه، فأعجبوا بجماله، وتناسقِ أعضائه، فاستقرّ في أذهانهم أنّه أروعُ الحيواناتِ، الّتي شاهدوها على الإطلاق.

فقال نبتون مفتخراً: «هذه هديّتي لكم، وهي من أفضل الهدايا، الّتي تُهدَى للرّعايا المتّقين، فهذا

الحيوانُ سيقتحم، عندما تمتطون صهوته، صفوفَ الأعداءِ في أيّام الحروب، وفي أوقات السّلم ستَحْمِلُ بعضُ أنواعِهِ أثقالَكم، وتجرُّ عرباتِكم ومركباتِكم. والأصائلُ من الخيول ستعتلون ظهورها أعزاءَ كراماً، وتسابِقُ بِكم الرّيح، ولقد قال الشّاعر: أعزُّ مكانٍ في الدُّنا سَرْجُ سابحٍ[١٧١]».



[١٧١] السّابح: يقصد به الحصان.

فسأل الملك: «ما اسمه؟».

فأجاب الإله نبتون: «اسمه الحصان».

وبعد ذلك جاء دور الإلهة أثينا، فوقفت على قطعةٍ معشوشبةٍ من الأرض خضراءِ اللّون، كان من المعتاد أن يتوافدَ إليها أطفالُ البلدة مساءً فيلعبون، وهناك دقّت رأس رمحها في الأرض، فرحّبت الطّبيعة بطلعتها المهيبة على الأرض، وصدحت لها الموسيقا في السّماء، لأنّها سيّدة الفنون، وسرعان ما نبتت منَ الأرض شجرةٌ، أغصانُها رقيقةٌ، ذاتُ أوراقٍ قاتمة، وأزهارٍ صغيرةٍ بيضاءَ، ثمّ ما لبثت أن تحوّلت إلى أثمارٍ خضراءَ، تضرب أحياناً إلى اللّون البنفسجيّ، وقد كان الجمهور مندهشاً ممّا يجري؛ لأنّ المشهدَ كان رائعاً جدّاً، ويا له من مشهد!.

ثمّ قالت الإلهة أثينا الواثقة بنفسها، بلهجة الرّعاية، والحبّ للجماهير الملتفّة حولَها:

«هـذه عطـيّتي الهامّـة لكـم يـا أهـل هـذه البلـدة الأعـزاء،
وهـي أقصـى مـا أسـتطيع مـنحكم إيّـاه،
فهـي الشّـجرةُ الّـتي تطعمكـمْ أثمارَهـا الدّسمـةَ حينمـا تجوعـونْ،
ودائمـاً مـن أشـعّةِ الشّـمسِ المحرقـةِ بهـا تسـتظلّونْ،
وبجمالهـا الفتّـان أمـام المـلأِ مـن النّـاس تفـاخرونْ،
وبالزّيـتِ المسـتخرجِ مـن ثمرِهـا سـتتغذّونْ».

فسأل الملك: «وماذا ستدعى؟».

فأجابت أثينا: «ستدعى شجرة الزّيتون».

وبعد أن نطق هذان الجبّاران، ووضّحا الهديّتين، وقيمتهما، أخذ الملك ومستشاروه، يتناقشون في قيمة كلٍّ من الهديّتين: الحصان، وشجرة الزّيتون، وفُسِحَ المجالُ للحكيمِ المسنِّ الّذي تكلّمَ، سابقاً بالكلام من جديد، فقال: «أيّها الأخوة المجتمعون في هذا المكان، لاختيار اسم بلدتكم، الّتي بنيتموها بعرق جباهكم، إنّني سأعْلِمكُمْ علمَ اليقين: إنّه بالرّغم من فوائد الحصان الجليلة، فإنّني لا أرى استخدامَه، ضروريّاً لنا الآن، لأنّه لا تتوفّر لنا العرباتُ للنّقل، ولا المركبات للحرب، ولا المحاريث للزّراعة، ولا نعلم بالحقيقة، كيف تكون هذه الأدوات، ولا استعمالها. وأعتقد بأنّه لا يوجد بيننا في هذه الظّروف الإنشائيّة، من يودّ أن يمتطي صهوة الحصان، ليسابق

الرّيح، أمّا شجرة الزّيتون فستكون مفيدةً وجميلةً حين نغرسها حولَ مدينتنا، فهي الّتي ستغذّينا بزيتونها، وزيتها، وتسند قلوبنا في أوقات الجوع، وتبعث الرّاحةَ والطّمأنينةَ والسّرورَ في أعماقنا، وأعماق أولادنا إلى الأبد، نظراً لفوائدها الصّحيّة الّتي لا تحصى».

فسأل الملك، وهو يلتفت إلى الشّعب: «أيّهما نختار؟» فصاح الشّعب كلّه: «إنّ أثينا العظيمة قد منحتنا الهديّة الأفضل لنا، لذلك فإنّنا نختار بكلّ ثقةٍ وشكرٍ جزيلٍ، الهديّةَ الأرجح، أيْ أثينا والحكمة».

فقال الملك: «ليكن ما تريدون، وبناءً على مشيئتكم، سيكون اسم بلدتنا من الآن فصاعداً: أثينا».

ومنذ أن سمّيتْ البلدةُ بهذا الاسم: نمت، وانتشرت، واشتهرت. و لم يعد هناك متّسعٌ في أعلى الهضبة لسكن النّاس، لذلك بنيت البيوت في السّهل، حول سفح التّلّة، وشُقّ طريقٌ عريضٌ وممتدٌّ، إلى شاطئ البحر، مسافةَ ثلاثة أميالٍ. وهكذا لم توجد مدينةٌ أكثر، رونقاً وحضارةً وتقدّماً، في العالم كلّه مثل أثينا العظيمة، في ذلك الزّمن. وتكريماً للواهبةِ العظيمةِ أثينا، بنى الشّعب لها معبداً في ساحة السّوق، في أعالي التّلّة، وإنّ خرائبَ هذا المعبد لا تزال شاهدةً عليه. أمّا شجرة الزّيتون المباركة فقد: نمت وازدهرت حول المدينة ازدهاراً عظيماً.

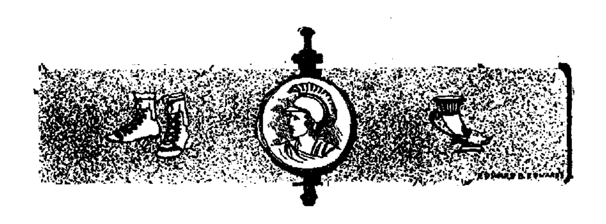
وإذا تسنّى لك أن تزورَ أثينا فإنّ شعبها، سيريك المكانَ القديمَ نفسَه، الّذي حلّ وأقام فيه أجداده سابقاً.

وبمرور الأعوام، فإنّ غاباتٍ أخرى من شجرة الزّيتون تكاثفت، وأصبحت شجرةً مقدّسةً، في بلاد الإغريق جميعها، وفي المناطق المجاورة لها حولَ البحر العظيم.

أما الحصان فقد هام بعيداً عبر السّهول، باتّجاه الشّمال، ووجد وطنه أخيراً، في تساليا البعيدة، حول بحر بنيوس.

ولقد سَمِعْتُ روايةً تزعمُ: «إنّ كلّ الخيول تنحدر من ذلك المكان، الّذي فَجّرَهُ نبتون العظيم في الصّخرة».

ولكنّ صحّةَ هذه القصّةِ تستدعي الشّكّ، ولا نستطيع الجزم بها.



مغامرات ثيسيوس

١- إيجيوس وإيثرا

ثلاث سنوات مرّت على حكم ملك أثينا المدعوّ: إيجيوس، الّذي لم يُرْزَقْ ولداً. ولكنْ كان له من أبناء الإخوة خمسون، أولئك الّذين كانوا ينتظرون موته بترقّبٍ وصبرٍ. وكلٌّ منهم كان يمنّي نفسه بأن يكون الوارث للعرش.

لقد كان هؤلاء قوماً متوحّشين حقيرين، سيّئي السّلوك والسّمعة، بين النّاس جميعاً. وقد توجّس أهل أثينا من مستقبل الحكم شرّاً مستطيراً، إنْ أصبحتْ مدينتُهم مذعنةً لسلطة أحد هؤلاء الورثة الأوباش. ولكنّهم أثناء حكم إيجيوس، وهو على قيد الحياة، لم يتجرّؤوا أن يؤذوه كثيراً بسبب قبضته الحديديّة، في قيادة دفّة الحكم، إلاّ أنّهم اكتفَوا بأنْ يقضوا سحائب أيّامهم، آكلين شاربين على موائد الملك العامرة، ومتنابذين متخاصمين فيما بينهم.

وحدث في صيفٍ من الأصياف أنّ إيجيوس الملك، غادر مملكته في رحلة للاستجمام والرّاحة، تاركاً زمام الحكم لكبراءِ القوم الموثوقين جدّاً، الّذين اختارهم هو بنفسه. وقدْ يَمَّمَ وجهة السّفر، عبرَ بحر سارونيك، شطرَ أقْدَمِ المدنِ وأشهرها، ألا وهي: تروزن الّتي اضطجعت مستلقيةً، عند سفوح الجبال الشّامخة المخضوضرة، في الجانب الآخر منَ الشّاطئ الجميل. وفي الواقع فإنّ تروزن لا تبعد أكثر من خمسين ميلاً عن أثينا، وهي تستقرُّ قائمةً بينها وبين الجزيرة الأرجوانيّة، في بحر إيجة.

لكنّ المسافات كانت تبدو للنّاس، في ذلك الزّمن الممعن في القدم، بين المدن كبيرةً جدّاً، لأنّهم كانوا يقطعونها على ظهور الدّوابّ، أو مشياً على الأقدام، حيث لا تتوفّر السّفن بحريّاً، من شاطئٍ بحريٍّ إلى شاطئٍ آخرَ.

وإنْ فضّلَ المسافرُ السّفرَ عن طريق البرّ، فهناك عقباتٌ كثيرةٌ تعترض سبيلَه منها: الانعطاف الكبير أثناء الدّوران حول البحر، ومنها العوائقُ الّتي يسبّبها قطّاع الطّرق، والوحوش الكاسرة، مما يجعل محاولته للسّير في هذا الاتجاه محفوفةً بالأخطار. لذلك فإنّ الّذين يتجاسرون على هذه المغامرة نادرون.

وهذه الزّيارة الملكيّة، جعلت ملك مدينة تروزن بيتيوس في سرورٍ حقيقيٍّ، حينما كحّلَ عينيه برؤية ضيفه الزّائر الملك إيجيوس، ملك أثينا، لأنّهما ترعرعا وعاشا صَبيّين معاً، لذلك رحّب به في مدينته تروزن ترحيباً حارّاً. وعمل كلَّ ما بوسعه لإكرامِ صديقِه الزّائرِ، كي يجعله سعيداً ومبتهجاً، في بلدِه الثّاني تروزن، أشدَّ الابتهاجِ والسّعادة.

ويوماً بعد يومٍ كانت تتضاعف، الاحتفالات الرّائعة، والأجواء اللّطيفة، حيث كانت تصدح الموسيقا، في أبهاء قصر ملك مدينة تروزن، العريقة في القدم. وحقّاً فقد أمضى الصّديقان ساعاتٍ وساعاتٍ، في محاولة استعادة ماضيهما السّعيد الغالي على قلبيهما، وخاصّةً حينما كانا يتحدّثان عن حماقاتهما الصّبيانيّة، وتصرّفاتهما النّزقة في زمن الصّبا، وعن تذكّرهما آلهتهما القويّة الّتي كانت تناصرهما حسب زعمهما، في أويقات عشقهما وغرامهما المشبوب.

وبتوالي الأيّام أزف موعدُ مجيء السّفينة المحدّد لها سابقاً، لتبحرَ وتُقلَّ إيجيوس إلى مملكته أثينا. ولكنّ الملك لم يكن متهيّئاً نفسيّاً للرّجوع إلى بلاده، وربّما يعود السّبب إلى ما عاناه من مشقّات الحكم، وحذره من هؤلاء الأقرباء الّذين يتربّصون به الدّوائر، ولاسيّما أنّه قد صرّح من قبلُ، أنّه سيستمرّ مُستجمّاً بعضَ الوقت في ديار صديقه الملك، معتمداً على اختيارهِ من ينوبون عنه، في سُدَّة الحكم، من الكبراء الحكماء المخلصين، الموثوق بهم، الّذين بإمكانهم أن يديروا البلاد إدارةً جيّدةً في غيابه، لذلك فإنّ السّفينة الّتي أتت إلى تروزن، قفلت راجعةً إلى أثينا بدونه.

والحقيقة أنّ الملكَ إيجيوسَ، لم يتأخّر في تروزن من أجل المتعة والرّاحة، اللّتين نَعِمَ بهما في قصر صديقه القديم فحسب، لكنّ الأمر الّذي شدّه إلى البقاء بالدّرجة الأولى، تعلّقه بابنة بيتيوس

الحسناء إيثرا، الّتي كانت كصباحات الصّيف جمالاً وفرحاً، وتيهاً، بين صبايا تروزن كلّهنّ، والّتي لم يسعد الملكُ قطّ إلاّ بطلّتها البهيّة.

وتتويجاً لهذا اللّقاء بين الملك وإيثرا، وتسجيلاً لأجمل اللّحظات الغراميّة في حياته، عُقِدَ قرانُ الملك إيجيوس على الأميرة إيثرا، في حفل زواجٍ سعيد، يليق بهما في قصر والدها الملك بيتيوس، بكتمانٍ شديد؛ لأنّ إيجيوس الملك رأى أنّ من الحكمة وحسن السّياسة، أن يكون حذراً أشدّ الحذر خوفاً من أن يتسرّب خبر زواجه، إلى أولاد أخيه الأشرار، فيغضبون غضباً شديداً؛ لأنّ هذا الزّواج يتعلّق بقضيّةِ وراثة المُلْكِ، وعند ذلك سيرسلون رجالاً مشاغبين إلى تروزن، ليؤذوه وينغّصوا عيشه.

وهكذا مرّت شهورٌ وشهورٌ، وإيجيوس الملك يؤجّل رحيله عن تروزن، من أجل عروسه إيثرا، ثقةً منه بالكبار الحكماء الّذين نابوا عنه في شؤون الحكم كما ذكرنا.

وكان هذا التأجيل فألاً مباركاً له، ففي أحد الصّباحات الرّائعة، حينما حفلت حدائق تروزن بالورود، وكان نبات الخَلَنْج يخضوضر على التّلال، وُلِدَ صبيٌّ لإيجيوس وإيثرا، وكان طفلاً ذا وجهٍ جميلٍ، تتّصف ملامحه بالسّطْوة والقوّة، في هذه الطّفولة المبكّرة، أمّا عيناه فكانتا حادّتي البصر، لامعتين، كعيني عقابِ الجبلِ، تُشعّان إقداماً وألمعيّةً.

وبعد هذا الزّواج الميمون أصبح الملك إيجيوس إلى جانب عروسه، ولم يعدْ يكترث بالعودة إلى وطنه، مع أنّه كان مزمعاً على السّفر سابقاً. ونتيجةً لتمهّله صعد إلى جبلٍ من جبال تروزن، وصلّى إلى الإلهة أثينا، ملكة الهواء، طالباً منها أن تمنحه الحكمة، وترشده إلى ما يجب عليه أن يفعله في المستقبل.

وفي تلك اللّحظات الّتي كان يجأر فيها بالدّعاء إلى الرّبّة الحكيمة، رست في الميناء سفينةٌ، وقد تبيّن فيما بعد أنّها تحمل رسالةً للملك من مملكَتِه أثينا، تتضمّن أنباءً سيئةً، تنذر بالويل والثّبور، وعظائم الأمور، وقد ورد في مطلعها ما يلي:

«تعالَ أيّها الملك، إلى وطنك دون تأخير، تعالَ مسرعاً، وإلاّ ستخسر مملكة أثينا إلى الأبد».

تلك عبارات الرّسالة الّتي أرسلها له كبراء قومه، الّذين سلّمهم دفّة القيادة، والحكمِ أثناء غيابه، وكان تفصيلُ قولِ الكبراء الحاكمين كما يلي:

«إنّ مينوسَ الكبيرَ، ملكَ كريت، جاء من وراء البحر؛ بأسطوله الضّخم، وقد حشد عدداً

كبيراً من جنوده المدجّجين بالسّلاح، ليغزونا في عقر دارنا، وقد هدّدنا بأنّه سيُعْمِلُ السّيفَ في رقاب النّاس، وسيضرم النّار في أسوار مدينتنا أثينا الحبيبة، والأنكى من ذلك تصريحه المرعب؛ بأنّه قد قرّر أن يذبحَ خيرَ الأبطال الشّجعانِ ذبحَ النّعاج، وسيجعل الباقين منهم، وهم: أولادنا، وفلذات أكبادنا رقيقاً خادمين له، وسيسبي نساءَنا الطّاهراتِ عُنْوَةً، لذلك فيا أيّها الملك العظيم: تأهّبْ للعودة السّريعة، كي تنقذَنا من براثنه!».

وبعد تلاوة هذه الرّسالة الّتي تنذر بالشّرّ، صاحَ الملك من أعماق ألمه قائلاً: «إنّ تلكَ الصّرخةَ الّتي أصرخها الآن هي صرخةُ الواجب!». وبقلبٍ مفعمٍ بروح الكفاحِ والنّضالِ، هيّأ نفسه للرّحيل فوراً عبر البحر، ليعزّزَ دفاعَ شعبه الطّيّب، ويقوده إلى النّصر الموزّر».

لكنّه، ويا للأسف، لم يصطحب معه زوجته الجميلة إيثرا، ولا طِفْلَها الرّائعَ، خوفاً من أبناء أخيه المتمرّدين، والخارجين على القانون، الّذين لا يتورّعون أن يقضوا عليهما – إنْ تمكّنوا – قضاءً مبرماً!.

ولمّا تدانى الوداعُ، وأزفت ساعةُ الرّحيلِ، خاطب الملك زوجته منفعلاً وحزيناً، ومتأثّراً غاية التّأثّر، وهو يقول لها:

«يا أحسنَ النّساء، كلَّ النّساء أخلاقاً، وحُسْنَ تصرّفٍ، وأجملَهُنَّ وجهاً وقواماً! أصغي إليَّ جيّداً يا ابنة بيتيوس: «إنّني سأفارقكم مرغماً في التوِّ، وسوف لن أشاهد أبهاءَ قصر أبيكِ الفسيحةَ بعد اليوم، ولا تروزنَ المدينةَ العريقةَ العزيزة على قلبي، ولقد كتب عليَّ ألاّ أكحِّلَ ناظرَيَّ برؤيةِ وجهكِ الحبيبِ مرّةً ثانيةً!. ولكنْ ألا تتذكّرين شجرةَ البلّوط، الّتي طالما تفيّأنا ظلالَها، في أويقاتِ الحبِّ والهيامِ، تلك الّتي تنتصب شامخةً، في سفح جبلِ مدينتكم العظيمة، وتلك الصّخرةَ الكبيرةَ المسطّحةَ، الّتي تقع على مسافةٍ قصيرةٍ خلفَها. والّتي لم يستطعْ أيُّ رجلٍ مقتدرٍ، ولا أنا نفسي أن أرْفَعَها أو حتّى أن أزَحْزِحَها من مكانها بأيِّ حالٍ من الأحوال. وسأُعْلِمُكِ الآنَ، أنّني قد خبَّأتُ سيفيَ المعروفَ، وخُفَّيَّ اللّذَيْنِ جَلَبْتُهما معي من أثينا إلى تروزن، وسوف يبقى هذان الأثران مطمورَيْنِ تحت تلك الصّخرة، حتّى يشتدَّ عودُ ولدِنا، ويقوى ساعدُه، ويصبحَ في عداد الأبطال الغرّ الميامين، فيرفَعَ هذه الصّخرةَ الهائلةَ بمفرده، ويستحوذَ على ما تحتها بنفسه.

اعْتني به يا إيثرا، يا حبيبةَ القلبِ، عنايةً فائقةً، ليس الآن فَحسْبُ، بل إلى ذلك الحين، في

غَدِهِ المأمول. وأرجوكِ أيّتها العزيزةُ أن تحدّثيه عن والده إيجيوس، وتنصحيه أن يلْتمِسَني على سرير الملك، في أثينا!».

وإثرَ ذلك الموقف المؤثّر قَبّلَ الملكُ إيجيوسُ زوجتَهُ وطفلَهُ قبلةَ الوداع الأخير، والدّموع تنحدر من عينيه، وركب السّفينةَ، ملتاعَ القلبِ والخاطرِ، وأما الملاّحون فصرخوا قُبَيْل الرّحيل: «إنّ المجاذيف قد تعمّقت في ماء البحر وإنّ الشّراعَ الأبيضَ، قد بسط ذراعيه للنّسيم العليل!». وعند ذلك أطلّتْ إيثرا من نافذة قصرها، وهي تجهش بالبكاء، فرأت سفينةَ زوجها الملك، تشقُّ عبابَ اليمِّ، ثمّ تغيبُ في الماءِ الأزرقِ، وهي تتّجه إلى بحر إيجه، وإلى شاطئِ أتيكا البعيد، البعيد!.

٢- السّيف والخفّـان

ولقد انصرمَ عامٌ بعد عامٍ، و لم يصل إلى سمع إيثرا أيُّ نبأ عن أحوال زوجها الملك في ذلك التّاريخ من الجانب الآخر من البحر. ولكن كان من عادتها، بعد ذلك التّاريخ أن تتسلّق الجبل الكائن فوق مدينة تروزن مرّةً بعد مرّة، وتجلس هناك كلّ يومٍ، مطلّةً على البحر، محدّقةً في مياه الزّرقاء، وفي التّلال الأرجوانيّة اللّون، خلفَ الشّاطئِ البعيد الباهت من بحر إيجه.

وكانت ترى من آنٍ إلى آخرَ، سفناً مجنّحةً بيضاءَ مُبْحِرةً من عُرض البحر، وقد رَوَى عن هذه السّفن رجالٌ من تروزن قائلين: «من المرجّح أنّها مراكبُ كريتيّةٌ، محتشدةٌ بمحاربين مدجّجينَ بالسّلاح، منهمكين في خوضِ الأسفارِ البحريّة القاسية، مستعدّينَ للحرب».

وفي ذلك الوقت الحرج أُشيْعَ أن الملك مينوس، ملكَ كريت، قد استولى بأسطوله البحريّ القاهر، على سفنٍ أثينيّة كثيرة، وأحرق جزءاً من المدينة، وأجبرَ شعبها أن يدفعوا جزيةً فادحةً، وهم صاغرون! ولكنَّ ما ذكرناه ربّما قد كان إشاعةً، والغالبُ أنّه: لم تتسرّب أخبارٌ رسميّةٌ، حول ما جرى هناك بالضّبط.

وفي هذه الأثناء فإنّ طفلَ إيثرا، نما نموّاً جسديّاً مطّرداً، وخاصّةً بالطّول، وكانت وجنتاه محمرّتين، وبالرّغم من صغرِ سنّه، فكان قويّاً كَشبْلِ الأسدِ، وقد سمّتْهُ أمُّهُ: ثيسيوسَ.

وقد تسلّق بصحبة أمّه قمّةَ الجبل، وأطلّ منها على البحر، في اليوم الّذي بلغ به الخامسةَ عشرةَ من عمره. عند ذلك قالت الأمّ متحسّرةً: «آه ثمّ آه، لقد كان من المحتّم أن يزورَنا والدُك منذ زمنٍ، من جهة البحر فقط، كما أتصوّر!».

فقال ثيسيوس: «إنّكِ تذكرينَ والدي دائماً؟ فمن يكون والدي؟ وأينَ هو؟ ولماذا تراقبينَ مجيئَه، وتنتظرينه بصبرٍ نافذ، وتتمنّين من أعماقكِ أن يحلّ في ربوعنا؟. أخبريني يا أمّاه! أرجوكِ أن تخبريني عن كلّ شيء!».

فقالت أمّه محاولةً التهرّبَ من الإجابة عن سؤاله: «انظرْ جيّداً يا ولدي العزيز إلى الأمام، هل ترى بأمّ عينيك تلك الصّخرة الكبيرة المنبطحة، الّتي تستلقي نصفَ مدفونة في الأرض، والمغطّاة بالطّحلب، واللّبلاب الزّاحف عليها، حدّق النّظر إليها، فهل بإمكانك أن تحقّق أمنيتي برفعها؟».

فأجابها ثيسيوس: «سأحاول رفعها يا أمّاه!».

فما كان منه إلاّ أن أبْعَدَ التّراب، عن جوانبها بكفّه، ثمّ أمسك بطرفيها غير المستويين، وجذبها جَذْبةً شديدةً، وحاول بكل قواه مُجْهِداً جسمَهُ في ذلك، حتّى كاد أن ينقطعَ نَفَسُهُ، فتوجّعت ذراعاه من جرّاء الشّدّ، وتصبّبَ جسمه عرقاً غزيراً، ثمّ قال أخيراً: «إنّ المهمّة الّتي كلّفتِني بها يا أمّاهُ صعبةٌ جدّاً، ولكي أحققَ أمنيتَكِ عليَّ أنْ أكونَ أقوى جسماً، وأشدَّ حيويّةً، ولكنّني أسألك يا أماه بإلحاحٍ: لماذا ترغبين كلَّ الرّغبة في رفعها؟». فأجابته أمّه إيثرا: «عندما تصبح يا ولدي قادراً على رفعها بسهولة، فإنّني سأخبركَ معلوماتٍ كافيةً وافيةً عن والدكَ!».

ومنذ ذلك الوقتِ أخذ الفتى يخرج كلَّ يومٍ، من أجل الرّياضة والتّدريب الشّاقّ، ويمرّن نفسه على الرّكض، والوثب، والرّمي، ورفع الأثقال. وقد دأب في تدريباته، على دحرجة بعض الصّخور من مكانها يوميّاً، وقد كانت بدايتُهُ تحريكَ الأثقال الصّغيرة. والّذين رأوه من النّاس يفعل ذلك ،سخروا من عمله العبثيّ أشدّ سخريةٍ، وقد ازدادَ هزؤهم، حين شاهدوه يحرّك الصّخورَ المختلفةَ، ويلهث، فتحمرّ وجنتاه من شدّة التّعب، وبَذْلِ الجُهْد، وخاصّةً عند إصراره ألاّ يتوقّف إطلاقاً عن رفع الأثقال، الّتي تعترضه في طريقه!. وبسبب شدّة اهتمامه بتدريباته المستمرّة، ومواظبته على العمل الدّؤوب صارت أربطة عضلاته متينةً، أمّا عضلاتُهُ ذاتُها فأصبحت كالعتلاتِ الحديديّة الشّديدة.

وفي العام التّالي صعد إلى الجبل مع والدته، وحاول مرةً أخرى أنْ يرفع الصّخرةَ الكبيرة، ولكن دون جدوى، فتراجع أمام زحزحتها مدحوراً، فقال منكسرَ الخاطر: «اعذريني يا أمّاهُ، فإنّني لم أَقْوَ القُوَّةَ الكافيةَ، ليتحقق ما تريدين!».

فقالت أمّه إيثرا: «صبراً جميلاً يا ولدي، ولا بأس بجهودك الكبيرة. ولا شكّ أنّ المهمّة

صعبةٌ، ولا بدَّ لكَ من تدريباتٍ مضاعفة، وستحقّق النّجاح في نهاية المطاف، بمشيئة الآلهة!».

فما كان من الفتى إلاّ أن أعاد الكرّة، راكضاً، قافزاً، طارحاً نفسهُ على الأرض، ورافعاً أثقالاً أكبرَ من السّابق. ثمّ عمد إلى ترويض الخيول البرّيّة، في سهول تروزن، وصيد الأسود في جبالها، ثمّ سبح في شواطئها؛ حتّى إنّه عمدّ إلى عدم الحركة، ومارس السّكون والهدوء التّامّين، تتويجاً لتدريباته القاسية.

وهكذا أصبحت قوّته، وسرعته، ومهارته، في الألعاب الرّياضيّة، مثارَ إعجابِ كلّ من عرفه من الرّجال في مدينته. وصارت الشّغلَ الشّاغلَ لأهلِ تروزنَ العريقة، روايةُ أساطيرِ بطولاتِ، وصنائعِ الفتى ثيسيوسَ بن إيثرا، وحفيدِ الملك بيتيوس.

ولكن يا لَخيبة الآمال!. فعندما حاول مرّةً أخرى، وهو في السّابعةَ عَشْرَةَ من عمره، أن يحرّك الصّخرة الكبيرة الّتي استقرّت راسخةً عند شجرة البلّوط، في سفح جبل تروزن، لم يستطعْ إلى ذلك سبيلاً.

فنظرت إيثرا إلى ولدها مرّةً أخرى مشفقةً، وخاطَبَتْهُ قائلةً: «ألا فَلْتَمنَحْكَ آلهةُ الأولمبِ الصّبّر والجَلَدَ، من أجل مضاعفة تدريباتك السّابقة، لقضاء مهمّتك الشّاقّة، يا ولدي ثيسيوس الحبيب!». ولفرط تأثّرها ممّا يعانيه من مشاقّ، أخذت الدّموع تنهمر من عينيها مدراراً.

ولما شاهد ثيسيوس تأثّر أمّه، ودموعها الغزيرة، هالَهُ ما رأى!. لذلك عاد بعزيمة لا تلين لتجديد تدريباته المستمرّة، وقد تعلّم الآن كيف يستخدم السّيفَ البتّارَ، في معمعة القتال، وكيف يستعمل فأسه القاطعة، في كيلِ الضّرباتِ للخصومِ، وكيف يقذف الأثقالَ الهائلةَ، إلى أبعد النُّقَط، وكيف يحمل الأحمال الضّخمةَ، إلى مسافاتٍ بعيدة، حتّى جعل رجالَ تروزن الشّجعانَ يقولون عنه: «منذ أيّام هرقل الجبّار، لم توجد قوّةٌ عظمى تتمثّل في جسم رجلٍ واحدٍ، كما تمثّلتْ في جسم هذا الفتى الشّجاعِ المقدامِ!».



وحينما زاد سِنُّهُ سنةً واحدةً، فأصبح في الثّامنةَ عشْرةَ من العمر، تسلّق الجبلَ مرّاتٍ عديدة. وفي المرّة الأخيرة انحنى بجسمه القويّ، وأمسك بالصّخرة الضّخمة، فأذعنتْ صاغرةً ليديه، واستطاع أن يرفعها بسهولةٍ عن الأرض. ولكن كم كانت دهشته شديدةً،حين وجد تحتها سيفاً برونزيّاً،مرهفَ الحدّين، وخفّينِ مَلَكيّيْنِ جميلينِ مذهّبيْنِ!. ففرح فرحاً عظيماً بهذه اللّقيا، ثمّ بادر أمّه في نشوةِ المنتصرِ، قائلاً لها: «لقد آن الأوان يا أمّاه أن تخبريني: كلَّ ما يتعلّق بوالدي!».

وهكذا أزف الوقت المناسب لهذه الأمّ الصّابرة، أن تتكلّم الآن عن السّرّ المكتوم؛ ونتيجةً لذلك فقد زغردتْ طويلاً، واقتربت من ابنها الوحيد، وقبّلته قبلاتِ النّصر، وشدّت حزامَه بالإبزيم، ووضعت في قدميه الخفّين الذّهبيّين، ثمّ أخبرته من يكون والده، ولماذا اضْطُرَّ أن يتركه ووالدته في تروزن، وكيف طلب منها أن تعتني به عنايةً فائقةً، وأنّه يتوجّب عليها حينما يشتدُّ عودُه، ويقوى ساعدُهُ؛ بحيث يتمكّن أن يرفع الصّخرة الهائلة، ويشاهد ما تحتها ويحوز عليه، فحينئذ يكون بمقدوره أن يذهب إلى أثينا ليلتمس والدَه الملكَ هناك».

ولقد كان سرورُ ثيسيوسَ عظيماً، حين سمع هذا الكلام لأوّل مرّة من أمّه، فبرقت عيناه الواسعتان المتكبّرتان، وقال بثقةٍ وشغفٍ كبيرين: «عليّ واجبٌ ملحٌّ أن أكونَ على أتمّ الاستعداد، يا والدتي العزيزة، للرّحيل في هذا اليوم فوراً لقضاء مهمّتي الخطيرة، ومشاهدة والدي الملك، في مدينته الشّهيرة!».

وبعد أن خاطب أمّه بهذا الكلام الحاسم، هبط معها من أعلى الجبل، ليخبرا الملك بيتيوس جدّه العزيز، عمّا جرى لهما، وخاصّةً عن عثور حفيده ثيسيوس، على السّيف، والخفّين الذّهبيّين، تحت الصّخرة الكبيرة. ولكنَّ الملكَ المسنَّ عوضاً أن يفرح، وتعلو الابتسامة شفتيه، سرعان ما تسرّب الحزن إلى نفسه، وهزّ رأسه متأسّفاً، حين علم أن حفيده الّذي أحبّه كثيراً، والّذي عاش في حضنَيْه، يزمع الآن على فراق تروزن، ويصمّمُ على السّفر السّريع. ولقد حاول الملك الشّيخ جاهداً،أن يُثْنِيَهُ عن مخاطراته، واندفاعاته غير المترويّة، وقال له: «كيف تستطيع أن تنفذ إلى أثينا، في هذه الأوقات الصّعبة العصيبة، الّتي لا يخضع فيها النّاس للقانون، فالبحر غاصٌّ بالقراصنة، لدرجة أنّه لم تُقْلِعْ سفينةٌ عبر بحر سارونيك، منذ أن غادرَ والدُك، ذلك الصّديقُ الودودُ مدينتَنا، لينقذ شعبه الأثينيّ من بطش مينوس: ملك كريت، منذ ثمانيةَ عشرَ عاماً!».

وحين رأى الملك المسنّ، الّذي حنّكته التّجارب، حفيدَه ثيسيوسَ مزمعاً على السّفر،

ومصمّماً على المغامرة في هذه الظّروف الخَطِرَة، قال له: «إذا كان لا بدّ من ذهابك إلى أثينا، أيّها الحبيب ثيسيوس، فلديّ سفينةٌ سأخصّصها لسفرك فقط، ربابنتُها شديدُو الحزْمِ والعزم، وهي متينة الهيكل، وسريعةُ الإبحار، وسيرافقك فيها من تروزن، خمسون من الرّجال الشّجعان المدجّجين بالسّلاح. ولعلّ هبوبَ الرّياحِ الحسنة، ووجودَ القلوب غير الهيّابة، سوف ينجّيانك من القراصنة الأشرار، ويوصلانك إلى أثينا سالمًا، برعاية الآلهة!».

فسألَهُ ثيسيوس: «ما الطّريق الخطر جدًّا، يا جدّيَ العزيز، أهو الطّريق البحريّ بوساطة السّفينة، أم الطّريق البرّيّ مشياً على الأقدام، حول منعطف اليابسة الطّويل؟!».

فأجابه جدُّه: «لا شكّ أنّ الطّريقَ البحريّ، في هذه الظّروف محفوفٌ بالأخطار، كما ذكرتُ سابقاً، ولكنّ الطّريق البرّيّ يغلب في مخاطره، لمن يسلكه الآن عشرةَ أضعاف. وإنِ افترضْنا جدلاً: أنّ هناك طرقاً برّيّةً ممهّدةً وسهلةَ العبورِ، ولا تعترضها العوائق، فإنّ المسيرَ حول الشّاطئ أطولُ بكثيرٍ من طريق البحر، ويستغرق أيّاماً كثيرةً، ولا شكّ أنّه تعترضه جبالٌ وعرةٌ صعبة المرتقى، ومناطقُ واسعة العبورِ، وغاباتٌ كثيفةٌ مُظلمةٌ، عسيرة الاجتياز، تعجُّ بالوحوش المفترسة، والثّعابين المجنّحة المخيفة، الّتي تكمن في السّباخ. وهذه الممرّات تكون مسدودةً أحياناً، ويتعرّض سالكُها للهلاك أحياناً أخرى في تلك النّواحي الوحشيّة، والأردأ من ذلك أنّه لا تتوفّر فيها محطّاتٌ، يجد فيها المسافر نوعاً من الرّاحة أو المأوى، ناهيك عن قطّاع الطّرق، البطّاشين الكثيرين المنتشرين في الجبال، والمقيمين فيها هناك!».

فقال ثيسيوس: «حسنٌ، يا جدّي، كلّ ما ذكرتَ، وما وصفتَ، فإنْ كانت هناك مصاعبُ لا حصر لها في الطّريق البرّيّة تزيد عن طريق البحر أضعافاً، فإنّني مزمعٌ أن أقصد الطّريق الأصعب، وسيتمّ ذلك حالاً. فقال الملك بيتيوس: «إذا كنت أيّها الحفيد قد ضربتَ بكلامي عُرْضَ الحائط، وصمّمتَ على مخالفة رأيي، فالأجدرُ بك أن تصطحب معك خمسين شابّاً على الأقل، يرافقونك في هذه الرّحلة، غير المأمونة والمحفوفة بالمخاطر!».

فأجابه ثيسيوس: «لقد قلتُ لكَ يا جدّي، بأنّني لا أرغب أن أصطحبَ أحداً أبداً. وسرعانَ ما هبّ واقفاً، ومبدياً استهتارهُ بالصّعوبات والعقبات، لاعباً بمقبض سيفه، وساخراً من أيّ تفكيرٍ بالخوفِ والوجَلِ!».

ثمّ قبّل يدي أمّه إيثرا الّتي ملأت عينيها الدّموعُ، وانحنى بإجلالٍ لجدّهِ الملك العظيم الحنون،

وغادر تروزن متّجهاً إلى ساحلٍ غير مطروقٍ سابقاً، يقع إلى الغرب الشّماليّ.

وبمباركة المَلك الخائف عليه، ودعاء أمّه إيثرا الّتي تابعتْهُ إلى باب المدينة، وقلبها يتقطّع حزناً!. سار هذا الشّابُّ على بركات الآلهة حتّى غاب شخصه عن الأنظار، عندما كان يمرّ في طريقٍ بين الأشجار الكثيفة، الّتي تحاذي شاطئ البحر تماماً.

٣- طرقٌ وعرةٌ ولصوصٌ عتاةٌ

مضى ثيسيوس ماشياً، شاقّاً طريقه بقلب شجاعٍ، لا يعرف الوجَل، وجعلَ البحر عن يمينه، ولكنْ سَرعان ما أصبح البحر خلفه، بعيداً إلى جهة اليسار. وبعد ذلك أخذ يسير في مناطقَ شاسعة، فيها طرقٌ سهليّةٌ ممتدّةٌ رخوةٌ؛ حيث تغور الأرض تحت قدميه في كلّ خطوةٍ يخطوها، فتعرقل مسيره، وكانت تحيط بطريقه الضّيّق مستنقعاتُ الماءِ الرّاكدة، الخضراءِ اللّون. ولكنْ لم تخرج ثعابينُ سامّةٌ مؤذيةٌ مجنّحةٌ تلدغه في الطّريق كما توهَّمَ جدُّهُ من قبل.

وبنشاطٍ وهمّةٍ عَجيبَيْنِ تابع مسيرهُ، فصعد منطقةً جبليّةً صخريّةً شديدةَ الوعورةِ، مقارباً في سيره الحثيث شاطئَ البحر الغربيِّ، متسلّقاً بخفّته المعهودة مُرْتَفَعاً بعد مُرْتَفَعٍ. وبجهوده الجبّارة، استطاع أخيراً أن يقف على قمّة جبلٍ منفرد رماديِّ اللّون. وهناك متّعَ ناظريه، من الأعلى، برؤية المنطقةِ المشجّرة الخضراءِ، الّتي تبدو منتشرةً على امتداد النّظر. فكم كان مسروراً، ويا له من منظرٍ ساحرٍ!. ولكنّه انحدر –بعد هذه المشاهد الّتي تخلب الألباب، بمائها المتدفّق بين الصّخور – على حصباءَ كأنّها الدّرّ المنثور، متّجهاً إلى الأمام مرّةً ثانيةً.

وسرعان ما اختلفتْ المناظر الآن عَبْرَ وديانٍ جبليّةٍ سوداءَ قاتمةٍ، وعلى امتداد مرتفعاتها من الجانبين، تقعُ الجروفُ الصّخريّةُ المتجهّمةُ. وبعد أن عانى ما عانى في مسيره الشّاقّ، وصل إلى غابةٍ موحشةٍ أشجارُها متشابكةٌ، وتمتدُّ طولاً، ولا يظهر نور الشّمس من خلالها إلاّ نادراً.

في تلك الغابة الكثيفة المظلمة، كان يقيمُ قاطعُ طريقٍ ماردٌ جبّارٌ، يدعونَه: حاملَ العصا، ذلك الّذي إذا ذُكرَ اسمه فقط، فإنّه يدبّ الرّعب في أنحاء المنطقة كلّها. وهذا الطّاغية كان ينـــزلُ في أغلب الأوقات إلى الأودية، حيث يرعى الرّعاةُ مواشيَهم، فيختطفُ الحملانَ الوديعةَ، والأغنامَ الأليفةَ، وينقضُّ أحياناً على الأطفالِ الشّاردينَ، فيختطفهم، ولا يوفّر الرّجالَ الأشدّاءَ أنفُسَهُمْ، إذا استطاع أن يغافلَهم، ويوقعهم في شباكه.

وكان من عاداته الدّائمة الخبيثة، أن يلجأ إلى الحيلة، فيخبّئُ نفسَه بين الأعشاب الطّويلة، أو تحت الشّجيرات الصّغيرة، الّتي تنمو تحت الأشجار الباسقة الضّخمة، فيتربّص الشّرَّ بالمسافرين الأبرياء، وحين يعبر أحدهم الطّريق، يقفز عليه، واثباً من مخبئه، قفزةً مفاجئةً، ويعضُّهُ عضّات مولمةً عديدةً، ويضربه ضرباً مبرّحاً، حتّى يقضيَ، عليه وينــزعَ روحَهُ من بين جنبيه، ويجرّعَهُ غُصَص الموت.

وحينما شاهد هذا اللّص الغدّارُ، ثيسيوسَ يجتاز الغابة، اعتقدَ أنّه حصل على غنيمة غنيّة دسمة، وباردة سهلة، في الوقت نفسه، وقد دَلّهُ على ذلك ما ظهر من لباسه، الشّبابيّ الأنيق، وطلعته البهيّة، مما يشير إلى أنّه أميرٌ، وابنُ ملك. ومن أجْلِ اغتياله والقضاء عليه سريعاً، لَبَدَ لَهُ هذا اللّصُّ المحتال في أرضِ الغابة؛ حيث كانت تَسْتُرُهُ أوراقُ اللّبلاب، والأعشابُ النّامية، وكان يمسك بيده عصاً حديديّةً صخمةً، وهو مُتهيّءٌ للضّرب فوراً. لكنَّ ثيسيوسَ المدرّب تدريباً جيّداً كان: حادَّ البصرِ، قويَّ السّمعِ، شديدَ الحذر، متبصّراً في الأمور، قد أعدّ عدّته احترازاً من مباغتة، الحيوانات الشّرسة، واللّصوص الجبّارين العتاة. لذلك فعندما وثب اللّصُّ حاملُ العصا من بين الأشجار الكثيفة، وأهوى عليه بعصاهُ الحديديّة الثّقيلة، تفادى ثيسوسُ ضربَتَهُ المميتة بقفزة سريعة، خاطفة، فأخطأته، تاركةً قربَهُ حفرةً بعيدةَ الغَوْر، تعمّقت في جوف الأرض.

وقبل أن يرفع اللّصُّ العاتي عصاه ليسدّدَ لَهُ الضّربةَ الثّانيةَ، كان ثيسيوسُ قد أمسك بساقيه، وطرحَهُ أرضاً، وداسَ على رقبته، فزأر اللّصّ، الّذي كان يعتزُّ بعصاه هذه، زئيراً مروّعاً تجاوبت أصداؤُهُ، في أرجاءِ المنطقة كلّها، ثمّ كالَ لهُ ضربةً قويّةً على رأسه، فشقّتْهُ شقّاً عميقاً، فسالت الدّماءُ منه غزيرةً، وكانت هذه الضّربةَ الأولى والأخرى القاضيةَ عليه، الّتي جعلته يلفظ أنفاسه الأخيرة. فيا لَتعاسةِ لصٍّ غاشمٍ، وتعاسة نهايته، بهذه الميتة الشّنيعة!. ويا لَراحةِ البشريّة من أمثال هؤلاء المجرمين العتاة! فلن تستطيعَ أن تمتدَّ يدُهُ، يد الشّرّ، بعد اليوم إلى المسافرين الأبرياء!.

وهكذا مضى الشّابُّ الشّجاعُ ثيسيوسُ، حاملاً العصا الحديديّةَ، الّتي غنمها ، وواضعاً إيّاها على ذراعه وهو يغنّي أغنيةَ النّصرِ، ويا لها من أغنية رائعة غُنّيَتْ في وقتها المناسب!. ولكنّه لم يغفلِ الحذَر الشّديدَ، ولو للحظة واحدة أثناءَ سيره، احترازاً من أعداء آخرين، يمكن أن يترصّدوا له، ويَسْعَوا إلى الإيقاعَ به، في غابة كثيفة الأشجار، محفوفة بالمخاطر.

ولحسن حظّه، وظروفه المواتية في سيره الشّاقّ المتواصل، قابَلَ في طريقه رجلاً طيّباً، غاية

الطّيبة، فوق جبلٍ آخرَ عالٍ، فاستوقفه الرَّجُلُ، الّذي تَوَسَّمَ فيه الخيرَ، فيما يبدو، محذّراً إيّاه ألاّ يتوغّلَ في سيرِه كثيراً، وقائلاً له: «هناك ممرٌّ وحيدٌ منفردٌ، يقعُ في غَيْضة أشجارِ الصّنوبر، وحين يميل هذا الطّريق إلى الانحدار، يسكن هناك، في هذه المنطقة لصٌّ هائلٌ شرسٌ، وقاسٍ جدّاً يدعى سينيس، يتعرَّضُ للمسافرين العابرين في طريقهم، والمتّجهين إلى أماكن أخرى».

ثمّ تابع هذا الإنسان الحيُّ الضّمير، كلامَه قائلاً: «ويلقّبونه في هذه الأنحاء بطاوي الصّنوبر، والسّبَبُ في هذه التّسمية: يعود لكونه يعمدُ إلى شجرتَي صنوبر لَدْنتين، فيحنيهما إلى الأرضِ، حين كان يزمع القبضَ على أحدِ المسافرينَ، ثمّ يسارعُ إلى ربط يده، وقدمه، إلى رأس إحداهما، ويربطُ يَدَهُ الثّانيةَ، وقدَمَهُ، إلى رأس الشجرة الأخرى، وإثْرَ ذلك يَدَعُ الشّجرتينِ اللّدْنتين ترتفعان إلى الأعلى لتمزّقا جسده، ولإمعاناً في السّاديّة، واقتراف الإجرام المنظّم، ينفجر ضاحكاً حينما يشاهد هذا الإنسانَ التَعيسَ في الهواء، ممزّقاً شطرينِ أو أكثر!».

فقال ثيسيوسُ للرّجل الطّيّب: «صدقتَ أيّها الأخُ العزيزُ، في تصويرك ذاك اللّصَّ المجرمَ اللّعينَ، الّذي يسلب النّاس أرواحَهم وأموالَهم –لذلك تراني أسلكُ هذا الطّريقَ الشّاقَّ المزعجَ– لأنّني آليت على نفسي دائماً وأبداً، أن أخلّصَ هذه المناطق من أمثال هؤلاءِ اللّصوصِ العتاة، القاتلينَ المخيفينَ، ومن جرائمِهِم، ضدَّ الإنسانيّة. وإنّي لأشْكُرُكَ على نبلك وحرصك، على سلامة النّاس وراحتهم، حينما نَبَّهْتَني إلى خطورة إجرام هذا اللّصّ!».

وهكذا أسرع ثيسيوسُ الخُطا، وهو يُصَفّرُ بملءِ فيه، وكان مرحَ الأعطاف، حذراً جدّاً، كثيرَ اللّفتات، يسعى لمقابلة اللّصِّ الّذي روّعَ النّاسَ جميعاً. وقد اتّجه الآنَ بقلبٍ جسورٍ، وغيرِ مبالٍ، وكبيرِ الثّقة بنفسه، إلى بيت اللّصِّ سينيسَ المطلِّ عليه من بين الأشجارِ في أسفل الجرف الصّخريّ، والّذي يقع خلفه ممرٌّ ضيّقٌ بين هاتيك الصّخور، ويهدُر قربه جدولُ ماءٍ جبليٌّ ينحدرُ شلاّلاً رائعاً. وحينما وصل ثيسيوسُ إلى هذا المنـــزلِ المنعزل في الغابة، أدهشه وجودُ حديقة غنّاءَ تزيّنه، فتبهج النّظرَ، حيث نمت فيها كلُّ أنواع النّباتات النّادرة، والأزهار الملوّنة. ولكنْ للأسف الشّديد، كان يشوّهُ هذا المنظرَ الجميلَ، تعليقُ اللّصِّ سينيسَ عظامَ المسافرين الكثيرين التّعساء، الّذين يغتالهم، على أشجار الجوز العالية، الّتي بَيَّضَتْها أشعّةُ الشّمسِ، والرّيحُ الّتي تهبُّ باستمرار.

وفعلاً –كما ذكر الرّجل الطّيّبُ سابقاً– كان يحرس هذا الطّريقَ الضّيّقَ، ويتحكّم به اللّصُّ

سينيسُ نفسُه؛ حيث جلسَ على صخرةٍ كبيرة. ولمّا شاهد ثيسيوسَ مقبلاً، أسرع لمواجهته، وهو يُدَوِّرُ بيده حبلاً طويلاً، ويصرخ بصوتٍ جهوريٍّ: «مرحباً بالمقبل الوافد إلينا من بعيد، لقد أتيتَ أهلاً وحللتَ سهلاً يا أيُّها الأميرُ المبجّلُ، وها قد أزفَت السّاعةُ، وَانْفَتَحَ الطّريقُ واسعاً، لكي أستقبلك استقبالاً حافلاً في نُزُلي الجميل، الّذي يُعَدُّ مكانَ الرّاحةِ الحقيقيَّ لجميع المسافرين النّبلاءِ أمثالِكَ، الّذين يتحمّلون وعثاءَ السّفر».

فأجابَه ثيسيوسُ متهكّماً أيضاً: «أيُّ نوعٍ من الضّيافةِ قد أعددته لي أيّها الرّجلُ الكريمُ المضيافُ؟ أتُوجَدُ قربَكَ شجرةُ صنوبرٍ قد أحنيتَها إلى الأرض، وهيّأتَها لتستقبلني، وتسعى في تمزيقي؟»».

فأجابه اللّصُّ الآنَ جادّاً: «لقد صدقتَ في حدْسِكَ أيُّها الأميرُ العبقريُّ، وإكراماً لتشريفك، واحتفاءً بمجيئكَ السّعيد، فقد أعددتُ لك شجرتين شابّتين، بدلَ الواحدة، وقد أحنيتُهما إجلالاً لك خاصّةً، وهما سيبشّرانك بميتةٍ شريفة!»».

وبعد إطلاق اللّصّ هذا الوعيدَ التّهْديديَّ باستعمالِ العنف، وجّه حَبْلَهُ الطّويلَ محاولاً اقتناصَه، وإيقاعَه في الطّوق، كما كان يفعل بالمسافرين، المساكين الكثيرين قبله. ولكنّ الشّابَّ البطلَ ثيسيوسَ، بجسمه الرّياضيِّ المرنِ الرّشيقِ، قفزَ قفزةً بعيدةً عن مكان وقوعِ الحبل، ولمّا شعر قاطعُ الطّريقِ بخيبة أمله، بالأحبولة الّتي أرسلها، وعوّلَ عليها كثيراً، اندفع اندفاعاً شديداً معتمداً على قوّتهِ الواثقِ فيها لِيَرْمِيَهُ أرضاً ويفتكَ به. فتفادى ثيسيوسُ هذا الهجومَ بيديه الحديديّتين، ممسكاً بساقي عدوّهِ بسرعة مذهلة، كما كان قد أمسكَ اللّصَّ حاملَ العصا من قبلُ، وطَرَحَهُ بعنفٍ شديد على الأرض. وبدأت المصارعةُ الحرّةُ بين الرّجلين، وكانت مصارعةَ حياةٍ أو موت، ولم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتّى ظهرَ بجلاء أنّ اللّصَّ سينيسَ، لا قِبَلَ له ببطلٍ شابٍّ رشيقِ الحركات، واسعِ الحيلة. وهكذا أجبره ثيسيوسُ، على الرّضوخ لقوّته المتفوّقة، وتمكّن أن يَقْلِبَهُ، ويثبّتَهُ، وأن يجثوَ فوق ظهره، وهكذا صار اللّصّ منبطحاً على الأرض، بين أوراقِ النّباتات، فربَطه بالحبل الّذي أعدّه اللّصُّ ليربطَهُ به سابقاً. ثمّ قال له ثيسيوسُ: «كما نويتَ أنْ تفعلَ بي؛ فإنّني سأفعلُ بك الفعلَ نَفْسَهُ».

وعندما دارت الدّائرةُ على طاوي الصّنوبر، وأصبح تحت سيطرة ثيسيوسَ، بكى بحُرقة، وتوسّل إليه أن يعفوَ عنه، متعهّداً أن يغيّرَ سلوكَه إلى الأحسن، وأن يُقْلِعَ عن فعلِ الشّرّ. لكنّ

ثيسيوسَ لم يثق بكلامه، و لم يصغِ لتوسّلاته الكاذبة؛ لذلك صدّهُ بشدّة، وأحكم رَبْطَ يديه، ورجليه، بشجرتي الصّنوبر اللّتين عادتا مرتدّتين، إلى ما كانتا عليه قبلَ إحنائهما، وترك جسَدَهُ يتمزّق في الهواء متدلّياً من أغصانهما. وهكذا مات الميتةَ الّتي أمات بها النّاسَ، المسافرين جميعاً فيما مضى!.

ومن غرائب المفارقاتِ –الّتي لا تكاد تصدّق– أنّه كان لهذا اللّصّ طاوي الصّنوبر، ابنةٌ تدعى بيريغون، وكانت تختلف عنه تماماً، وتبتعد عن تصرّفاته الإجراميّة بعداً شديداً. وإن شئنا أن نَصِفَها: فقد بَدَتْ رائعةَ الجمال، كالبنفسجة الغَضّة، وكانت تجلس تحت بلّوطة قديمة، كثيرةِ العُقَد، وتتوارى في ظلالها عن الأنظار. وهي الوحيدة الّتي كانت تحبّ، وتعشق النّباتاتِ والأزهارَ النّادرةَ، الّتي تنمو في الحديقة الّتي غرسَتْها بيديها، واعتَنَتْ بها عنايةً فائقةً، في بيتِ أبيها اللّصّ.

وحينما رأت كيفيّة انتقامِ ثيسيوسَ من أبيها المجرم، خافت خوفاً شديداً، من أن يعاقبها بذنب أبيها، فخبّأت نفسها منه، وصرخت مستنجدةً بما يحيط بها قائلةً: «آه، آه، ثمّ آه، ألا أيّتها النّباتاتُ العزيزاتُ على قلبي، ويا أيّتها الأزهار الملوّنةُ، الشّذيّةُ، المحبّةُ، ألا أنقذيني من الموت، الّذي يتهدّدني في كلّ لحظة، وإنّني أتعهّد لكِ من الآن فصاعداً، بألاّ أقطفَ أوراقَكِ اليانعةَ، وورودَكِ الزّاهيةَ، وألاّ أتعرّضَ لأصنافك المتنوّعة، بأيِّ أذىً، ما دُمتُ حيّةً!».

ومن الأمور الغريبة المسعفة لبيريغون، أنّ واحدةً من النّباتات، قد برزت للعيان من باطن الأرض، وانتصبت قائمةً، وكانت في بادئ الأمر خاليةً من الأوراق، شبيهةً بعَصاً أو قضيب، وأحسّت بالمصاب، الّذي ألمّ بهذه الفتاة المسكينة بيريغون، فشرعت ترسل من جذعها، أغصاناً طويلةً، ثمّ نبتتْ لها أوراقٌ ناعمةٌ خضراءُ، نمت بسرعةٍ فائقة، لتسترَ بيريغونَ، وتجعلَها: متواريةً عن الأنظار تماماً.

وقد أدرك ثيسيوسُ بحسّه المرهف، أنّ هذه الحديقةَ الجميلةَ، قد أشرفتْ على العناية بها وتنسيقها، فتاةٌ طيّبةٌ موجودةٌ في مكانٍ ما منها، والحقيقةُ أنّ الأغصانَ الرّيشيّةَ قد أخفتها عن نظره، فلم يدرِ أين هي، ولكنّه ناداها باسمها، الّذي يُعتَقَدُ أنّه قد سمعه من قبلُ: «بيريغون! بيريغون،! عليك ألاّ ترتعبي منّي، فأنا أعرف حقّاً أنّك بريئةٌ لطيفةٌ، وذاتُ سلوكٍ جيّد، فهندسةُ هذهِ الحديقة، الرّائعة الفريدة تدلّ عليكِ، وها أنا قد رفعتُ يديَّ الآن، عن كلّ ما يسيءُ

لشخصكِ الوديع، وقد حدَثتْ أشياءُ مظلمةٌ وقاسيةٌ، أمام ناظريكِ بسبب ظروفٍ عنيفة، واضطراريّة، ولا شكَّ أنّكِ تعلمينَ تفاصيلَها بدقّة متناهية، وما مضى قد مضى، وانقضى!».

وبعد هذا الاعتذارِ النّابعِ من القلب، ما كانَ من هذه الفتاة إلاّ أن سارقتِ النّظرَ، باتّجاه الشابِّ الّذي يكلّمها، ولما شاهدتْ وجهَ ثيسيوسَ الجميلِ، وأصغت إلى صوتهِ اللّطيفِ، خرجت من مخبئها بارزةً أمامَه، إلاّ أنّها كانت ترتجف من الخوف، وشعر ثيسيوسُ باضطرابها، فاقترب منها، وهدّأ روعَها، فاستأنست به، ممّا مهَّدَ لحوارٍ وديّ بينه وبينها، عند ذلك أدركت سبب تصرّفاته، وعلمت أنَّ مقاصدَهُ كُلّها تتّجه إلى الخير العام، فدعته إلى بيتها ليأخذَ قسطاً من الرّاحة فيه، في ذلك المساء، وقدّمت له الطّعامَ، وقطفت له طاقةً من الأزهار النّادرة، وهي تتألّقُ بألوانها الزّاهية، وقدّمتْها له بكلِّ احترام فشكَرَها على صنيعها شكراً جزيلاً.

وحين انبلج الفجرُ في الشّرق في أوّل اليوم التّالي، فبَهَتَ تَلألُؤُ النُّجومِ، فوق قمّة الجبلِ، قال لها ثيسيوس: «وداعاً يا عزيزتي بيريغون، وإنّني لأشكركِ شكراً لا حدودَ له، على تَفَهُّمكِ سلوكي مع أبيك، بالرّغم من الأسى، والألم الّذي أصابَكِ!».

أمّا بيريغون فبعدَ مغادرةِ ثيسيوسَ منـــزلَها، ازدادت عنايتُها بنباتاتها، ورعت أزهارَها في حديقتها المنعزلة في وسط الغَيْضة المكسوّة بشجر الصّنوبرِ، وعوّدتْ نفسَها منذ ذلك التّاريخ، ألاّ تقتلعَ سيقانَ الهَلْيونِ، وألاّ تطبخَها طعاماً، كما كانت تفعل سابقاً.

وعندما أصبحت زوجةَ بطلٍ من الأبطالِ، وأنجبت أولاداً، وحفداءَ، وأبناءَ حفداء، علّمتهم أن يعلّموا بدورهم ذُرّيّتهم، أن ترحمَ النّباتات، وتترفّقَ بها، وخاصّةً تلك الفصيلة الّتي أشفقت إحدى نباتاتها، على جدّهم الأولى، وسترتْها في محنتها القاسية، عندما قَتَلَ ثيسيوسُ أباها اللّصَّ الفاتكَ.

ونعود الآن إلى الحديث عن مغامراتِ البطل ثيسيوس، وتصدّيهِ للّصوصِ، وقطّاعِ الطُّرقِ العتاة، ونذكر أنَّ الطّريق الّذي، سار فيه، بعد تركه منـــزلَ بيريغون،، يقع في مكانٍ قريبٍ من الشّاطئ. ولكنّه ما لبث أن ارتقى طريقاً جبليّاً حيث اتّجهت الجبالُ صعوداً أعْلَى من البحر كثيراً. وفي سيره الطّويل وصل إلى ممرٍّ ضيّق، ممتدٍّ يعلو جانبَ جُرفٍ. وفي أسفل سفح الجبل، يمكنك أن تسمعَ صخبَ الأمواجِ، الّتي تندفعُ بعُنْفٍ لترتطمَ بالجدارِ الصّخريِّ، بينما يعلوه علوّاً كبيراً جبلُ النّسور، ولقد أُطْلِقَ عليه هذا الاسم: لأنَّ النّسورَ تدورُ وتدورُ حولَهُ، وتصيحُ وتصيحُ

فوق قمّته القاحلة؛ حيث تتلألأ صخورُهُ الرّماديّة، تحت أشعّة الشّمس، وهناك شَقّ ثيسيوسُ طريقَهُ ببسالةٍ نادرة، غيرَ هيّاب، ووصل أخيراً إلى مكانٍ يتدفّق فيه ينبوع ماءٍ صافٍ، من شقٍّ صخريٍّ. وكان هذا الممرُّ يقع في أضيق مكان، فوق الينبوع. وعلى مَقْرَبة منه جلس جبّارٌ أحمرُ الوجه، حيث وضعَ عصاً ضخمةً، بجانبِ رُكْبَتِه، حارساً الممرَّ، ومانعاً أيَّ مسافرٍ من عبورِهِ إلاّ بإرادته هو. وكانت في شاطئ البحر، أسفلَ الجرف الصّخريِّ، تتشمّسُ هناك سلحفاةٌ ضخمةٌ، تجولُ بعينيها الكئيبتين، متّجهةً إلى الأعلى، متوقّعةً الحصول على الطّعام، من أجساد الآدميين الساقطين من الأعلى.

ولقد علم ثيسيوس –كما أخبَرَتْهُ بيريغون– بأنَّ هذا المكانَ الّذي وافاه، هو مسكن اللّصِّ المدعوّ سكيرون، الّذي صارَ صاحِبُهُ مصدرَ رُعبٍ للسّاحلِ البحريِّ كلّه. وهو الّذي دأب على إجبار المسافرين، أن يغسلوا قدميه، وحينما يشرعون في الغَسْلِ، يركلهم برجله من أعلى الجرف، فيسقطون في الماء، فَتَلْتهمُهُمُ السّلحفاةُ الهائلةُ المدلّلةُ.

وحين وافى ثيسيوسُ ذلك المكانَ، رفعَ اللّصُّ عصاه الضّخمةَ في وجهه، وقال لهُ بوقاحةٍ وتحدٍّ: «لا أحدَ باستطاعته العبورَ من هنا، إلاّ بعد أنْ يغسلَ رجليَّ، فتعالَ الآن وانحنِ لتغسِلَهما». عندئذ ابتسم ثيسيوسُ، وقال متهكّماً: «هل سلحفاتُكَ المدلّلةُ جائعةٌ اليومَ، وهل تريدني أن أطعمها؟».

فتوقّدت عينا اللّصِّ، كلهيب النّار، وأجابه: «ستطعمُها رُغماً عن أنفك، وعليك أن تغسل رجليَّ أولاً!».

وحين أنهى كلامه: شهرَ عصاهُ في الهواء، واندفع ليضربَه ضربةً تؤدّي به إلى القبر، ولكنَّ ثيسيوسَ كان متهيّئاً لمفاجآته، وحذراً منه حَذَراً تامّاً.

وبالعصا الحديديّة، الّتي غنمَها ثيسيوسُ من اللّصّ، حامل العصا في الغابة، الّتي ذُكِرَتْ سابقاً، قابل هذا اللّصَّ الجديدَ، قاطعَ الطّريق مقابلةً وجهيّةً.

ولكنّ عصا اللّصِّ السّبّاقةَ أخطأت الهدفَ، نظراً لرشاقة ثيسيوسَ، وخِفّته في القفز السّريع، وخروجه عن إحكام الضّربة المسدّدة إليه، وعن مقياسَي الاتّزان، والاتقان للّصِّ، في المكان الحرِجِ، فوق طرف الجرف الصّخريِّ.

وتُجاه خيبةِ الضّربةِ وإخفاقها، احمرَّ وجهُ سكيرون غضباً، فاضطرّ أن يصارعه، ولكنّ البطلَ

ثيسيوسَ ذا اللّياقةِ البدنيّة، كان أسرعَ حركةً ومرونةً، وأقوى جسماً، وأرشقَ في المصارعة من خصمه، فألقى عصاهُ الحديديّةَ جانباً، وقبض بسرعة البرق، على رقبة سكيرون بعنف، ودفعه خلفاً إلى الحافّة، الّتي كان جالساً عليها، ورماه رميةً قويّةً؛ بحيث جعلَ جسمَهُ منبطحاً على الصّخور الحادّة، ثمّ رفعه عالياً، وأنزله؛ بحيث أجبره أن يتعلّقَ في منتصف المسافة بين أعلى الجرف وأسفله، فصرخ اللّص صراخاً عالياً مؤلماً، لِمَا تعرّضَ له من خطرٍ محيقٍ، وبلوى شديدةٍ، قائلاً: «كَفَى! كَفَى! دعني قائماً، ويمكنك أن تتابعَ طريقك!».

فأجابه ثيسيوسُ: «هيهاتَ، هيهاتَ أن تعود إلى ما كنتَ عليه سابقاً، إنّ ذلك مستحيلٌ، ولا يجوز أبداً!».

وما كان منه، إلاّ أن أسرع مستلاًّ سيفه البتّارَ من غمده، ثمّ جلس بجانب الينبوع، كما كان يجلس اللّصّ تماماً، وقال له: «وها أنا مُنْزِلُكَ الآن من الأعلى لتغسلَ قدميَّ، فتعالَ وَابْدأ عملَكَ حالاً!». فاصفرَّ وجهُ سكيرون، واضطربت أعضاؤه من شدّة الخوف، واضطرَّ صاغراً أن يغسل رجلَي ثيسيوس!.

وبعد انتهائه من الغَسْلِ قال له ثيسيوس: «إنّ العملَ الّذي تتطلّبُهُ العدالةُ السّماويةُ، قد ابتدأ الآن، وسوف أفعلُ بكَ كما فعلتَ بالآخرين، جزاءً وفاقاً لما اقْتَرَفْتَهُ من جرائم!». وقد استجابت آلهةُ الأولمب فوراً، لعقاب اللّصّ. ومن ركْلَةٍ هائلةٍ من رجله، سقط جسدُ اللّصّ الباغي من أعلى الجرف، فارتطم في الماء ارتطاماً عظيماً، وتجاوبت أصداء هذا الارتطام في كبد السّماء، ورُدِّدَتْ في الأعالي؛ حيث قمّةُ جبل النّسور تعلو وتعلو، فارتعبت السّلحفاةُ في مكمنها رُعباً شديداً، أما البحرُ فصرخ عالياً بلسانِ أمواجه العاتية: «سأُخْفِقُ إخفاقاً عظيماً، إن سكتُّ مرّةً أخرى، عن الجرائم المتكرّرة، أو واجهتُ شخصاً تعساً فاتكاً، بدرجة هذا الإنسان الحقير!».

وتجاوبت الأمواج فوراً مع الحَدَث، فلفظت جسدَ سكيرون إلى الشّاطئ، وحين لامَسَ جسدُهُ الرّمالَ البحريّةَ، صاحتِ المنطقةُ السّاحليّةُ بأسْرِها: «لستُ شيئاً مذكوراً؛ إن لم أنتقم من هذا الجسد الدّنِس!».

وعندئذ حدثَتْ زلزلةٌ مفاجئةٌ جعلت جسدَ سكيرون يرتدُّ إلى البحر. وإثْرَ ذلك جدَّدَ البحرُ غضبَه، فهبّتْ عاصفةٌ هوجاءُ، ضربتْ مياهَ الشّاطئِ بعنفٍ، مزبدةً إزباداً شديداً، ودفعتِ

الأمواجُ العاتيةُ الجسدَ الممقوتَ، لتقذفَه عالياً في الهواء.

وهناك بقي جسدُهُ معلّقاً حتّى يومنا هذا، ليعطيه مستقرّاً دائماً، ولكنَّ ذلك الجسد تحوّل أخيراً إلى صخرةٍ سوداءَ ضخمة. وهذه الصّخرةُ المعروفةُ، هي الّتي يطلقُ النّاسُ عليها اليومَ: «صخرةَ سكيرون». وهي لا تزال مستقرّةً في مكانها، بشعةً، مروِّعةً، كئيبةً، ثلثُها الأوّلُ يستلقي في البحر، وثلثُها الثّاني مطمورٌ في الرّمال، والثّلثُ الأخيرُ مكشوفٌ في الهواء.

٤- المصارع الظّالم

قام البطل ثيسيوس برحلةٍ يوميّةٍ طويلة، باتّجاه الشّمال الشّرقيّ، جاعلاً البحرَ دائماً على مرأىً منه. ثمّ اجتاز الجبالَ الصّخريّةَ هابطاً إلى أوديةٍ عميقة، ثمّ سارَ إلى سهولٍ فسيحة، بهيجة المنظرِ، ترعى فيها قطعانُ الماشيةِ عشبَها الأخضرَ، وتابع سيرَهُ بجدٍّ ونشاط، فشقَّ حقولاً متعدّدةً للقمح النّاضج، ذي اللّونِ الضّاربِ للصُّفرة، والمُعَدِّ للحصاد.

وكانت شُهرةُ ثيسيوس البطوليّة، قد سبقته ، فتجمهر الرّجال والنّساء، على جانبي الطّريق لاستقباله في مدينة ميغارا، ومشاهدة لياقته البدنيّة، والتّمتّع برؤيته الجميلة، وخاصّةً بعد أن ترامى إلى أسماعهم، قضاؤه على اللّصّ الفاتك: حامل العصا الحديديّة الضّخمة، وعلى قاطعِ الطّريق السّفاك: طاوي الصّنوبر، وعلى اللّصّ العنيد: سكيرون مجرم الجرف الصّخريّ. وحينما أصبح في شوارعهم، كانت جماهير النّاس تصيح بملء فيها عالياً: «بأرواحنا نفدي البطلَ الشّجاعَ، الّذي جَعَلَنا نعيش بسلامٍ واطمئنان؛ بعد أن كان اللّصوصُ وقطّاعُ الطّرقِ، قد قَضَوا على أطفالنا، فلْذاتِ أكبادنا باختطافهم: أفراداً ومجموعات!».

أمّا بطلُ الجماهير ثيسيوس، فقد تابع سيره حثيثاً، خلال المدينة القديمة ميغارا، متّجهاً إلى مدينة إلوسيس المقدّسة، على شاطئ الخليج. وهناك أوقفه في طريقه رجلٌ فقيرٌ، يقودُ أغنامَهُ إلى السّوق؛ ثمّ أخذ يهمس في أذنه: «لا تذهب أيّها الأميرُ إلى إلوسيس، بل اتّجهْ إلى الطّريق الّتي تقودُك إلى التّلال!».

فأجابه ثيسيوس مستغرباً: «ولماذا تنصحني أيّها الرّجلُ الطّيّبُ أنْ أُغيّرَ مسيري، وأُعَرِّجَ إلى التّلال؟». فقال الرّجل: «أصغِ إليَّ جيّداً، وسأجيبُك جواب اليقين: «إنَّ ملكَ إلوسيس يدعى سيرسيون، وهو ملكٌ مُعتَدٍ أشدَّ الاعتداء، ونظراً لقواه البدنيّة الهائلة، وتعطّشه إلى سفك الدّماء،

فهو يدعو الشّباب إلى مصارعته، وبعد أن يتغلّبَ عليهم واحداً إثْرَ واحد، يسحب أرواحهم من أجسادهم، ويوردُهم مواردَ الرّدى دونَ اكتراث بحياتهم إطلاقاً. وهكذا فإنّ مسافرين كثيرين، وفدوا إلى إلوسيس فقضى عليهم ذلك الطّاغية في قلب مدينته دون أن يستطيع، أن يفلت أيّ عابرٍ منهم».

فأجابه ثيسيوس الشّجاع، وكانت عصاه الحديديّةُ على كتفه، وهو يخطو إلى داخل المدينة المقدّسة: «صدقتَ يا صاحبي، وإنّني أشكرك شكراً جزيلاً، للفتِ نظري إلى هذا الملك السّفّاح. ولكنّنا بالرّغم من إجرامه، فسوف ندخل المدينة جميعاً، بمعونة آلهةِ الأولمب، وسنخرج منها سالمين بمشيئتهم!».

وبناءً على ما ذكره الرّجل عن الملك، فحين وصوله، سأل ثيسيوس حارسَ باب القصر: «أين سيرسيون المصارع؟». فكان الجواب: «إنّ الملك يتغدّى في القصر المرمريّ، فإنْ كنتَ راغباً في إنقاذ نفسك منه، انفَتِلْ من هنا وولّ هارباً، قبل أن يخبره أحدٌ بمجيئك، فتكون في عداد الهالكين!».

فقال ثيسيوس للحارس: إنّني غيرُ خائف، لا منه ولا مِمَّنْ هو أقوى منه أبداً». ثمّ مشى بقوّة خلال الطّريق الضّيّق المؤدّي إلى قصر الملك سيرسيون. وكان الملك آنذاك يجلس إلى مائدته يأكل ويشرب، ويتلذّذ بالأطعمة المتنوّعة. ولكنّه في الوقت نفسه، كان يتميّز غيظاً وحقداً، حينما يتذكّر الشّباب النّبلاء الكثيرين الّذين أجبرهم على مصارعته، وأزهق أرواحهم بقسوة متناهية، واحداً بعد الآخر.

وفي هذه اللّحظات كان ثيسيوس، يتقدّم إلى باب قصر الملك بجرأته المعهودة، وعدم مبالاته بأحد. وما كان منه إلاّ أنْ صاح بأعلى صوته: «سيرسيون! سيرسيون! إنّي أتحدّاك، فاخرجْ من قصرك، وصارعني إن شئت!». فقال الملك سيرسيون: «آه، آه، لَعَمري، لقد وافانا لأوّلِ مرّة شابٌّ مستهترٌ مجنونٌ، وعليه بالتّأكّد حتماً أنّ أيّامه أصبحتْ معدودةً، فيا أيّها الحارس أدْخِلْهُ إلى حرم قصرنا، لنلقّنه درساً في المصارعة العنيفة. وبعد أن يعاني ما يعاني من بطشنا وجبروتِنا، سيخرُّ ساجداً للقوّة المفرطة، ثمّ يذوق طعمَ الرّدى المحقّقَ على يدنا، كما ذاقه مَنْ سبقوه من الشّبان الّذين ألحقتُهم بالجحيم، غيرَ مأسوف عليهم!».

وممّا يثير الدّهشة في نفوسنا أنّ الملكَ أذنَ لثيسيوس، أن يتناول الطّعام على مائدته، وحينذاك

أخذ كلٌّ منهما يتفرّس في وجه الآخر دون أن ينبسَ ببنتِ شفة. وحين أكثرَ الملكُ الفظُّ سيرسيونُ من التّحديق، في عينَي الشّابّ الحادّتين، ووجهِهِ الجميلِ، وشعره الأشقرِ النّاعم، مال أن يسالمه، وعمد ألاّ يختبر قوّته ومهارته في مصارعته هذه المرّة!. ولكنّهما حينما انتهيا من الطّعام، نهض الشّابّ ثيسيوسُ المتحمّس للمصارعةِ والمصاولةِ والمحاوَلة، فوضع سيفه البتّار، وخفّيه الذّهبيّين، وعصاه الحديديّة، جانباً، وجرَّدَ نفسَه من ثيابه، وقال له: «تعالَ الآن يا سيرسيون الملك –إنْ لم يتسرّبِ الخوفُ إلى نفسك- تعالَ لنتصارع مصارعةً حرّةً، واعلم تماماً أنّي لك بالمرصاد!».

وبعدئذ اتّجه الخصمان العنيدان، إلى ساحةٍ واسعة، وقد حضر مجموعةٌ من الشّبّان، إلى الحَلَبَةِ المعدّة لذلك، لمشاهدة المباراة الفاصلة، الّتي كان: في حدّها الحدُّ بينَ الجدِّ واللّعبِ، فدارَ بينهما صراعٌ عنيفٌ، وهجومٌ مرٌّ، متجدّدٌ باستمرار، لم يسبق له مثيلٌ في تاريخ المصارعة، وقد استمرّ حتّى حطّتِ الشّمسُ على المغيب، دون أن يحقّقَ أحدٌ منهما نصراً على الآخر.

ولكنْ لكلِّ صراعٍ نهايةٌ، فكان من السّهل على المشاهدين أن تظهر لهم، قوّةُ ثيسيوسَ الخارقةُ، الّتي رجَّحتْ كفّتَهُ على خصمِه، واستطاع أن يفوزَ على الملكِ الشّرسِ في النّهاية، بالرّغم من تغلب هذا الملك قبله، على شبّان كثيرين.

وفي نهاية المطاف، وأمام أنظار هؤلاء الشّبّان، رفع ثيسيوسُ خصمَهُ، الملكَ الجبّارَ في الهواء، وقذف مقدّمةَ رأسه على كتف حجارةِ الرّصيف، فَشَجَّهُ شجّاً عميقاً، فسالت الدّماء جدولاً، وبذلك وضعه: في مهاوي الرّدى. وبعد هذا النّصر السّاحق، على مَنْ فَتَكَ بالشّباب الأبرياء ظلماً، صاح ثيسيوس بخصمه من أعماقه: «كما فَعَلْتَ أيّها الباغي بالآخرين بدون ذنب ارتكبوه، هكذا أنا فاعلٌ بك الآن».

وبهذه الضّربة القاضية أضحى الملكُ، العاتي المسنُّ دون حراك. وعندما قلّب الشّبّانُ المشاهدونَ جسدَهُ، ثمّ حدّقوا في وجهه القاسي الجامد العينين، تأكّدوا أنَّ الحياةَ قد فارقته نهائيّاً.

وبعدما شاع نبأ هلاك الملك :سيرسيون، عمّتِ الفرحةُ جميعَ النّاسِ، وهبّوا في إلوسيس كلُّهم، آتينَ إلى ثيسيوسَ العظيم شاكرين صنيعه، ومعظّمين شجاعته وبطولته، وطالبين أن ينصّبوه ملكاً عليهم فوراً، وقد خاطبوه بحماسة قائلين: «لقد قضيتَ على الطّاغية، الّذي كان آفةَ إلوسيس، ومُنَغِّصَ عيشِ شعبِها، أنتَ أيّها الأمير، الّذي كانت تَفِدُ إلينا أخبارُك البطوليّةُ

تباعاً، عندما عمدتَ تَطْهيرَ البلادِ من اللّصوص الجبابرة، وقطّاعِ الطّرق، الّذين دبّوا الرّعبَ في الأرضِ كلّها. فابقَ أيّها الأميرُ السّعيدُ في ديارنا، وكن ملكَنا المتوّجَ، لأنّنا ندرك تماماً أنّك ستحكم مدينتنا بالحكمة والعدل، وستكون همّتك العالية على خير ما يرام!». فأجابهم الأمير ثيسيوس: «إنّني لا شكّ مرحِّبٌ بكَوْني مَلِكَكُمْ في المستقبل، إن شاءتِ الآلهةُ! ولكن ليس الآن، لأنّ أعمالاً أخرى كثيرةً تنتظرني، وعليَّ أن أُنفِّذها واحدةً بعد الأخرى».

وإثْرَ ذلك تقلّدَ سيفَه الصّمصامَ، وانتعل حذاءَهُ الذّهبيَّ، وارتدى عباءَتَهُ الأميريّةَ، وحمل عصاه الحديديّةَ، على كتفه، وخرج من إلوسيس مودِّعاً. وكان جميع الشّعب يتبعه في مسيرةٍ قصيرة، صارخاً: «إنّنا جميعًا، نرجو لك حظّاً سعيداً من الأعماق، أيّها الأمير الخطيرُ، أنّى سرتَ، وأنّى اتّجهتَ، ونبتهلُ إلى إلهة الحكمة: أثينا أن ترعاك، وتباركك وتسدّد خطاك!».

٥- بروكروستس العديمُ الرّحمة

والآن أصبحت مدينة أثينا لا تبعد أكثر من عشرين ميلاً، عن المكان الموجود فيه ثيسيوس. ولكنّ المسافة عَنْ طريقِ جبالِ البرناسِ المؤدّيةِ إليها، كانت أبعدَ من ذلك؛ باعتبار هذا الطّريق ممرّاً ضيّقاً ملتوياً بين الصّخورِ، المتعاقبةِ الارتفاعِ والانخفاضِ، في الأودية الحرجيّة الصّغيرة المنعزلة بين هذه الجبال المتعرّجة.

ومن عادة ثيسيوس أنْ يجتازَ الطّرقَ الرّديئةَ، والخطرةَ، ويفضّلَها على الطّرقِ السّهلة، القصيرةِ المطروقة. ولكنْ بالرّغم من مغامراته الكثيرة، واختيارِهِ السُّبُلَ الصّعبةَ الوعرةَ، فقد خطا خطوات واسعةً، تخترق المجهولَ، وتتّجه بشجاعة وإقدامٍ منقطعَي النّظيرِ، وتسير دائماً إلى الأمام. وكان سعيداً جدّاً، بعمله بسبب اقترابه من نهاية هذه الرّحلة الطّويلة الشّاقّة.

ولكن مهما يكن من أمرٍ؛ فإنّها تُعدُّ رحلةً بطيئةً بالنّسبة له، استغرقت زمناً طويلاً، فيما لو احتاز طرقاً مطروقةً وقصيرةً، في تلك الجبال الّتي تستعصي على السّالك. يضاف إلى ذلك، أنّه لم يكن متأكّداً تماماً، من أنّه يسير في الاتّجاهِ الصّحيح. وحينما اقترب من الأوديةِ الخضراءِ الواسعة، الخاليةِ من الأشجارِ بعد جهد جهيد، كانت الشّمسُ قد حطّتْ على المغيب.

وكان ينساب وسط أحد هذه الأودية جدولُ ماء، وعلى أحدِ جانبيه تمتدّ مروجٌ معشوشبةٌ، على امتدادِ النّظرِ، ترعى فيها الماشيةُ العشبَ الأخضرَ. وعلى سفحِ رابيةٍ قريبة، كان هناك بيتٌ

مبنيٌّ، بالحجارةِ المنحوتةِ بعنايةٍ، وهو نصفُ مخبّأ بين الأدواحِ العظيمةِ، ولكنْ تغلب عليه دوالي الكروم، الّتي تتعرّشُ على جدرانه وسقوفه.

ولقد عَجِبَ ثيسيوسُ أشدَّ العجبِ، من وجود إنسانٍ ما يعيشُ بين هذه المروجِ، المنقطعةِ من الأرض، والّتي تخلو من المزارع والقرى؛ ولكونه يملك هذا المنـــزلَ المنعزلَ الجميلَ. وبينما كان ثيسيوس متأمّلاً في هذا البيت من الخارج، وإذْ به يفاجأُ برجلٍ يخرج منه مسرعاً، ليقابله في طريقه الواطئ، وكان يرتدي لباساً حسناً، ويفترُّ وجهُهُ عن ابتسامةٍ عريضةٍ، وقد اقترب منه اقتراباً شديداً، ثمّ انحنى أمامَه انحناءةً كبيرةً، داعياً إيّاهُ بلطفٍ شديدٍ، أن يُشرِّفَهُ بالحلولِ في منـــزله، باعتباره الضّيفَ المفضّلَ، الّذي يستقبلُهُ في تلك اللّيلةِ السّعيدة. ثمّ انطلق بالكلام معه، وكأنّه كان يعرفه منذ زمنٍ بعيدٍ، قائلاً له: «صحيحٌ أيّها الأميرُ العظيم، أنّ منـــزلي يقع في مكانٍ منعزلٍ، وأنّ المسافرين لا يعْبرون قربَهُ إلاّ نادراً. ولكنْ لا شيءَ يسبِّب لي الفرحَ، والغبطةَ والسّعادةَ مثلَ دعوتي نفراً، من هؤلاء المسافرين الغرباءِ، المتجشّمينَ عناءَ السّفرِ، إلى مائدتي العامرةِ. وحين أفوزُ بتناول الطعامِ معهم، أصغي إليهم إصغاءً تامّاً حين يتكلّمون، وخاصّةً عندما يَرْوُوْنَ لي على سجاياهم، رواياتٍ ممتعةً تتحدّثُ عن مغامراتهم، ومشاهداتهم الّتي رأوْها بأعينهم، وسمعوها بآذانهم. لذلك أرجوكَ رجاءً حارّاً أيّها الأميرُ المعتبرُ، أن تقبل دعوتي، وتتعشّى معي، وبعد ذلك تستلقي على سريرٍ عجيبٍ، قد جعلتُهُ يناسبُ كلَّ الضّيوفِ الأعزّاءِ، ويشفي النّفوسَ المكروبةَ من كلِّ بلاءٍ».

فَسُرَّ ثيسيوس جدّاً، من أسلوب هذا الرّجل في التحدّث. وباعتباره كان جائعاً ومتعباً، ذهبَ معه إلى بيته، وجلس تحت الدّالية، بجانب الباب، فتابع الرّجل كلامه، قائلاً: «والآن إنّني أيّها الأميرُ المبجّلُ، سأذهب إلى الدّاخل لأهيّئَ لك السّريرَ لتتمكّنَ أن تستلقيَ عليه، وترتاحَ وتطمئنَّ. وحينما تشعر بتجدُّد نشاطك، فإنّني أدعوك أن تجلسَ على مائدتي لنأكل، وعند ذاك سأُسمعك قصصاً جميلةً ممتعةً، أرويها لك عن أخبار الأوّلين».

وعندما دخل الرّجل إلى البيت، قام ثيسيوس ليتأمّلَ ما حوله، وليشاهد جزءاً من هذا المكان. فكان مندهشاً حقّاً من غناهُ، ومن مفروشاته، ورياشه وأُبّهَته، فقد زُيِّنتْ كلُّ غرفةٍ من غرفه، بالذّهبِ الخالصِ، ورُصِّعت الأشياءُ الثّمينةُ فيه، بالفضّةِ البيضاءِ. وهكذا وَجَدَهُ يشبه قصراً فخماً، جديراً بأميرٍ عظيمٍ، أو ملكٍ خطيرٍ!

وبينما كان مذهولاً، بما يشاهد من فخامته وزخرفته! انفرجت الدّالية أمامَ ناظريْه عن إطلالة وجه فتاة جميلة، فَحَيَّتْهُ حين اقتربت منه، ثمّ قالت له هامسةً: «أيّها الأميرُ النّبيلُ، أرجوك رجاءً حارّاً ألاّ تتّكئَ أبداً، على سرير سيّدي، وألاّ تطمئنَّ أبداً، بأيّ شكلٍ من الأشكال إليه؛ لأنّ جميع الّذين اتّكؤوا على هذا السّرير قبلك، وركنوا إلى حِيَلِ هذا الرّجل، لم ينهضوا من نومهم أبداً، فاهربْ سريعاً إلى الوادي، وخبِّئْ نفسَكَ في عمقِ الغابة الكثيفة، قبل أن يعودَ صاحبُ هذا المكان، فتقع في قبضته فَيَغْتَالُكَ فوراً، وإنّ أيَّ تأخّرٍ منك سوف لا يساعدك على الفرار، والإفلات من شراكه أبداً».

فسألها ثيسيوس بهدوءٍ تامٍّ: «ولكنْ من هو سيّدُكِ هذا، الّذي تخوّفينني منه؟!».

فأجابته بصوتٍ منخفضٍ، وبسرعةٍ بالغة: «إنّ جميعَ الّذين يعرفونه يطلقون عليه اسم، بروكرستسَ، أو المـطِّطَ. وهو لصٌّ عاتٍ محتالٌ، يلجأ إلى أسلوبٍ ليّنٍ لطيفٍ، بكلامه المعسولِ، وذلك لاجتذاب المسافرينَ الغرباءِ عبرَ الجبالِ، وبعد ذلك، يغريهم بالرّاحة التّامّة على سريره الحديديِّ، وحين يستلقونَ عليه يُمثِّلُ بأجسادهم، ويسلبُهُم بعد ذلك كلّ ما يملكونه من مالٍ أو متاعٍ. فلا أحدَ من الّذين دعاهم بكلامه المهذّب، إلى هذا البيت، استطاع أن يخرج منه مرّةً أخرى».

فسألها ثيسيوس بدون اكتراث، أو شعورٍ بالخوف، أو الرّعب، قائلاً لها: «ولكنْ لماذا يسمّونه بالمطّط؟». فأجابتْه الفتاةُ: «ألم يَقُلْ لكَ هو نفسُهُ، بأنّ سريرَه يناسب كلَّ الضّيوف؟ إنّه حقّاً: لا يناسبُهُم أبداً! فإنْ كان المسافرُ المخدوعُ، المستلقي على هذا السّرير، طويلَ القامة، فيلجأ هذا السّفّاحُ إلى بَتْرِ ساقيه؛ ليجعلَه يناسبُ الطُّولَ الحقيقيَّ للسّرير، وأمّا إن كان قصيراً أكثرَ ممّا ينبغي، شأن معظم المسافرين، الّذين يستضيفهم، فعندئذٍ يمطّط أطرافَه بالحبال، حتّى يشوّهَ جسمَهُ، ويصبحَ طويلاً بما يكفي، ونظراً لهذه الطّريقة الدّنيئة الأخيرة، من صنوف القتل المتعمّد، أطلقوا عليه اسمَ: المطّط!».

فقال ثيسيوس: «آهِ! يبدو لي من كلامك، أنّي سمعت بهذا المطّط من قبلُ، وقد تذكّرتُ الآن أنّ بعضَ النّاسِ في مدينة إلوسيس، أنذروني بأنّ لصّاً يدعى بروكروستس، يكمنُ للمسافرين في حوافِّ الوديانِ المنعزلة، ثمّ يُغويهم لاستضافته في مأواه، بكلامه النّاعم، وأسلوبه الماكر، وحينما يزورونه في منـــزله، يفتك بهم أشدَّ الفتك!».

في ذلك الوقت شعرتِ الفتاةُ، بوقع خطا سيِّدها المرعب على البلاط، فهمستْ في أذن ثيسيوس، بصوتٍ منخفضٍ: «أصغِ إليَّ أيّها الأميرُ، أرجوك أن تصغيَ إليَّ حالاً، لنَقْطَعِ الكلامَ؛ لأنّه آتٍ الآن!». وسرعان ما انفرجت أوراق الكرمة عن بعضها، فدخلت الفتاةُ إلى الدّاخلِ، فاشتبكتْ الأوراق من جديد، لتخبِّئَها في مكانها، وتسترَها عن نظره.

وفي اللّحظة التّالية: برز بروكرستس في الباب؛ فانحنى فوراً أمام ثيسيوس، ليبدو إنساناً في غاية الطِّيبة والبراءة، وأنّه صادقٌ لا يوجد في فمه غشّ، ولم يرتكبْ جرماً في حياته، أو أذىً أو ضرراً، أو كان يحقّق موتاً زؤاماً إلى الكثيرين من المسافرين، الّذين اصطادهم بشباكه الخبيثة!. وها هو الآن نراهُ يخاطبُ ثيسيوسَ بكلِّ بساطة وتواضعٍ، قائلاً: «عزيزي الأمير الشّابّ، لقد هيّأتُ لك السّريرَ المناسبَ، وسوف أريك عمليّاً الكيفيّة، الّتي تستلقي بها عليه. وبعد أن يدبَّ النّعاسُ في جفنيك، وتأخذَ غفوتَك اللّذيذة، وتنامَ بعضَ النّوم، وتستيقظَ نشيطاً، فسوف تجلس على المائدة معي لتتناولَ الطّعام اللّذيذ، ويمكنك وقتَ ذاك، أن تحدّثني بأسلوبك الرّائع، عن مغامراتك أثناء شقِّ طرقك في الجبال الوعرة، وعن كلِّ المشاهد العجيبة الغريبة، الّتي رأيتَها وعانيتَها، أثناء رحلتكَ الطّويلة الشّاقّة!».

وإثْرَ ذلك الحديث نهض ثيسيوس، وتبع مضيفَهُ، لاستعراض غرفِ البيت، وأبْهائه، ومشاهدتها. وعندما أتيا إلى غرفة داخليّة، بدا هيكلُ السّريرِ المصنوعُ من الحديد مُعجباً جدّاً، وقد وُضِعَ فوقَهُ فراشٌ، ذو تنجيد ناعمٍ أنيقٍ، كأنّه يغريكَ أن تستلقيَ عليه، لتنامَ براحة وهدوء واطمئنان. وممّا استرعى انتباهَ ثيسيوس، أثناء تجواله في الغرف، أنه شاهد، البلطةَ والحبالَ وبكراتِ الماء خلفَ السّتائر، ولاحظَ أيضاً أنّ أرضَ الغرفة مغطّاةٌ ببقعِ الدّم. وهناك استوقف بروكروستسُ ثيسيوسَ، متابعاً كلامَهُ: «عزيزي الأمير الشّابّ الصّديق، إنّني ألتمس منك الآن، بكلِّ سرورٍ أن تضطجع على السّرير المعدِّ لك، وتتمتَّع باستراحتك كاملةً، لأنّني أعلم علمَ اليقين: أنّكَ كابدتَ مشقّاتِ السّفرِ طويلاً. وبالرّغمِ من مكابرتك الآن بعدم الشّعور بالتّعب، فإنّني أدعوك، أن تستلقيَ على هذا الفراش الوثير باطمئنان، وسوف أَعدُكَ أنه عندما تباغتُك الهجعةُ اللّذيذةُ، سأحتاط أثناء نومك، من أن تتعرّضَ لضجّةٍ غيرِ لائقة، أو أن أسمحَ لطنينِ ذبابةٍ عابرةٍ، أو أزيزِ بعوضةٍ مُكدِّرةٍ قد تزعج أحلامَكَ الجميلةَ!».

وبعد هذه الدّيباجة الكلاميّة الخادعة، سأله ثيسيوس عن هذا السّرير المناسب، الغريب

العجيب؟ فأجابه بروكروستس: «ها هو ذا أمامَك، والآن ما عليك إلاّ أن تستلقيَ عليه، فإنّه سيناسبُكَ تماماً. ومن اللاّئق أن تجرّبه عمليّاً، فتنامَ عليه أوّلاً». فأجابه ثيسيوس: «دعني ألاحظ فيما إذا كان هو نفسه، يناسبُ طولَك أنتَ تماماً!».

فأدرك بروكروستس قصدَهُ فوراً، فقال: «آه، ولكن ليس يا صاحبي الآن!»؛ لأنّه شعر فوراً أنّ مخادعاتِه قد انتهت، وأنّ نفوذَهُ قد تلاشى، لذلك صدرت منه آهةُ الإحجامِ هذه، وعلا وجنتيه شحوبٌ كشحوبِ الموتى!.

فقال له ثيسيوس: «ولكن باعتبارك قد رفضتَ الاضطجاعَ على سريرك، فَسَأُعَلّمُكَ كيف سيكون الاضطجاع!». وما كان منه إلاّ أن قبض على جسم اللّصِّ المرتجفِ، رعباً، فرماه بقوّة على السّرير، ولم يكدْ يجبره على الانبطاح على الفراش، حتّى امتدّتْ ذراعاه الحديديّتان، فقبضتا على حضنه، ثمّ أمسكتاه بعنف من الأسفل؛ بحيث لا يستطيع أن يحرِّك يداً أو قدماً. فصرخ اللّصُّ الحقيرُ صراخاً عالياً، مستغيثاً وطالباً الرّحمة!.

ولكنَّ ثيسيوسَ كان واقفاً بثباتٍ، ومسيطراً عليه من فوق، وناظراً إليه مباشرةً، ومحدِّقاً فيه بعينيه الفاحصتين، وقائلاً له: «أليسَ هذا هو السّريرُ عينُه، الّذي جعلتَ ضيوفَك المخدوعين، بأسلوبك المنمّق، وكلامك المعسول، الخسيس المخادع، يضطجعون عليه؛ لأنّهم صدّقوك وَوَثقوا بكَ؟!». فلم ينبس اللّصّ ببنت شفة!.

ثمّ أظهر له ثيسيوس البلطةَ والحبالَ والبكَرات، وسأله قائلاً: «لأجل أيِّ شيءٍ كنتَ تستعمل هذه الأدوات؟ ولماذا خبّأتَها بهذه الغرفة؟». ولكن بروكروستس بقي ساكتاً واجماً، ولم تبدرْ منه أيّةُ كلمةٍ، ولم تظهرْ منه أيّةُ حركةٍ، سوى الارتجاف، والارتعاش، والبكاءِ الشّديد!.

فقال له ثيسيوس: «الآنَ ظَهَرَتْ الحقيقةُ المرّةُ، الّتي كشفتْ كلَّ جرائمك، فقد خَدَعْتَ طوالَ أعوامٍ عديدةٍ، مئاتِ المسافرين المساكين، داخلَ مأواك المموّه، بطرقك الثّعلبيّة المخادعة، وعمدت إلى تجريدهم من كلِّ شيءٍ، ثمّ ربطتَهم بسريرك المزعومِ المناسبِ للجميع، وبترت أرجلَ بعضِهم، دون رحمةٍ أو شفقةٍ، ومَطَطْتَ أجسادَ بعضِهم الآخرِ؛ ليناسبوا قالبَك الحديديَّ. والآن أخبِرْني أيّها اللّصُّ المارقُ، أليس كلامي حقيقيّاً؟!».

فأجهش بروكروستس بالبكاء، وقال وهو يتوجّعُ ويئِنُّ: «إنَّ ما قلته هو الحقيقةُ بعينها، إنّه الحقيقةُ السّاطعةُ، والآن أرجوك وأتوسّل إليك، أن توقف هذا الينبوعَ من الدّماء؛ الّذي ينــزف

من رأسي، والّذي سبّبَتْهُ أنتَ لي، ثمّ دعني أذهب وشأني. وإنّي بالتّالي سأدعك تحصل على كلّ ما أملكُهُ!».

ولكنّ ثيسيوس رفض كلامه رفضاً قاطعاً، وصدَّهُ صدّاً عنيفاً، قائلاً له: «خسئتَ أيّها المحتال، إنّك واقعٌ في الشّرك الّذي نصبته سابقاً للآخرين، ولي أنا فيما بعد، فهل يُرْحَمُ الآنَ رجلٌ لم تظهر في قلبه، أيّةُ رحمةٍ أو شفقةٍ على ضحاياه؟». وخرج ثيسيوس بعد ذلك من الغرفة، تاركاً اللّص مكبّلاً بالحبال، وهو ينزف دماءَه حتّى يأخذه النّزع الأخير، بما اقترف من مكائدَ وحشيّة، ويلفظَ أنفاسه الأخيرة، غير مأسوفٍ عليه أبداً!.

ثمّ تركه على حاله السّيّئ، وتجوّلَ داخلَ بيتِه، فعثر هناك على ثروةٍ عظيمةٍ من الذّهبِ والفضّة، الّتي كان قد سلبها من المسافرين، الّذين سقطوا بِيَدَيْه. وعندما دخل ثيسيوسُ غرفة الطّعام، وجد فيها مائدةً عامرةً غنيّةً باللّحومِ والشّرابِ، ولذائذ الطّعام من شتّى الأنواع، حيث لا يوجد أفخر من هذه المأكولات على موائد الملوك. وقد لاحظ أنّه لا يوجد حول هذه المائدة، سوى مقعدٍ واحدٍ، وصحنٍ واحدٍ، ولا شكّ أنّه خاصٌّ بالمُضيف فقط، وتخلو من أيّةِ صحونٍ أخرى معدّة للضّيوف إطلاقاً!.

وفي اللّحظاتِ الّتي خرج فيها من هذه الغرفة، ظهرت له من جديدٍ الفتاةُ الجميلةُ الوجهِ. وهي الفتاة عينُها الّتي شاهدها ثيسيوس، من قبلُ بين دوالي الكرمة، فاقتربت منه، وضغطت على يده، وباركت عمله، وشكرته شكراً جزيلاً؛ لأنّه خلّصَ المسافرين، الّذين باستطاعة سيّدها النّصاب، أن يخدعَهم بسهولةٍ في المستقبل، فيما لو بقيَ على قيد الحياة. ثمّ خاطبت ثيسيوس، وعيناها تغرورقان بالدّموع قائلةً له: «يا سيّدي منذ شهر مضى، كان والدي التّاجر الأثينيّ الغنيّ، مسافراً إلى مدينة إلوسيس، وكنتُ أرافقه في سَفَرِه، وأنا سعيدةٌ بصحبته سعادةً لا مثيلَ لها، وخاصّةً عندما كنت أتمتّع برؤيةِ المشاهدِ الطّبيعيّة، الجبليّة الخلاّبة، تحت جناحيه وفي حمايته. وقد كنتُ آنذاك خاليةَ البالِ، مرتاحةَ الخاطرِ، كأيِّ عصفورٍ حطَّ على فَنَنٍ مورقٍ أخضرَ، في غابةٍ كثيفة!.

ولكنَّ هذا اللّصَّ الرّهيبَ، وا أسفاهُ، غيَّرَ مجرى حياتي، وسبّب ليَ الحزنَ والتّعاسةَ، حين أغراني أنا ووالدي -كما أغراكَ أنت- بالتّعريج على مأواه الجميل، لنرتاح على سريره العجيب، وذلك طمعاً منه في الحصول على ذهبنا الّذي كنا نحمله، فقضى على والدي العزيز

بجريمته المعروفة، أمّا أنا فحوّلني إلى أَمَة تخدمه، دون اكتراثٍ همّي وألمي، وعرَّضني في كلّ صباحٍ ومساءٍ لظلمه وتَعَسُّفه، بعد أنْ حَرَمَني من عطفِ والدي الحبيب. ألا رحمةُ آلهة الأولمب على جسده الطّاهر!».

ولقد كانَ ثيسيوس يصغي إلى كلام الفتاة المؤثّر، وهي تروي له تفاصيل محنتها القاسية مع هذا اللّصّ، فعزّاها على فقدها والدها، وتعرّضها لإرهابه. وبعد ذلك جمعَ جميعَ النـزلاء الّذين استعبدهم بروكروستس، وأجبرهم على خدمته قسراً، بما فيهم الفتاة المذكورة: فوزّع عليهم كلّ غنائم اللّصّ وثروته، وأنبأهم أنّهم أصبحوا بنعمة الآلهة أحراراً، ويستطيعون أن يتوجّهوا أنّى شاؤوا.

وفي اليوم التّالي استعدَّ ثيسيوسُ للرّحيلِ، فصعد إلى أعلى المرتفعات، شاقّاً طرقاً وعرةً ملتويةً، وضيّقةً في الجبال من جديد، وبعدَ معاناةٍ مرهقة، هبط إلى سهل أثينا، وشاهد بأمّ عينيه المدينةَ النّبيلةَ. وحيث كانت تبرز له الصّخور، في مرتفع المدينة، ظهرَ له معبدُ أثينا العظيم شامخاً. واعتباراً من مكان هذا المعبد، وخلال طريقٍ ضيّقٍ، شاهدَ عنْ بُعْدٍ الجُدرانَ البيضاءَ لقصرِ الملكِ.

٦- المجد والوطن

عندما دخل ثيسيوس مدينة أثينا، ومضى ماشياً في شوارعها، تساءَل أحد المواطنين فيها قائلاً: «تُرَى من يكون هذا الشّابُّ الجميلُ؟» إلاّ أنّ تساؤلَ مواطنٍ واحدٍ لا يعوَّلُ عليه. فشهرةُ أعمالِ ثيسيوسَ، وأوصافُهُ قد سبقته، فكثيرون من أهل المدينة قد عرفوه، وكانوا يتهامسون فيما بينهم قائلين: «لا شكَّ أنّ هذا الشّابَّ السّائرَ في الطّريقِ، هو البطلُ ثيسيوسُ عينه، الّذي فتك باللّصوص الأشرار، في أنحاء الجبال الوعرة، فصارعَ الملكَ سيرسيونَ في مدينة إلوسيس، وصرعه، وقبض على بروكروستس في مصيدته الماكرة، وقضى عليه، وطهّر تلك الأنحاء من لصوصٍ كثيرينَ سابقاً!».

ولكنَّ بعض الجزّارين، الّذين كانوا يسوقون ذبائحَهُمْ المحمّلة إلى السّوق، كانوا يقولون بأصواتٍ عالية: «إنَّ ما أُخبِرْناهُ عن هذا الشّابّ، ليس كهذا الّذي نشاهده الآن، فَمِنَ المناسبِ لهذا، أن يُغَنّي أعذبَ الأغاني، للغواني، ويتغزّل بهنّ بأجمل القصائد، أفضل بكثيرٍ من أن يُشاعَ عنه، أنّه قد حاربَ اللّصوص في ذرى الجبالِ، وقهرَهم، وصارعَ قطّاع الطّرقِ الجبابرةِ في

مكامنِهم الحصينة، وأسالَ دماءَهم غزيرةً!».

وقال أحدهم أيضاً مخاطباً زميله: «ألا تنظرُ يا صاحِ إلى شَعرِه الأشقرِ الحريريِّ؟!».

وقال الثّاني: «أمْعِنِ النّظرَ في وجهه الفتاتيّ، الّذي لا ينمُّ عن أيّة بطولة!».

وقال الثّالث: «انظُرْ جيّداً إلى ردائه الطّويل، المتدلّي على ساقَيْه!».

وقال الرّابع: «انظُرْ أيضاً إلى خُفّيه الذّهبيّين!».

أمّا آخرهم فقال ساخراً منه مستهزئاً به: «ها! ها! إنّني أراهن بأنّه لم يستطعْ، أن يرفع ثقلَ رطلٍ في حياتِه كلِّها! لذلك فلا يعقل أبداً أنّ شابّاً كهذا، وبهذه النّعومة، كان بإمكانه أن يقذف سكيرون العاتي العتيق، من الجرف الصّخريّ إلى الهوّة العميقة!».

ولقد كان ثيسيوس يسمع كلَّ هذه التّرّهات، والثّرثراتِ الكاذبةَ الخبيثةَ، بينما يخْطُو خطواتِه الواسعةَ، ولا شكّ أنّها أغْضَبَتْهُ كثيراً، ولكنّه لم يأتِ إلى أثينا ليتشاجرَ مع الجزّارين شخصيّاً، لذلك فإنّه لم ينبس ببنت شفة، إلاّ أنّه عبّر عن انزعاجه وغضبه، بأنْ مشى مشيةً مستقيمةً نحو العربةِ الرّئيسة، فَعَلاها، وقبل أن يَفْسَحَ مُتّسَعاً من الوقت لسائقها بالتّفكير في متابعة سياقتها، أمسكَ الثّورَ الأوّلَ المذبوحَ، المحمولَ إلى السّوق للبيع، وقذفه قذفةً هائلةً إلى أعالي البيوت، ليطيرَ في الجوّ، ثمّ يهبطَ أخيراً، ويستقرَّ في حديقةٍ من حدائق المدينة، وفَعَلَ الفعلَ نفسَهُ مع الثّور الثّاني، والثّالث، والرّابع من تلك الثّيران المحمّلة في العربات، وبعد ذلك استدارَ راجعاً بعكس اتّجاهه الأوّل، وكأنّ شيئاً لم يحدث، تاركاً الجزّارينَ الثّرثارينَ، المبعثرةَ ثيرانُهُمْ في أمكنةٍ كثيرةٍ من تلك المنطَقَة، مندهشينَ، ومبهوتينَ، وصامتينَ، ونادمينَ على ما بدرَ منهم من افتراءاتٍ، وتخرُّصاتٍ كاذبةٍ. ثمّ تركهم ماضينَ، لا يَلْوُونَ على شيءٍ!.

أمّا هو فصعدَ السّلّمَ، الّذي قاده إلى أعلى قمّةٍ صخريّةٍ، شديدةِ الارتفاعِ، وهناك تسارعَ خفقانُ قلبِه، حينما وقف على عتبةِ قصرِ والده، الّذي وصل إليه بعد طول مسيرٍ وانتظارٍ، وجهودٍ جبّارةٍ.

وقد بادرَ أحدَ حرّاسَ القصرِ بسؤاله، قائلاً: «أين يوجد الملك؟».

فأجاب الحارس: «ليس بمقدورك أن تقابلَهُ. ولكنّني سأسمحُ لك، بأن ترى أبناء أخيه إن شئتَ». وفعلاً فقد قاده إلى قاعة الطّعامِ الواسعة، الّتي تجمّعوا فيها. فرأى ثيسيوسُ في هذه القاعة، خمسينَ من أبناء عمومته الجالسينَ، والواقفينَ، والآكلينَ، والشّاربينَ، والقاصفينَ، والمستهترينَ.

ومن جرّاءِ عربدهم وجَلَبَتِهِمْ، واختلاف أمزجَتِهِمْ، فقد كانت تعلو صيحاتُهم المرتفعةُ، في جوّ القاعة، وتختلط هذه الأصوات اختلاطاً عجيباً، فالمغنّونَ يغنّونَ، والعازفونَ يعزفونَ، والجواري يَرْقُصْنَ بخلاعة، وحرّيّة تامّة، وأنصافُ السّكارى من الأمراء، يصيحونَ، ويشتمونَ بعضَهم بعضاً، دون وازعٍ أخلاقيٍّ يَزَعُهُمْ، أو زاجرٍ يزجُرُهُم. فتبّاً لها من فوضى ليس لها مثيلٌ!.

وفي هذا الجوّ المفعم بالانفلات، وعدم الشّعور بالمسؤوليّة، والاحترام المتبادل، والتّقدير للحرم الملكيّ، وقف ثيسيوس في مدخل القاعة ممتعضاً، ومقطّباً حاجبَيه، وعاضّاً على ناجذيه، من احتدام الغضب، الّذي اجتاح كيانه!.

فرآه واحدٌ من أصحاب الوليمة، فصرخ بالمولمين قائلاً لهم: «انظروا هذا الشّابَّ الطّويلَ، الّذي يقف في مدخل القاعة، واسألوه ماذا تفعل هنا أيُّها الغريب؟!».

وقال له رجلٌ آخرُ منهم: «أجَلْ أيُّها الرّجل الغريبُ يا ذا الوجهِ الفتانيِّ، ماذا تريد من وقوفك في هذا المكان؟».

فأجاب ثيسيوس: «جئتُ إلى هنا لألتمسَ الموافقةَ، على الاستضافة، الّتي أعتقدُ تماماً، أنّه لن يرفضَها الرّجالُ، الّذين ينتمون إلى سُلالتنا!».

فصاحوا جميعاً: «إنّنا لن نرفُضَها أبداً؛ لذلك يا أيّها الشّاب: فكُلْ واشربْ وتمتّعْ ما شئت، وكنْ ضيفَنا الآن».

فقال ثيسيوس لهم: «سوف أدخل إلى هذا القصر الملكيّ، وسأخصُّ الملك بضيافتي، فأين هو الآن؟».

فأجابه واحدٌ من أبناء عمومته: «لا تهتمَّ كثيراً بالملك؛ فإنّه يأخذ الآن قسطاً من الرّاحة، ونحن موكّلون بالحكم، وإدارة المدينة بدلاً منه!».

وعندئذٍ ما كان من ثيسيوسَ إلاّ أن مشى بجرأة، خلالَ غرفةِ الطّعامِ، أمام أبصار المُولمين، متّجهاً منها إلى ردهات القصر، وباحثاً بجدٍّ واجتهادٍ عن مقام الملك. وأخيراً عثر عليه جالساً مكتئباً، في غرفةٍ داخليّة، فاعتصر الحزنُ قلبَهُ عندما شاهد أسارير القلق، والانقباض على وجه والده المسنّ، ولمس أحواله المضطربةَ، فهدأ من رَوْعه ومن انفعاله، وتماسَكَ بحضرته، وخاطبه قائلاً: «أيُّها الملك العظيم، لقد قصدتك بعد رحلةٍ شاقّة، وأنا الآن غريبٌ في أثينا، ولقد حللتُ قصرَك، لألتمسَ منكَ طعاماً ومأوىً، وصداقةً، باعتباري علمت من النّاس الكثيرين، أنّك لا ترفض أولئك الرّجالَ، أصحاب الرُّتبِ النّبيلة، والمنتسبين حقّاً لسُلالتك العريقة!».



فقال الملك: «ولكن من تكون أيّها الشّابّ المعتدّ بنفسك، والمنتسب إلينا!».

فأجابه: «إنّ اسمي ثيسيوس».

فقال الملك: «ماذا تقول؟ أأنت ثيسيوسُ الّذي زعم الكثيرون إنّكَ خلّصتَ العالم من لصوص الجبال، وفي مقدّمتهم سيرسيون المصارع العنيد، وبروكروستس ممطّط الأجساد، العديم الرّحمة؟!».

فأجابه ثيسيوس: «أنا هو بالذّات، وقد أتيت إلى قصركم من تروزن القديمة، الواقعة في الجانب الآخر من بحر سارونيك». عندئذٍ تسرّب الخوف إلى قلب الملك، وازداد شحوبُ وجهه، وصاح من أعماقه: «تروزن! تروزن!، كيف أنتِ يا تروزن!». وبعد الهتاف الحزين، ما لبث أن خفّفَ من شدّة روْعِه، ثمّ تماسكَ بعد الهلع، الّذي ألمّ به، مراجعاً نفسَهُ، وقائلاً لثيسيوس: «نعم، نعم، أيّها الشّابّ إنّني مرحّبٌ بك هنا؛ لأنّك قصدت هذا المأوى، وبإمكانك أن تتناول الطّعامَ، وتشعر بالأمن، وتتبادلَ الصّداقةَ معنا، بمقدار ما يستطيع إيجيوس ملك أثينا أن يمنح قاصديه!».

ولكن ممّا عكّر صفو هذا اللّقاء الحميم، أنّه كان مع الملك امرأةٌ جميلةٌ تلازمه، إلاّ أنّها كانت في الوقت نفسه ساحرةً شرّيرةً، وتُدعى: ميديا، وقد كان تأثيرُها عليه كبيراً. بحيث إنّه لم يتجاسرْ أن ينفّذَ أيَّ شيءٍ، من دونِ إذْنٍ منها.

وبالرّغم من سطوتها المتجلّية في عينيها الحادّتين، فإنّه تجرّأ ملتفتاً إليها ثمّ قال: «ألستُ محقّاً يا ميديا، في دعوتي هذا الشّابَّ البطلَ إلى ضيافتنا، والتّرحيب به، وتبادُلَ الصّداقة معه؟».

فقالت ميديا: «نعم أيّها الملك إيجيوس، إنّك محقٌّ تماماً، وقد فعلتَ عينَ الصّوابِ في دعوته، لذلكَ دعْهُ يدخل حالاً إلى غرفة الضّيوف، ليستريح من عناء السّفر، ومخاطرِ الطّريق. وبعد ذلك يستطيع أن يتناول الغداء معنا، حيث يجلس على مائدتنا الخاصّة».

ولكنّ ميديا لم تجهل في أعماق نفسها، ماذا يشكّل هذا الغريبُ، من خطرٍ مُحْدقٍ بها، فقد عَلِمَتْ من فنونِ سحرِها، من هو ثيسيوس، لذلك لم ترضَ أن يقيمَ في أثينا على الإطلاق، لأنّها توجّسَتْ شرّاً من أن يصبح معروفاً جيّداً، لَدَى الملك، وعند ذلك ستنتهي قوّتُها المسيطرةُ عليه، فما كان منها إلاّ أن استغلّتْ فترةَ استراحة ثيسيوس في غرفة الضّيوف، فوسوستْ للملك وساوسَ شرّيرةً، إذْ صوّرتْه لهُ بأنّهُ، لا يمتُّ إلى البطولةِ بصلةٍ، وإنّما استأجره أولادُ أخيه

الطّامعون في الحكم ليقضيَ عليه، لأنّهم تعبوا وملّوا من انتظار موته!.

فصدّقَ الملكُ كلامَها الملفقَ، وازدادَ هذا العجوزُ المسكينُ قلقاً، وخوفاً على حياته المهدّدة، فرجاها بإلحاحٍ، أن ترشده إلى ما يجب عليه أن يفعله، لينقذَ نفسه من هذا الشّرّ المستطير الّذي عصف به؟».

فأجابته ميديا: «دعني أُدبِّرِ الأمرَ، فإنّك تعلم أنّ هذا الشّابّ، سيقبل بعد قليلٍ ليتغدّى معنا، وقد أعددتُ له كأساً من الخمرة المعتّقة، وصببتُ له فيها السُّمَّ الزّعافَ، وسأقدّمها له بعد وجبةِ الطّعامِ، وأعتقد أنّ هذه الخطّةَ أسهلُ طريقةٍ لاغتياله، وتخليصك منه.

وعندما حان موعدُ الغداء، جاء ثيسيوسُ إلى مائدة الطّعام، وجلس مع الملك بحضور ميديا، وأثناء تناوله الطّعام معهما، تطرّق إلى أعماله البطوليّة، وكيف تغلّب بمعونة آلهة الأولمب، على الجبابرة قاطعي الطّريق البرّيّة، ومنهم سيرسيون المصارع العنيف، وبروكروستس القاسي القلب. وكان الملك إيجيوس يصغي إلى حديثه، باهتمامٍ بالغٍ، وقد حنَّ قلبه إليه، وتلهّفَ أن ينقذه من كأس ميديا السّامّة.

وفي أثناء ذلك توقّف ثيسيوس عن الكلام، ليتناول قطعةً من اللّحم المشويّ –وكانت العادة في ذلك الزّمان أنّ المدعوَّ إلى وليمة، يجب عليه أن يسحب سيفه من غمده، ليقطع قطعةَ اللّحمِ المقدّمة له، وعليكَ أنتَ أنْ تتخيَّلَ: أنّ هذه العادةَ، حدثتْ في زمنٍ موغلٍ في القدم، قبل أن يتعلّمَ النّاسُ بكثيرٍ، استعمالَ السّكاكين والشّوَك على مائدة الطّعام– وعندما شرع في قطعها بسيفه اللّماع، رأى الملك إيجيوس حروفاً منقوشةً على غِمْدِه، وهي الحروف الأولى من اسمه، حينئذٍ علم في الحال، أنّ هذا السّيفَ هو السّيفُ عينُه، الّذي خبّأهُ منذ سنواتٍ كثيرة، تحت صخرةٍ في جبلٍ عالٍ، بجاورٍ لمدينة تروزن، وأنّ حامله الآن هو ابنه الحبيب!.

عند ذلك لم يتمالك، أن يصرخَ بصوتٍ جهوريٍّ حنون: «ولدي! ولدي!».

ثمّ قفز من مكانه بسرعةِ البرقِ، مُحَطِّماً كأسَ الخمرِ المسمومةَ على المائدة! وفاتحاً ذراعيه بكلّ حبٍّ وحنان، ليحتضن ابنه ثيسيوس!.

وإنّها لمقابلةٌ نادرةٌ، وسارّةٌ حقّاً، بين الأب وابنهالحبيب!. وبدت في هذا اللّقاء الحميم، أمورٌ كثيرةٌ تُسأَلُ، ويُجَابُ عنها. وعلى الفور أدركتْ ميديا الشّريرةُ أنّ مؤامرتها: قد انكشفت للعيان، وأنّ أيّامها في الحكم، قد ولّت إلى غير رجعة، فزعقتْ زعقةً حادّةً، دوّتْ لها أرجاء

القصر، ثمّ انصرفت مهزومةً مندحرةً.

وقد زعم رجالٌ أنّهم قد رأوْا بأمّ أعينهم، مركبةً ناريّةً تُجرّ من قبل تنانينَ مخيفينَ، يشقّون الهواء. وأنّ ميديا قد اندفعت في داخلها، بلمح البصر، فحملتها إلى جهةٍ مجهولة، ولم يرها أحدٌ بعد ذلك أبداً. ولا شكّ أن فرحَ الملك إيجيوس كان فرحاً عظيماً، بهذه المقابلة السّعيدة غير المتوقّعة. وفي صباح اليوم التّالي: أرسل رسلاً إلى جميع أنحاء أثينا، ليُعْلِمَ النّاسَ أنّ ثيسيوسَ البطلَ، الّذي طهّرَ الجبالَ من قطّاع الطّرق اللّصوص، هو ابنه الحبيب، وأنّه سيتوّجُ ملكاً شرعيّاً على البلاد بدلاً منه، باحتفالٍ عظيمٍ يليق به.

ولّما ترامى النّبأ إلى سمع أولاد أخيه، استشاطوا غضباً، واعتبروا ذلك الإعلانَ إنذاراً، بانتهاء دورهم، فصاحوا قائلين: «أيستطيع ذلك الشّابُّ المخنّثُ المغرورُ، أن يغتصبَ المُلْكَ منّا، بعد أن انتظرناه طويلاً، واللهِ لَنَنْتَقِمَنَّ منه شرَّ انتقام؟!».

وهكذا اتّفقوا فيما بينهم، على تدبير مكيدة لقتله. وكانت خطّتهم المرسومةُ: أن يكمن له عددٌ كبيرٌ منهم في حَرَجَة، على مَقْرَبةٍ من باب المدينة. وبمكرٍ مُتَعَمَّد، شرع هؤلاءِ النّاسُ الأشرارُ، في تنفيذ مخطّطهم الجهنّميّ، للقضاء على الوارث الشرعيّ.

وفي صباح يومٍ من الأيّام، بينما كان ثيسيوس يجتاز، ذلك الطّريقَ وحيداً، هاجمه على حينِ غِرّةٍ أبناءُ أعمامه بسيوفِهِم الحادّةِ، ورماحِهِم النّافذةِ، وحاولوا التّخلّصَ منه حالاً. وكان عددُهم ثلاثين رجلاً، أعدّوا أنفسَهُم للاعتداء على رجلٍ واحد. ولكنّ ثيسيوس، الّذي تمرّس بمواجهة الاعتداءات المفاجئة، استطاع أن يصدّهم ببسالة، منقطعة النّظيرِ، إلى حينٍ، وبعد ذلك صرخ طالباً النّجدةَ، من الموجودين في ذلك المكان. فهبّ النّاس من كلّ حدبٍ وصوبٍ، لمساعدته على دحرهم؛ لأنّهم تحمّلوا الكثيرَ الكثيرَ، من أخطائهِم الفادحةِ، وفسادهِم المستشري. وقد تصدّوا بشجاعةٍ فائقةٍ لناصبي الكمينِ، بما توفّر لديهم من سلاحٍ. وبتكاثر النّاس المندفعين للدّفاع، عن ملكهم الجديد، سقط معظم الأدعياء مجندلين على الثّرى، أمّا البقيّة الباقية من الغائبين منهم، الّذين سمعوا بما حدث، فقد فرّوا من المدينة بسرعةٍ جنونيّة، ولم يجرؤوا أن يعودوا إليها مرّةً أخرى. وبانتهاء هذه المعركة غير المتكافئة، حملت الجماهيرُ المنتصرةُ ثيسيوسَ، الملكَ الشّابَّ، على أكتافها معزّزاً مكرّماً، إلى قصره الملكيّ.



على شاطئ البحر، عثر على سلسلة فقريّة لسمكة ضخمة، ومن خلال رؤيتها، اخترع المنشار. ومن ملاحظة الطّيور المُنَقِّرَة، الّتي تحفر ثقوباً في جذوع الأشجار، استفادَ من رؤيتها فصنعَ: الإزميلَ. واخترعَ أيضاً دولاباً للخزّافين لقولبة الطّين، وقد أوحت له رؤيةُ شُعْبَتَي القضيب، في أغصان الأشجار، بإبداعَ الفرجارات، لرسمِ الدّوائرِ الهندسيّة. ونُسِبَ إليه أيضاً أنّه علّم أناساً كثيرين، صنعَ أشياءَ، وإبداعَ فنونٍ غريبة، مفيدة لهم جدّاً.

ولكنَّ عمّه ديدالوس لم يَرُقْ له كونُ ابنُ أخيه فطناً، وحاذقاً، وحكيماً، ومتهيِّئاً للتّعلُّم والتّعليم، وشغوفاً متلذّذاً بالعمل دائماً. فعوضاً أن يطرحَ الأنانيةَ جانباً، ويشجّعَ هذا الفتىَ المتفوّقَ، إلى أنْ يبتكر مزيداً من الاختراعات الخلاّقة للنّفع العام، فقد تذمّر في أعماقه قائلاً: «يبدو أنَّ نجمَ هذا الفتىَ المُبتكِرِ في صعودٍ مستمرٍّ، وأنَّ مكانَتَهُ الاجتماعيةَ ستظهر جليّةً، وسوف يكون أعظمَ منّي بدونِ شكٍّ، وستخلّدُهُ جميعُ الأجيال. أما اسمي فَسَرْعَانَ ما سَيُنْسَى أمام توهّج اسمه.

وفي أحد الأيّام، بينما كان في غمرةِ عمله، فكّر في أمر ابن أخيه مَلِيّاً، فامتلأ قلبه حقداً وغيظاً، على ذلك الفتىَ المبدع، ورأى أن يتخلّص منه بأيّة وسيلة ممكنة. وعندما كانا يشتركان في إبرازِ الزّينة، ونقشِها في أعلى معبد أثينا، أمرَ ابنَ أخيه -الّذي كان آنذاك في عُمْرِ الورد- أن يتّجهَ إلى إسْقالة ضيّقة، عُلِّقَتْ فوق طرف جُرْف صخريٍّ؛ حيث بُنِيَ المعبدُ. وقد أطاع الفتىَ أمْرَ عَمِّهِ، فتطرّفَ في السّير على الإسْقالة، فَكَفَتْهُ ضربةُ مطرقةٍ واحدة لها من عمّه، لتقلبَها من مربطها بسهولة، وهكذا سقطَ بيردكس المسكينُ في الهواء؛ بحيث كان رأسه يتّجهُ بعنف إلى أسفلٍ في سفحِ الجرف. ولسوء حظّه فإنَّ الإلهة أثينا - الّتي كانت تعطف دائماً على المبدعين؛ لأنّها كانت إلهة الفنون كما هو معروفٌ - لم تره في تلك اللّحظة لتشفقَ عليه، وتنقذَه من هذه الميتة الشّنيعة.

وتُروى روايةٌ أخرى عن موته فتقول: «إنّه بينما كان يهوي عن الإسْقالة، حَوَّلَتْهُ الإلهة أثينا إلى حَجَلَة، وطَيَّرَتْها بعيداً في أعالي التّلال، لتعيشَ هناك إلى الأبد، بين الحقول المخضوضرة، والغاباتِ الكثيفة، الّتي أحبَّها الفقيدُ حبّاً جمّاً في حياته».

وحتّى يومنا هذا حينَ يهبّ نسيمُ الصّيف عليلاً، وينتشر أريجُ الأزهارِ البرّيّة الملوّنة مُعطِّراً الأجواءَ في مرجٍ واسعٍ، أو في فُسحةِ غابةٍ باسقةِ الأشجارِ، ربّما نسْمَعُ تغريدَ بيردكس في بعض

الأوقات، مناجياً عَشيرَهُ من بين الأعشابِ، أو القُصيباتِ، أو من بين شجيراتٍ تنمو تحت أشجارٍ عظيمةٍ، في الغاباتِ البعيدةِ، البعيدة!.

٢- مينوس

أمّا ما يتعلّق بديدالوس، فلمّا علم النّاس في أثينا بجريمته الشّنعاء، وفعله القبيحِ امتلؤوا حزناً وغضباً، وتألّموا لِمَا حَلَّ بِبيردكسَ، الشّابُّ المبدعِ البريء، بعد أن تشرّبوا حبَّهُ. وكان سَخَطُهُمْ عامّاً؛ بسبب تلك الجريمة النّكراء، الّتي نَفّذَها هذا العمُّ الأنانيُّ الشّرّيرُ، تُجاه ابن أخيه غيرةً وحسداً. وقد فكّروا في بادئ الأمر، بالحكم عليه بالموت، لما اقترفت يداه من إثمٍ وشرٍّ، ولكنّهم حينما تذكّروا، كم أبدعَ، وأصلحَ، وأجهدَ نفسَه، ليجعل بيوتَهم أجملَ عمراناً، وأكثرَ بهجةً، وأسهلَ عيشاً، خفّفوا من شدّةِ الحكم عليه، وتسامحوا معه في بقائه مستمرّاً في الحياة، لكنّهم من جهةٍ أخرى، قرّروا نَفْيَهُ خارجَ أثينا، وأمروه ألاّ يعودَ إليها مرّةً أخرى، مدى الحياة.

وكانت هناك سفينةٌ راسيةٌ في الميناء، ومهيّأةٌ منذ مدّةٍ من الزّمن، لرحلةٍ عبرَ البحر. فأجبروا ديدالوس أن يركب متْنها، مُصطحباً معه أدواته الثّمينةَ، وابنَه إيكاروسَ. وبعد أيّامٍ معدودة، أبحرتْ هذه السّفينةُ الصّغيرةُ، ببطءٍ شديد، مراعيةً أن يكون شاطئُ البحرِ، من جهة يمينِ اليابسة دائماً، فعبرت قربَ مدينة ترووزن، وساحلَ أرغوسَ الصّخريِّ، ثمّ اندفعت أخيراً بجرأةٍ وإقدامٍ، تشقّ أمواج البحر الصّاخبة. وأخيراً وصل ديدالوس إلى جزيرة كريت المشهورة، وهناك هيّأَ نفسَه لكي يكون معروفاً، ومشهوراً من جديد.

ورحّب ملكُ كريتَ نفسُهُ به في مملكته، لأنّه قد سمع بمهارته العجيبة، من قبلُ، لدرجة أنّه جعل له مقرّاً في قصره ذاته، ووعده وعداً قاطعاً، بأنّه سيمنحه مكافأةً سنيّةً، ويجعل شأْنَهُ شأنَ العظماءِ، والأبطالِ، وذوي الشّرفِ إن كان منصرفاً إلى الفنّ والإبداع فقط، ويمارس صناعته المفيدة بمواظبةٍ وإخلاصٍ، وأن يبنيَ في كريت، كما بنى وأبدع في أثينا من قصورٍ وصروحٍ.

وقبل كلّ شيءٍ، لا بدّ أن نذكر أنّ اسم ملك كريت كان: مينوس. وكان جدُّه يُطْلَقُ عليه هذا الاسم أيضاً، ومن المعلوم أنّه كان ابن أوروبا، الّتي خطفها الثّور الأبيض -الّذي انتحل هيأتَهُ الإلهُ الأكبرُ جوبيترُ- من الخلفِ، عبرَ البحرِ أي من آسيةَ القريبةِ، وبالتّحديد من مدينة صور. وقد كان جَدُّهُ مينوسُ الأوّلُ يعتبر: أحكمَ الرّجالِ، وقد اختاره جوبيترُ ليكونَ واحداً، من قضاة

الدُّنيا المشهورين. ويكاد الملك مينوس الحاليّ، أن يكون متمتّعاً بحكمة جدّه الأكبر، ويضاف إلى ذلك كونه شجاعاً، ومتبصّراً في الأمور، وماهراً في تصريفها. وخاصّةً في حكمه جزيرةَ كريتَ ذات الموقعِ الممتازِ، واهتمامه اهتماماً عالياً، بشؤونها الدّاخليّة والخارجيّة. وتدعيماً لقوّته فيها، وَحَّدَ جميعَ الجزرِ الصّغيرةِ المحيطة بها، وجعلها تابعةً لمملكته الغنيّة. أمّا سفنُه الكثيرةُ، فقد أبحرت إلى كلّ أنحاء العالم المعروف آنذاك، ومنها جَلَبَ إلى كريت، معظمَ ثرواتِ البلدانِ الأجنبيّة، وحصر في خزائنها الذّهبَ الثّمينَ، نظراً لتجارته الرّابحة.

لذلك فليس من المستغرب أن يحثّ ديدالوس، على السّكنى في قصره الملكيّ، ويجعله مترئّساً أصحابَ الحرفِ، ليرعى الفنَّ والعمارةَ في هذه الجزيرة، بالرّغم من اقترافه الجُرمَ في أثينا. فبنى ديدالوس لملك كريت قصراً فخماً رائعاً، وبلّطه بأرضيّاتٍ من الرّخامِ الصّافي، العالي الجُودَة، ونصب له أعمدةً مزخرفةً، من حجر الغرانيت، وأقام في القصر تماثيلَ يندرُ مثيلُها في العالم، فنالتْ إعجابَ كلّ من شاهدَها؛ لأنّها: كانت تنطق، بألسنةٍ حيّة بدون كلامٍ؛ حيث لم يَفُقْها في روعَتِها وشدّة أسْرِها صرحٌ معماريٌّ آخرُ في كلّ أنحاء المعمورة.

ومن سوء الطّالع في تلك الأيّام المغرقة في القدم، وبين تلك التّلال الكريتيّة، أنْ عاش وحشٌ مرعبٌ مخيفٌ يُدعى المينوتور. وهو الّذي لا يشبهه كائنٌ آخرُ في شراسته، منذُ ذلك الزّمن، وحتّى أيّامنا الحاضرة. وهذا المخلوقُ له جسمُ إنسانٍ، ورأسُ ثورٍ متوحّشٍ، وكانت طبيعتُهُ هي الطّبيعةَ المفترسةَ، لأسدِ الجبالِ الهزَبْرِ.

ولم يُسمَحْ للشّعبِ الكريتيِّ أن يفتك به، إنْ شاءَ الخلاصَ منه؛ لأنّه كان من الشّائع، بأنَّ جماعةَ الآلهة الجبابرة المستقرّين في أعلى الأولمب - بما فيهم الإله الأكبر جوبيتر - قد سلّطوه عليهم، عقاباً لهم. ومن المعلوم أنّ أولئك الآلهةَ، سيغضبون غضباً شديداً، إذا تجرّأ واحدٌ من البشر، أن يقبض روحه بسيفه أو رمحه. بالرّغم من أنّ هذا المينوتور كان يمثّل الطّاعونَ الفتّاكَ، لكلّ أجناس البشر، وهو الّذي يدبّ الرّعبَ الدّائمَ القتّالَ، في كلّ تلك المناطق، لأنَّ من عادته شبْهِ المؤكّدةِ، أن يقبض في كلّ يومٍ على أحدِ الرّجالِ، أو الأطفالِ، أو إحدى النّساءِ، فيفترسهم بلا رحمةٍ، ويلتهمهم التهاماً سريعاً!.

ولهذا السّبب قال الملك مينوسُ لديدالوس: «لقد ابتكرتَ لنا أشياءَ في غايةِ الرّوعة، وبنيتَ قصوراً ليس لها مثيلٌ في العالم، فهل تستطيع أن تصنَعَ لنا شيئاً واقياً، يخلّص البلادَ من هذا

المينوتور المؤذي، الّذي يفتك بالنّاس دون تمييز؟».

فقال ديدالوس : «هل تسمحون لي أن أقتله، وأخلّصكم من شروره بأسرعِ وقتٍ ممكنٍ؟».

فأجابه الملك: «كلاّ لن أسمحَ لكَ بذلك، لأنّ قتله سيسبّب لنا محَناً شديدةً، نحنُ بغنىً عنها، لأنّ الآلهةَ في أعالي السّماء تدعم وجودَه، في جزيرتنا!».

فقال ديدالوس : «إذاً عليّ أن أبنيَ له مسكناً خاصّاً، وبعد ذلك يمكنك أن تسجنه فيه سجناً دائماً».

فأجابه الملك: «ولكنّ هذا الحيوانَ العاتيَ، المَحْميَّ من الآلهةِ، سيهزلُ جسمُهُ باستمرارٍ على امتدادِ الزّمن، وسوف يدركه الموت أخيراً، إنْ تُرِكَ قابعاً في هذا السّجن، ولا شكّ: أنّك تعلم عاقبةَ ذلك على مملكتنا!».

فقال ديدالوس: «إذاً من أجل بقائه حيّاً، سأبني له كثيراً من الغرفِ الواسعة، المفتوحة على بعضها، الّتي بإمكانه أن يتجوّلَ فيها بحرّيّة تامّة، وَسَأَعِدُكَ وعداً قاطعاً، بأنّه سيعيش ويستمرّ صحيحاً معافىً، إن استطعتَ بين مدّةٍ وأخرى أن تُغَذِّيَهُ، بواحدٍ من أعدائك البشر!». فوافق الملكُ على اقتراحه الأخير.

وإثرَ ذلك فإنّ ديدالوسَ –ذلك الصّناع العجيب– حشد عمّالاً مهرةً، فبنوا له بيتاً غريباً عجيباً، فيه غرفٌ كثيرةٌ، ومنعطفاتٌ لا حصر لها، تُضَيِّعُ من يدخل إليها حتماً، ولا يستطيع أن يخرجَ منها أبداً، وأطلقَ عليه ديدالوسُ اسمَ: (المتاهة). وتمكّن هذا البَنّاءُ الشّهيرُ، بحنكتِه ودهائِه، وسعةِ حيلتِه، وبراعتِهِ المعهودةِ، أن يُقْنِعَ المينوتورَ ذلك الوحشَ العنيدَ الّذي لا يقاوم، أن يدخل إلى هذه المتاهة ذاتِ الدّهاليز الكثيرة. وكما توقّعَ ديدالوس، فإنّ هذا الوحشَ المريعَ، عجزَ أن يخرج منها لكثرة ممرّاتها، الّتي يصعب عدُّها، ولكنّ خُواراته المخيفةَ، كانت تُسْمَعُ نهاراً وليلاً، بينما كان يحاول جاهداً بسعيهِ الحثيث، أن يجد له مجالاً للهرب، ولكن أنّى له تحقيقُ ذلك، وديدالوسُ قد وضعه في المكان، الّذي جعلَ الخروجَ منه شبهَ المستحيلِ؟!.

٣- إيكاروس

لم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتّى تبيّن للملك مينوسَ أنّ ديدالوسَ: كان فاسقاً، نظراً لأفعاله الأثيمةِ في القصر الملكيِّ. وتلك الأفعالُ الّتي لا تليق بفنّانِ القصرِ المختارِ، جعلت الملكَ يغضبُ أشدَّ

الغضب، إلى درجة أجبرَتْهُ أن يَكُفَّ يديه عن العمل، ولا يَفْسَحَ له مجالاً أن يبنيَ له صروحاً أخرى، بعد هذا التّصرّف. وقد أصبحت حياتُه الآن معرَّضَةً للموت المحقّق، لولا أن شَفَعَتْ له أعمالُهُ الرّائعةُ، في خدمة الملك. وقد صارحه مينوس قائلاً: «حتّى هذا الوقت عاملتُك باحترامٍ وتقديرٍ، لمهارتك في فنّ الزّخرفة والعمارة، وأنت تعلم علمَ اليقين، أنّي كافأتك مكافآتٍ جُلّى، ومنها أنّي خصّصْتُ لك جناحاً في قصري. ولكنْ نظراً لتصرّفاتكَ الشّائنة، ستعاقَبُ الآن العقابَ الّذي تستحقُّهُ، فتكونُ عبديَ الذّليلَ كبقيّة العبيد، وستخدمني بدونِ أجْرٍ، حتّى إنّكَ لا تسمع منّي، أيّةَ كلمةٍ من كلماتِ الثّناء والتّشجيع والإطراء!».

وبعد ذلك أعطى الملكُ الأوامرَ، إلى حَرَسِ أبواب المدينة، ألاّ يدَعُوا ديدالوس يخرج منها أبداً، ولأجل ذلك وضع جنوداً مختصّين لمراقبة السّفنِ في المرفأ، لئلاّ يتمكّنَ ديدالوس من الهرب، من كريت عبر البحر. وهكذا نراه بعد أن قُبِضَ عليه، متلبّساً بالجرم، وَوُضِعَ تحت الإقامة الجبريّة، قد أمضى معظم وقته مفكّراً، كيف يستطيع أن يستعيد حرّيّته، بعد أن سُدَّتْ في وجهه الأبوابُ جميعُها. ومن باب بَثِّ الشّكوى: خاطبَ ابنه الفتى الّذي احتُجزَ معه، قائلاً: «يا بنيَّ، إنّ كلَّ اختراعاتي وابتكاراتي، وجهوديَ المبذولةَ حتّى الوقتِ الحاضر، قد وُضِعَتْ في خدمة الآخرين، أمّا من الآن فصاعداً، فيا أيّها العزيزُ أيكاروسُ، سأبتكر شيئاً خاصّاً ينفعُني وحدي، ويسرّني أنا شخصيّاً!».

وفعلاً فقد تظاهر في النّهار، أنّه يعمل أعمالاً مفيدةً لخدمة الملك، الّذي كان يدّعي أنّه مازال مخلصاً له، وأمّا في اللّيل فكان يغلق باب غرفته على نفسه، ويعمل عملاً سرّيّاً خاصّاً به، على ضوءِ شمعة. وكانت خلاصة اختراعاته، وزبدة أفكاره: تدور الآن، حول تخليصِ نفسه، وتخليص ابنه من الأسر الخانق، اللّذيْنِ وَقَعَا فيه، لذلك صنع لنفسه جناحين من ريش الطّيور، وصنع لابنه جناحين آخرين، أصغرَ منهما حجماً.

وفي منتصف ليلة من اللّيالي، حينما كانَ النّاس يغطُّونَ في نوم عميق، خرج الأسيران إلى فُسحة سماويّة ليجرّبا نفسيهما، فيما إذا كان باستطاعتهما الطّيرانَ بهذين الجناحين الاصطناعيين، اللّذيْنِ ثُبِّتا على ذراعيهما بالشّمع. فوثبا من مرتفعٍ في الهواء، وكان فرحهما عظيماً بنجاح التّجربة، ولكنّهما في بادئِ الأمرِ لم يطيرا بعيداً. إلاّ أنّهما ظلاّ يُحَسِّنانِ وضعَهما تدريجيّاً، ليصيرَ الطّيرانُ إلى الأفضل، ووصل بهما الأمرُ أن أصبحا مُتَهَيِّئَيْنِ تَهْيِئَةً مَرْضِيَّاً عنها، استعداداً للطيران

في الوقت المناسب.

وفي اللّيلة التّالية أحدث ديدالوس رباطاً إضافيّاً أو اثنين، ثمّ أزال ريشاً من أحد الجناحين، وأضافه إلى الآخر. وبعدئذٍ خرج هو وابنه إيكاروس في ليلة قمراء، ليجرّبا نفسيهما في الطّيران مرّةً أخرى، ولقد اعتُبِر هذا الإنجاز رائعاً في ذلك الوقت؛ حيث طارا إلى سطح قصر الملك. وبعد مدّة استطاعا أن يطيرا طيراناً سريعاً فوق أسوار المدينة، وحطّا على رأس تلّة من التّلال خارجَها. وبالرّغم من كلّ هذه النّجاحات، فلم يكونا بَعْدُ مُتَدرِّبَيْنِ تدرُّباً كافياً، يمكّنهما من مباشرة رحلة طويلة؛ لذلك قاما بمحاولات جديدة، تمهيداً لتنفيذها في المستقبل. وفي يومٍ من الأيّام قُبَيْلَ بزوغ الفجر، عادا طائرَيْنِ من أحد الأمكنة إلى بيتهما في كريت. وتحقيقاً لغاية السّفرِ البعيدِ، كانا في كلّ ليلةٍ مقمرةٍ رائعةِ الجوّ، صافيةِ الأديم، يتدرّبان على الطّيران بوساطة أجنحتهما المحسّنة والمعدّلة. وفي نهاية الشّهر، شعرا بأنّهما أصبحا أمينَيْنِ على روحَيْهما في الطّيران، كأمْنِهما في السَّيْرِ على الأرضِ تماماً. حيث تمكّنا أن ينسابا في طيرانهما فوق رؤوسِ التّلال، كطيورِ السّماء. وفي صباح يومٍ من الأيّام قبل أن ينهضَ الملك مينوس من سريره، ثبّتَ كلٌّ منهما جناحيه في ذراعيه، ثمّ ارتفعا وطارا خارج المدينة.

وذاتَ مرّة تحوّلا في طيرانهما بعيداً عن جزيرة كريت، متّجهَيْنِ نحو الغرب؛ لأنّ ديدالوس الأب قد سمع بوجود جزيرةٍ هناك، تسمّى: جزيرةَ صقلّيةَ، وتبعد عنها مئةَ ميلٍ. وقرّر حينَ وصولِه إليها، أن يبحثَ فيها عن بيت، يستقرُّ فيه مع ولده. وفي وقتٍ قصيرٍ جرت كلُّ الأمورِ بصورةٍ ملائمَة لمخطّطه، ولاسيّما حينما أسرعا حثيثاً إلى الأمام، منسابَيْن في طيرانهما فوقَ أمواجِ البحرِ فقط، وقد ساعدهما في طيرانهما هبوبُ الرّياحِ الشّرقيّة النّشيطة.

وعند الظّهرِ أصبحتْ أشعّةُ الشّمسِ حاميةً، فصاحَ ديدالوس بابنه إيكاروس، الّذي كان يبتعد عنه قليلاً إلى الخلف في طيرانه، طالباً منه ألاّ يحلّقَ عالياً، مقترباً من الشّمس، وعليه أن يحفظَ جناحيه باردَيْن.

ولكنَّ ولَدَهُ — للأسف الشّديد — لم يبالِ بنصيحته، لأنّه كان معتدّاً بمهارته في الطّيران، اعتداداً كبيراً. وكلّما نظر إلى الشّمس، ورأى أنّ بهجتَها تملأُ نفسه، نوى أن يُحلّقَ نحوها عالياً، لكي يعانقَ السّماءَ الزّرقاءَ، ويسمو في صعوده، فوقَ الغيومِ الصّيفيّةِ البيضاء، الّتي طالما شُغفَ بها وهو صغيرٌ.


C.S.REINHART '95

وفي هذه اللّحَظات السّحريّة مَنّى نفسَهُ باكتشاف عظيم، إذْ حدَّثها قائلاً: «إنّني، كيفما تكن النّتائجُ، فإنّني سأعلو قليلاً، فلعلّي أرى الخيولَ المطهَّمَةَ، الّتي تقودُ عربةَ الشّمسِ، وأفلح في رؤية قائدها هليوس (هيبريون) سيّد الشّمس العظيم نفسه!».

وهكذا حلّق أعلى من والده، مُتَّجهاً إلى الأعلى، فالأعلى. أمّا والدُهُ الّذي كان يطير في المقدّمة، فلم يَرَهُ حين كان يتصرّف هذا التّصرّفَ الأحمق. وهكذا بدأت حرارةُ الشّمسِ المرتفعة، تُذيبُ الشّمعَ الّذي كان يثبّتُ الجناحينِ بالكتفين، وهكذا شَعَرَ هو نفسُهُ بأنّه أخذَ يَهْوي في الجوّ؛ لأنّ الجناحَين بدأا ينفكّان عن ذراعيه، فصرخ مستنجداً بوالده، ولكنْ بعد فوات الأوان، لأنّ صُراخه قد تأخّر كثيراً. والتفتَ الأبُ متأخّراً أيضاً، وكانت التفاتتُهُ في اللّحظة الّتي رأى فيها ابنه إيكاروس مُنْكبّاً على رأسِه، وهو يَهوي إلى لُجّة البحرِ، فندمَ ندماً شديداً على تأخّره في مراقبته، ولكنْ لم يَنْفَعِ النّدمُ.

ولقد كانت المياهُ عميقةً جدّاً بحيث ابتلعت ابنَهُ فوراً، وهكذا فمهارةُ ديدالوسَ الصّنّاعِ العجيبِ، لم تنفعْ مطلقاً في هذا المضمار، ولم تُنْقذْ ولدَهُ المسكينَ من الغرقِ فبكى بكاءً مُرّاً، حين كان يوجّهُ نظرَهُ إلى الأسفلِ بعينَيْه الحزينتين، وقلبِه الّذي كادَ يَتَفَطّرُ أسىً من هول المصيبةِ الفادحة، ومن قسوةِ هذا البحرِ العديم الشّفقة. ولكنّه اضْطُرَّ مرغماً أنْ يتابعَ طيرانَه الإجباريَّ، وحيداً إلى جزيرة صقلّية!.

وبالرّغم من مصابه الأليم، وفجيعته بولده، وعُمْقِ الكارثة، فإنّ رجالاً لا تخلو قلوبُهُمْ من قسوة، حكموا على أعمالِ ديدالوسَ بمنظارهم الخاصِّ، فجرّدوه من الابتكار، ولم يُنصفوه أبداً، وربّما يُعزَى ذلك لسلوكه الإجراميّ في أثينا وكريتَ، فقالوا عنه، متشفّينَ منه: «لقد عاش سنينَ كثيرةً، ولكنّه لم يُنْجزْ أيَّ عملٍ عظيمٍ، فإنّه إلى حدٍّ ما، لم يبنِ إلاّ بناءً مدهشاً نصفَ إدهاش، ألا وهو متاهةُ كريت!».

ومنْ ناحية أخرى فالبحرُ الّذي غرق فيه ولدُهُ إيكاروسُ، أخذ اسماً أبديّاً هو البحرُ الإيكاريُّ.



الضّريبة الوحشيّة

١- المعاهدة

شنَّ مينوسُ ملكُ كريتَ حرباً، شاملةً في عهد الملك إيجيوس، فلقد هجم فجأةً بأسطولٍ من السّفنِ الحربيّةِ، وبجيشٍ عَرَمْرَمٍ مُجَهَّزٍ بالعُدَّةِ والعَتاد، وأحرق فوراً الأسطولَ التّجاريَّ، لأثينا في مينائها، واجتاحَ المنطقةَ كلّها بما فيها السّاحل، حتّى ميغارا، الّتي تقع في الغرب. وفي طريقه أفْسَدَ الحقولَ، والحدائقَ الغَنّاءَ حول أثينا. وقد نصبَ معسكرَهُ هناك حيث أغلق الأسوارَ. وقد أرسل رسالةً شديدةَ اللّهجة، إلى الحكّامِ الأثينيّين، وخلاصتُها: «إنّه سيزحفُ على مدينتهم بالسَّيفِ والنّارِ، وسيذبحُ شبابَهُمْ، ويدمّر بيوتَهُمْ، ولا يوفّر حتّى معبد أثينا المقدّس، على التّلة الكبيرةِ في أعلى المدينة!».

وبعد ورودِ هذه التّهديدات، والإنذاراتِ المُروِّعة، هُرِعَ إيجيوسُ ملكُ أثينا، مع اثني عشرَ رجلاً من أعيانه، ليقابلوا الملك مينوس، ويتفاوَضوا قبل أن يغزوَهُمْ في عُقْرِ دارِهِمْ، فقال هؤلاءِ لهُ: «ماذا فَعَلْنا من إثمٍ أيُّها المليكُ المنيعُ الجانبِ، حتّى تنوي أن تدمّرَ وتُلاشيَ بلادَنا من الوجود؟!».

فأجاب الملك مينوس: «أيُّها الجبناءُ، والرّجال الوقحون، لماذا تتجرَّؤونَ على هذا السّؤال السّخيف، وأنتم تعلمون تمامَ العلمِ، سببَ غضبي، وحقدي عليكم، ولماذا أغزو مدينتكم؟». ولكنّني بالرّغمِ من تغابيكم عن الحقيقة، وخروجِكُمْ عن جادّةِ الصّواب، فسأُفَصِّلُ لكم الأمرَ، لكي تدركوا تمامَ الإدراك، مدى جريمتكم المنكرة:

«لقد رُزِقتُ ولداً وحيداً يُدعى أندروجيوس، ومكانتُهُ عندي: أعزُّ من مئةِ مدينةٍ كريتيّة، وألفِ جزيرةٍ من جزر البحر الّتي أحْكُمُها، وبالأحرى أعزُّ من كلِّ مخلوقٍ على وجهِ البسيطةِ كلِّها! ومنذ ثلاث سنوات، زارَ هذا الشّابُّ مدينتَكم أثينا ليساهمَ في الألعابِ الرّياضيّة، الّتي أقامَتْها مدينتُكُمْ، والّتي نُظِّمَتْ على شرف الإلهة أثينا، الّتي بَنَيْتُمْ معبدَها على رأسِ التّلّة هناك. ولقد شاهدتم بأمّ أعينكم، كيف تغلّب هذا البطلُ الجميلُ، على شبّانِكُمْ كافّةً، في جميعِ هذه الألعاب، وكيفَ كرَّمَهُ شعبُكُمْ نفسُه بالأغاني والرّقصِ، وبإكليلِ الغارِ. ومن غرائبِ الأمورِ أنَّ قَلْبَ ملكِكُمْ المدعوِّ إيجيوس —والّذي يَمْثُلُ أمامي الآنَ— قد امتلأَ بالحسدِ والغيرة، فوضعَ خططاً شرّيرةً لقتله، والتّخلّصِ نهائيّاً من هذا الشّابّ الجارِ المتألّق.

وقد رُويَ أنّ هذا الملكَ اللّئيمَ، قد أعدَّ رجالاً مسلّحينَ ليَكْمُنوا لَهُ في طريق مدينةِ طيبةَ؛ الّتي بناها الملك قدموسُ، حتّى يفتكوا به. أمّا الرّوايةُ الثّانيةُ فخلاصتُها: أنّه قد أرسلَهُ ليقابلَ ثوراً متوحّشاً، يعيث فساداً في منطقتكم، ليمزّقَهَ ذلك الثّور شرَّ تمزيقٍ، كي يحرمني منه، ويُفجعَني به، دون أن يرفَّ له جفنٌ، أو تتحرّكَ له عاطفةٌ إنسانيّةٌ تردعه عن فعلِهِ الشّنيع، مع أنّه يعرفُ تماماً كم هي محبةُ الوالدِ للولد!. إلاّ أنّني، على وجه التّحديد، لا أعرفُ أيّةَ وسيلةٍ دنيئةٍ منهما قد حاكها لاغتياله. ومهما تَعَمَّدْتُمُ الإنكارَ، فلن تستطيعوا أن تتملّصُوا من أنّ روحَ هذا الشّابّ، قد أزهقت على يد ملككُمْ إيجيوس هذا!».

فصاح الأعيانُ جميعاً بملءِ أفواههم: «إنّنا أيّها الملكُ المعظَّمُ، نُنكرُ ذلك الّذي تقولُه تمام الإنكار! لأنَّ ملكَنا الّذي تتّهمهُ باقترافِ هذه الجريمةِ الشّنيعة الآثمة، كان يُقيم في ذلك الوقت ذاته، في مدينة تروزن، في الجانب الآخر من بحر سارونيك، ونُؤكّدُ لجلالتكُمْ، أنّه لم يعرفْ شيئاً عن موت الأميرِ أندروجيوسَ إطلاقاً. وقد كلّفَنَا حينَ مغادرته أثينا أنْ نُديرَ دفّةَ الحكمِ في المدينة، أثناء غيابه خارجَ البلادِ، وإنّنا لَنَشْهَدُ على ذلك بمنتهى الأمانة والصّدق، ونقول: إنَّ نَجْلَكُمُ الأميرَ الشّجاعَ — المأسوف على شبابه! — لم يُقتَلْ بأوامرِ الملكِ إيجيوس، بل بحبائل أولادِ أخيه المتآمرين على عمّهم الملك، وذلك لكي يثيروا سُخْطَكَ ضدَّه، فتغزوَ مدينتَه العامرةَ، وتطردَهُ عن عرش أثينا نهائيّاً، وبذلك يبقى حكمُ المملكةِ لواحدٍ، من هؤلاء الطّامعين المشاغبين!».

فقال الملك مينوس: «إنّني أستحلفكم، أيُّها الأعيانُ، بآلهةِ الأولمبِ جميعِهم —وإنّه لقسمٌ لو

تعلمون عظيمٌ- هلْ أخبرتموني الحقيقةَ كاملةً؟». فقالوا بصوتٍ واحد: «نعم إنّنا نقسم لك قسماً معظّماً، على براءةِ ملكِنا إيجيوسَ من هذه الجريمة النّكراء!». فقال الملك مينوس: «مهما يكنْ من أمرٍ، فإنَّ مدينتكم أثينا هي، الّتي سرقتْ منّي أعزَّ كَنْزٍ في الوجود، ذلك الكنـــز الّذي لن يُعوَّضَ أبداً، لذلك قرّرتُ أن أطلبَ منها مجموعةَ شبّانٍ وشابّات، وهم أغلى وأثمنُ ما يملكه شعبُها، كي أهلكَهُمْ بقسوةٍ متناهيةٍ، وبدونِ رحمةٍ وشَفَقَةٍ، كما أهلَكَتْ هيَ ولدي الضّيفَ بوحشيّةٍ، لا مسوِّغَ لها إطلاقاً!».

فقال الأعيانُ: «إنّ هذا الشّرطَ قاسٍ جدّاً، ولكنّنا لا نستطيعُ أنْ نُنكرَ أنّه عادلٌ».

«والآنَ نتوسّلُ إليك أن تُوضّحَ لنا: نوعَ الضّريبةِ الّتي تطلبُها منّا؟».

فسأل الملكُ مينوس أعيانَ أثينا: «هلْ لملككُمْ ولدٌ؟».

وعند هذا السّؤال امتقعَ وجه الملكِ إيجيوسَ، وتلوّن حتّى أصبحَ أصفرَ، كشمعِ العسلِ، وارتجفَ ارتجافاً شديداً، ولا سيّما حين خطر في باله، مصيرُ طفله الصّغيرِ، الّذي تركه في حضن والدته في تروزن، الواقعة في الجانب الآخر من بحر سارونيك، قبلَ هذا الوقت!.

ولقد أنقذه منْ مغبّةِ الجوابِ عن هذا السّؤالِ المحرج، كونُ أعيانهِ — لحسنِ الحظِّ - لم يكونوا يعرفون شيئاً عن ذلك الولد الّذي وُلدَ له في تروزن، لذلك أجابوه قائلين: «يا لَلْحَسْرَةِ! ويا لَلألمِ! لأنّكَ اضطررتنا أنْ نقولَ لك بصراحة: «إنّ ملكنا للأسف الشّديد! ليس له ولدٌ يرثُه في العرش، ولكنّه مقابل ذلك له خمسونَ ابنَ أخٍ، يَطْمَعُونَ بالحكم، وهم يستهترون بمقدّراته، ويسيطرون على كثيرٍ من ممتلكاته، وينتظرون الوقت المناسبَ، الّذي يمكّنُهم أن يُنصّبوا أحدَهم ملكاً على أثينا. وإنّنا لنعتقد أنّ هؤلاءِ وحدَهُمْ، هُمُ الّذين دبّروا مقتلَ ابنكم الأميرِ الشّابّ، البطلِ أندروجيوسَ ظُلْماً وعدواناً، وحسداً وغيرةً، تغمّدهُ الآلهةُ المستقرّون في الغيوم، برحمتهم!».

فقال الملك مينوس: «ليس من مُهمّتي أن أجريَ تحقيقاً مع هؤلاء، أو أقومَ بأيِّ عقاب انتقاميٍّ ضدّهم، فالتّهمةُ داخليّةٌ بينكم، لذلك أجروا معهم أنتم ما تستطيعونَ منْ تحقيقات، ثمَّ أتْبعوها بعقوباتٍ حازمة، إنِ استطعتُمْ أن تجعلوا الأمورَ في نصابها حين ثبات التّهمة عليهم!».

وباعتباركم تتساءَلون عن الضّريبة، الّتي أطلبُ منكمْ تنفيذَها، وتُلحُّونَ في ذلك، فإنّني سأخبركم عنها مفصّلةً في الحال: «حينَ يحينُ فصلُ الرّبيعِ في كلِّ عامٍ، وتبدأ الأزهارُ بالتّفتّحِ في

غسَقِ الدُّجى، فعليكم أن تختاروا سبعةً من أنبلِ شبّانكُمْ، وسبعاً من أجمل فتياتكُمْ، وترسلونَهم إلى كريت في سفينة خاصّة، والّذي عليه أنْ يشرفَ على تجهيزهم للسَّفَرِ، في هذه السّفينة، مَلِكُكُمْ إيجيوسُ نفسُهُ. وهذه الضّريبةُ الفادحةُ الّتي عليكم أن تدفعوها، في كلِّ عامٍ وأنتمْ صاغرونَ أذلاّءُ، ستَؤُولُ حتماً إليَّ، أنا مينوسُ ملكُ كريت. وإنْ سَوَّلَتْ لكم أنفسُكم الإخلالَ مرّةً واحدةً بهذا الشّرط، أو تأخرتم يوماً واحداً عن الموعد، فسأرسلُ جنوديَ المدرّبينَ والمدجّجينَ بالسّلاح، إلى دياركمْ، ليهدموا أسوارَكُمُ الحصينةَ، ويُحرقوا مدينتَكُمُ المقدّسةَ، ويذبحوا خيرةَ رجالكم، ويَسْبُوا نساءَكُمْ وأطفالَكُمْ، أو يبيعونَهم بيعَ الرَّقيقِ، باعتبارِهم عبيداً أذلاّءَ!».

فقال الأعيانُ: «إنّنا موافقونَ على طلبكم مرغمينَ، لأنَّ هذا الشَّرطَ أهْوَنُ الشّرورِ بالنّسبة لنا. ولكنَّكَ لم تخبرْنا عن مصيرِ سبعةِ الشّبّانِ، وسبعِ الشّابّاتِ!».

فأجابهم الملكُ مينوسُ: «يوجد في جزيرة كريت بيتٌ عجيبٌ غريبٌ يُدْعَى: (المتاهة). ذلك البيت لم ترَوا شبيهاً له من قبلُ، ولم تسمعوا به أبداً، وفي هذا البيت الكبير، توجد آلاف الغُرفِ المُلتويةِ الطّرقِ. ومن يُجرِّبْ أن يدخلَ إليها سالكاً طريقاً ضيّقاً، فسوف يتيهُ فيها، ولا يعود يجد طريقَ العودةِ ثانيةً! وسأدفعُ في داخلِ هذه المتاهة سبعةَ الشّبّانِ، وسبعَ الشّابّات بقوّة، وأتركهم فيها هناك ليلقوا مصيرَهم المحتومَ!. فصاح الأعيانُ متألّمينَ: «أهل تبغي أن تهلكهم من الجوع؟». فقال الملكُ: «كلاّ بل ليَفترِسَهُمْ ذلك الوحشُ الهائلُ، الّذي يُطلقُ عليه النّاسُ اسمَ: المينوتور!».

وإثرَ فرضِ تلكَ الشّروطِ المذلّةِ عليهم، غطّى ملكُ أثينا وأعيانُها، وجوهَهُمْ، باكينَ بكاءً مُرّاً، ومَضَوْا عائدين ببطءٍ شديد، مخذولينَ يجرّون أذيال الخيبة، ليخبروا شعبَهُمُ الأثينيَّ بالشّروط: المخزية، والمخيفة، والمحزنة، الّتي أملاها الملكُ القويُّ مينوسُ عليهم قسراً، لتدفَعَها أثينا مرغمةً على حدَة، ضريبةً سنويّةً، من شبّانها المختارين!. وإذا كان لا بدَّ من تنفيذ هذا الشّرط القاسي، فقد أفتى هؤلاء الأعيانُ وملكهم لأنفسهِمْ فتوىً، تخفّفُ من آلامهم بعضَ الشّيء، ألا وهي: «إنْ هَلَكَتْ أقلّيّةٌ مختارةٌ من الشّعبِ، فخيرٌ من أن تهلكَ المدينةُ كلُّها!».

٢- الضّريبة

وهكذا مرّتْ سنواتٌ تِلْوَ سنواتٍ، وفي كلِّ ربيعٍ حينما تبدأ الورودُ بالتّفتُّحِ، فإنّ سبعةَ

الشُّبّان النّبلاء المختارين، وسبعَ الشّابّات النّبيلات المختارات، يُحْمَلُون من أثينا على ظهرِ سفينة، ذات أشرعة سود، فيُرْسَلُونَ كُرْهاً إلى جزيرة كريت، ليؤدُّوا الضّريبةَ الوحشيّةَ الّتي فرضها الملكُ مينوسُ، على مدينة أثينا المنكوبة. وإنّك في كلّ بيتٍ في أثينا ترى وتسمعُ هَلَعاً وهوْلاً، وأسىً، وآهَةً، ورنّةً، وعويلاً لفقدِ الأحباب. والآنَ ها هوذا الشّعبُ الأثينيُّ المغلوبُ على أمره، يتّجهُ في صَلاته وتضرّعاته إلى التّلّة الشّهيرة، الّتي ينتصب عليها معبدُ أثينا، يَجْأَرُ بالدّعاءِ رافعاً أياديه، إلى الإلهة أثينا ملكةِ الحكمة والهواء، كي تزيلَ عن مدينتها هذه الغمامةَ السّوداءَ، ثمّ يهتف من أعماقه قائلاً: «إلى متى يا مليكتَنا الإلهيةَ أثينا العظيمةَ، إلى متى تستمرُّ هذه الضّريبةُ الشّنعاءُ، وها أنتِ تَرَيْنَنا قد خسرنا خيرةَ شبابنا وشابّاتنا، في هذه السّنينَ العجفاء. فيا هولَ مستقبلِ أجيالنا، إن لم تُنْجدينا حينما تتجدَّدُ هذه المحنُ القاسيةُ؟!».

ولنَذْكُرْ باختصارٍ، من جديدٍ شيئاً عن حياة ملكهم ثيسوس: «كان هناك على الشّاطئ الأزرق، قد نما وترعرعَ وتدرّبَ تدريجيّاً، على دروبِ البطولة ذلك الطّفلُ الصّغيرُ، حتّى أصبح شابّاً مغامراً، وكانت مسقطَ رأسِه مدينةُ تَروزنَ العريقةُ، الّتي تقعُ في الجانب الآخَرِ من بحر سارونيك. وكان اسْمُه ثيسيوسَ، وقد نوّهنا في فصولٍ سابقة: «إنّهُ أصبح على كلّ شفةٍ ولسان، لقيامِه ببطولاتٍ جريئةٍ ونادرة، طَهَّرتِ البلادَ من جبروتِ اللُّصوصِ، وقطّاعِ الطّرق. وقد تطرّقْنا إلى حلوله أخيراً في أثينا بقوّةٍ، وقد جاء إليها باحثاً عن أبيه الملك، الّذي لم يُنْبِئْهُ أحدٌ فيما إذا كان حيّاً أم ميتاً!».

ولقد رأينا أنَّ ثيسيوسَ، لمّا حاول أن يجعل نفسه معروفاً لدى الملك إيجيوس، أدرك هذا الأخيرُ مكانَتَهُ ورحّبَ به، حيث تبيّن له أخيراً أنّه ابنُه الحبيبُ، بعلامةِ جَلْبِه مَعَهُ سيفَهُ المرصَّعَ، وخفّيه الذّهبيَّين، من تحت الصّخرةِ الضّخمة في جبلٍ من جبالِ تروزن. وبالتّعرّف عليه: فرَّت ميديا المستبدّةُ من قصرِ والده، وبعد ذلك سَلَّمَهُ والدُه دفّةَ الحكْمِ، كما ذكرنا، وكان شعب أثينا مسروراً سروراً عظيماً؛ لأنّه وافاهُمْ بعدَ اغترابٍ طويلٍ!. وكانوا يجهلون طفولَتَهُ، وأصبح بمباركة والده ملكهم المرتجى، الّذي يعيش بين ظهرانيهم، ولقد رأينا أنّهم اطمأنُّوا لِتَربُّعِه على العرشِ، الّذي يستحقُّهُ عن جدارة.

ولكنَّ الّذي كان يقضُّ مضاجعَهم، أنّه ما إن تحلّ تباشيرُ الرّبيعِ من جديدٍ – وكان المأمول أن تعْلوَ البهجةُ الوجوهَ، ويتنفّسَ النّاسُ عطرَ الورودِ – حتّى تسيطر مظاهرُ الكآبةِ على النّفوسِ،

لأنّ السّفينةَ ذاتَ الأشرعةِ السّود، قد أُعِدَّتْ لرحلةٍ بحريّةٍ جديدةٍ مشؤومة، والجنودَ الكريتيّينَ الوقحينَ، بوجوهِهم القاسيةِ الجَهْمة، قد اصطفّوا في شوارع المدينة صفوفاً مرعبةً، وصرخوا بأصواتهم المُنْكَرة: «يا أيُّها الأثينيّونَ! يا أيُّها الأثينيّونَ! إنَّ الجزيةَ المستحقّةَ لنا عليكم، يجب أن تُؤَدَّى تماماً، بعد ثلاثة أيّام فقط، فاستعدّوا جميعاً لتأديتها!».

وإثرَ هذا النّداءِ المشؤومِ، كانت تُغلقُ جميعُ البيوتِ في شوارعِ المدينةِ، فلا رجلَ يدخُلُ إليها أو يخرج منها. وجميعُ الّذين سُمِّروا مكانَهُمْ في الشّوارعِ من الأثينيّين بعد الإنذارِ مباشرةً، كانوا واجمينَ ومغلوبينَ على أمرهم، بوجوهِهِم الشّاحبة، وقلوبِهِم اليائسة. وتساءَل نفرٌ قليلٌ منهم: «تُرى على مَنْ مِنَ الشّباب، ستقعُ القُرْعُ السّودُ في هذا العام؟».

أمّا الملكُ الجديدُ الشّابُّ، فلم يفهمْ ما يحدثُ في مدينته، لأنّ أحداً لم يُعْلِمْهُ بعدُ عن هذه الضّريبةِ الوحشيّة، لذلك صاح في مجلسٍ ضمَّ الملكَ الوالدَ، وكبراءَ المدينة، مستنكراً: «ما معنى الّذي يجري في هذه الأيّام؟ ولماذا يعُمُّ الحزنُ والبلاءُ هذه المدينةَ؟ وبأيِّ حقٍّ يطلبُ الكريتيّون ضريبةً من الأثينيّين؟ وكيف تُسَوِّغونَ قبولَ هذه الضّريبة؟ ومن يحدِّثُني منكُمْ بصراحةٍ عنها؟».

عندئذ انتحى الملكُ الأبُ إيجيوسُ، بابنِهِ الملكِ الجديدِ ثيسيوسَ جانباً، وأخبره عن الحرب الخاسرة المُخزية، الّتي نشبَتْ بينهم وبين الملك مينوس، وعن عدم تكافؤِ القوّة بين الجيشين، وعن شروطِ السّلامِ المخيفة، الّتي فُرِضَتْ عليهم بقوّةِ السّلاح. وتابع الملكُ الأب كلامه قائلاً، وهو يجهش بالبكاء: «إنّ هلاكَ بعضِ شبّاننا النُّبلاءِ وهمْ في ميعة الصِّبا، ونضارةِ الحياة، يشكّلُ خسارةً لا تُعوّضُ، ولكنَّ هؤلاءِ ليسوا إلاّ أقلّيّةً محدودةً، وأنتَ تعلمُ أنّ موتَ الأقلّيّة صوناً للمصلحة العامّة، خيرٌ من أن تُزْهَقَ أرواحُ جميعِ النّاسِ قاطبةً، وتُحْرَقَ المدينةُ، وتُدَمّرَ نهائيّاً!».

فصاحَ الملكُ الشّابُّ ثيسيوسُ بملءِ فيه: «إنّ ما يحدث الآنَ هو الموتُ بعينه، وهو الإذلالُ بعينه، وإنّ أثينا العظيمةَ لن تدفعَ ضريبةً من أيِّ نوعٍ كان لكريتَ أبداً. وقد قرّرْتُ أنا بنفسي أنْ أذهبَ برفقةِ شابّاتِ أثينا العفيفات، وشبابها المضحّينَ الأباة، وسأذبحُ الوحشَ المخيفَ المدعوَّ المينوتور، وأتحدّى الملكَ مينوسَ في عُقْرِ دارِه، وفي قلب عرشه الملكيِّ!».

فقال الملكُ الأبُ إيجيوس: «لا تكن يا بنيَّ متهوِّراً، فلا يمكن لمن يشقُّ طريقَه إلى مأوى المينوتور، أن يخرجَ منه سالماً، ناهيكَ عن ضَياعِهِ في متاهَتِه. فتَذَكَّرْ أنّكَ أصبحتَ ملكَ البلاد، وأملَ الأثينيّين المنشودَ، وعليكَ الرّجاءُ المعقودُ، فلا تخاطِرْ بنفسك في المجهولِ، وتَذَكَّرْ قولَ

الشّاعرِ الحكيمِ دائماً: «ليسَ المخاطِرُ محموداً، ولوْ سَلِمَا!».

فأجابه الملكُ الشّابُّ ثيسيوسُ: «أنت تقول بنفسكَ: إنّني أملُ الأثينيّينَ، ورجاؤُهُمْ، وملكُهُمُ الجديدُ، فكيف أكون أمَلَهم ورجاءَهم، إنْ لم أخاطرْ وأقتحمْ المجهولَ؟». وبعد قوله هذا بدأ يُعدُّ نفسَهُ للذّهاب إلى كريت.

وفي اليوم الثّالثِ الّذي حُدِّد فيه الموعدُ، كان شبابُ وشابّاتُ أثينا، يُجْلَبُونَ إلى السّوقِ الرّئيسِ لسَحْبِ القُرَعِ. ومن المعلوم أنّ القُرَعَ ستقعُ على أربعةَ عشَرَ شابّاً وشابّةً. ومن أجل إجراءِ القُرَعِ في تلك السّنة، أُحْضِرَ وعاءانِ نحاسيّان، ووُضِعا أمامَ الملكِ إيجيوسَ، والرّسولِ الآتي من جزيرة كريت، لتنفيذ هذا الغرض.

ففي الوعاءِ الأوّلِ وُضِعَتْ كُراتٌ، بعَدَدِ الشّبابِ النّبلاءِ في المدينة، وكانت الكراتُ بيضاً ما عدا سَبْعَ كُراتٍ سوداً، خُلِطَتْ بعددِ الّذين ستقعُ عليهِم القُرعةُ، وكان لونُها كالأبنوس. ووُضِعت في الوعاءِ الثّاني كراتٌ بمقدارِ عدد الشّابّات النّبيلات في المدينة أيضاً، بطريقة وعاءِ الشّبّان نفسِها. وبعدئذ طُلِبَ من كلِّ شابّة أنْ تمدّ يدَها، دون أن تنظرَ إلى إنائها، وعليها أن تسحبَ الكرةَ خارجاً، فاللّواتي سحبْنَ الكراتِ البيضَ، نجوْنَ من الذّهابِ إلى كريت، وسبعُ الشّابّاتِ اللّواتي كان حظُّهُنَّ سَحْبَ الكراتِ السّودِ، أُمِرْنَ أنْ يتّجهْنَ إلى السّفينة السّوداء، الّتي ترسو على الشّاطئ، منتظرةً إيّاهُنَّ.

وبالطّريقةِ نفسِها سَحَبَ الشّبانُ الكراتِ البيضَ والسّودَ، ولمّا لم يبقَ سوى سَحْبَ كرةٍ، سوداءَ سابعة، تَقَدَّمَ الملكُ الجديدُ ثيسيوسُ من بين الجمع إلى الأمام، وقال للشّبّانِ الباقين: «كُفُّوا عن السَّحْبِ، فإنّي نذرتُ نفسي أنْ أكونَ الشّابَّ السّابعَ بينكم، والآنَ سأذهب معكم إلى ظهر السّفينة، لأبحرَ برفقتكم!».

حينئذ ما كان من الملك إيجيوسَ، إلاّ أن اصطحبَ ذوي الأبناء والبنات جميعاً، واتّجهوا إلى الشّاطئِ الحزينِ، لوداعِ الشّبّانِ، والشّابّاتِ الّذين وقعتْ عليهم القُرَعُ بالرّحيلِ القسريِّ، إلى كريتَ لتأديةِ الضّريبةِ المشؤومة، لأنّهم كانوا لا يأملون أن يرَوْهم بعد اليوم أبداً.

ولقد بكى هؤلاء الشّباب، الّذين فارقوا أهلَهم وخلاّنَهم بحُرْقة، وبقلوبٍ وخواطرَ منكسرة، ما عدا الملك الشّابّ ثيسيوس الّذي قال: «إنّنا سنعود جميعاً إلى مدينتنا أثينا، وسأحكمها أنا مؤيّداً بمعونةِ الإلَهةِ أثينا، وجماعةِ آلهةِ الأولمب الّذين يعيشون في الغيوم، وبإرادة الشّعب

الطّيّب». وكان الملكُ الأبُ العجوزُ، يستمعُ إلى ما يقوله ابنُهُ الملكُ الجديدُ ثيسيوسُ، فقال مخاطباً إيّاه: «إنّني آمُلُ يا ولدي أن يكونَ ذلك ممكناً، فإنْ عادت السّفينةُ سالمةً، ورأيتُ شراعاً أبيضَ بدل الأسْوَدِ، فسأستدلُّ أنّكَ مازلتَ على قيد الحياة، وأنّ أحوالَكَ تُبشِّرُ بالصّحّة والعافية، ولكنّني إنْ رأيتُ الشّراعَ الأسْوَدَ ما زال عليها، فذلك ينبئني بأنّكَ قد هلكتَ، وأرجو من الآلهة أن لا تسمحَ بذلك!».

وبدون انتظارٍ طويلٍ انطلقتِ السّفينةُ، ذاتُ القلوعِ السّودِ من مرْساها، والدّموعُ ملْءُ المآقي، والآهاتُ تنطلقُ من أعماقِ القلوبِ. وكانتِ الرّيحُ المؤاتيةُ تنفُخُ الأشرعةَ، وتدفعُ السّفينةَ في اتّجاهِها الصّحيح. وسبعَ الشّابّات، وسبعة الشّبّانِ حُمِلُوا على ظهرها، وهي تشقّ عُبابَ اليمِّ، مسرعةً إلى الموتِ المخيفِ، الّذي كان ينتظرُهُمْ بِهَوْلِهِ، في كريتَ البعيدةِ البعيدةِ!.

٣- الأميرة

وأخيراً وصلتِ السّفينةُ، ذاتُ الأشرعةِ السّودِ إلى نهاية رحلتها، ورستْ بالشّابّاتِ والشّبّانِ الأثينيّين على شاطئ كريت. ومن هناك قادَتْهُمْ مجموعةٌ من الجنودِ، خلالَ شوارعِ المدينة، نحو السّجنِ الّذي قُرِّرَ أن يودَعوا فيه، حتّى الصّباح.

وإنّنا نراهُمُ الآنَ، في طريقهم لم يذرفوا دمعةً، ولم يضجّوا في مسيرهم؛ لأنّ المخاوفَ قد فارقتْ قلوبَهُمْ. ولكنّهم كانوا يمشون مع حُرَّاسِهِمْ، ووجوهُهُمْ شاحبةٌ، وشفاهُهُمْ صامتةٌ، وهم يسيرونَ بين البيوت الكريتيّة، غيرَ ملتفتين إلى اليمينِ أو اليسارِ. وكانت أبوابُ المدينة ونوافذُها مكتظّةً بالنّاس، الشّديدي الرّغبة في أن يَرَوْهُمْ، وهم يعانون شدَّةَ الأسْرِ.

فقال بعضُ الكريتيّين: « وَارحمَتا لهؤلاءِ الشّبابِ الشّجعانِ، الّذين سيكونون على بَكْرَةِ أبيهم، طعاماً للمينوتور قريباً!».

وقال آخرون: «واهاً، ثمّ واهاً للعذارى النّبيلات، الفائقات الجمال، اللّواتي سيكونُ حظُّهُنَّ في أسوأ الأحوال، وأشدّها هولاً، حين يَلْقَيْنَ ميتَتَهُنَّ الشّنيعةَ، في فمِ الوحشِ الضّاري!».

وهكذا نرى الأسْرى الموثقينَ الآن، يسيرون قربَ باب القصر؛ حيث يجلسُ أمامَهُ الملكُ مينوسُ نفسُهُ، وتجلس إلى جانبه ابنتُه أريانُ، الّتي كانت أجملَ نساءِ كريتَ قاطبةً، وأكثرهنَّ حكمةً.

فقال الملكُ مينوسُ: «بالحقيقة إنَّ هؤلاء أنبلُ شبابِ القوم وشابّاتِهِمْ!».

أمّا أريانُ فقالت: «نعم يا والدي، إنّهم بعظمة نُبْلِهِم، وكرَمِ مَحْتدِهم، يجب على المينوتور الدّنِيء ألاّ يلتَهِمَهُمْ!».

فأجابها والدُها: «نعم يا ابنتي العزيزة، إنّهم الأنبلُ والأفضلُ بين الأثينيّين، ولكنَّهم بمجملهم، لا يمكن أن يقاسوا، بعظمةِ ونبلِ أخيكِ المفقودِ أندروجيوس!».

وعند هذا الحدّ لم تزدْ أريانُ على قولها السّابق شيئاً، ولكنّها في قرارة نفسها قالت بعد مشاهدتها ثيسيوس بين الأسرى: «إنّها لم ترَ بطلاً يَرْقَى ببطولته وجماله، إلى مصافِّ البطلِ الشّابِّ ثيسيوس، فكم كان فارعَ القامةِ! وكم هو عريضُ الكتفَيْنِ! وكم هو وسيمُ الوجه!. وكم كانت عيناهُ الآسرتان، تنظرانِ بعظمةٍ وكبرياءٍ! وكم هو منتصبُ القامة، يمشي ثابتَ الخطوات، بالرّغم من الموتِ الّذي يتربّص به! حقّاً إنّه نادرُ المثالِ، لا يوجدُ له شبيهٌ في كريتَ كلِّها!».

وهنا نتساءل: «هل نامت أريانُ ليلَتَها؟».

إنّها بدون ريبٍ لم تنمْ! وأنّى لها أن تنامَ؟ إنّها كانت مستيقظةً، مُفكِّرةً بهذا البطلِ المنقطعِ النّظيرِ، وكانت حزينةً عليه أشدَّ الحزنِ، بسببِ الحكمِ عليه بالإعدام! لذلك كانت طَوالَ اللّيلِ، تضعُ الخططَ لإطلاقِ سَراحِهِ. وعند بزوغ الفجرِ نهضتْ من فراشِها، بينما كان معظمُ النّاسِ نياماً، وخرجت من قصرها، وأسرعتِ الخُطا متّجهةً إلى السّجن.



وباعتبارِها ابنةَ الملكِ، وإطاعةً لأمرِها، فتح لها السّجّان بابَ السّجنِ على مصراعيه، وسمحَ لها بالدّخول، وهناك في وسطِه وجدتْ سبعةَ الشُّبّانِ، وسبعَ الشّابّاتِ يجلسون على الأرض، ولكنّهم لم ترتسمْ على وجوهِهِمْ علاماتُ اليأسِ، و لم يفقدوا الأملَ بالخلاص. فَانْتَحتْ بثيسيوسَ جانباً، هامسةً بأُذُنِه، ومخبرةً إيّاهُ بالخُطّة الّتي أعدّتْها، لتنقذَهُ مع رفقائه ورفيقاتِه من محنتِهِم القاسية!.

وها هو بدوره وَعَدَها، بعد أن يقتلَ المينوتورَ، سيحملُها بعيداً عَلَى أجنحة الرّيحِ إلى أثينا؛ حيثُ يقضي معها عيشةَ حُبٍّ خالدة، إلى نهاية الحياة. فأعطتْه سيفاً حادّاً، وطلبتْ منه أن يخبِّئه تحت معطفه، وأن يَعْقُدَ رجاءَهُ على الإلهة أثينا، وأن يستبسلَ لقَتْلِ المينوتور.

وقالت له الأميرةُ: «ها هي كُبَّةُ خيوطٍ حريريّة، قد هيّأتُها لهذا الأمرِ، وحين تدخلُ المتاهةَ، حيث حمَى الوحشِ، فَاربُطْ إحدى نهايَتَي الخيطِ، في العضادةِ الحجريّة، في المدخل، وحُلَّ الكُبَّةَ، كلّما تقدّمْتَ في مسيرِكَ إلى الأمام.

وأثناءَ رجوعِكَ أيضاً، بعد أن تفتكَ بالمينوتور، عليكَ أن تتّبعَ الخيطَ، وهو سيقودُكَ في النّهايةِ حتماً إلى الباب، الّذي دخلتَ منه.

وحين تخرجُ سالماً بمعونة الآلهة؛ سأَرى سفينتَكَ مُهيّأةً للإبحار، وإنّني سأنتظرُكَ راجيةً لك النّصرَ المؤزّرَ، على عدوِّكَ الشّرس!».

فشكر ثيسيوسُ الأميرةَ الجميلةَ لمخاطَرتها بحياتها، وتضحيتِها الجليلة من أجله، ووعدها وعداً قاطعاً، أنّه على العهدِ – إنْ قُيِّضَتْ له الحياةُ – وأنّه سيصطحبُها معه، وستكونُ بعد ذلك زوجتَهُ الشّرعيّةَ.

وبالدّعاء والابتهالِ الحارِّ إلى أثينا، شفيعةِ ثيسيوسَ، عادت أريانُ مسرعةً من حيثُ أتت.

٤- المتاهة

وحينما أشرقت الشّمسُ في اليوم التّالي، أقبل الحرّاسُ ليقودوا الشّبابَ إلى متاهة المينوتور، لِيَلْقَوا مصيرَهم المحتومَ. ولحسن الحظّ لم يلحظوا السّيفَ، الّذي خبّأهُ ثيسيوسُ، تحت معطفه، وكُبَّةَ خيوطِ الحريرِ، الّتي قبضَ عليها بيده. ولقد ساقُوا هؤلاء الشُّبّانَ والصّبايا، في طريقٍ طويلٍ داخلَ المتاهةِ، جائلينَ بهم في منعطفاتٍ محيِّرةٍ هنا وهناك، وكثيراً ما اتّجهوا بهم إلى الأمامِ

والخلف، ألفَ اتّجاه مختلف، حتّى تأكّدوا تماماً أنّ هؤلاءِ الأسرى، لن يجدوا مخرجاً من المتاهة أبداً، وأنّهم تاهُوا في دروبها المتشابكة نهائيّاً.

حينئذٍ خرج الحرّاسُ من طريقٍ سريٍّ يعرفونه، قد وجدوهُ بعد تدريبٍ شاقٍّ، أمّا أسْراهُمْ فتركوهم في تلك المتاهة مسجونين، كما تركوا شباباً آخرينَ كثيرينَ قبلَهُمْ، يتعثّرون في سيرهم في مختلفِ الجهاتِ، وذلك حتّى يلقى هؤلاء في نهايةِ المطافِ المينوتورَ، الجائعَ الشّرسَ، فيوردُهُمْ مواردَ الرّدى، بتمزيق أجسادهم، والتهامِهِمْ واحداً بعد الآخر.

ولّما استحكمت حَلَقاتُ التّيه، والضّياعِ عليهم، قال الملكُ الشّابّ ثيسيوسُ لرفقائه: «استعدّوا يا أحبّائي الأعزّاءَ، وكونوا كالبنيان المرصوص، يشدُّ بعضُهُ بعضاً، في مواجهة محنَتنا القاسيةِ المستعصيةِ، وستُنْقَذون بمشيئةِ الإلهةِ العظيمةِ أثينا شفيعةِ مدينتكم، الّتي رَفَعَ آباؤُكم معبدَها في مدينتنا الجميلة، وسأخلّصكم من المينوتور، باسمهما العظيم!».

وبعد ذلك استلّ سيفَه البتّارَ، الّذي قدّمته له أريانُ ابنةُ الملك مينوس، ووقف في طريقٍ ضيّقٍ أمامَهم، ليتصدّى للوحشِ الكاسرِ. أمّا هُمُ فاستجابوا لطلبه جميعاً، ورفعوا أيديَهم بخشوعٍ، وصلُّوا صَلاةً حارّةً لأثينا، لكي تنظر بعين العطف إلى شكواهم. وبعدَ أداءِ الصّلاة، وقفوا هم وملكُهُمْ صابرين، مدّةَ ساعاتٍ وساعات، لا يسمعون نأمةً ولا صوتاً، ولا يَرَوْنَ شيئاً، بل كان يسودُ في ذلك المكانِ الهدوءُ التّامُّ، وكانت الأسوارُ العاليةُ تحيطُ بهم، بجانبَي الممرِّ، ولا تبدو فوقهم، سوى السّماءِ الزّرقاءِ الهادئة، والمرتفعة جدّاً.

في هذا الجوِّ المفعمِ بالرّهْبة والتّرقّبِ الحذِرِ، جلستِ الصّبايا على الأرض، وغطّيْنَ وجوهَهُنَّ بأيديهنَّ، وبَكَيْنَ بُكاءً مُرّاً، وقلْنَ في نفوسهنّ: «لقد طال الزّمن ولم يَجئِ المينوتورُ، مع أنّ ما هوَ آتٍ آتٍ، والّذي لا بدَّ منه واقعٌ!. إذاً فليسرعْ ذلك الوحشُ المريعُ ولْيَفْترِسْنا، ولْيَضَعْ حدّاً لانتظارِنا وتعاستنا، وحياتِنا المهدّدة بالموت الفظيعِ، بين اللّحظةِ واللّحظة!».

وهكذا مضتِ السّاعاتُ بطيئةً بطيئةً، ومتلفةً الأعْصابَ، ولكنّهم بعد طُولِ انتظارٍ، في ذلك النّهارِ، سمعوا خواراً منخفضاً، كما لو أنّه يأتي من مكان بعيد، فأصغوا إليه برعب ونفور، ثمّ أخذ الخوار يعلو ويعلو مؤذياً، منذراً بالخطر، والويل والثّبورِ، وعظائمِ الأمورِ، إنّه حقّاً يدبُّ الرّعبَ في أقوى النّفوس!.

فصاحَ ثيسيوسُ بصوتٍ جَهْوَرِيٍّ: «ها هو قد أقبل! إنّه هوَّ، إنّه هوَ! إنّه المينوتور، فلأستعدَّ

الآن إلى قتاله، وإشهار سيفيَ المرهف في وجهه!».

وإثْرَ ذلك صرخَ ثيسيوسُ صرختَهُ الثانيةَ المريعةَ، وكان الصّوتُ مرتفعاً جدّاً، حتّى إنّ جدرانَ المتاهةِ، ردَّدَت الصّدى، بقوّةٍ غيرِ معهودة، فانخلعتْ لسماعه القلوبُ، بحيث تصعّدَ إلى الأعلى فالأعلى، بل قُلْ إلى السّماءِ الزّرقاءِ، واندفعَ مدوّياً خارجَ المتاهةِ، فاهتــزّتْ له الصّخورُ، والجروفُ الصّخريّةُ!. ووصل الصّوتُ الصّاعقُ بقوّةٍ إلى المينوتور، فاهتزّ له، وارتجَّ، وتحرّكت وحشيّتُهُ، واحتجَّ، فازداد خوارُهُ علوّاً وإرهاباً، وإسراعاً نحو فرائسه البشريّة!.

وعندما شعر ثيسيوس باندفاعه الشّديدِ نحوَهُ، صاح ثالثةً بملءِ فيه قائلاً: «أيّها الرّفقاء، إنّ الوحشَ قادمٌ، إنّه قادمٌ، فَحذارِ حَذارِ، من بَطْشه وفتْكه!».

وتجهّزَ بكلّ قواه لمقابلته، وجهاً لوجه، غيرَ هيّاب، واضعاً كُلّ شجاعَته وإقدامه في الميدان!.

أمّا الصّبايا السّبعُ، فصرخنَ في أوّل الأمرِ، مرتعباتٍ مذعوراتٍ، بصوتِ هَلعٍ واحدٍ، ولكنّهنّ سرعانَ ما وقفْنَ بشجاعةٍ فيما بعدُ، وواجهنَ مصيرَهُنَّ برباطةِ جَأْشٍ. أمّا رفقاؤهنَّ الشُّبّانُ السّتّةُ، فقد وقفوا وقفةَ رجُلٍ واحدٍ لدعمِ ملكِهِم الشّابِّ البطلِ، مُصرّينَ على الكفاحِ والمقاومةِ، إمّا بقبضاتِ أيديهم القويّة، أو بعزمهم الّذي لا يُفَلُّ، لكي يبثّوا الثّقة في المقدّمة.

وفي هذه الأثناء كان المينوتورُ يندفعُ بوحشيّة، عنيفاً، ومقتحماً الممرَّ باتّجاه ثيسيوسَ! وكان هديرُهُ وخوارُهُ مُزعجَيْن حقّاً، ترتعد منهما الفرائص. وقد بَدا: طولهُ للمتصدّينَ له، بطولِ الرّجلِ مرّتين، أمّا رأسُهُ: فكان شبيهاً برأس الثّورِ الضّخْمِ، يبرز منه: قرنانِ طويلانِ، حادّانِ، متحدّيانِ. وكانت عيناهُ ناريّتَيْنِ، شديدَتَي الاتّقادِ، وهو يُكشّرُ عن شدقين كشِدقَي الأسدِ، في اتّساعهما، وبروز أنيابهما.

لكنّ هؤلاءِ الشّبّانَ قد تعذّر عليهم رؤيةُ جسمِه مِنَ الأسفلِ، لثورانِ سُحُبِ الغبارِ الّتي ارتفعتْ فجلّلَتْه، بالدُّكْنَة ثمّ الخفاء.

وحينما رأى هذا الوحشُ المخيفُ، ثيسيوسَ شاهراً سيفَه، ومتصدّياً له، صُدِمَ في أوّلِ الأمرِ، ثمّ توقّف قليلاً، لأنّ أحداً من ضحاياه، لم يُواجِهْهُ بهذه الطّريقةِ من قبلُ.

فما كان منه إلاّ أن وَجَّهَ رأسَه إلى الأسفل، واندفع إلى الأمام وهو يخورُ ويخورُ، ولكنّ ثيسيوسَ قفزَ بسرعةٍ متجنّباً طريقَهُ، ثمّ عادَ ليتّخذَ وضعاً جديداً، مسدّداً بسيفه الحادّ ضربةً شديدةً فوقَ ركبَته، قاطعاً إحدى ساقَيْه، فسقط المينوتور إثْرَها على الأرض، هادراً متأوّهاً

مُتَلَوِّياً، من شدّةِ الألمِ والإذلالِ، وكانت الدّماءُ تسيل منها متدفّقةً، فضرَبَ من شدّةِ الألمِ الأرضَ، وما حولَها بوحشيّةٍ هائلة، بقرنَيْه القويّين، وظلفَيْه الشّبيهَيْنِ، بالقبضتينِ المتماسكتينِ. ولكنّ ثيسيوسَ لم يمهلْه، بل هجم نحوه بسرعةٍ فائقة، وبرشاقةٍ قلَّ نظيرُها، وسدّدَ بقوّةٍ إلى صدرِه طعنةً نجلاءَ، كانتِ القاضيةَ عليه، ثمّ قفز من أمامِ الوحشِ، كي لا يؤذيه بتَخبُّطِه واندفاعه في مختلفِ الجهاتِ. وكان الدّمُ الغزيرُ يتدفّقُ، من جُرْحَيْه البليغينِ. ولم يمضِ طويلُ وقت، حتّى تحوَّلَ وجهُهُ نحوَ السّماءِ، لا فظاً أنفاسَهُ الأخيرةَ، مخلّصاً النّاس من شرورِه الكثيرة، وبخاصّة أهل كريت!.

وفي هذه الأثناء جرى الشّبّانُ والشّابّاتُ، مسرعين إلى مليكِهِمْ ثيسيوسَ الشّجاع، فقبّلوا يديه، وقدميه، وشكروه لفتكه السّريع بأكبرِ وحشٍ مُعْتَدٍ، في تاريخ البلادِ الإغريقيّة.

وعند حُلْكةِ الظّلامِ، أمَرَهُمْ مليكُهم ثيسيوسُ أن يتبعوه في سيرِه، وهو يلفُّ الخيطَ الحريريَّ على يدِه، ليقودَهم إلى خارجِ المتاهة. وأثناءَ سيرِهم الحثيث، مَرُّوا بآلافِ الغرفِ والسّاحاتِ والمنعطفاتِ، في هذه المتاهةِ العجيبة الموحشة.

وفي منتصفِ اللّيلِ استطاعوا بعد جهادٍ مرٍّ، أن يصلوا إلى بابها الخارجيّ، فرأوا المدينة مستلقيةً أمامَهم في ضوء القمر.

ومن مسافةٍ قصيرةٍ اعتباراً من بابِ المتاهة، تمكّنوا أن يَصِلُوا إلى شاطئِ البحرِ، حيث كانت السّفينةُ الّتي جاءت بهم من أثينا إلى كريتَ، قد رستْ هناك.

وكان مدخلُ المرفأِ مشرَّعَ الأبواب، أمّا أريانُ فكانت تقفُ هناك، صابرةً متجلّدةً تنتظرهم!. وعندما رأت ثيسيوسَ ورفقاءَهُ، هتفت قبلَ كلِّ شيءٍ بصوتٍ منخفضٍ: «إنّ الرّيحَ طيّبةٌ، والبَحّارةَ متهيّئونَ للإبحارِ». ثمّ ما لبثت أن هنّأتْ ثيسيوسَ بالنّصرِ المؤزّرِ، أمّا الشّبّانُ والشّابّاتُ فهنأتْهُمْ بالسّلامة، وتأبّطتْ ذراعَ البطلِ، ومشى الاثنان المحبّان معاً، خلالَ الطّريقِ الهادئِ باتّجاه السّفينة، الّتي سيبحرون بها.

وعندما بزغَ الفجرُ، كانوا قد قطعوا مسافةً بعيدةً في عُرْضِ البحرِ. ولمّا نظروا إلى الخلفِ من ظهر السّفينة الصّغيرة الّتي تُبحرُ بهم نحوَ أثينا، بدت لهم رؤوسُ جبالِ كريتَ الشّاهقة، مطلّةً من بعيد.

وفي صباح اليوم التّالي، عندما نهض الملكُ مينوسُ من النّوم، كان من الطّبيعيّ أنّهُ يجهلُ ماذا

جرى في مملكته، ولم يدْرِ بخَلَده إطلاقاً، أنّه كان بإمكانِ ثيسيوسَ القضاءَ على المينوتور، وخاصّةً بمساعي ابنتهِ: أريانَ، وأنّ باستطاعتهِ الخروجَ من المتاهة بسلامٍ مع رفقائه، والإبحارَ نحو أثينا!.

والمُهِمُّ أنّه حينما تَفقَّدَ ابنتَهُ صباحاً، لم يجد لها أثراً، بعد أن بحث عنها بحثاً طويلاً في كلّ أنحاءِ قصرِهِ الواسعِ. فاعتقد اعتقاداً جازماً أنّ لصوصاً قد خطفوها، وذهبوا بها إلى مكانٍ قَصيٍّ. فأرسل جنوداً من قوّاته الخاصّةِ، ليبحثوا عنها في المدينة وضواحيها، وبين التّلال والجبال وشعابها.

ولم يخطر بباله أنّها قد تعلّقت بثيسيوسَ، وأحبّتْهُ، وخطّطتْ لقتلِ المينوتورِ، واجتيازِ المتاهة، وفكِّ قيود الأسرى، ثُمَّ الإبحارِ معهم أخيراً إلى أثينا، وأنّها كانت في هذه الأثناء في غاية الصّحّة والعافية.

ومرّتِ الأيّامُ تلوَ الأيّامِ، وجنودُ كريتَ يبحثونَ عنها بجدٍّ واجتهادٍ، في كلّ مكانٍ ولكنْ بدونِ جَدْوى، ولمّا يَئسوا من الحصول على أيِّ نبأٍ يُلقي ضوءاً على اختفائها، عادُوا أدراجَهُمْ خائبينَ، واضطُرّوا أنْ يصرّحوا للملك بأنّهم، للأسف الشّديد، قد فقدوها نهائيّاً!.

فما كان من الملك مينوس، الّذي أُصيبَ بهذه المصيبةِ الجديدةِ في المقتلِ، إلاّ أنْ حَزِنَ حُزْناً شديداً، وغطّى وجهَهُ بيديه، وبكى بكاءً مرّاً، ثمّ قال: «حقّاً إنّني اليومَ مفجوعٌ بابنتي أريانَ الجميلةِ، والعزيزةِ على قلبي، وقد سبقها إلى الموت أخوها: أندروجيوسُ، ذلك البطلُ الحبيبُ، فلا سرورَ، ولا اطمئنانَ ليَ بعد اليوم!».

وأمّا من جهةٍ أخرى، في هذه الأيّام العصيبةِ ذاتها، كان الملكُ إيجيوس ملك أثينا القديمُ، يجلسُ يوميّاً على الصّخور، قرب الشّاطئ، ويراقب السّفنَ في البحر، آملاً أن يرى مصادفةً سفينةً مبحرةً من الجنوب.

وبعد انتظارٍ ليسَ بالقليل، لاحَتْ له أخيراً في الأفق سفينةٌ، عَرَفَها أنّها سفينةُ ابنه ثيسيوسَ، ولكنّها لسوءِ حظِّ الملكِ الشّيخِ، كانت تحمل الأشرعةَ السّودَ نَفْسَها، الّتي كانت تحملها من أثينا، حينما كانت تتّجه إلى كريت. وذلك يعود إلى أنّ الفرحَ العارمَ، بالخلاصِ من المينوتور، جعلَ ابنَه والشّابّاتِ والشّبّانَ الّذين يرافقونه، ينسَوْنَ رفْعَ القلوعِ البيضِ، الّتي وعدُوا برفعها مكانَ السّودِ، في حال النّجاةِ، فظنَّ الملك أنّ بقاءَها سوداً معناها هلاكُ ابنه. فصاحَ وناحَ نادباً

ابنَه العزيزَ، بحُرقة وألمٍ قائلاً: «ويلاهُ! ويلاهُ! ما أتعس حظّي، لقد مزّق ذلك المينوتورُ اللّعينُ ابني إرْباً إرْباً، ولا حياةَ لي بعد هذه الفاجعة!».

فأغميَ على الملكِ الشّيخِ، وسقط من هول الصّدمة، في البحر غريقاً، فَأُطْلِقَ على البحر الّذي غرق فيه، منذ ذلك الزّمنِ وحتّى اليومِ الحاضرِ، البحرُ الإيجيُّ أو بحر إيجه.

وبعد وفاةِ الملكِ الأبِ إيجيوسَ بهذه الطّريقةِ المؤلمة، أقيمَ له مأتمٌ مَهيبٌ يليقُ بمقامه الملكيِّ السّامي، ولقد حزن ابنُه عليه حزناً شديداً! وبعد مضيِّ أيّامِ الحِدَاد، عاد الملك الشّابُّ ثيسيوسُ إلى حكم أثينا، وقد حكمَ أيضاً معها مدينةَ إلوسيسَ المقدّسةَ.

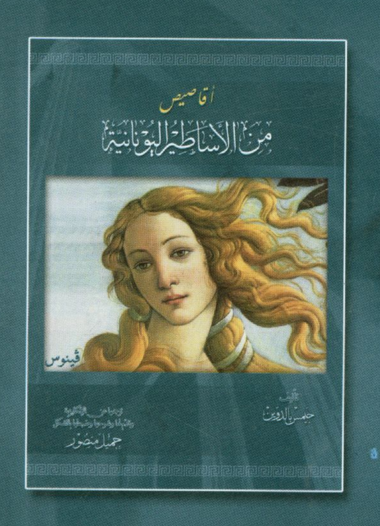
أما أريانُ المَنْسيّةُ ظُلْماً فقد خطفَها أحدُ الآلهة، وهو الإله باخوس، إله الخمر، حينما توقّفت السّفينةُ السّوداءُ، في مرفأ إحدى الجزرِ، ليتزوَّجَها، بعد أن نكث ثيسيوس بوعده معها كما تزعم إحدى الرّوايات!.

النّهـــايــــــة





الفهرس



OLD GREEK STORIS





